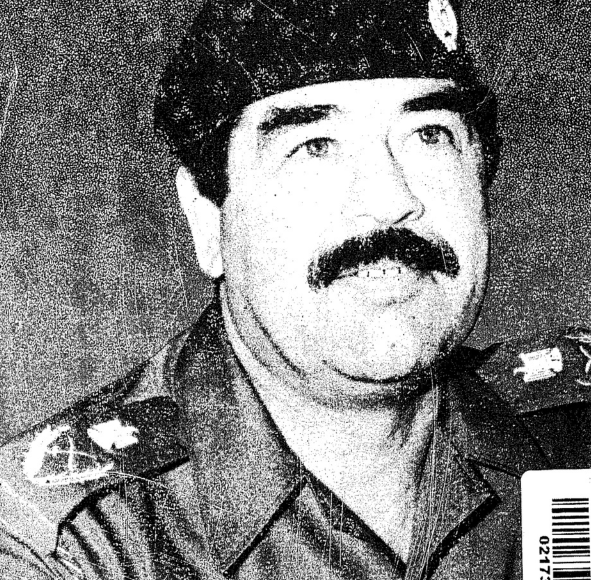
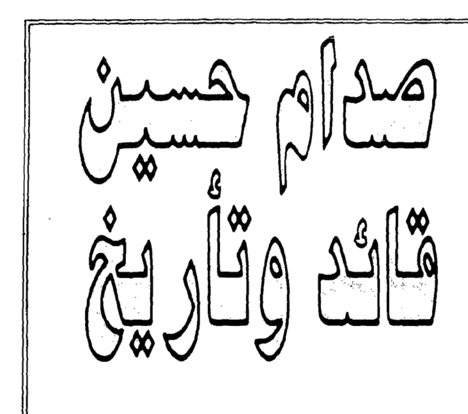
صدام حسين قائد وتاريخ



صباح سلمان

صدام حسين
قائد وتأريخ

شركة مطبعة الأديب البغدادية المحدودة
هاتف ٧١٨٨٢٨٦ - ٧١٨٨٢٨٧



صباح سلمان

الطبعة الاولى - بغداد ١٩٨٦

المقـــدمة

حين يذكر التاريخ "يذكر العراق " واى حديث يجري عن الحضارة الانسانية تكون بداياته حضارة وادي الرافدين .

وخلال رحلة الزمن الطويل " قروناً وعصوراً " كان للعراق سجل خالد في التاريخ ، ، وكان له فيها عطاء كبير للانسانية مع كل نهوض يحققه ، وكان كل نهوض خيرا لم يقف عند حدود بلاد الرافدين او في العمق القومي الاوسع ، كان خيرا للانسانية جمعاء .

كيف كانت البداية . . ؟

وكيف واصلت الحياة في العراق ، مسيرتها عبر رحلة التاريخ الطويلة ؟

ثم اين كان موقع القادة الذين احتفظ لهم التاريخ ، بمكانة الخلود .

ولماذا تقفز من بين سطور السجل التاريخي حقيقة : ان للعراق في تاريخه حالتين ، حالة مشرقة مقابل حالة اخرى مظلمة ، في الاولى يكون العراق من خلالها في قمة يتربع فوقها في ناصية التاريخ وذرى امجاده وفي الثانية يكون في هوة يستقر عند منحدراتها السحيقة .

كيف يكون ذلك . . ؟

ومتى يكون ذلك . . ؟

النهوض لا يبدأ من فراغ ، وليس هو حالة مقطوعة الجذور عن اسباب للحركة والصعود .

والانحدار هو الاخر ليس وضعا ينتهي الى الهاوية ، من غير اخفاقات وعوامل ضعف وترد .

ولكن لماذا لم يعرف العراق في تاريخه ، حالة الوسط والبقاء في المنتصف على هامش الذرى ، او بالقرب من خرائب المنحدر ؟

ان العراق هو صانع حضارة الانسان الاولى ، اي انه الرائد في خلق الحضارة

الانسانية ، الريادة هنا لها ميزة ومعنى ، انها لا تعني اسبقية زمن مجرد ، ولا هي اولوية صدفة عابرة ، انها ابعد واعمق واغزر ، هي دليل على وعي الانسان لدوره ورسالته ، وبرهان على خصوبة افكاره وتصوراته وقوة مقدرته وابداعه .

الريادة الحضارية للعراق تكشف بذلك الحيوية الانسانية الفاعلة فيه ، والنظرة الحية المتفتحة المدركة للذات وللمحيط ، انها بهذا المفهوم عنوان لرفض الانسان فيه للسكون السلبي ، وتعبير عن حركته الايجابية وفاعليته في البناء الحضاري .

وكون العراق بهذه الحقائق ، مهد الحضارة الانسانية ، يعني انه بلد الخصائص المتفردة في التاريخ ، بلد الافكار والقوة ، وموطن النهضة التي تستند على الخير والعدل .

تكمل هذه الحقيقة ، اخرى ترجع الى كون العراق بلدا للخيرات ، ويزخر بعوامل الثروة والموقع المغري ، وهذه اسباب تكفي لان تثير الاطماع فيه وتحرك النوازع الاجنبية في السيطرة عليه .

واذن حالة الصراع لا تجعل للعراق غير خيارين ، خيار البناء الحضاري الذي يتربع به فوق القمم وخيار السيطرة المعادية التي لن يكون في ظلها غير الهاوية حيث المنحدرات السحيقة .

تتأسس على هذا الواقع ، نتائج يشخصها تاريخ العراق بوضوح هي :

ان من يريد الانتحار هو الذي يصطدم بالعراق ابان نهوضه ، الذي لا يكون له وجود الا بوجود قائد زمانه التاريخي ، ولهذا كانت اراضيه مقابر للغزاة ، خلال الحقب التاريخية التي تولى الاوضاع فيها قادة تاريخيون ، والعكس هو الصحيح ، حينما تقذف الظروف حكاما عليه مسلوبي الارادة وينقصهم العزم والتفكير .

ان سر المجد العراقي في زمن قادته التارخيين يعود الى ان قوتهم لم تكن ظالمة ، مستبدة ، كان العدل هو السائد فيها ، مثلما لم تكن قوة هيابة من التصدي للتحديات

او تخاف من قوى العدوان التي تتوخى اذلال العراق والسيطرة عليه .

وتاريخ العراق المعاصر ، هو امتداد لارادة العراقيين الذين صنعوا تاريخهم الماضي ، هو حصيلته ونتائجه مرتبطة فيه ، وصورته الايجابية والسلبية لا تخرج عن ذات العوامل والاسباب التي قادت الى حالة الاشراق او ادت الى حالة الاخفاق ، والبحث الذي يريد ان يتلمس الطريق المؤدي الى العلة الرئيسية الكامنة وراء الرقي او التخلف ، يتطلع الى طبيعة الحكم وعلاقاته مع الشعب ، والى صفات القائد او الحاكم الذي يتولى ادارة الامور وتوجيه العراق .

من هنا اريد ان اطل على تاريخ العراق في عهد صدام حسين ، وان اترصد مكامن النهضة والتقدم من وراء وجود هذا القائد القدير ، واين هي مراكز قوته ، وكيف يتصرف بالقوة والحكمة في قيادته وهل ان وصفه بالقائد التاريخي ، يتطابق مع الحقائق ، من خلال منطق التاريخ ام من خلال منطق الحكم ؟؟

وفي الحقيقة ، ان القائد صدام حسين ، يعيد صورة ذلك النمط الخالد من القادة التاريخيين الذين وشحوا تاريخ العراق بالنصر وبالخير والتقدم .

وهذه النقطة تعود الى ان صدام حسين قد حقق في الوقت الراهن التطابق التام بين زمن الفعل وزمن التاريخ ، وبموجب ذلك وبمقتضاه يعبر واقع اليوم وشواهده عن التواصل التاريخي الصحيح ، مع المراحل المشرقة في تاريخ العراق .

ان كتاب «صـــدام حســـين ، قائد وتاريخ» محاولة متواضعة ، تضع خطواتها على هذا الطريق الواسع تتأمل فيه وتأمل منه ، ان تكون موفقة فيما تطرحه او ما تتوصل اليه .

وهذا الكتاب وهو يتناول قيمة القائد التاريخية واسباب المكانة الخاصة التي يتبوؤها في التاريخ ، يأتي خطوة لاحقة لكتابي الاول (صدام حسين ، الرجل والقائد) .

وقد يكون من الانصاف ان اسجل حقيقة اعترف بها : ان القارئ العزيز يسجل

بالتأكيد قصورا علي : ولكن العذر الذي لا اشك فيه ، هو رحابة صدور القراء ، التي تتسع بالحب ، والاخذ بيد كل جهد مكرس لقائد حبيب ، الى كل ما يعينه ويطور مجهوداته لاحقا . .

ان موضوعات كتاب (صـــدام حســين ، قائد وتاريخ) التي تبدأ بوقفة مع تاريخ العراق ، تركز نظراتها الى القادة التاريخيين وما حققوه من رفعة للعراق وكذلك الى الحكام الضعفاء الذين كانوا سببا في انهياره ، وتمر من بعدهم الى القائد صدام حسين ، ولماذا هو رجل المكانة الخاصة في التاريخ ؟ واين القائد الانسان في شخصية صـــدام حســين .

ولماذا تستهدف قيادته بالعداء والتآمر ، الذي يعبر بصيغه عن مكمن الحقد المعادي كما يظهر ذلك من تفاصيل مؤامرة عام ١٩٧٩ ومعانيها ، ومن الحرب العراقية الايرانية وكيف حاول القائد ان يتفاداها وان يعمل على انهاء القتال والعمل من اجل السلام .

والكتاب وهو يتعامل مع الحقائق التاريخية التي يعيشها العراق في عهد القائد صدام حسين لا يغفل دوره في حل المسألة الكردية دليلا على مقدرته في مجابهة المعضلات الخطيرة ، وكيف ادت جهوده وتصوراته الى الطريق الصحيح في معالجة هذه المسألة الشائكة والمعقدة .

وتناول هذه الامور يقتضي ان يكون الحديث عن صـــدام حســين مفكرا مطلوبا استكمالا للصورة وللوقوف على العطاء الفكري الذي قدمه لمعرفة اسبابه وبداياته وضروراته ، وكذلك الاجابة على اسئلة ذات خصوصية واخرى خاصة من خلال مقابلة مع الرئيس القائد .

ان كتاب (صـــدام حســين ، قائد وتاريخ) اسهامة متواضعة ، آمل ان يفتح الذهن الى غيره من جهود على هذا الطريق .

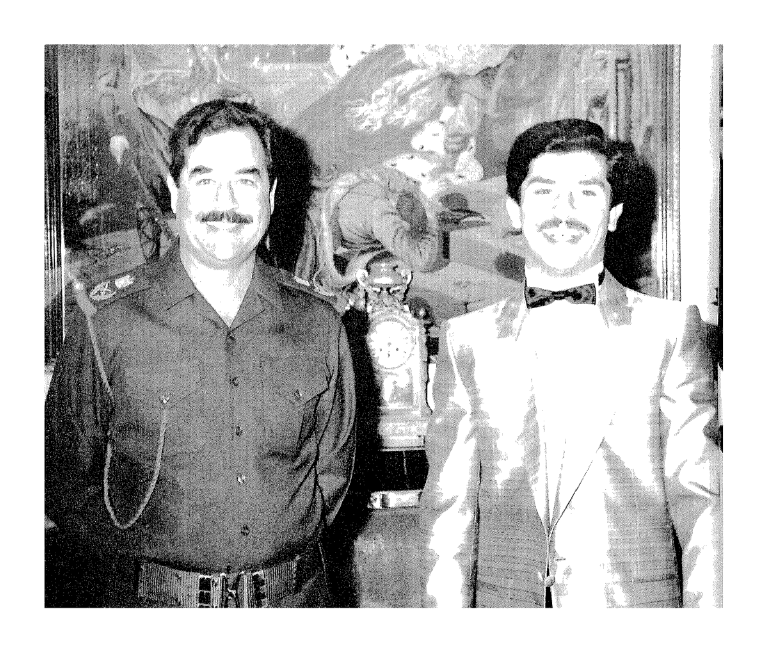
صبـاح سـلمان

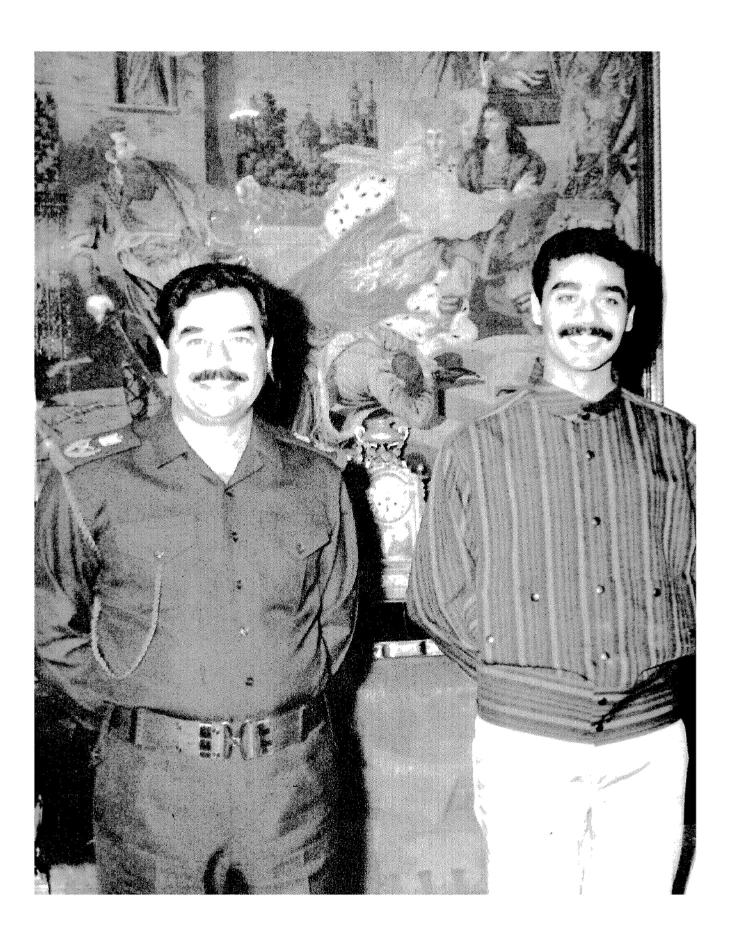




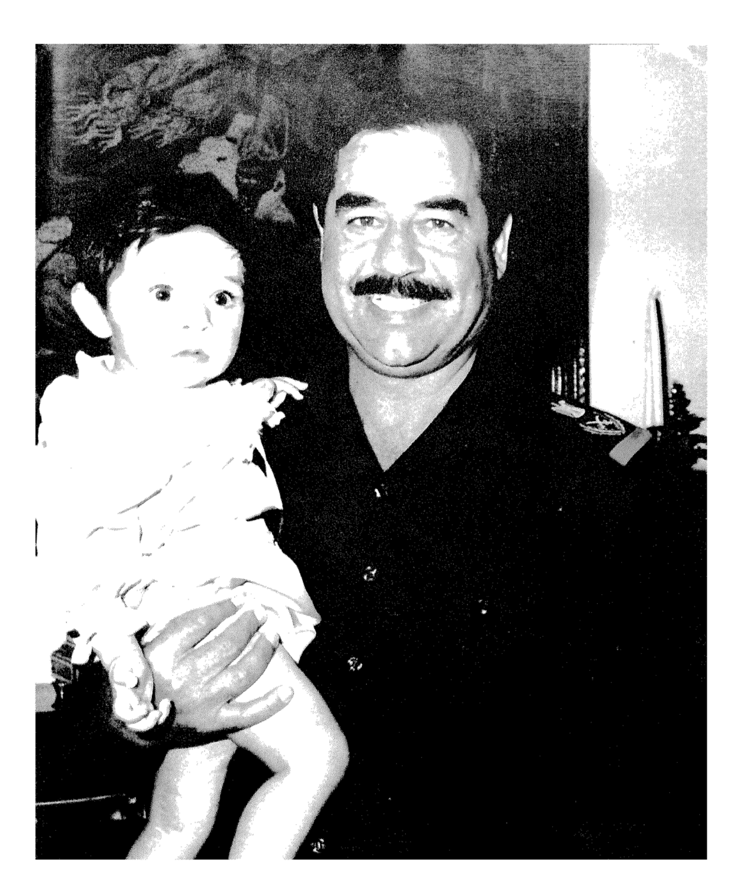












الفصل الاول

وقفة
مع تاريخ العراق

(١) من سومر الى بابل واشور

ابدأ بسطر واحد . . .
معانيه كبيرة وكثيرة ، ومغازيه اكبر وأكثر ،
والسطر استعيره ، من عنوان كتاب العالم المعروف كريمر ، يقول : التاريخ يبدأ من سومر .
واذن فالحضارة تبدأ من العراق . .

فالسومريون الذين استوطنوا جنوب العراق ، وضعوا البداية للحضارة الاولى التي استوطنت هذا القسم من العراق ، الذي عرف ببلاد سومر .

ومنذ البداية ، كانت اشراقات هذه الحضارة تعني الكثير ، اهمها ان عقلية العراقي المتقدة وذهنيته المتفتحة تتعامل مع الوجود ، لتشق الطريق الافضل لحياة الانسان .

وكانت الكتابة المسمارية ، دليلا لا يحتاج الى ما يؤكد معانيها بالنسبة لحياة الانسان ، واستخدامها لتدوين نشاطاته ، والافصاح عن قيم المعرفة التي تمثلها ، ويكفي لكي نقف على قيمة ومغزى عطاء هذه الحقبة ، ان التنقيبات الآثارية ، والاستكشافات التي جرت في نفر من ١٨٨٠ — ١٩٠٠ ، توصلت الى ما يزيد على ٣٠ الف رقم طيني .

ان عصر الكتابة ، يمثل عصر المعرفة الانسانية المبدعة ، والاهتداء الى ذلك ، يشكل صورة حية لطبيعة الانسان العراقي ، وفي محاولة لالتقاط قيمة العطاء الحضاري لهذه المرحلة ، تكون للسلالة السومرية المعروفة بسلالة الوركاء الاولى ، حصة بارزة ، من خلال جهود ملكها المشهور كلكامش ، الذي قدم ملحمته التي تعتبر ارقى التآليف الادبية في التاريخ القديم .

ان ملحمة كلكامش ، تجسد البطولة التي تستحوذ على عقلية العراقي ، وتناغيها بالقيم التي تمثلها ، وهي في نزوعها الباحث ، الى وسيلة الخلود ، تستهدي في الاخير ،

الى ان الانسان يمكنه الخلود عن طريق اعماله ونشاطاته .

ان بلاد سومر ، وهي تدق ابواب الحضارة الاولى ، بهذا العطاء ، تكون قد رسمت ، نقطة المسار الاولية في نهضة العراق وتميزها الانساني ، وفي مخلفاتها التي كانت خيرا للانسان .

وهذه الحقبة التي انتهت ، بنهاية عصر ملك سومر ، لوكال زاكيزي ، على يد سرجون الاكدي الذي فرض سيطرته ، وانجز في هذه السيطرة مهمة كبيرة وهي اقامة الامبراطورية في البلاد ، بعد ان تمكن من انهاء حالة التشرذم التي كانت تمثلها دويلات المدن .

ان قيام الامبراطورية الاكدية ، بعد توحيد دويلات المدن ، لا يمكن النظر الى قيمتها ، من خلال النظرة العابرة التي تستسهل انجاز مثل هذه المهمة ، لان قيمتها تكمن في انها جاءت انسجاما مع الحاجة التاريخية التي اقتضاها تطور العراق القديم ، وهي ايضا تجسيد لدور القائد العظيم في ادراكه لهذه الحاجة ونجاحه في تحقيقها ، ومن هنا تكون قيمة سرجون الاكدي (٢٣٧١-٢٣١٦ ق . م) ولهذا يصفه التاريخ بكونه احد عظمائه الكبار وأن قيادته السياسية والعسكرية شكلت في تلك المرحلة الصورة الامينة للحكمة السياسية والبطولة العسكرية .

ان توحيد سرجون الاكدي لدويلات المدن ، خلق القوة الكبيرة لدولته ، واستطاع بفتوحاته ان يمد حدودها الى اعالي الفرات ، كما وصل بقواته الى مدينة (بورش خندا) في اسيا الصغرى ، وكان سبب توغله الى هذه المدينة يعود ، الى انه سمع نبأ ظلم واعتداء وقع على تجار من مواطنيه من حاكمها الذي تجبر عليهم ، فما كان من سرجون الاكدي الا ان يقف منتصرا لهم ، رادا الظلم الذي وقع عليهم .

ان هذا القائد الكبير ، يعكس في روحيته هذه ، عقلية عظيمة ، وروحا كبيرة ، لا ترضى ان يمس مواطنيها ظلم اجنبي ، وهي حيال ذلك تعرف كيف ترد الضاع وترد على الظالمين .

وهذه الحقيقة تشهد في جانب اخر ، على قوة الامبراطورية الاكدية ، وهي التي لم تستمر ، فبعد وفاته اعقبه حكام ، كان اشهرهم (نرام سين) ، وقد حافظ في حكمه على قوة الدولة وازدهارها ، ولكن تولي ابنه الملك (شار كلياشاري) للحكم من

بعده ، انعكس ضعفه على البلاد وادت سيطرته الواهنة الى حالة وهن خطير في كيان الدولة ، مما فتح المجال الى القضاء عليها ، والسيطرة الاجنبية على البلاد على يد الكوتيين .

كان حكم الكوتيين ، أول فترة مظلمة تعصف في العراق (٢٢١١ – ٢١٢٠ ق . م) توقفت فيها عجلة التقدم والعطاء الحضاري . .

لم يستمر حكم الكوتيين الهمجي ، وسرعان ما بدأ ظلام سيطرتهم يرحل عن ربوع العراق ، التي كانت تتململ تحت كابوس السيطرة الاجنبية ، وكانت الشمس الجديدة التي بددت ظلام هذا الاحتلال ، تبزغ من الوركاء ، وهي تنجب زعيما تاريخيا ، كان المنقذ الذي خلص البلاد من نير الحكم الاجنبي الوافد من منطقة همدان . لقد كان انتصار الملك اتوحيكال ، نهاية لقرن مظلم من الزمان ، ولم تكن اهمية هذا القائد العظيم ، في التحرير الذي انجزه ، والهزيمة التي الحقها بالملك الكوتي وبسيطرته الاجنبية الاستبدادية حسب ، بل كان مدلول قيمته الاكبر ، يتحدد بحقيقة ، ان الغطرسة الاجنبية التي تعيث في الارض فسادا ، سرعان ما تنزوي وتتقهقر ، عندما ينهض الشعب ضدها بقيادة القائد القدير الذي يتصدى لها .

ويكفي ان نشير الى ان تريكان ملك الكوتيين المتغطرس ، عندما طارده العراقيون القدماء ، والقي القبض عليه ، رمى بنفسه عند قدمي اتوحيكال ، فوضع اتوحيكال قدميه على رأسه .

وفي سلالة اور الثالثة ، التي قامت في اعقاب انتهاء حكم الملك اتوحيكال ، كان الملك (اورنو) هو مؤسسها الذي اشتهر عهده بالعمران والبناء ، وكذلك بتقديم اول تشريع في التاريخ ، حيث يعتبر قانونه البداية الاولى على هذا الطريق .

ومع الضعف وحالة التفكك التي ظهرت ابان حكم الملك (ابي سين) (٢٠٢٩ – ٢٠٠٦) ق . م ، كانت اطماع العيلاميين في الشرق تكبر وتعبر عن نفسها بالهجمات المعادية على العراق .

ان سقوط سلالة اور ، لم تجعل الشعب غارقا في بحار الضياع ، بل كان موعده مع التاريخ من خلال سلالتي ايسن ولارسة .

ويمثل عشتار الملك الخامس لايسن ، احد القادة المهمين في التاريخ ، والذي

اصدر شريعة تنظم العلاقة في المجتمع .

ان الاطماع الاجنبية لم تتوقف عن التطلع الى العراق ، وكان العيلاميون يتحينون الفرص بالعراق لفرض سيطرتهم عليه ، وكانت الخلافات فرصة لهم لمد سيطرتهم ، وقد تمكنوا بفعلها (١٨٣٤ ق . م) من التدخل في شؤون لارسة ، واستطاع الملك العيلامي ان ينصب نتيجة لذلك ، ابنه (ورد سين) ملكا في لارسة ، خلفه فيما بعد اخوه الذي قضى نهائيا على سلالة ايسن .

في خضم هذه الاحداث ، كانت بابل هي محط الامال ، وكان حمورابي اشهر ملوكها ، الذي سجل له التاريخ مكانة شاخصة بالشواهد الكثيرة .

كان العرش الذي يتربع عليه هذا الملك العظيم صغيرا ، وكان عهده في بدايات حكمه عرضة للاطماع الاجنبية .

كانت اولى المهمات التي تفرغ لها وركز اعماله في سبيلها هي قيام السلطة المركزية القوية ، التي تنهي تبعثر الولايات ومن ثم توحيد العراق والحفاظ على حدوده آمنة لا يطالها احد .

وكان النهج الذي اعتمده وصولا الى ذلك هو تعزيز الجبهة الداخلية وتحصينها وزيادة قدراتها على الصمود ومجابهة الاعداء ، ومن ثم الانطلاق الى هدف التوحيد .

وكان القائد العظيم حمورابي يستكمل جهوده تلك باخرى مماثلة على صعيد البناء والتعمير وشق القنوات .

وكانت الاطماع الاجنبية وهي ترصد اعمال هذا القائد ، تركز انشطتها ضده وتنسق مجهوداتها المضادة ، لهذا عمل الكوتيون والعيلاميون على تعزيز تحالفاتهم ، وتوسيعها بالتحالف مع خصومه الاخرين ، ، لقد كان لنجاح حمورابي في توحيد العراق ، اثر كبير في تعاظم قوته ، وهو في هذا التوحيد ، لم يجعل القوة المسلحة لوحدها مصدرا للارضية الراسخة لهذه الوحدة ، وانما كان يركزها على ابعاد اخرى ، تمتزج فيها الخطوات الادارية والقانونية والاجتماعية ، وبذلك اصبحت بابل مركز السلطة القوية ، مثلما ركز السلطة في يديه .

ان متابعة سيرة هذا القائد الفذ ، ونمط علاقاته مع الرعية ، تظهر عبقريته وسر قوته ، فقد كان يقوم بجولات تفتيشية ، وكان يراقب عمل القضاة ويطالبهم بتطبيق

العدل ، وكانت الوحدة السياسية للبلاد لا تعتمد على القوة العسكرية لصيانتها وتحقيقها ، بل كان يريد لها روحية ثقافية ، ولهذا اسس عددا من المدارس تصب في هذا الغرض ، ولانه صاحب نظرة عميقة وحكيمة اعتقد ، ان الاطار القانوني للوحدة السياسية يشكل قاعدة تشريعية مهمة تحميها وتطورها ، ولهذا صدرت الشريعة المعروفة باسمه (١٧٧٠ ق . م) تؤمن له ذلك ، ولتشكل اعظم انجاز للقوانين في تلك الحقبة التاريخية .

ان العصر البابلي القديم لم يدم ، اذ دخل العراق بعده في مرحلة جديدة من السيطرة الأجنبية تمثلت بحكم الكيشيين (١٥٩٥ – ١١٥٧ ق . م) ورغم ان المصادر التاريخية لم تشر الى كيفية دخولهم الى العراق ، الا ان الامر المنطقي في تفسير ذلك لا يجد صعوبة في القول ، ان ضعف الحاكم وتخلفه عن مسؤولياته ، كان هو الممهد والسبيل .

كان حكم الكيشيين مثالا للحكم الاجنبي المتسلط ، وكانت حالة الفساد ، تضرب اطنابها في البلاد فتضعفها ، وكان هذا الحال يغري العيلاميين لمعاودة هجماتهم على العراق ، وقاموا بالفعل بغزو بابل لمرات كثيرة ، وكانت مقاومة الشعب لهم ضارية ، وكان الثوار البابليون يناهضون وجودهم وقواتهم ، وهكذا عمت بابل انتفاضة قادها زعيم مدينة أيسن ، وتمكن المواطنون على اثرها من طرد القوات العيلامية الغازية واقامة سلالة بابل الرابعة .

كان من اشهر حكام هذه السلالة هو نبوخذنصر الاول ، الذي اشتهر حكمه بالقوة والعدل وتعزيز الارادة الوطنية ومقارعة التهديد الاجنبي للعيلاميين ووضع حد لاعتداءاتهم المتكررة على العراق .

ان النصر الساحق الذي انجزه هذا القائد الكبير على العيلاميين ، يؤشر كفاءته كقائد سياسي وعسكري ، ويفصح عن مستوى الحالة الموضوعية القائمة التي قاد البلاد اليها ، وفي وثيقة النصر التي كتبت لتخليد هذا النصر ، تظهر صفات هذا القائد القدير بكل وضوح ، حيث جاء فيها :

(نبوخذنصر ، النبيل التقي . .
المختار من ذرية بابل .

شمس بلاده ، الذي يجلب الرخاء لقبه ملك الحق الذي يحكم بالعدل
البطل الصنديد الذي كرس كل قوته للمعركة حامل القوس المرعب الذي لا يهاب
القتال .
الذي دحر اللولوبين بحد السيف) .

ان الحقيقة التاريخية ، عن هذا النصر ، تبين ان الهزيمة التي الحقها نبوخذنصر بالعيلاميين ، لم تكن من غير فعل حاسم وقيادة فذة ادت الى ذلك ، لان النصر الذي تم تحقيقه لم يرتهن الى الصدفة وانما الى الحكمة والكفاءة التي استندت الى خواص هذا القائد التاريخي ، وهي ذات الخواص التي انشأ بها دولة عظيمة في ذلك الزمان بعد ان سدد ضربة ساحقة الى العيلاميين وتمكن من الاستيلاء على بلاد عيلام .

ان قوة نبوخذنصر لم تكن شخصية وحسب ، وانما كانت ايضا تستند الى قوة الفعل الجماعي واثر الاركان فيها ، ولهذا كان يكرم قادته ويغدق عليهم الامتيازات والحقوق .

ولم تقف موجة الضغوط الخارجية على بابل ، وكان تدخل الاراميين في شؤون السلطة بداية للسيطرة على الحكم .

ان هذا الواقع الذي كان في جنوب العراق وفي الوسط ، كان له بالمقابل وجود اخر في الشمال حيث كان الاشوريون يستقرون فيه .

كانت لهجتهم هي ذات اللهجة الاكدية ، وكانوا يستخدمون الخط المسماري اضافة الى ان حالتهم الاجتماعية ومعتقدهم الديني تشتركان بذات السمات المحددة بافكار بقية سكان العراق .

وشهدت بلاد اشور في تطور مراحلها التاريخية ازدهارا ، وتوالى على حكم البلاد ، عدد من الملوك كان للاقوياء منهم ، نصيب للبلاد فيه القوة والعزة والمنعة .

وكانت البلاد خلال هذه المرحلة ، تحيطها التحديات التي كان لها اثر في خروج القادة العظام ، الذي كان الملك شليمنصر الاول احدهم ، الذي تميز عهده بالقوة العسكرية التي حفظت هيبة الوطن وصانت استقلاله وسيادته .

وخلال العصر الاشوري الحديث ، تمكن الملك (ادد – الراري) من قيادة البلاد وتعظيم قدرها ، وكان لقيادته اثر في تكوين امبراطورية عظيمة ذات شأن كبير في

ذلك الزمان .

ان قوة هذه الامبراطورية تظهر في حملاتها العسكرية ، وفي عهد شليمنصر الخامس ، ارسل حملة حاصرت السامرة ، كان قائدها العسكري سرجون الذي تولى بعدها العرش الاشوري .

وكان عهد ولده من بعده سنحاريب مستقرا ، تميز بالرخاء الاقتصادي والعمران والبناء ، وعقب اغتياله سادت احوال البلاد الاضطرابات والتمردات مما اضعف الدولة وادى الى انتهاء الامبراطورية الاشورية ، لكن الحضارة التي اقامتها للانسان لم تنته .

ان مجد الحضارة الانسانية لم ينته مع سقوط الامبراطورية الاشورية ، لان حضارة العراق سرعان ما قامت من جديد في سلالة بابل الحديثة ، التي كان من اشهر ملوكها نبوخذنصر (٦٠٤ – ٥٦٢ ق . م) المعروف بصاحب الجنائن المعلقة .

ولقد تميز تاريخه بالكثير من الحوادث ، ابرزها دخوله الى القدس منتصرا في ١٠ آذار ٥٩٧ق . م واقتياده الاسرى اليهود الى بابل .

ان حملاته العسكرية لم تمنعه من تطوير البلاد ، وفي عهده شهدت المدن البابلية ، جهودا عمرانية واسعة ونهضة واضحة .

وبعد وفاته تعاقب على حكم البلاد ، حكام كان اخرهم نبونائيد ، الذي كانت مرحلته تتسم بوجود مد فارسي ، كان وراءه كورش .

ان هذه الحقيقة كانت تتطلب منه ، التحوط والاستعداد ، لكنه اغفل ذلك ولم يتحسب بوجه الاطماع الفارسية ، ولذلك دخل العراق تحت السيطرة الفارسية ، عندما دخله كورش غازيا في تشرين الاول سنة ٥٣٩ ق . م .

كانت فترة الاحتلال الفارسي هذا ، بالغة في قسوتها ووحشيتها ، حيث كان الناس يحرقون في النار ويتعرضون لشتى صنوف التعذيب والسحق .

ان السيطرة الفارسية امتدت وتنوعت مع تعاقب الاسر الحاكمة في ايران ، وكانت السيطرة الساسانية اخر المحاولات الفارسية التي انتهت بتحرير العراق في حرب القادسية ، وكان نصر القادسية يسبقه نصر ذي قار ، الذي صنعته المشاعر العربية اثر مقتل النعمان اخر ملوك الحيرة (٥٨٠ – ٦٠٢م) وهو يوم محفور في سجل الخلود ،

يكفي ان الرسول الكريم قال عنه :

(هذا اول يومْ انتصف فيه العرب من العُجم وبي نصروا)

وفي معركة القادســـــــية ، كانت المعاني الكبيرة .

(٢) من القادسية الى بني العباس

وكانت المعركة . .

كانت بدايتها في ٦ محرم من العام الخامس عشر للهجرة ، ، المصادف ١٩ شباط ٦٣٦ م ، ، وعلى مدى اربعة ايام . . كان غبار المعارك وصهيل الخيول وقوة العقيدة . . تصنع نصر القادسية حين انتصر العرب على الفرس ، ، وانتهت بذلك السيطرة الفارسية على العراق ، ، والجيش العربي الاسلامي يقتحم معقل كسرى في المدائن وينهيه بقيادة سعد الذي استكمل نصره بتحرير اراضي العراق والقوات العربية تتقدم صوب تكريت وجلولاء وحلون ، ، تطرد الفرس من ربوعها .

ومع شمس الاسلام ، ، كان التحرير يزيح دخان النيران الفارسية ويلاشيه بعيدا عن ارض العراق .

وكان مركز الخلافة واعيا لخواص العراق ومميزات شعبه ، ، ولهذا كان عمر بن الخطاب يحسن اختيار ولاته لتولي شؤون العراق والامام علي عليه السلام ، ، حين نقل مركز الخلافة الى الكوفة ، ، كان يتولى بنفسه قضايا العراق ويشرف عليها .

ان خاصية العراق ، ، التي استدعت من الخلفاء الراشدين هذا الاهتمام ، ، تعود الى حيوية الشعب فيه وخصوبة فعالياته ، ، وفي مقدمتها النشاط الفكري ، ومثل هذا النشاط معروف في نتائجه ، ، لان الجانب الفكري تمتد اثاره الى كل مناحي الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية ، ، وهو امر لم يغب عن بال الخلفاء فلقد كانت الحركة العلمية في الكوفة تهتم بالعلم والدين والشعر . .

وكانت البصرة زاخرة بعلم اللغة والنحو . .

وكان ابرز ما يميز نشاط العراق الفكري ، ، تعزيز العقل والرأي ، ، ولهذا عرفت المدرسة الفقهية في العراق ، ، بمدرسة الرأي . .

ان هذا الواقع يكشف في جوانب مهمة منه ، ، طبيعة العقلية العراقية ، ، كونها عقلية محاورة وصاحبة اجتهاد وتدقيـق ، ، للوصول الى الحقائق والتسليم بها .

وكان لهذه الحقيقة ، ، اضافة الى حيوية العراقيين وعقليتهم وتاريخهم ، ، اثر في اتجاه كل الدعوات المنادية بالخلافة الى العراق .

وكانت الدعوة العباسية تجد في هذه الخصائص ، ، مجالا يستجيب لآمالها في الخلافة ، ، خصوصاً وان تيارات سياسية كانت سائدة في الكوفة تجاهر بالدعوة بان الخلافة في آل البيت .

وهكذا كانت الثورة العباسية ، ، ومن بعد نجاحها الدولة العباسية التي اسسها ابو العباس السفاح ، ، الذي لم يبق في الخلافة ، ، غير اربع سنوات ، ، تولى امر الخلافة بعده ، اخوه ابو جعفر المنصور ، ، الذي ركز دعائم الدولة وقضى على الحركات المناوئة .

كانت الخلافة العباسية ، ، فاتحة عهد زاخر جديد للعراق ، ، شهد تطور الحياة الحضارية في كافة مظاهر المجتمع .

وكانت تصورات ابو جعفر المنصور ، ، تتجه الى ايجاد مقر جديد للخلافة بعيدا عن الكوفة ووقع اختياره على بغداد ، ، وبدأ العمل فيها سنة ١٤٥ هـ وانهاها بعد عامين .

وسرعان ما توسعت بغداد التي كانت تعرف بدار السلام ومع عظم شأن الخلافة ، ، صارت لمركز الخلافة الجديد ، ، قيمة متعاظمة ، ، تجذب رجال الفكر والعلماء اليها ، ، لتصبح بغداد بعد ذلك من اكثر مدن العالم تألقا .

في عهد الرشيد كان وهج بغداد على اوجه ، ، وكان ازدهار الحضارة عاليا وشاملا ، ، ومثلما كان هذا العهد يشهد النهضة الحضارية ، ، كان قويا في التصدي للاطماع الاجنبية .

فلقد كانت الدولة العباسية ، ، تجابه مخاطر الدولة البيزنطية ، ، ولم يكن العباسيون يتجاهلون هذه المخاطر وكانوا يريدون اتباع سياسة سلمية توقف الروم عن التوسع .

وحينما تولى هرون الرشيد الخلافة ، ، اخذ هذه المسألة بنظرة الجد والمسؤولية ، ، لهذا قام بتعزيز الحاميات عند الثغور العربية وتجهيز حملات يقودها بنفسه ، ، كان من نتائجها عقد هدنة بين الطرفين خلال عهد ايرين .

غير ان عهد وريثها نقفور ، ، قام بنقض الهدنة ، ، الامر الذي دفع الرشيد الى تجهيز حملة قوية ضده توغل فيها داخل بلاد الروم واقترب بها الى القسطنطينية مما اضطر بعدها نقفور الى الرضوخ وقبول الهدنة ودفع الجزية .

كان الرشيد قد ولى عهده الى ولديه الامين والمأمون ، ، وعند وفاته تولى الخلافة الامين ، ، في حين كان المأمون يحكم المشرق بما فيه اهم اقاليمه خراسان ،

وجدت العناصر الشعوبية في هذه الحالة ، ، فرصة مناسبة لاغراضها ، ، وكان نزاع الامين والمأمون الثغرة الملائمة ، ، وحين تولى الخلافة المأمون على اثر مقتل الامين ، ، كانت العناصر الفارسية تحاول استغلال وقفتها الى جانب المأمون لتعزيز نفوذها في الدولة .

لقد كان هذا الواقع ، ، يدق نواقيس الخطر امام المأمون . . من جراء الاعتماد على الفرس ، ، ولهذا حرص على تقليص السيطرة الفارسية وتركيز الاعتماد على العرب . وبسبب ذلك ابعد الوزير الفارسي الفضل بن سهل ، ، وعزله من منصبه الذي استخدمه موقعا لتعزيز الهيمنة الفارسية في الدولة .

وبعد وفاة المأمون تولى الخلافة المعتصم ، ، وسط بوادر اضطرابات سببها الزط الذين وطنّهم الحجاج في الجنوب ، ، بعد ان استقدمهم من السند ، ، وكانت الخرّمية تحمل هي الاخرى معاولها لتهديم كيان الدولة العربية ، ، لحدود بلغت الى حد اعلان بابك الفارسي العصيان سنة ٢٠٢ في شمال اذربيجان .

ان هذه الاضطرابات جعلت المعتصم يتوجه الى الجيش وكانت تقديراته ، ، ان جيش الدولة المكون من العرب والفرس يحتاج الى مصدر اخر وجده في الاتراك .

وبعد وفاته وتولي أخيه الواثق الخلافة ، ، كان معظم امراء الجيش من الاتراك ، ، واصبح لهم حساب في التأثير على الخلافة .

وحاول المعتمد معالجة الاوضاع واعادة الهيبة الى مقام الخلافة ، ، وحمايتها من اخطار العيارين ومخاطر صاحب الزنج . وبعده جاء المعتضد واستقرت الحياة ، ، وظلت بغداد محتفظة بمكانتها ، ، ولكن تولي المكتفي للخلافة من بعده ، ، مدة اربع سنوات ، ، تلاه اخوه جعفر المقتدر بالله (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) وكان صغيرا في السن قليل الدراية ، ، مما فتح المجال للتدخل بشؤون الخلافة عن طريق امه وخاله .

خلال هذه الفترة كان القرامطة يهددون سلطان الخلافة ، ، وقد ادى ذلك مع ضعف الحاكم الى تمهيد الطريق للبويهيين للهيمنة على مقاليد الدولة .

لقد ابقى البويهيون الخليفة العباسي ، ، اسما وجردوه من كل الصلاحيات ، ، وتحولت اوامرهم الى سلطان نافذ ، ، وكانوا من سيطرتهم يعمدون الى تفريق الشعب بتشجيع الانقسامات الطائفية وكان ازدواج السلطة بين الادارتين العباسية والسلجوقية ، ، مدعاة لعدم الاستقرار ، ، وكان لتعاظم دور السلاجقة وتدخلهم في الامور اثر في اصطدامهم مع الخليفة الى الحد الذي قتل فيه الخليفة المسترشد على ايديهم ، ، وان سلطانهم طالب الخليفة الجديد الراشد باموال ، سبب رفضه نشوء معركة بينهما انتهت بنصر الخليفة الذي هب اهالي بغداد ينصرونه .

ان تدخل السلاجقة وصل الى الحد الذي يخلع فيه سلطانهم . . طاعة البيعة للخليفة ومبايعة المقتفي بامر الله على امل ان يكون تحت سطوتهم ، ، ولكن هذا الخليفة لم يذعن لهم وتصدى لمظاهر التسلط السلجوقي في العراق واعاد هيبة الخلافة .

ومع نهوض القوة العربية ، ، بسبب مكانة الخليفة صلاح الدين الايوبي ، ، كف السلاجقة عن التحرش بالعراق .

في عام (٥٧٥هـ / ١١٧٩م) بويع ابو العباس احمد بن المستضيء بالخلافة ، ، وكانت شخصية هذا الخليفة ، ، قوية ، ، انعكست بدورها على هيبة الخلافة وتعزيز قوة الدولة .

وكانت اولى ضرباته للمتسلطين واصحاب النفوذ غير المكترثين لامور الدولة والرعية ، وحين فرغ من ذلك ، ، كانت ضربته القوية تهوي على السلاجقة في ايران ، ، وهو يدخل همدان ويطرد السلطان السلجوقي منها .

واصطدم مع الخوارزميين الذين كان لهم شأن كبير في ايران وحاولوا غزو العراق .

ولقد نجح هذا الخليفة بتخليص العراق من مخاطر العدوان الاجنبي ، ، وعمل على حفظ الكيان الاجتماعي والتصدي للطائفية واهتم بالشباب ورعى العلماء والمثقفين ،

وكانت الخلافة العباسية بعده ، تشارف على النهاية ، ، وسط اجواء من الاضطرابات الداخلية والتهديدات الخارجية ، ، وكان اخر الخلفاء المستعصم بالله

(٦٤٠ – ٦٥٦هـ) (١٢٤٣ – ١٢٥٨م) ضعيفا ، ، منغمسا بلذاته ، ، وغير مكترث للخطر المغولي الذي يقرع ابواب الدولة بقيادة هولاكو ،

وكان من جراء ذلك كله ، ، ان اقتحمت موجة التتر المغولية بغداد ، ، لتقتل الخليفة وتنهي بذلك الدولة العباسية .

وليبدأ عصر مظلم في تاريخ العراق .

(٣) احتلال مظلم ومقاومة لم تهدأ

لم ينظر الخليفة الى الخطر . . ولم يترصد نتائج الزحف المغولي المتوجه الى العراق ، ، بعد ان ضرب بلدان المشرق.وظل يواصل مسيره لاقامة الامبراطورية .

كان التهديد خطيرا ، ، وتحدياته مصيرية ، ، لكن انغماس الحاكم في ملذاته ، ، وضعف رؤيته وارادته ، ، جعلته قاصرا عن ادراك حجم المأساة ، ، وخائفا من الايفاء بمستلزمات ردها وعدم وقوعها .

كان الانحلال يضرب اطنابه في كيان الدولة ، ، والانهيار على الابواب ، ، ولم تكن مثل هذه الحالة الا مغرية للغزو الخارجي ، ، كي يسيطر على البلاد ، ، وهكذا كان سقوط بغداد في شباط ١٢٥٨ م على يد هولاكو .

وكان مع الاحتلال المغولي وما يعنيه من سيطرة اجنبية بغيضة ، ، نهر للدم يغرق بغداد ، ، ليكون البداية المريرة في الحقبة المظلمة التي خيمت على العراق الى امد بعيد .

وهكذا تم تحويل العراق بعد هذا الاحتلال الى ولاية تابعة للامبراطورية الايلخانية ، لم يكتف المحتلون بذلك وانما عمدوا الى تقسيم العراق الى ولايات ثلاث مهلهلة وذليلة هي : ولاية العراق وولاية الجزيرة الفراتية وولاية شهرزور .

وبموت الايلخان الذي لم يكن له وريث بدأت اطماع السلطة تضرب الرؤوس ، ، وكان ان ابتدأ بعدها الاحتلال الجلائري ، ، لكن الصراع على السلطة لم يتوقف ، ، حتى كانت الموجة المغولية الثانية تجتاح العراق بقيادة تيمورلنك .

لقد كانت لسيطرة تيمورلنك على العراق ، ، نتائج وخيمة ، ، واثار مدمرة ، ، لم تقتصر على القتل وانما امتدت الى تدمير كل شؤون الحياة .

وبعد وفاة تيمورلنك ابتدأ حكم الجلائريين ، ، وظلت الغزوات الاجنبية تجعل من ارض العراق ساحة لاطماعها .

وكانت الاطماع الصفوية هذه المرة ، ، تعبيرا عن ذلك وتجسيدا له .

وبداية الاطماع الصفوية كانت مع تقدم الشاه اسماعيل الى بغداد في (٩١٤هـ/١٥٠٨م) .

لقد هب العراقيون يقاومون هذه الغزوة ، ، لكن حاكم بغداد الاجنبي السلطان مراد بن يعقوب ، ، لم يبذل في تصديه اصرارا وعزيمة ، ، فسرعان ما تخلى عن مقاومتة ، ، ليفتح الطريق للتسلط الصفوي الطامع بالسيطرة على العراق والمتطلع الى نهب خيراته لتعويض حالة الفقر السائد في ايران .

كان الاحتلال الصفوي شرسا في سيطرته وهو يقيم المذابح للعراقيين ، ، ومارس مع التعذيب والتقتيل سياسة التفرقة الدينية لاثارة النزاعات الطائفية المقيتة بين ابناء الشعب الواحد .

ان الصراع الاجنبي لم يقف في اطماعه المكرسة لابتلاع العراق ، ، فمع تنامي الدولة العثمانية ، ، وتطلع السلطان سليم الاول لمد حدود الامبراطورية على حساب الوطن العربي ، ، كان العراق ميدانا للصراع العثماني الفارسي .

وبدأت السيطرة العثمانية تمد ايديها الى شمال العراق الى ان احكمت طوقها على بغداد في (٩٤١هـ/١٥٣٤م) حين دخلها السلطان سليمان .

وكان مع السيطرة العثمانية تقسيم العراق الى دويلات اربع هي : بغداد ، الموصل ، شهرزور ، البصرة .

لم يقبل العراقيون بالاحتلال العثماني وقاوموه مع كل فرصة ملائمة ، ، ولهذا شهد العراق انتفاضات عديدة ، ، وكان لضعف الدولة العثمانية اثر في ان عاود الصفويون سيطرتهم من جديد على العراق .

ولم تكن هذه الحالة ، ، نهاية للصراع الفارسي العثماني على ارض العراق ، ، لان الدولة العثمانية ارسلت حملات عسكرية عديدة تمكنت بها في الاخير من طرد الصفويين ، ، بحملة مراد الرابع الذي احتل بغداد في (١٦٣٨) .

لقد عكست الحروب الفارسية العثمانية نتائجها على العراق ،. ، الذي جعلت اراضيه ساحة ميدان لاطماعها ، ، وادت هذه الحروب الى انحدار الحياة في العراق وتخلفها وكان من جراء هذه الحروب ، احياء الطائفية لتمزيق وحدة الشعب

واكدت ان البلاد لا يمكن ان تعيش في مأمن مع اية قوة اجنبية مهما تغدق من وعود الكلام ومحاسنه ، وان الحماية الحقيقية للعراق ومقدساته لا توفرها اية قوة اجنبية ، ، وان التواجد الاجنبي ، ، تحت كل الذرائع التي يسوقها هو في الواقع تحكم وتسلط ونهب واذلال وان الحماية الحقيقية تكمن في قوة الشعب ووحدته الوطنية .

وهكذا كانت الغطرسة الفارسية ، ، تدفع بتطلعاتها الى العراق من جديد ، ، حين ابتدأ نادر قلي الذي سمى نفسه بنادر شاه زحفه في ١١٤٥هـ/١٧٣٢م الى العراق .

كانت الوقاحة الفارسية واضحة وهي تخاطب بغداد برسالة وجهها نادر شاه يقول . فيها : «نحن سائرون حالا على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ونستريح في ظل اسوارها» وكان وجهاء بغداد واهاليها وعلماؤها يقابلون هذه العنجهية ، ، برد يعكس المعاني الكبيرة ، ، حيث جاء فيه : «نحن لا نسلم حجرا من احجار بغداد حتى نقبر في مكاننا هذا» .

وكان من جراء ذلك نشوب معارك ضارية انتهت الى مفاوضات ابرمت على اثرها معاهدة زهاب في ١٦٣٩ بين الدولتين العثمانية والفارسية ، ، لكن الاطماع الفارسية لم تتوقف عند ذلك بل تواصلت مع تولي كريم خان مقاليد الحكم في ايران ، ، الذي مد بصره الى العراق وفكر مرة اخرى بغزو اراضيه .

كان العراق ابان الاحتلال يرزح تحت حكم مظلم ، ، وكانت مقاومة الشعب للاحتلال العثماني وسيطرته تتزايد مع تنامي الوعي القومي والشعور باهمية الاستقلال وجراء ذلك تم تشكيل العديد من الجمعيات التي تناضل من اجل تخليص العراق والعرب من السيطرة العثمانية .

وكانت نهاية هذه السيطرة ، ، بسيطرة اجنبية اخرى هي السيطرة البريطانية . كانت قوة الاحتلال البريطاني الاولى تدخل البصرة في ٥ تشرين الثاني ١٩١٤ وكان قائد الحملة الجنرال مود يخاطب العراقيين باكذوبة الغزاة الابدية وهي : «اننا لم ندخل بلادكم اعداء وانما دخلناها محررين» .

في عام ١٩١٨ كانت بريطانيا تحكم احتلالها للعراق باسره .

لم تكن مقولة الجنرال مود ، ، كافية لخداع العراقيين ، ، ولم تنطل الدوافع الحقيقية للاستعمار البريطاني ، ، ولهذا كان تململ العراقيين كبيرا لحدود اشعلوا فيه ثورة ١٩٢٠ على قوات الاحتلال .

لقد كانت هذه الثورة ، ، نقطة البداية التي اجبرت بريطانيا على تغيير سياستها الاستعمارية ، ، وتقبلها لفكرة تأسيس الحكم الوطني في العراق .

(٤) الشرارة والشعلة الموقدة

في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ ، ، كانت شرارة الثورة الوطنية في الرميثة ، ، تلهب أرض العراق ضد السيطرة البريطانية .

وكانت الثورة ومن قبلها مقاومة العراقيين للقوات البريطانية الغازية ، ، تضع أمام الحكومة البريطانية خيارا مضطرا ، ، لمراجعة حساباتها والتعامل مع العراق بنظرة تبتعد عن واقع السيطرة الاستعمارية المباشرة .

وكان من جراء ذلك ، ، ان أجرت في عام ١٩٢٠ اتصالا مع الملك فيصل الاول لتسليمه عرش المملكة العراقية .

وفي ٢٣ آب ١٩٢١ نصب فيصل الاول ملكا للعراق ، ، وشهدت تلك المرحلة تشكيل المجلس التأسيسي في ١٩ تشرين الاول ١٩٢٢ .

لم تكتف مطالبة العراقيين ، ، بما تحقق ، ، وانما كانوا يطالبون بالتخلص من الانتداب البريطاني ، ، حتى كان عام ١٩٣٢ حين قبل العراق عضوا في عصبة الامم ، ، ليصبح الدولة السابعة والخمسين فيها ، ، وبذلك انتهت اعمال المندوب السامي في ادارة العراق .

وبعد وفاة الملك فيصل الاول في ١٩٣٣ تولى العرش الملك غازي ، ، ولم يدم في الحكم طويلا ، ، فبعد وفاته أرتقى العرش الملكي ولده فيصل الثاني الذي كان في الرابعة من عمره ، ، ونصب الامير عبدالاله وصيا على العرش . .

لقد شهد واقع الحال في العراق ابان العهد الملكي ، ، تطورات وازمات سياسية ، ، وكانت المعاهدات غير المتكافئة مع بريطانيا ، ، مدعاة لتململ الشعب ، ، وخلال وصاية عبدالاله ، ، كانت الهوة تزداد بين الحكم الملكي والشعب ، ، الى أن بلغت حد القطيعة بسبب السياسات المعادية والارتباط الذليل بالمعسكر الغربي ، ، وكان من جراء ذلك اندلاع ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .

قابل العراقيون هذه الثورة بتأييد واسع وبفرحة عارمة ، ، وعلقوا عليها الامال

الجسام في ان تعيد للعراق مكانته وان تخلصه من حالة التأخر التي يعيشها ، ، لكن الصراعات السياسية واطماع الاستئثار بالحكم ، ، وانحراف الفريق الركن عبدالكريم قاسم رجل السلطة الاول وقتها ، ، سرعان ما بدد الامال وانهاها .

وكان بسبب ذلك قيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ التي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي ، ، نقطة امل جديد ، ، سرعان ما تعرضت الى انقلاب عسكري في ١٨ تشرين الثاني من نفس العام المذكور ، ، تولى على أثره السلطة المشير الركن عبدالسلام عارف ، ، ولم تجن البلاد من هذا الانقلاب الا المزيد من التدهور والتخلف .

وكانت حالة الوهن والضعف التي سببتها هذه الاوضاع ، ، مدعاة تغري القوى الدولية لمد سيطرتها على العراق .

وكان الشعب وهو يرقب الحالة يترقب الخلاص .

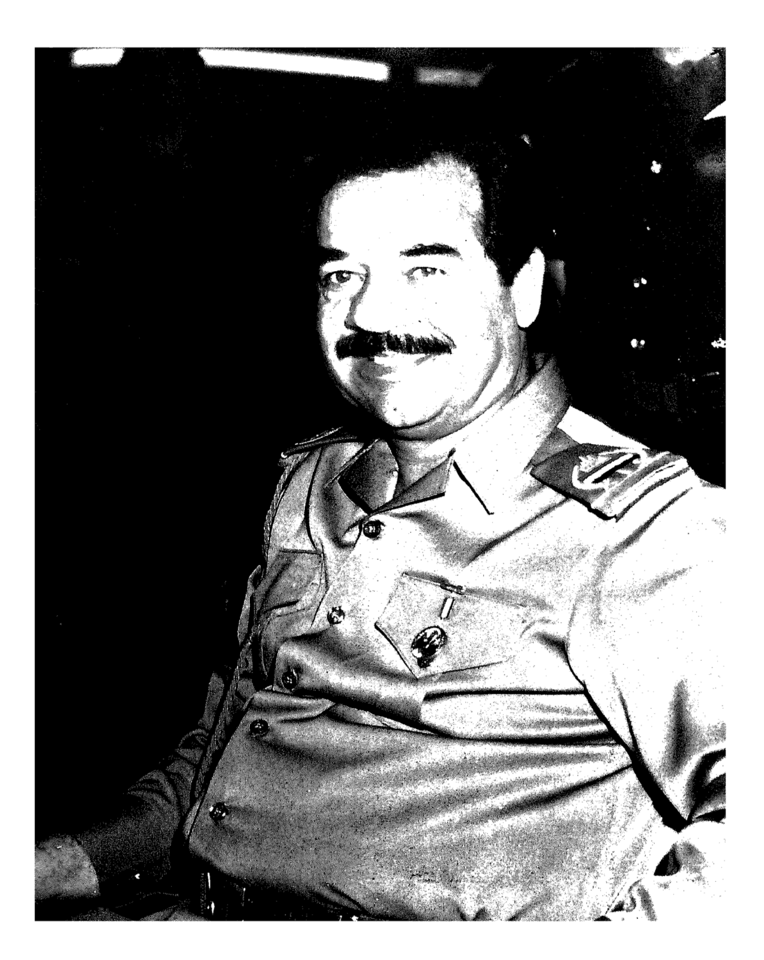
وكان الخلاص في ثورة ١٧–٣٠ تموز ١٩٦٨ وهي تضع نهاية ذلك وبداية عهد العراق الجديد .

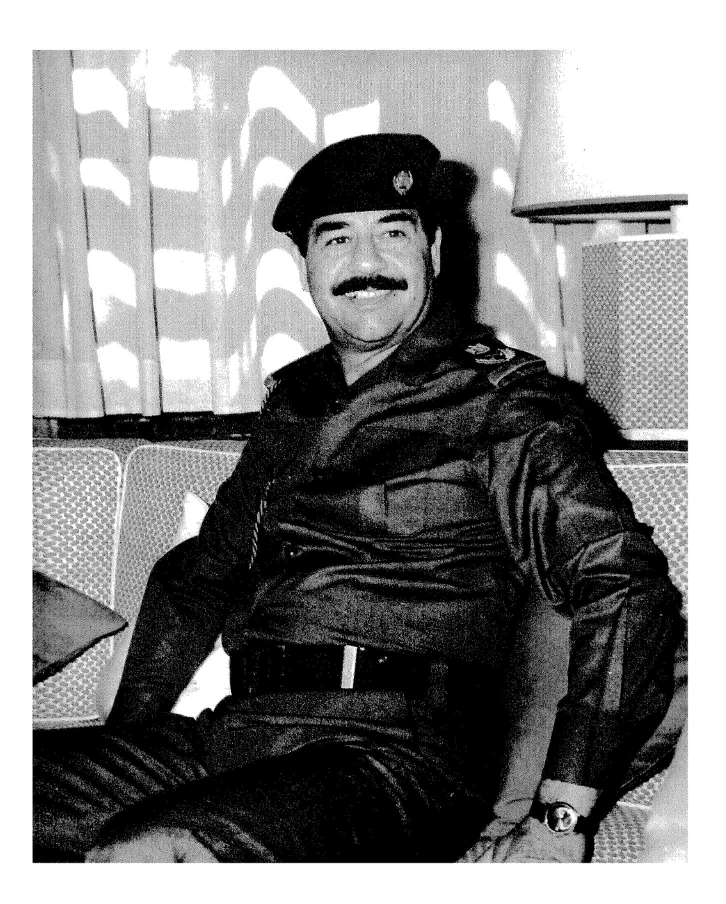
وكان القائـــد المنقذ هو صـــــدام حســـــين ، ، كان رجل المكانة الخاصة في التاريخ .

فكيف كان هو ذلك ولماذا ؟

الفصل الثاني

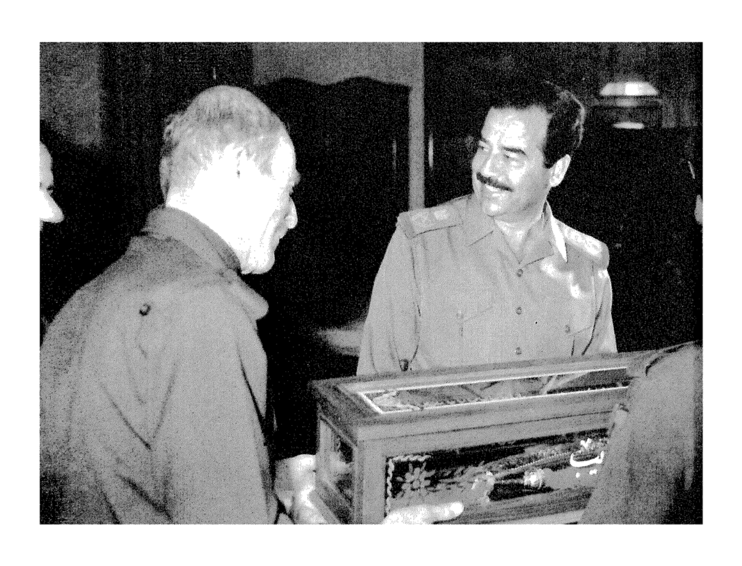
رجل المكانة الخاصة
في التاريخ



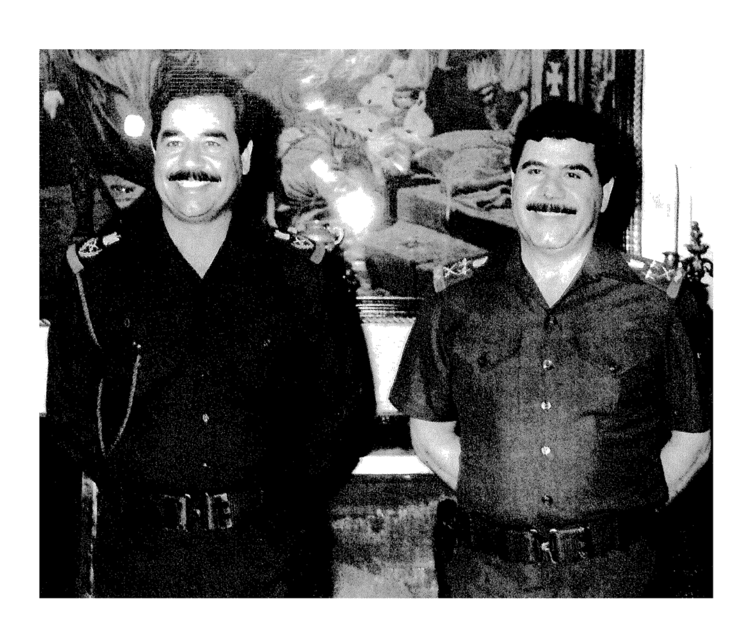














(أ) قائد ينهض بالعراق من جديد

من يرد أن يقرأ مخطوطا أصيلا لتاريخ العراق المعاصر ، ، يبتدىء بعهد أسميه ، ، عهد صدام حسين . . .

والتسمية ليست قفزا على وقائع التاريخ الأخرى ، ، بقدر ماتعني ، ، أنها محصلة مافيها من ايجابيات ، ، وأرتقاء بالنتائج المشرقة كلها ، ، الى حالة البناء التأريخي المتكامل على طريق الطموح الكبير . .

وأذن التسمية ليست أنسياقا مع رجل يملك الحكم ، ، وبالتالي تكون سلطته ، ، مدعاة لقلم يكتب بضوء ما تعنيه من مغريات أو مخاوف .

ولا هي أبحار مع شخصية لها مكانة الحب في القلب وهواه ، ، حتى تكون السطور مرهونة الى حكم العواطف أو أسر الأنبهار الخاص بها .

التسمية في تقديري أنصاف للعراق وللتأريخ قبلها تكون أنصافا للرجل الرائد والقائد . .

ودوافع الذي أكتبه هو ذلك وليس آخر سواه ، ، لأنني لا أكتم أمرا يستقر في أعماقي كحالة ، ، هو أني أكره في الحكم مظاهره السلطوية ، ، وأجد في مزاجي نفورا من ذلك وأبتعادا عنه .

وأضيف الى هذه الحالة ، ، أنني لا أنظر الى صـــدام حســين رجل حكومة وأنما هو رجل ثورة ، ، هو عندي ، ، حالة اليقظة المعاصرة للضمير العراقي الأصيل ، ، أعني :

– ضمير الفعل الناهض بالعراق .

– وضمير العمل الدائم للخير والعدل والمكانة المرموقة لبلد الحضارات العريق .

والحقيقة التي أريد تثبيتها بعد ذلك هي ، ، أن الحب الذي أشترك فيه مع العراقيين ، ، لا يجعلني منحازا له بعاطفة القلب وحده ، ، بل هو ايضا حب العقل الواعي والفكر الهادىء والضمير الصافي ، ، الذي ينظر الى الأمور من خلال قيمة

العراق ومكانته في عهد صـــــدام حســـــين .

فكيف تتبلوز النظرة الى هذه الأمور؟

لا يحتاج تأريخ العراق الى باحث ماهر لكي يهتدي الى الحقائق ، ، أنه تأريخ يزخر بذلك ، ، وفيه الأدلة الكثيرة على أنه مر بعهود زاهرة وأخرى متدهورة .

وليس مطلوبا الرحيل الى أعماق التأريخ أو فجر الحضارات الأولى لكي نتوصل الى الحقيقة المطلوبة وهي ، ، أن نهوض العراق يبتدىء مع القائد الفذ والحريص والمقتدر ، ، وبالمقابل أيضا ، ، أن الأنحدار يبدأ ساعة أنحدار الحاكم وأستعاضته عن مجد التأريخ بأهواء المزاج وجموح السلطة نحو المفاسد والملذات والأبتعاد عن العدل .

هذه حقيقة أكيدة ، ، وهي مطلوبة للنظرة الراهنة . .

وهي النتيجة الواضحة في قراءة التأريخ للوقوف على المعاني الموضوعية ، ، من خلال حكم الأحداث والأزمنة ، ، الحلوة منها والمرة . .

وصـــــدام حســـــين ، ، في أحد جوانب عظمته ، ، أنه لم يمر على التأريخ كسطور مدونة في الكتب أو شواهد عفا عليها الزمن وأنتهت الى سجلاته ، ، وأنما تعامل معه كحقائق وأحداث وروح معانيه ، ، كنتائج ودروس وعبر ، ، كانت لها آثار فيما أختطه من مسالك المجد وطريق الخلود ، ، مجد العراق كوطن وخلود الشعب كحامل رسالة مجيدة . .

أن حكمة التأريخ وما تزخر به من دلالات وفوائد ، ، هي حكمة ضرورية لمن يستلهم النشاط الأنساني عبر عصوره المختلفة ، ، ولكن الأهم من ذلك هو كيفية التقاط روح هذه الحكمة وتحويلها في المراحل المعاصرة ، ، الى عامل للنجاح وقوة تسهم في دفع المسار الى أمام .

فالتأريخ يفتح الطرق لمسيرة الحاضر والمستقبل ، ، ويوجد ممرات سالكة ، ، لمن يستوعب أحداثه ومعانيه ، ، وأهم ما مطلوب في هذا المجال الا يكون درس التأريخ ، ، حدوثة أو نص معرفة عابرا ، ، وأنما قيمة كبيرة ومحفز عظيم وقوة للحركة الحاسمة في صياغة الأوضاع الجديدة وتوجيهها وتطويرها .

وصناع التأريخ الكبير هم القادة الكبار ، ، ولهذا فالقائد البارع لا ينتظر الفرصة

التأريخية أو يظل سابحا في بحور الخيال على أمل ظهورها .

القائد البارع هو الذي يخلق الفرصة التأريخية ولا يتهيب من مستلزماتها وشروطها وتضحياتها ، ، وأول المطلوب هو أن يفرض أرادته على التحديات والا يكون خائفا من الصعاب بالهروب الى حيث الأمان الذي يتصوره . ! !

أين القائد صــدام حســين من ذلك ؟

اذا قلت : أن تأريخ العراق كان على موعد مع صدام حسين ، ، يمكنني بالمقابل ايضا أن أقول : أن صــدام حســين هو الآخر كان على موعد مع تأريخ العراق ، ، لأن بلد التأريخ الكبير يظل بحاجة الى القائد التاريخي الكبير ، ، رجل التأريخ والفرصة التأريخية .

التأريخ بالنسبة الى القائد صــدام حســين لا يمنحه الثقة والتفاؤل بالأمكانية الكبيرة للعراق فقط ، ، بل هو زاخر بالنتائج والدروس الكثيرة التي تسهم كثيرا في التخطيط للحاضر والمستقبل وقيادة مسيرتها صعودا الى العلا بأستمرار .

والفرصة عنده ، ، ليست فرصة شخصية ، ، وأنما هي فرصة الوطن كله ، ، ولا هي لحظة آنية وأنما هي تأريخية .

من هنا يكون المعنى التأريخي للفرصة في ذهنية القائد ، ، وأول ما يتبادر من مفاهيم ، ، أنها ليست فرصة ممنوحة أو سهلة .

الفرصة الممنوحة في عالم أقتطاع الحصص بين الكبار ، ، لا توجد للوطن المكانة التأريخية المطلوبة في حاضر الوجود الأنساني وحضاراته المعاصرة ، ، وأنتزاع الفرصة وحده يظل علامة الأمان على أن الوطن يتبوأ مكانته الحقة حتى لو كان يصنع طريقه الوعر والشاق عبر النحت في الصخور .

وبالنسبة للعراق لا خيار له غير أنتزاع فرصته ، ، لأن الفرصة الممنوحة هي حالة التصادم بين الحاضر والماضي مثلما هي حيز الفراغ والهاوية بين الحاضر والمستقبل .

أن بلد الحضارات يمنحه القائد التأريخي البارع ، ، ذات الضياء الحضاري الذي سطع فيه على العالم ، ، وهذا معنى التواصل التأريخي لأن شعاع الحاضر هو أمتداد مع كل أشعة وادي الرافدين الحضارية التي تشكل بمجموعها ، ، نور العراق الحضاري الكبير . .

لهذا يمثل صـــدام حســـين ، ، رجل المكانة الخاصة في التأريخ ، ، وتشكل قيادته ، ، فرصة العراق المنتزعة من أنياب القوى المعادية التي تريد حرمان العراق من دوره التأريخي ومنعه من تأدية رسالته المتكافئة مع تأريخه وحضارته .

أن صـــدام حســـين يضرب الصعاب ليخلق فرصة العراق التأريخية ، ، لأن الفرصة السهلة أو الممنوحة هي هبة الغير المقرونة بشروط أو هي عطاء الزمن الساكن وحضة الصدفة العابرة ، ، التي قد تخلقها عوامل عارضة أو تكون بنت النتائج الطارئة وبالتالي فهي لن تكون غير الفرصة المقيدة أو الخامدة ويكون فعلها خاملا في عالم التحدي والصراع المرير ، ، الذي يجعل من مصائر الشعوب ، ، لعبة رخيصة في ميدان السياسة ودنيا الأطماع الدولية .

أن الفرصة المنتزعة من وسط الصعاب ، ، هي التي يصنعها القائد الذي يشق طريقه بين ذلك ويؤمن النصر بالحكمة والمقدرة والشجاعة . وصـــدام حســـين هو القائد الذي لم يهبه أحد الفرصة وأنما العكس هو الصحيح حيث كان التكالب المضاد مركزا وشديدا للحيلولة بينه وبين طريقه .

والقائد الرائد طريقه يبدأ بالمصاعب ويستمر بينها ولكنه قطعا ينتهي بالنصر .

الوصول عبر الطريق الصعب الى الفرصة التأريخية المنتزعة يجعل تجربته في قلب التأريخ ، ، لأنها تصنع أفعالها في خضم الأحداث المعقدة والشائكة ، ، وهي بنت الأقتحام الشجاع للمخاطر الكبيرة لتحقيق الأنجازات التأريخية .

فما هو مصدر القوة التي هي وراء ذلك في جانبها الذاتي والموضوعي ؟

الذين يعرفون القائد صدام حسين أو يتابعون سيرته ، ، يستطيعون أن يدركوا حقائق ذلك في شخصيته الفذة .

أن أولى مميزاته ، ، هو أنه يعرف كيف يفوز بحب القلوب ، ، وكيف يستقر في الضمائر ويحرك العقول والسواعد .

وقيادته لذلك لا تميزها القدرة في أدارة الناس وتوجيههم حسب ، ، بل وخلق الثقة والأطمئنان بأنه كاتب تأريخ العراق المعاصر كما في أذهان الشعب من مطامح وأهداف .

فهل السبب في ذلك يرجع الى ثقته الكبيرة بنفسه ؟

الأمر الثابت والأكيد ، ، أن ثقة صـــدام حســين بنفسه هي وراء ثقته بالمعية التي يقودها ، ، وتبادل الثقة بينه وبين الشعب يشكل أساس المنجز التأريخي في قيادته للعراق الجديد .

أن الظروف العصيبة والأوقات الحرجة والدقيقة ، ، لم تكشف عمق التفكير الستراتيجي وسلامة التعامل بضوء صفحاته المتعددة مع الأحداث ، ، ورسم مسار الوصول الى الأهداف بأكثر من قناة حسب ، ، بل أفصحت مع ذلك عن مقدرة خاصة خارقة في الذكاء ورباطة الجأش والتصور الواثق والتصرف الدقيق ، ، الذي لا ينفعل ولا يتردد ولا يحاكي المواقف حتى المزعجة منها ، ، من خلال أجواء الضغوط القاسية .

أن صـــدام حســين يعرف كيف يقود نفسه في اللحظات الحرجة وكيف يرتفع الى المستوى المطلوب للقائد التأريخي في تعامله مع الأحداث الجسيمة والخطيرة وهذه واحدة من الخصائص العظيمة لقيادته الرائدة ، ، والميزة الكبرى في ذلك ترجع الى تعامله الدائم مع المبادىء وخضوع تصوراته لها .

أن أحكام المبادىء عنده الفيصل القاطع في جميع الأحوال والظروف ، ، وهو في هذا المنطلق يصون الحركة من الضياع ويضمن السيطرة عليها مثلما يصل الى النتائج المحسوبة والأهداف المتوخاة .

وهذا التعامل المبدئي ، ، لا يعني أن القائد يجعل من المبادىء تعويذة عقائدية يرددها في الخطب أو الأحاديث ، ، وأنما الأساس هو كيفية تصريفها في الواقع ورسم الخطوات بضوئها وفتح المسالك الصحيحة بهديها ، دون أن يعني ذلك القفز على المعطيات الواقعية أو تجاهل الحقائق الموضوعية .

هنا تكمن عبقرية القائد صـــدام حســين ، ، فمبدئيته فوق كل شيء ، ، ومقدرته المبدعة تخضع الواقع لأستقبال القوانين المبدئية وتخلق شروط التطبيق الحي والخلاق لها .

بهذا فصـــدام حســين لا يشعر بالأستلاب في تعامله مع المواقف ، ، لأنه رجل المبادىء الأمين ، ، وهو الذي لا يتخوف من أية صورة سياسية يقتضيها التطبيق ومرونته أو الحساب السياسي وتكتيكاته .

وهذه المسألة تشكل صمام الأمان للثورة والمفتاح الذي يفك عقد الصلات بين المبادىء والتطبيق ، ، لأن المثالية المجردة لن تنتهي الى أشياء ملموسة لصالح الأهداف المبدئية ، ، كما أن التطبيق المعزول عن أفق المبادىء وحدودها تكون نهاياته أسيرة للضياع وعرضة له .

القائد صــــدام حســــين لم يتمكن من أنهاء الخلل الخطير الذي يكتنف صلة المبادىء والتطبيق حسب ، ، بل كان المهندس الدقيق في أقامة الجسور السليمة التي تجمعهما وتوصل فعل كل منهما الى الآخر بما يخدم المسيرة وعملية التغيير الجديدة في المجتمع والنهوض بالعراق من جديد ، ، فهو رجل الأفكار الواعية مثلما هو رجل الفعل المبدئي المتوازن معها . .

هذه الأمور لمسها الشعب العراقي ، ، وأستطاع من خلالها أن يتعقب خطوات التأريخ من واقع الحال الذي يقوده صــــدام حســــين ، ، ولهذا لم يبدأ صلته مع القائد من فراغ أو أن يجعلها لعبة حظ يمكن أن تصيب أو أن تكبو ، ، ولاهي علاقة أساسها جبروت السلطة وقوتها في دفع الناس الى ذلك أو التسليم المكره بالأمر الواقع المفروض .

أن أندفاع الشعب الى صــــدام حســــين والتفاف الحشود حول قيادته مصدره الأول حب القائد للشعب وتفانيه في سبيل مجد العراق وعزة الأمة ، ، وهو بهذا أندفاع أصيل ، ، وليس أندفاعا تصنعه الدعاية الأعلامية ، ، وما يمكن أن تلعبه من أموز للحكام وأصحاب السلطة .

أن كل مالكي السلطة ، ، يملكون معها الدعاية الأعلامية ، ، ولكن الذي يملك قلوب الناس وضمائرهم هو القائد التأريخي الذي لا يصنع دوره الصخب الدعائي ، ، وأنما الذي يصنعه هو الدور التأريخي والصلة الحقة بالشعب ، ، وأرتباط الحقائق الملموسة بالمبادىء المعلنة ، ، والعلاقة السليمة بين القائد والشعب ونجاحه في تحريك الفعالية الجماهيرية ليس لكونه باعثا ومحرضا بسبب مقدرته على إثارة العواطف والمشاعر الوطنية بصورة غريزية ، ، وأنما بالدرجة الأولى ، ، للصلة الروحية الحية التي تجمع بالحب القائد وشعبه ، ، والوضوح الذي يميز تفكيره وقراراته

التي يكتسب به معية واضحة .

أن صـــدام حســين قد ضمن للعراق المنعة والتقدم ، ، وهذا يعني أن الحاكم فيه يمتلك من القوة الأمور الكبيرة والكثيرة ، ، ولكن هل يتفهم القائد ذلك على أساس ، ، أن طريق القوة هو الذي يضمن ولايته ! ؟

صــدام حســين رجل الشجاعة وعنوان للبطل الذي يصول في الساحات النضالية رمزا وقدوة ومثالا ، ، ولهذا ففي أعماقه روح البطولة والجرأة والأقدام ، ، وهذا يكفي لأن نقول أن القائد لا يحب الشعب الساكن أو الخنوع ، ، وأنما يريد شعبا حيا وباسلا ، ، لأن فهمه للقيادة ينطلق من الأساس التالي :

ليس هناك قائد شجاع من غير شعب شجاع .

ومن ذلك أجزم القول ، ، أن القوة بمفهومها الذي يعني الأكراه لا مجال لها في أفكاره ونفسيته ، ، وبالتالي فالولاية التي مصدرها مثل هذه القوة ، ، هي الولاية الزائفة لأن معيتها لن تكون غير معية العبيد .

ولهذا فالقائد صــدام حســين في أدارته للمسؤولية وقيادته للمجتمع ، ، ينطلق من نظرة شمولية ، وأنسانية في علاقاته مع الشعب ، ، نظرة أول ما فيها ، ، حب الناس والنفور من التسلط ومظاهره المكروهة .

أن التسلط يعني عنده حالة أكراه ، ، وهو لا يفتح طريق الحب وأنما يزرع الخوف ، ، ورضا المحبة غير خنوع الخوف ، ، ولهذا فشخصيته الفذة التي تمتاز بالمهابة ، ، تجمع بين العزم الخارق والرقة العالية ، ، ولهذا فبقدر ما فيه من تصميم القائد الذي يؤمن الفعل المطلوب في السيطرة على الواقع وأحداثه ، ، فيه من الشفقة والرحمة ماتجعل من نفسه مثالا للحب والأنسان .

هيبة صــدام حســين لم تخلقها مظاهر الحكم أو قوة السلطة ، ، وليست نتيجة لفواصل العزلة أو جدران الحصار التي تحول بينه وبين شعبه أو هي ثمرة لكرسي الحكم المختبيء في القلاع البعيدة ، ، أنها هيبة الأبوة التي يمثلها بالنسبة للعراقيين ، ، فهي هيبة يمتزج فيهاالحب بالأحترام والعرفان بجميل الدور التاريخي الذي نهض به بالعراق من جديد .

أن صــدام حســين أبو العراق الجديد ، ، وهذه الحقيقة بما تحمله من أدلة

الحرص على الشعب وحبه ، ، تعني أن القائد هو رجل المسؤولية ، الأمين ، ، فهو صاحب القرار الحازم والروح الشفافة معا .

أن هيبة صـــدام حســـين تكمن أساسا في مكانته المحفورة في قلوب العراقيين ، ، لأنه القائد الصميم الذي أوجدت مفاهيمه وأعماله المعنى الحقيقي للوطنية الصميمية ، ، ولهذا يقول :

(مالم نكون وطنية صميمة ، ، ومالم نرفع الظلم والأستغلال في العراق ، ، فأننا لن نكون قادرين على أيصال مبادىء الحزب الى أبعد من العراق ، ، بل حتى في داخل العراق ، ، فأن دعوتنا ستتحول الى مثل مامرت به التجارب الفاشلة في بلدان العالم الثالث ، ، حيث يتحدث المعنيون من قادة التغيرات الوطنية ، ، عند بداية التغيرات السياسية في تلك البلدان عن الوطنية والأشتراكية وغيرها من الشعارات بضجيج عال وبعد أن يغادر أولئك الساسة مواقعهم الأمامية ، ، لأي سبب من الأسباب ، ، نجد القوى المضادة ، ، تعود لتسلم مسؤوليات الدولة بدون عقبات كأداء ، ، لأن القوانين التي كانت سائدة ، ، عندما وقعت التغيرات ، ، تبقى ذاتها سائدة ، ، ولأن الشخوص في الصفوف الثانية لم يبذلوا أو يغيروا تغيرا ثوريا . ولم تخلق أعراف وتقاليد ثورية راسخة وجديدة في المجتمع ومؤسسات الدولة ، ، فهم يأتون ، أذن ، ويتسلمون الأمور تحت دعوات وأغطية شتى من الشرعية القانونية السائدة اعتياديا ، ، دون خسارة جدية بالمصالح والثقافة والتقاليد) . هذه الحقيقة تبين دور القائد صـــدام حســـين في تأريخ الثورة المعاصرة والعراق الجديد ، ، وهي ركيزة هيبته الخاصة التي تعكس أصالته التي تأنف من التكبر والأستعباد .

(٢) الاصالة الدائمة

لم يكن عنده كرسي الحكم ، حالة حلم شخصية كان يمني النفس بها . ولم تتحول عنده السلطة ، الى حياة تبحر فيها الاهواء الخاصة ، الى دنيا القوة وعالم الملذات ، لكي تنسى في اجوائها ومغرياتها ، روح النضال والاصالة والوفاء للشعب .

كان الحكم في مفاهيمه . . وسيلة الشعب في الوصول الى غاياته الوطنية والقومية . .

وكانت السلطة في نظره . . مقبولة فقط لانها مطلوبة كقوة حسم في واقع الصراع بين الخير والشر ، والاصطدام بين العدل والظلم .

وكانت آماله من أمنيات الشعب . . فلا اطماع خاصة له في الحكم . . ولا اغراض شخصية منه .

وكان هذا الزهد يرجع الى خصائص شخصيته وتجربته الخاصة في الحياة . . وبقاء الروح على سجاياها من دون ان تتآكل في الواقع الجديد أو أن تصدأ بما فيه من امراض السلطة المعروفة .

ولهذا ظل صدام حسين في كل المراحل ، الثائر والانسان ، وبقيت خصائصه الاصيلة على سماتها وما فيها من نقاء وقيم ولم تتغير مع الظروف والاحوال . . مهما أشرقت أو تلبدت بالغيوم السوداء .

وفي كل مراحل حياته ونضاله . . سواء كان مطاردا أم سجينا ينتظر احكام الجلادين . . أم كان رجل الثورة الاول وقائد المسؤولية فيها والسلطة بين يديه وطوع بنانه . . كان صدام حسين مثالا لكبرياء الكرامة الشامخة في الظروف الصعبة ونموذجا للتواضع والبساطة التي تكره التصنع والتكبر المسنود بمواقع السلطة .

لقد علمته حياته . . كيف يواجه صعوبات الحياة . . وكيف يرتفع بنفسه الى كل المعاني السامية التي تعني ، ان قائد البلاد هو غير حاكم البلاد ، مثلما تعني ان الانسان الاصيل الذي عاش في بيئة كادحة وتربى فيها لا ينسى اطلاقا القيم والمبادئ ولا يموت

شعوره بعيدا عن حاجة الكادحين ومعاناتهم وهو في مواقع الحكم الجديدة .

ولهذا يستذكر القائد تلك المعاني ويدعو الى استذكارها ، لكي تتفادى المسيرة . مخاطر الوقوع في جشع التعويض عن حرمان الماضي ، بنسيان ما يوحيه وما يحتمه وما يفرضه ، من نضال لصالح الكادحين .

ان نسيان الماضي ، لا يخلق قطعا بين ماضي الانسان وحالته الجديدة فحسب ، بل الاكثر من ذلك ان يفصل روحه عن حياة الشعب ، وهذه هي الكارثة الحقيقية لاكثر امراض السلطة خطورة .

ان الانفصام الروحي بين الحاكم والشعب هو بداية النهاية مثلما هو الدليل القاطع على ان هذا الحاكم هو سارق للحكم . او مغامر في سبيل الوصول اليه ، خدمة لاغراضه الخاصة .

لكن صـــدام حســـين القائد الثائر ، والقائد الانسان يدرك ، ان الحصة الخاصة الوحيدة والمشروعة هي ، حصة المكانة الخاصة في التاريخ ، وبدايتها لن تكون الا بحب الشعب والتفاعل معه .

ولهذا فحب صـــدام حســـين للشعب وعلى وجه الخصوص للكادحين ليس نتيجة لاحاسيس الفطرة ، وانما مصدره تجربة الحياة والمعاناة فيها والشعور العميق بمعنى الظلم الاجتماعي وادراك اثاره السياسية والاجتماعية والثقافية والتربوية .

ولهذا ينحاز قائد الشعب الى الكادحين ، ليس بصيغة كره الطبقات الاجتماعية الاخرى ، ولا بصيغة الانتقام منها ، تعبيرا عن الحقد الطبقي والحسد الاجتماعي ، وانما لكون الكادحين ، هم القاعدة العريضة والواسعة من الشعب ، الذين عانوا الحرمان والتخلف والاهمال ، بسبب العهود البائدة ، اضافة الى كونهم محور العمل النضالي في التصدي لتلك العهود ، ومادة الثورة الرئيسة في الدفاع عن الوطن وحمايته من الاعداء .

وبذلك فان صـــدام حســـين ليس قائد الطبقات الكادحة فقط ، وانما هو قائد الشعب العراقي بأسره ، وبكل طبقاته وفئاته الاجتماعية ، وهذه الحقيقة الموضوعية لا تنقصها الحقيقة المبدئية التي بموجبها يرى القائد ، أن مسؤوليته تتطلب منه ان يقوض كل أثر للظلم الاجتماعي وان يعدل في الخريطة الطبقية الاستغلالية الى

خريطة اجتماعية يزيح منها ، اثار الاستغلال والظلم والاستلاب .

ان هذا الايمان هو تعبير صميم عن جوهر نظرته المبدئية وشعوره بالمسؤولية التاريخية لتحقيق العدالة في المجتمع ، وهو الذي جعل من السلطة وسيلة في مسؤوليته وليست غاية لها ، ولهذا كانت تصوراته تعتمد المنطلقات التي تؤدي الى خدمة الشعب ، ولم تذهب الى الاستنكاف من الماضي والنظر الى الطبقات المحرومة من عقدة الحرمان ، بالترفع عليها او التنكر والانغماس في واقع الامتيازات الجديدة .

ان تفكير وسلوكية ونفسية صـــدام حســـين لم تتبدل ، بمعنى ان السلطة لم تفعل بشخصيته ما يجعلها النقيض لحالتها في مراحل ما قبل الحكم ، وأنما ظل القائد في المرحلة الجديدة ، ثائرا وانسانا وعلى حبه للشعب وكادحيه .

والحقيقة ان هذه الناحية ، قد ضمنت للمسيرة التوافق مع الاحكام المبدئية ، وكرستها لخدمة القضايا الكبيرة التي تهم الشعب وبناء الوطن الجديد ، لأن القائد بحكم اصالته ومبدئيته جعل راحته الحقيقية من خلال الحصول على حب الشعب وتقديره لما يقوم به .

ان حب الشعب هو الذي يولد رغبة العمل الدائم ، ولهذا يواصل القائد عمله بدون راحة خدمة للشعب ، ان مفهوم الراحة عند صدام حسين ، ليس المفهوم الذي يوظف فيه امكانيات الدولة للتنعم بها ، وانما هو في راحة البال والضمير ، وما يبذله من تعب كثير وسهر طويل على راحة الشعب وقضاياه هو عنده الراحة الكبيرة التي لاتعادلها أية راحة اخرى في الوجود .

ولهذا فبالقدر الذي يشهد مكتبه من تواصل مستمر في العمل ، يشهد انجازات كبيرة لصالح الشعب وقرارات لصياغة الحياة الجديدة .

صـــدام حســـين اذن قائد يكرس حياته للشعب ورجل ينذر نفسه للوطن .

لمـــــاذا ؟

هل يعتبر صـــدام حســـين أنه مدين للشعب فيما وصله . . وهل يعتقد ان العراق ، بكل ما يمثله ، يستحق هذه التضحيات . ؟

المتابع لآراء وسلوك القائد صـــدام حســـين ، يكتشف بسهولة ، ان الشعب عنده هو صاحب الفضل الدائم ، وهو مصدر القوة والالهام ، وبالتالي فأن الجميع

مدين الى الشعب فيما يحققه من نجاح وعلى كافة المستويات ، ولا يضع القائد نفسه بعيدا عن هذه الحقيقة ، ولا يشكل اعترافه بها ، تصغيرا لدوره ومكانته التاريخية ، لأن من وجهة نظره ، ان القائد لا يستمد القوة من تلقاء نفسه ، وهو يرى ان امكانيات القيادة تظل محدودة من دون الشعب ، او هي غير مرتقية الى المستوى التاريخي ، لان القائد لا يمكن ان يكون ذا مكانة خاصة في التاريخ من دون تأييد الشعب والتفافه حوله واندفاعه مع مسيرته .

والعراق في نظرته ليس بلدا يستوجب التعب او بذل الجهود في سبيله والاكتفاء بذلك ، وأنما هو بلد التاريخ والحضارة والرسالة التي تهون دونه كل التضحيات وأكثرها جسامة . ولهذا يستحوذ على تفكيره واعماله ، امر واحد ، هو بناء العراق ونهوضه وقيادة التطور الاجتماعي فيه ، وتحقيق التوازن السليم في بنائه الاقتصادي والسياسي والاجتماعي .

والتوازن المقصود ليس في المحافظة على الموروث الاجتماعي والحفاظ عليه ولا هو في كسر كل الحلقات بعيدا عن الحسابات العلمية والموضوعية او في السحق الاجتماعي وانما تعديل الخريطة السياسية والاقتصادية بما ينهي الظلم الاجتماعي ويخلص المجتمع من احكام التقاليد البالية الفاسدة والمتخلفة لدفع العراق في طريق التقدم والازدهار .

لهذا تشكل قيادة صـــدام حســين مركز الثقل في التوازن الاجتماعي الذي لا تطغى فيه نظرة طبقية معادية ، تسلب من التصورات والتصرفات المفاهيم الانسانية وخصائص العدالة السليمة في المجتمع ، فصـــدام حســين همه العدل وتصفية صورة الظلم دون الانجرار الى العنف غير المبرر .

فهل ان هذه الصفات هي التي اكسبته صفة الزعيم المحبوب للعراقيين جميعا ؟ ليس من شك . . ان النجاح في حل الاشكالات الاجتماعية ، وسط تأثيراتها المعروفة وفي ظل صخب المفاهيم المتطرفة والمغالية ، واتخاذ المسلك الصائب الذي يرى خصائص الواقع . بعين مبدئية ونظرة موضوعية ، وبأفق مفتوح على الحياة وابعادها الانسانية وبمقدرة باهرة على تحديد الاتجاهات السليمة ، قد جعل من التعلق بصدام حسين ، تعلقا بالرمز الهادي اضافة الى مشاعر الامان لقيادته وامكانياتها على بلوغ

المطامح الوطنية وارساء الاستقرار الصحيح في المجتمع ، بتخليصه من مظاهر التعصب والحقد ، وبنائه على القواعد الثابته للتكافؤ والمساواة ، بعيدا عن حسابات غير مبدئية .

ان هذه النظرة الاصيلة للقائد قد اوجدت البنيان الاجتماعي ، الذي يتجاوز الفعل السلبي للتعددية القومية والدينية والمذهبية الى تكوين الفعل الوطني الصحيح ، الذي ينشئ وطن الجميع ويدافع عنه ويحرص على ثورة الكل وقائدها رمز الشعب كله .

ولم يقف اثر هذه الاصالة على ذلك وحده ، بل تعداه الى تصويب الافكار الخاطئة والتصدي للانحرافات وتحصين الشعب منها ، لأن مخاطر ذلك تخدم اعداء الوطن ، يقول القائد :

(اننا يجب الا نترك الافكار الخاطئة او المنحرفة تمر دون ان نؤثر عليها ونعالجها بوعي وبحزم ، ذلك ان مواقع الردة انما تكمن في داخلنا . . اي داخل المجتمع العراقي ، وداخل اجهزة الدولة ، وما زالت هذه المواقع قوية ، لانها موجودة فكريا وسايكولوجيا في كل قطاع من قطاعات الدولة ، ويعبر عنها احيانا بصيغ شتى حسب ظروف الحال ، لذا يجب ان يكون الانتباه قويا وان يعتمد الخط العقلاني الثوري ، لان المزايدة انما تخدم العقلية اليمينية ، وتشكل مبررا قويا لتدعيم حجتها وابرازها . وابراز صيغها بشكل منطقي وبما يخفي نواياها) .

والواقع ان نظرات ومعالجات القائد صـــدام حســـين ، لم تبتعد عن هذه الصورة المبدئية ، ولهذا كانت قراراته سليمة ، بوقتها وحلولها ، فلم يقتلها التردد ولم يدفعها التطرف الى استسهال الامور والقفز على التقديرات الموضوعية والانسانية ، وانما كانت توازن خطواتها بضوء الضرورة المبدئية والحاجة الموضوعية .

ان صـــدام حســـين رجل الفعل التاريخي ، وهو لذلك القائد الذي لا يقف عاجزا حيال حركة المجتمع وما تفرزه او تتطلبه من مقدرة لمواكبة سياقاتها المتطورة وما تطرحه من قضايا ومفاهيم ، ويقظته ليست سياسية حسب او فكرية فقط وانما هي صحوة دائمة لذهنه المتفتح على شؤون الحياة بشموليتها وروافدها الكثيرة ، ولهذا يمتاز ابداعه بالشمولية والوعي الكلي والابتكار المتفهم للمستلزمات النظرية والعملية .

والعراقيون في مشاهداتهم لدور القائد ومنهجيته الفكرية والتطبيقية حفظوا له مكانته في القلوب ، مثلما يحفظ له التاريخ دوره في قلب سجله الخالد .

ان تاريخ صـــدام حســـين كبير وثر ، وفي العصر الراهن تشكل سيرة وتصرفات الرجل والقائد ، ملحمة رائعة لبطولة العراق المعاصرة .

وقد مثلت شخصيته التي لم تبهرها السلطة ، وانما ارتفعت على شكلياتها ، موضع اعجاب للشعب وسر جاذبيته للجماهير ، وتشكيله اسطورة العراق الراهنة في عهده الجديد الذي هو بحق عهد صـــدام حســـين .

وكان لهذه السمات ، وقدراته الفذة والعجيبة الاثر البالغ في كسب ثقة العراقيين صعبي المراس والرضا على الحاكم ، مثلما كانت محل اعجاب كل من يلتقي به من القادة والحكام ، وكبار رجال الفكر والساسة الكبار والصحفيين البارزين .

أن ظاهرة الاعجاب بشخصية القائد ليس مرجعها ، لأنه يجيد مخاطبة العقول ويرضي فيها رغبة الوقوف امام الحكمة والكفاءة فقط بل لان القائد صدام حسين هو الرجل الظاهرة في عالم القيادة .

ان سر الاعجاب بالقائد صـــدام حســـين لا يعود الى فن التشويق او العبارة الحلوة ، وانما قبله التصور الدقيق الذي يطرحه ويكون موضع احترام المقابل وانبهاره بما يشاهده او يسمعه .

ان كلماته الواثقة واحاديثه الدقيقة تكمن اساسا في أنه لا يجاري في كلامه غير المبادئ ، ولا يهمه في افعاله غير مجاراة الحقيقة المبدئية واحكامها ، وعدم الانسياق الى مجاراة المفاهيم والرغبات الخاطئة .

ان الكسب الذي مصدره ، مجاراة المفاهيم المغلوطة ، لا وجود له في افكاره او تصرفاته ، لانه كسب تكتيكي اضراره اللاحقة تصيب المبادئ وتطعنها في الصميم ، لهذا يقول ، (ان المواقف التكتيكية يجب ان لا تتعارض او تتنافى مع الخط الستراتيجي ، بل يجب ان تكون في خدمة الخط الستراتيجي المعبر عنه سياسيا بأهداف محددة لمرحلة من الزمن . وعلى طريق الاهداف المبدئية) .

هذا هو المبدأ المركزي للعلاقة بين الستراتيجية والتكتيك ، ولكن هذا لا يعني ان

تأخذ الصيغ التكتيكية باستمرار ، نفس الاتجاهات الستراتيجية من حيث الشكل ، اذ قد تبدو الصيغ التكتيكية بالشكل وكأنها غير متوازنة تماما مع الخط الاستراتيجي احيانا ، ولكنها في كل نتائجها وفي جميع الاحوال ، يجب ان لا تتنافى او تتعارض مع الخط الاستراتيجي من حيث النتيجة) .

ان فضل القائد في هذا المجال ، لا يعود الى كونه المخطط والقائد الذي لم تغب عنه لحظة هذه الامور أو انه الرجل الذي يقتل بريق السلطة من أمام عينيه ، نور الحقيقة وضياء المبادئ ، بل ايضا لان صـــدام حســـين لا تستهويه نتائج الكسب القائمة على التنكر للحقائق والمبادئ ، وهو رجل الحصانة المبدئية العالية والمقاسات الدقيقة ، ولهذا تمتاز قيادته بالوضوح المبدئي والثبات على الاهداف وتحديدها بدقة ، يقول القائد :

(أن امور الحياة يجب ان توضح بسياقات مبدئية متوازنة ، فنحن نقود مجتمعا في أواخر القرن العشرين وليس مقبولا منا ان نتحدث في العموميات ، ولا مسموحا لنا ان نتحدث في كل يوم حديثا مغايرا او ان نسلك كل يوم سلوكا مختلفا ، او ان نعطي في القضية الواحدة توجيهات مختلفة) .

ان هذه الحقائق بمجملها ، تؤكد ان القائد صـــدام حســـين هو زعيم الشعب الكبير ، ورجل التاريخ الذي يؤكد بالدليل ، على ان الشعوب ذات الماضي المجيد ، قادرة على ان تنجب ابطالها التاريخيين ، الذين هم في ناصية التاريخ ، عمالقة الزمن الصعب .

ان الظروف التي شهدت جيلا من القادة التاريخيين في العصر الراهن ، كانت على ما اكتنفها من امور خطيرة ، تسوق الواقع الى بروز ذلك الرعيل الفذ من الابطال الشامخين في التاريخ المعاصر ، لكن عظمة صـــدام حســـين المضافة الى ذلك ، ان زعامته تسطع في الزمن الصعب ، الذي تستميت فيه القوى الكثيرة والكبيرة ، من أجل ان تجهض فكرة الزعيم الفذ والقائد العملاق .

وصـــدام حســـين في قيادته يقلب هذه المعادلة ، ليشكل معادلة الشعوب الجديرة بالحياة والعطاء والتاريخ . معادلة ان زمن القادة التاريخيين وعمالقة الشعوب والاوطان لم ينته .

ومثل هذه المعادلة لا تصنعها الصدفة ، وأنما يصنعها الدور القيادي .
فكيف كان هذا الدور ؟

(٣) الدور القيادي

الحياة ليست قصة يتحول فيها من يريد ، الى صانع للنصر.
وسجلها ليس فصولا من خيال يكتب فيها من يشاء ، ليصبح البطل المحبوب .
قصة الحياة ، هي قصة التاريخ والكفاح ، فهي ليست ادعاء يسرق الاحداث ، ولا هي تزوير على الزمن ومشاهداته ، هي الحقيقة المقروءة حتي من غير تدوين ، وهي الكلمة المنطوقة حتى باللسان المقطوع .
فالتاريخ واقع وحدث وسجل يحتفظ بالحقائق للاجيال ، والكفاح ارادة وتصميم وتضحية ، البطولة فيه بطولة الفعل والموقف ، وليست بطولة الدعوات الفارغة الطنانة .
ولذلك كله فمن يلعب على حركة الهامش ، هو غير الذي يكسر غلاف المجهول ويقتحم التاريخ بالكفاح الشاق والاحداث الجسام ، ليحركه الى امام .
هامش الحياة لا يرضي صناع التاريخ ، لانه نفق مظلم ، يختفي فيه الحاكم ، بعيدا عن المسؤولية التاريخية وحضورها المطلوب في قيادة الاوضاع ، هو نصيب حكام الصدف او المصنوعين في دهاليز الظلام ممن يخافون من امال الشعوب ومخاطر الصراع مع الزمن الرديئ ، لكتابة الزمن المشرق الجديد .
هذا النمط من الحكام ، لا تهمه الحياة المطلوبة بشيئ ولا يضيف لها اي شيئ يمكن ان يسهم في رقيها الحضاري او في تسريع حركتها نحو النهضة والتقدم ، كل ما في ذهنه هو ان تعطيه الحياة النعيم وان يأخذ منها الترف واللذة والمكاسب الشخصية .
عنده الحكم ، امر ونهي ، أمر الرغبة الجامحة التي لا تحدها احكام المبادئ والاخلاق او الدستور أو القانون ، ونهي الفعل الذي يظنه تجاوزا على العرش الذي يتربع عليه ، والحكم الذي يتولاه ، باعتباره ملكية خاصة تجير الدولة لرصيده الخاص .
ان هذا الشكل من الحكام ، يقبع الى الخلف من حركة التاريخ ويسكن

خارجها ، وتؤدي نتائج تسلطه الى المحافظة على الاوضاع المتخلفة والى ازدياد هوتها مع مرور الزمن والمراحل .

هؤلاء الحكام الذين يخافون اقتحام غلاف المجهول وتحطيم حواجزه ، هم في ذات الوقت انانيون يدفعهم حب الذات الى الحالة الراضية بالمجتمعات المنخوبة مادامو هم ملاك الدولة وسادتها والمتسلطين على رقاب الشعوب .

فهل وراء ذلك . . الخوف من اقتحام غلاف المجهول ، ، أم هي الانانية المتسلطة ، التي ترضيها متعة الزمن ، وتحول دون رؤية الحالة العامة وما تشكو منه أو تعانيه ؟ !

قد يكون هذا وذلك ولكن في ظل واقع يلح على الحركة لتحقيق النهوض ، يكون الابتعاد عن ذلك تعبيرا عن حالة الانكفاء ، والتنصل من المسؤولية التاريخية ، واحتقار الجماهير والوقوف بالضد من امالها .

هذه الحقائق تؤشر . حالة الحاكم في الانظمة المتفسخة ، وهي حالة يستحيل فيها ان يكون الحاكم قائدا ، لأنه ليست هناك على الاطلاق قمة وسط الحضيض ، وبالتالي فأن دور الحاكم هنا هو النقيض الى الدور القيادي التاريخي ، الذي لن يكون بدون الصلة الحية والصميمة مع الجماهير .

أذن عقلية ابقاء حالة التخلف قائمة تكملها ظاهرة انفة الحاكم من الجماهير واستصغار دورها . . والنظر اليها كرعاع او غوغاء ، او كقطيع لا حول لهم ولا قوة . ! !

هذه نقطة البداية المطلوبة في الدخول الى الدور القيادي لصـــدام حســـين . . فالقائد في فهمه لهذا الدور ينطلق من حقيقة ، ان الادوار القيادية ليست حالة عودة او تراجع وانما هي حالة تقدم الى أمام .

والتقدم الى أمام هو ميزة القادة الذين يجعلون حركة الشعب تمضي مع حركة التاريخ ، ولهذا لا يصح القول ان صـــدام حســـين هو حاكم العراق ، لأنه قائده ، وبين هذا وذاك فرق كبير ، نلمسه في قول القائد نفسه حيث يؤكد :

«أننا لا نقبل صيغة وموقع الحاكم فحسب ، ، لأن صيغة الحاكم هذه تختلف عن صيغة القائد ، في التصورات والمنطلقات والنوايا ، والصلة بالشعب فالحاكم قد

تدفعه للوصول موجة انية ، او حالة ظرفيه خاصة او قرار ما ، تتخذه جهة ذات صلاحيات في امر من هذا النوع ، أما القادة فطريقتهم الوحيدة للوصول هي الشعب ، وتضحياتهم الاستثنائية واخلاصهم الدائم ، ومبادراتهم المستمرة ، لذلك فولادة القائد هي ولادة تاريخية مرتبطة بظروف خاصة ، وبواجبات خاصة ، وبعمل حقيقي ، من نوع خاص ، وليست ولادة اعتيادية او مصطنعة كولادة الحكام ، ولذا فأن الناس الذين يحرصون على ان يكونوا في موقع القادة وليس في موقع الحكام ، هم الناس الذين يرون الشعب دائما في بصيرتهم وفي عيونهم ويعرفون من اي شئ يعاني» .

لهذا يحدد صـــدام حســـين معنى الدور القيادي ، كونه الدور الناهض بالشعب ، وهو الأمر الذي يترتب عليه ان يتطابق هذا الدور مع خط التاريخ الصاعد ، فهو رفض لحالة السكون على هامش الزمن ، او الاختفاء في موقع الحكم ، بعيدا عن مسؤولية تحريك الاحداث وقياداتها ، وصناعة النصر من ثنايا المعارك الكبيرة والخطيرة .

صـــدام حســـين في تصدره للمسؤولية القيادية لم يجعل نفسه خارج الفعل الحاسم ، اي أنه لم يرقب الاحداث ويكتفي بالمشاهدة ويعطي بعد ذلك قرار الامر أو النهي .

المسؤولية في تصوراته ليست بهذه البساطة او السهولة ، ولا بهذه الصيغة المنزوية ، هي عنده التدخل التاريخي وممارسة القرار المعبر عن الضمير الوطني ، الذي يحدد الهدف التاريخي ويقتحم مع الشعب الليل الموحش ليصنع نهار الوطن المشرق .

ان هذه الحالة التي تستقر في ذهن القائد ، هي التي تجعله دائما في قلب الاوضاع ، لأيجاد التيار الذي ينزع الى أمام ، في ذات الوقت الذي يكون فيه بصره وبصيرته دقيقين في رصد الفعل المضاد ، لانه يعتقد ان أي فعل ناهض يقابله فعل مناهض ، فحالة التقدم الى أمام تخلق نقيضها وتواجه تيارات تقاوم هذه الحالة وتعمل على شدها الى الوراء .

فهل يكتفي صـــدام حســـين . . في فهم الواقع وظروفه ، وتحديد نظرية ، التطلع والحركة الى أمام ؟

الذين يعرفون شخصية القائد وتفكيره ، يستطيعون ان يتلمسوا امرا غاية في

الوضوح ، هي ان الرتابة والركود والسياقات المتكررة لا وجود لها في تصوراته .

لهذا فصـــدام حســـين لا يكتفي بتعليم الطريق او تحديد المؤشرات ، ولا هو يرضى لنفسه ان يقدم وصفة جاهزة ، ازاء القضايا الكبيرة ، ليترك الامور بعيدة عن دوره في الاسهام في الميدان والفعل فيه ، هو في لهيب الاحتدام سياسيا او عسكريا ، لان قيادته ليست من النمط الذي يهرب من المواجهة او مسؤولية النتيجة فيها .

وهذا ألواقع يرتبط بحقيقة كبيرة هي :

ان صـــدام حســـين هو ابن الولادة الصحيحة للقيادة

وهذه الحقيقة تعني الكثير اهمه :

اولاً : ان صـــدام حســـين لم يضعه في موقع القيادة غير الشعب ، لانه الابن الاصيل لهذا الشعب .

ثانيا : ان قيادة صـــدام حســـين لم تكن نصيب العمر الفائز بكرسي الحكم ، او هي نتيجة حظ آل اليه مع طير السعد ، الذي جلب له تاج السلطة ، وأنما هي قيادة الفعل المقتدر في أشد الظروف ، وهي تبؤ للمسؤولية في اخطر المراحل ، وقيادة للأوضاع في اللهيب الضاري والظروف الصعبة والمعقدة .

ثالثاً : القيادة في مفهومه لم تعن انه سلطان الحكم والزمان ، وأنما هي خدمة للشعب والمبادئ اللذين أوصلاه الى ما هو فيه .

رابعاً : القيادة عند صـــدام حســـين مسؤولية وأمانة وليست هي نزهة العمر او للراحة والنعيم بعد تعب الايام الطويلة .

هذه الامور تميز نظرة صـــدام حســـين الى الدور القيادي ، كونه يرى فيه دورا تاريخيا وليس دورا فنيا .

والتميز بين الدورين واضح ، فالدور التاريخي يعيش في قلب التاريخ ، بالحدث الكبير وبالحقائق التي يصنعها . .

والدور الفني هو الذي يكتفي بالسياقات الاعتيادية أو ان يعيش على هامش الحركة الباهتة الضلال اللاهثة وراء حركة الزمن البطئ .

وهذا التباين . . قد جعل من الدور القيادي دورا ليس بالسهل وانما هو صعب وشاق وفيه تضحيات كبيرة ، وبالمقابل له امتيازات كبيرة .

والحقيقة ان صـــدام حســـين بدوره القيادي قد حصل على اكبر امتياز ، اعني به امتياز ، المكانة الخاصة في التاريخ .

هل يرضي ذلك القائد ويريحه ؟

ان النظرة الى الطاقة التي يعمل بها صـــدام حســـين والتعب الطويل الذي يبذله تعني امرين هما :

— ان امتياز المكانة الخاصة في التاريخ ، لا يعادله في مفاهيمه أي امتياز اخر ، وهذا الشعور أحد أسباب طاقته التي لا تنضب لخدمة الشعب والسهر عليه وفي تعبه المستمر وحرصه على المبادئ .

— أن صـــدام حســـين وهو يختار مكانة التاريخ ، قد اختار مسبقا العمل بوهج الضمير الحي ، الذي هو يقظة العقل وقوة الساعد ولهذا يقول :

«في اذهاننا ان العراق اكبر من حجمه الحالي ، ليس اكبر جغرافيا ، وانما اكبر في العطاء واثقل في الوزن واعلى في النوعية . . كيف يحصل هذا ، عندما تزداد نوعية العطاء اقتدارا وأبداعا بضمائر وبعقول وبسواعد العراقيين ، وارتب الامور بهذا الترتيب ، الضمائر ، العقول ، السواعد ، لأنني أؤمن ، بأن العقول ليست هي دليل الانسان الأول وصولا الى ما هو افضل ، وأنما كما أرى ولشعب مثل شعبنا ولأمة مثل امتنا عندما نذهب الى الامة ، من خواصنا ان يكون الضمير هو دليل العقل ، فأذا ما أمتلأ العراقي وطنية وشعورا عاليا بالمسؤولية تجاه وطنه وتجاه شعبه ، فمن المؤكد ان هذا سيجعل العقل متأثرا بحالة من حالات التطور التي تستجيب لحالة الارتقاء العالي داخل الضمير من الاحساس بالمسؤولية بما يجعل الانسان قادرا على الابداع المطلوب» .

ولهذا فحالة العراق الجديد ، هي حالة تمثل واقعا مبدعا . . رجل الابداع الاول فيه هو القائد صـــدام حســـين . .

هذه الميزة التأريخية للقائد ، مردها ان صدام حسين هو رجل الحلم العراقي المتحقق ، فهو لم يسرح في دنيا الخيال ويكتفي بها ، وأنما نقل الحلم الى حالة في اليد ، ركزه في الارض العراقية ، وهذه احدى خصائص الدور القيادي التاريخي وابداعه في

التعامل مع صلب الحياة وواقعها من أجل الانتقال بالمجتمع الى الحالة المطلوبة .
وبالطبع ان هذا الدور لا يرضى بالمألوف بمساره التلقائي ، لأن الحالة المطروقة يمكن ان تتلازم مع الدور الفني او هي حالة للنزوع النسبي للتقدم المحدود . بسبب اعتمادها المسارات التقليدية او التي تزحف بشكل بسيط . .
صـــدام حســـين هو قائد الطريق الجديد المبتكر . . وهو الذي أمن به للعراق سبيل النهوض ولهذا يقول :
«الحياة يمكن ان تتدحرج ويمكن ان تصعد ، تتدحرج في الطريق المعروف الواضح وبالاقتدار ، ولكن لكي تصعد ، لا بد ان تكون هناك قوة وطاقة قادرة ، قادرة ان ترتقي بها في مراحل الصعود الى حيث ينبغي ان تتربع على القمم» .
هل يبدو هذا التفريق ضروريا ام هو محاكاة نظرية لا يتحملها الواقع وتنشأ عنها مضاعفات ومفاجات ، الشعب في غنى عنها والوطن ليس بحاجة اليها ؟
ثم هل ان الحركة التي تمضى في سياقها التقليدي والاعتيادي هي المطلوبة باعتبارها الحركة الاكثر امانا واطمئنانا ؟
ان أية أجابة مطالبة بالدقة لكي تدخل الى الاحكام المبدئية والموضوعية .
وتأسيسا على ذلك تفترض الاسئلة السابقة استكمال بعدها بالسؤال التالي :
هل ان العراق يحتاج الى النهوض الصاعد ام التطور الزاحف ، ليحقق حالة التوازن الحضاري ، مع ماضيه والتقدم المعاصر . .؟
الحقيقة ان العراق يحتاج الى الطفرة التاريخية التي تلبي الامرين معا ، ، التواصل الحضاري مع ما يعنيه تاريخ العراق الحضاري والنهضة الصاعدة لتحقيق حالة التوازن مع التقدم العالمي الراهن .
وهذا الهدف الكبير بكل ما يعنيه من مسؤولية جسيمة ، هو ليس حالة مخيفة عندما يتوفر القائد الحكيم القادر على جعل القفزة التاريخية ، قفزة ثورية وليست قفزة في الهواء .
ان طفرات التاريخ لا يقوى على احداثها غير القائد التاريخي ، لانها ليست لعبة على الزمن ، او تعطيلا لحركته لكي يؤمن التوقف الحاصل فيه ، حالة البلوغ المطلوبة للتوازن مع التقدم المعاصر ، انها فعل الصعود الى القمم وتسلق الذرى وصولا للتقدم

المنشود ، ومثل هذا الفعل فيه مخاطر رهيبة ، لكن الذي يحول دون الهاوية فيه وجود القائد التاريخي .

هنا تبرز قيمة صـــدام حســـين ، لأنه القائد الذي يسابق الزمن لكي يضيف للعراق مكانته الحقيقية في واقع النهضة والحضارة .

وعلى ذلك تكون صلة الدور القيادي متوافقة مع الطموح التاريخي للشعب . . وهذا التوافق يتبلور في ذهن صـــدام حســـين بالامساك باللحظة الستراتيجية وبالخط التاريخي . وهو لهذا السبب ، ليس القائد الذي يرضي الشعب بشكل مصطنع ، وأنما هو الذي يقوده ، وليس بالحاكم الذي يتلائم مع المرحلة وأنما هو القائد الذي يسيطر عليها ويحكم عمليات توجيهها الى أمام . .

في ضوء ذلك يكون صـــدام حســـين رجل الوضوح والحقيقة . . دون ان يكون الرجل الذي يرضى خلافها أي شئ آخر .

فالحقيقة عنده مقدسة والوضوح في مفاهيمه يكسب معية واضحة . .

أن الكثير من الحكام يحاول الحصول على رضا الناس بالخداع والتحايل على الحقيقة وبالغموض الذي يسهل له غش الجماهير وتضليلها . . ومثل هذا الرضا لا يدوم . . وأساليب الوصول اليه لا بد وان ترتد على اصحابها .

صـــدام حســـين لا يقيم صلاته على مثل هذه الاساليب . . أنه لا يستهدف الكسب التكتيكي ولا يريد لمسيرته النجاح العابر وأنما يخطط ويعمل ويناضل من أجل النجاح المبدئي والستراتيجي ، لأنه رجل المكانة الخاصة في التاريخ ، ومن يكن كذلك لا يلجأ الى الالاعيب الرخيصة . ولا يضع الحكم وكرسيه غاية النهاية لما يريده ، وأنما طموحاته تنحصر في تنفيذ المبادئ وتحقيق الاهداف وكسب التاريخ .

ان الدور القيادي لصـــدام حســـين ، هو أساس استمرارية النهج الصاعد للعراق الجديد ، فالقائد يرى «أن علينا جميعا ان نفكر هكذا ، أنه حيثما وصلنا الى قمة نتصورها ، انما هي القمة في المرحلة الراهنة لعطائنا ولامكاناتنا ولابداعاتنا ، لا بد ان نتصور ان خلفها قمة اخرى اعلى منها ينبغي ان نصل اليها ، وهكذا الاستمرارية بهذا النهج هي التي تحقق الوفاء الصحيح للعراق العظيم ، ، والا نكون قد تعاملنا مع العراق ، خارج الموقع الذي ينبغي ان يكون عليه» .

هذه الحقيقة توضح . . ان صـــدام حســين هو الرجل القائد الذي يعرف كيف يحقق طموحات الشعب ، وكيف يرتقي بالعراق صعودا . .

وبالتأكيد ان مثل هذا النهج والاستمرار فيه يتطلب ان يكون الدور القيادي ، دورا طموحا ، وهذا يعني ان الاعتقاد بالكمال ليس واردا ، لان مثل ذلك يغلق فرص الارتقاء والتطور ، ويكفي ان نقف على ما يورده القائد في هذا المجال لنتعرف على جانب عظمته القيادية ، حيث يقول :

«أن الذي يتصور أنه وصل الى مستوى الكمال ينتهي بمجرد استقرار وثبات هذا الشعور لديه ، لأن مثل هذا الشعور سيوصله الى الحافات النهائية ، والوصول الى الحافات النهائية يعني انعدام التطور وتوقف العمل من أجله ، فما دام التطور مطلوباً فالسعي بأتجاه الكمال مطلوب ايضا ، اذ ان افتراض النقص مسألة اساسية ، حتى وان كان النقص جزئيا او ثانويا باعتبار ان مثل هذا الافتراض هو احد الشروط والدوافع الاساسية لضمان افتراض النقص ، لضمان استمرار التطور لا يلغي او يضعف الاعتزاز بالعمل والانجازات القائمة ، وأنما يعززها بطريق آخر» . . .

هذا الواقع هو الطريق الصائب في الوصول الى المنجزات التاريخية ، التي تمثل بقيمتها المبدئية والستراتيجية قمة نضالية شاخصة ، وصناعة مثل هذه القمم ممكن فقط عندما يتوفر للشعب قائد تاريخي ، يشكل قراره الشجاع أساس هذه المنجزات التاريخية الكبيرة .

فكيف هو القرار الشجاع للقائد صدام حسين ؟؟

(٤) القرار الشجاع

كان اسمه يتردد ، وكانت وراء ذلك الصدى المسموع عاليا ، في الساحات النضالية او في خلايا الاجتماعات السرية ، شجاعته التي كانت موضع اعجاب وحديث المناضلين بينهم او مع الجماهير الغفيرة . .

كانت الشجاعة أولى العلامات الفارقة في هويته النضالية ، وكانت من الشهرة ، ما جعلها تكسر حلقات الكتمان وعالم السرية ، ليكون من خلالها الشاب الجسور صـــدام حســين ، رمزا لاقدام المناضل غير الهياب من المحن والمخاطر.

كانت شجاعته هي التي تتحدث عنه . ولم يكن هو الذي يتحدث عنها ، فمنذ البدايات كانت مواقفه تعبر عن بسالة الفعل البعيدة عن الادعاءات المزايدة او الكلمات التي تتباهى بذلك ، من غير سند وأدلة ووقائع .

كانت بأختصار ، شجاعة الموقف والرأي ، وصارت شجاعة للقرار ، حتى لو اقتضى الامر ، ان يكون القرار المكلف ، وما اعنيه : ان القرار الشجاع للقائد صـــدام حســين ، لا يتأخر لحظة ، عندما تتطلب الحالة ، ان يكون قراره أبن الميدان المغمس بالدم ورائحة البارود ، وهو ما يجعله في سبيل الشعب مشروعا دائما للشهادة .

هكذا يتحدث عنه التاريخ ويكشف الواقع المعاش ، معدنه الباسل ، الذي لا يعرف التردد ولا الخوف ، دون ان يعني ذلك ، ان جسارته هي انتحار من غير ثمن او خسارة بلا معنى .

فصـــدام حســين بقدر ما تتبلور في شجاعته ، البسالة والاقدام ، تزخر بالحكمة التي تأنف الاندفاع غير المبرر مثلما تمج اقاويل الشجاعة الدعية .

ولهذا في الظروف الحرجة والخطيرة ، تكون مواقفه مثالا للرجولة الوثابة ، وللمقدرة القيادية في تحديد القرار الصعب الذي يتعامل مع المخاطر ، بكامل الثقة والمقدرة ، ليشق الطريق بين ركام العقد والمشاكل والتحديات .

هذه الخاصية الكبيرة عند الرجل الكبير ، ظلت مع المصاعب ، تنبئ ان صـــدام حســين هو القائد الذي يعرف كيف يلوي عنق الاحداث والاخطار ، ويحول كل الظروف المعيقة الى حالة ممكنة للعمل وخاضعة للفعل . . ولهذا صنعت منه هذه الظروف والنجاح في السيطرة عليها ، قائدا ماهرا ، ورجلا للقرار الصائب ، من حيث دقة الهدف المحدد ، والتوقيت الجيد والصحيح .

فأين اسرار ذلك . . ! ؟

أول الامور التي اظنها ، تكمن في روحه المتفائلة ، التي لا يقتل في أرادتها التشاؤم . . افق النجاح ، ، مهما كانت فرصة ذلك ضئيلة او تكاد تكون مستحيلة ، وتفاؤله مبن على قاعدة مركزية هي : ان الليل مهما يطل فسيعقبه النهار .

وكانت أيضا ، ان الغرور لم يقترب من قلبه مع كل نجاح ، وانما كانت فاتحة كل نصر ، مدعاة للتأمل والدراسة والتفكير ، عن مكمن القوة ونقاط الوهن . . وكل مؤشر يفيد عملية النهوض الى أمام .

أن تفاؤل صـــدام حســين ، ليس تمني العاجز الذي يزرع في افكاره الامال الحلوة فقط ، وأنما هو رؤية المطامح وطرق بلوغها ، بالثقة والتصميم والنظرة التي تدرك ، ان وراء الحجب الكثيرة ، شمسا مشرقة ، وان الغيوم الكثيفة غير باقية الى الابد ، لأن نور الحقائق كفيل بازالة ركام الزيف والتزوير والاكاذيب .

ولهذا كانت افكاره تطرد شراك الغرور ، لأنه متأكد ان ذلك ، مفتاح الوصول الى الحقائق من غير أوهام او خيلاء ، فالغرور في مفاهيمه تجسيم للامور خلافا للواقع ، فهو تضييع للحقيقة وبالتالي يكون مقتل كل نصر ، لأن الحقيقة الضائعة تترادف دائما مع النصر المفقود .

فتفاؤل صـــدام حســين وشطبه للغرور من حياته ، يعود اصلا الى ان اقتدار القائد ليس حالة واحدة وانما هو حالة شمولية ، ورؤيته تتعلى النظرة التقليدية الى التبصر الستراتيجي ، ولولا ذلك ، فأن هامش المجهول ينتهي الى المتاهات المرهقة والضياع القاتل .

هذه الحقيقة تعني ، ان عقل القائد صـــدام حســين متفتح ومفتوح ، الأمر الذي يجعل سبيله ، طريق الامان لأنه ينظر الى ما يكتنفه من مشاق ومخاطر على

أساس ، انها امور ممكنة الحل وليست عصية .

وهذا احد اسرار نجاحه في المواجهات ، وهو سر قوته الدائمة ، لأن المعارك تزيد قوته ولا تستنزفها ، فقيادته لا تقوم على الفطرة القيادية وانما هي تتسم بكل ركائز القوة والنصر لأن صـــدام حســين قائد من طراز خاص وقيادته ، علم وفن وخصائص اخرى .

صـــدام حســين بهذه الصفات القيادية يتسلح بكل ما يجنب قراراته التسرع ، لأنه قائد أمين وأصيل وليس مغامرا ينساق الى الأوهام . . والفرق بين هذا وذلك واضح ، ، يكفي ان اشير الى ما يقوله القائد نفسه في هذا المجال :

«هناك فرق بين القائد والمغامر ، ذلك لأن القائد هو ابن الواقع وهو ابن الموضوعية ولكنه ليس عبدها ، وانما هو سيدها بالارتقاء والتغيير النوعي المتقدم . اذن فهو الذي يرى ويفهم الواقع والظروف الموضوعية ولا يطفر من فوقها او يتجاهلها كما يفعل المغامر ، وأنما يعيد صياغتها ويضعها في اطار جديد ، تكون فيه قادرة على ان تحفز الروح والهمم في العمل الى امام بدلا من ان تثبطها ، وبذلك يضيف امكانية جديدة الى الامكانات المرئية بمجرد اعادة صياغة الواقع بفعله القيادي ، وبذلك يضمن للقائد بفعله المبدع تحقيق نتائج تاريخية ، والمغامر قد يضمن تحقيق نتائج معينة ، ولكنها ليست تاريخية ، اي نتائج تعبوية صغيرة مجتزأة عن سياقات التطور العام ، ان لم تكن مناقضة له احيانا ، نتائج ميدانية صغيرة ، نتائج زمنية صغيرة ، قد تعقبها كل حالات الكبوات او الكوارث المحتملة او الممكنة» .

وعندما يكون صــدام حســين هو من هذا النمط الخاص في عالم القيادة ، لأنه ابن الشعب ، تكون معاناته وراء معرفته الشاملة والدقيقة وقيادته المتمكنة التي تضع القرار في خط واحد مع الغاية الجماهيرية .

ولهذا يمثل الدور القيادي لصــدام حســين نزوعاً الى المكانة المشرفة للبطل التاريخي . . الذي تتجسد عبقريته من خلال عبقرية شعبه . لذلك لا يجعل نفسه فوق الشعب ولا يغفل الشروط اللازمة لوضع طاقاته في مكانها الصحيح .

ان الايمان بهذا الدور لم يجعله راضيا على حالة القبول بالاوضاع الراهنة مهما كانت ، او التعامل مع معطياتها ، كحقائق ازلية ليست بعدها منافذ او طرق للانتقال

الى غيرها من الحقائق على افاق الطموح التاريخي ، بل كان ايمانه هو الذي يوظف كل النتائج الايجابية وصولا الى حالة ارقى ومستوى متقدم . . لانه يجعل الافاق مفتوحة على الدوام ، وينظر الى السكون في اية مرحلة ، بمثابة السياج المغلق الذي يحبس حركة التطور وينتهي داخله الفعل الوثاب ، لتنتهي الحالة بالنتيجة الى الشلل او التفسخ . .

فالقائد يرى ان كل مرحلة ، فيها بذور الانتقال الى غيرها ، وفي رحمها جنين الولادة الجديدة لمرحلة اخرى اكثر تطورا واكثر اقترابا نحو الاهداف التاريخية .

هنا تكون قيادية صـــدام حســـين التاريخية ، ووراء قراراته المصوبة بدقة ، وذلك لجعلها الدروس المستنبطة من الواقع والتجربة ، ذخيرة معاركه في سبيل الحقائق المبدئية والغايات التي يريدها لعزة الشعب وطموحاته الوطنية والقومية .

ان صـــدام حســـين هو القائد المعلم ، ورجل الدور التاريخي الخبير في التعامل مع حركة الواقع والنضال ، وهو في كل اختبارات الحياة لم يكن لنجاحاته الباهرة والموفقة ، اثر ينهي عنده الطموح النضالي ، او يوصد امامه سبل التعلم من الحياة والشعب . . فالتجربة تظل في مفاهيمه ، ذات قيمة كبيرة ، وهي ابعد من كونها ساحة للتطبيق ، يمتحن فيها جدية المبادئ او يكتشف منها الافكار ، هي ايضا ميدان يتوقف النجاح فيه على المقدرة القيادية المبدعة وقراراته المبدئية والستراتيجية والتكتيكية ايضا .

فالقيادة فيما تعنيه لدى صـــدام حســـين هي ، التدبر الصائب والتدابير الصحيحة . وهو بهذا المعنى لا يجعل الحالة القيادية ، حالة عفوية او مراهنة غير مأمونة .

ان الحالة العفوية اوالمراهنة قد تفلح في هدف تسجله ، او ربما تكسب جولة معتمدة على ضربة الحظ او عامل الصدفة وهي حالة الاستثناء لان القاعدة العامة فيها ، ان تصاحب نتائجها ، الويلات والخسائر ، في حين ان التدابير القيادية الصحيحة هي التي تضع قراراتها من خلال النظرة المبدئية والعلمية والموضوعية ، وتؤمن بها ، الحسم الصحيح والامين والدقيق .

ولهذا تشكل تجربة الحياة والانفتاح على واقعها ، بعقلية الروافد العديدة ، منهجا

ستراتيجيا ثابتا في ذهنية القائد وقراراته السليمة .

ان التعلم من التجربة الخاصة ، او تجارب الاخرين ، للوقوف على حكمة الحياة واحكام الزمن ، أمر غاية في الضرورة ، لأن تجاهل ذلك او الاستنكاف منه ، يفوت على الفرصة التاريخية تجاوز الثغرات ويحرم الذهن من دروس التاريخ التي تنقذه من الغفلة او النظرة المتسرعة .

صـــدام حســـين في هذا المضمار هو رجل المكانة الخاصة في التاريخ .

لمـــــاذا ؟

ان القاء النظرة الدقيقة على التصرف القيادي للرئيس صدام حسين ، يحدد امورا بارزة تجعل منه بحق رجل التاريخ ، اهمها :

أولاً : ان القائد يحرص على مراعاة الجانب الانساني في قيادته للمجتمع ، فالقيادة الستراتيجية ليست هي القيادة التي تحدد الهدف الستراتيجي بكفاءة ، ولا هي بمقدرتها الناجحة في توجيه المسار الى الغايات المطلوبة ، ان ذلك على اهميته ، يظل في مراتب اقل قياسا الى النجاح في قيادة الجانب الانساني ، وادراك فن قيادة البشر ، بتحريك النفوس داخل الاعماق اولا وقبل حركتها على الواقع .

ان تحديد الهدف الستراتيجي الصحيح ، جانب مهم لنجاح القيادة الستراتيجية ، ولكن الاهم منه هو قيادة الناس وتوجيه اندفاعهم الى الهدف المحدد .

والواقع في هذا الصدد قد اكد ، ان صـــدام حســـين لم يكن شخصية فذة وغير عادية فقط ، وأنما كان قائدا تاريخيا استطاع ان يحرك اعماق الشعب ويحقق التعبئة الجماهيرية الكاملة صوب الاهداف المتوخاة .

ثانياً : ان النظرة الى الجماهير ، لم تنطلق من نظارة الحكم التي تصغر عدساتها الناس ، وأنما كانت نظرة صدام حسين الى الجماهير من موقع القيادة التاريخية التي لا ترى هناك ما هو اكبر من الشعب .

ولهذا اتسمت قراراته بكونها قرارات الشعب الذي يحس بها وبتعبيرها الدقيق عن مصالحه .

وصار لذلك قرار صـــدام حســـين قرار الشعب ، لأن القائد يجد بالقرار الفوقي ، طاحونة البيروقراطية والتسلط التي تسحق البشر وحقوقهم على السواء .

ثالثاً : الامر المهم والرئيس الذي نجده في قرار صـــدام حســين ، هو احترام العلم والنظر اليه ليس كقوانين علمية حسب ، بل مصدر للحياة الناهضة .

ان القيادة في عالم اليوم ، ليست فنا او علما مجردا يستوجبان ان تكون للنظرة العلمية مكانتها في القرار والتوجيه فقط ، بل هي في واقع الحياة المعاصرة التي يكون العلم اساس نهضتها تحتم ان يكون العلم هو سيد القرار .

والحقيقة ان مكانة العلم في تفكير القائد صــدام حســين مكانة متأصلة وصميمة ، فهي ليست محصورة في ذهنيته العلمية المتفتحة والمحبة للعلم حسب ، بل هي مكانة تجعل العلم من بين الاوليات الرئيسة والمركزية في تحقيق النهوض والتطور الشامل .

بهذه المواصفات تتميز ذهنية القائد صــدام حســين ، ومنها تتمثل قيادته الناجحة التي تحكم السيطرة على قلوب الناس بالحب ، وبالعلم الذي يصون القرار من أثار العواطف الخاطئة والمزاج المرير .

وأستطيع بعد ذلك ان اقول : ان توقد الذهن القيادي للرئيس صدام حسين ، مرجعه حالة الاشعاع الدائمة ، التي ترى محركات الحياة الصحيحة وتستجيب لها بنظرة ستراتيجية وعلمية .

وهذا هو مكمن الخطر الذي يخشاه الاعداء في عراق اليوم ، عراق صــدام حســين .

وهذا هو مصدر امتعاضهم ، لأن المطلوب وفق تصوراتهم ، ان تكون في العراق حالة آمرة وليست حالة قائدة .

حالة الحاكم الذي يدير السلطة بالتخبط وليست حالة القائد الذي يوجه المجتمع بالتخطيط .

ان قيادة صــدام حســين بذلك كله . . تغلق الفرصة بوجه الاعداء . في التحكم بالعراق او بجعله ضمن الحالات المقبولة في المنطقة .

وحقيقة العراق في عهد صــدام حســين ، انه يرفض التلاؤم مع ما هو مرسوم من الغير ، لأن القائد الماهر فيه يعرف كيف يرسم لوحته الاصيلة والجميلة ، واين يكون موقعها .

فصـــدام حســين توصل الى ذلك ، وكان للعراق المعاصر ، المخطط والقائد البارع ، والذي كانت مكانته بفعل قيادته ، مكانة المجد والتاريخ ، لأن صـــدام حســين قد اكتشف قوة العراق الموضوعية ووجهها في المجال الصحيح الذي يريده العراقيون .

وصـــدام حســين قائد العراق الموهوب الذي ادخله الى الرحاب المطلوبة ، واطلقه من الأسر الخفي ، وفكه من القيد المفروض ، هو بالنسبة للعراقيين قائد الامل والكرامة والمطامح ، وهو بالنسبة الى الاعداء ، القائد غير المرغوب لأنه انتقل بالعراق الى المجال غير المسموح به ! !

هو اذن رجل القرار . .

وقرار الرجل قرار الشعب . .

وهذه الحقيقة ليست تسمية جزافا ، انها الواقع الاكيد لقوته القيادية وامانتها والتي كانت وراء (وحدة الارادة وتصريف الارادة . . مكانا وزمانا ، بما في ذلك القرار المطلوب في اللحظة وفي وقته المناسب بصورة دقيقة ، وتعبئة جماهير الشعب ، تعبئة صميمية على المبادئ الاساسية) .

وهذا التصور بما يؤشره يؤكد ، ، ان صـــدام حســين هو رجل القرار الواثق ، الذي يجسد في مواقفه شجاعة القيادة عبر القرار الشجاع ، ويمنح الثقة للشعب بأن مسيرة النصر لا يردها احد مهما كان عن بلوغ اهدافها .

وهذه الثقة الواعية هي غير الثقة العمياء ، انها ثقة ترى المعوقات ولكنها تطمئن لقدراتها وتتسلح بالنفس الطويل .

لهذا يحرص القائد صـــدام حســين على تأكيد قيمة الصبر ، ليس كحالة قنوط وانما كحالة ثبات وصمود ، الظرف العصيب فيها ظرف طارئ .

ان الضغوط لم تجعل القائد يستسلم للريح ، والعواصف مهما كانت شديدة لا تحني هامته مثلما لا تنكس رأس الشعب الى الارض .

وما أقوله لا يشير الى ان القائد لا يكترث لعوامل الظروف والمحيط ، وأنما يؤكد ان فرصة العراق التاريخية لا يسرقها احد ، ولهذا يقول :

«اذا لم تكن قادرا على اغتنام الزمن كفرصة ، فعليك تعطيل اغتنامه من قبل

الخصم كفرصة» .

لهذا لا يدخل القائد مبارزة لا يختار ميدانها وزمانها ، وان فرضت عليه مبارزة ، فهو يعرف كيف يذيق اصحابها طعنة الموت ومرارة الفشل .

وهذه المسألة اساسها ، ان صـــدام حســين لم يتسلل الى الحكم من الدهاليز المشبوهة وأنما هو وصل الى شرفات المجد من ابواب الثورة والشعب والنضال .

ومثل هذا القائد ، يشكل القوة التاريخية التي تفعل فعلها الساحر في الجماهير ، لان قيادته تلغي الفواصل والقطيعة بينهما ، ويكون فيها ابناء الشعب ليس معية مركونة في احصاء سجلات النفوس ، بل رفاق درب ومعارك وبناء .

اذن حالة المعية غير الواعية يرفضها صـــدام حســين ، لأنها تتطابق مع ارادة الحكام عبيد السلطة ، لأن الشغل الرئيس لوجودهم في الحكم هو ابقاء حالة الجهل والتضليل ، بأعتبار ان ذلك يغمض العيون ويخدع العقول عما يقومون به .

ان صـــدام حســين أول ما يريده ، شعبا مفتوح العيون والعقول والضمائر ، لأن التبصر والوعي والأيمان عنده الطريق المتكافئ مع الرسالة التي يريدها للعراق ، دورا في المجتمع المعاصر وموقعا في التاريخ .

فصـــدام حســين يرى ان عيون الشعب المفتوحة ضمان النصر الدائم والنجاح في كل شيئ ، وهو على العكس من الحكام الذين يعملون كل ما في وسعهم من أجل ان تظل عيون الشعب مسدودة ، ومن يفتح عينه فلتفقأ لكي لا يرى احد الحقيقة المرة .

ان قائد المكانة الخاصة في التاريخ ، يؤمن ، ان الشعب الذي يميز الخطوة والمسيرة والمكانة ويعرف مكامن التزييف والتشويه ، هو الذي يفتح ابواب التاريخ ويشق الطريق الى سجله الخالد .

وهذه المسيرة تحتاج الى قائد مقتدر ، فكيف هو صـــدام حســين القائد المقتدر ؟

(٥) القائد المقتدر

ويكتب التاريخ حقائقه عن صـــدام حســين .
وفي سجله الخالد ، يدون للاجيال القادمة
هو القائد دائما ، في كل مكان وزمان وهو الرجل الذي تفيض رجولته بالمعاني الكثيرة .

هو الكبير في كل شيء ، واكبر ما فيه ، قيم الفروسية التي لا ينساها في كل الاحوال ، حتى غدت يقين الشهادة الاول ، على ان لعبة السياسة والدخول الى اجوائها الملوثة ، التي تبيح الاكاذيب والاقاويل الرخيصة والتصرفات غير الشريفة ، لا وجود لها في رؤياه او مواقفه .

هكذا حول صـــدام حســين المفهوم السائد في دنيا الحكام (في السياسة الاخلاق لا معنى لها) الى مفهوم منبوذ في عالم السياسة الذي يتولى قيادته وتوجيهه .

فكانت افكاره ومواقفه مثالا للاخلاق والرجولة والفروسية ومشوار حياته في كل المواقع والاحوال يكشف ذلك ويؤكده والرحيل مع الزمن والمواقف فيه الكثير الكثير .

هو القائد المقتدر ، واكثر ما في اقتداره ، انه اقتدار الرجال .

فليس من عادته ان ينتظر قسوة الزمن ، ليهوى مع الدهر ، بضربته على الخصوم او الاعداء .

ولا يختفي في دهاليز الحياة وخبايا الواقع ليفاجئ الخصوم ، بالغدر او الطعن من الظهر .

وجها لوجه يقابل الاعداء . . واليد التي يكسرها الزمن لا يحب ان يلاويها . لانه ما اعتاد ان يكون ندا لليد المشلولة او الهزيلة .

هذه هي اخلاقية صـــدام حســين ، التي كانت مع وعيه لدوره المطلوب في المجتمع .

ومع الزمن كانت رجولته وفروسيته . صورة مشرقة لما كتبه التاريخ عن فرسان هذا البلد الخالدين .

فالفروسية صفاتها كثيرة اهمها ، انها لا تدعي البطولة وسط المقابر ، ولا تتباهى بالشجاعة على حساب الموتى ، وهي لا تستعرض العضلات على من هزمهم الزمن .

والرجولة احلى ما فيها ، انها لا تغرس سيف المبارزة من الوراء ، كونها تختار النزال الشريف وتحس بعزة النفس عندما يكون نزالها مع الاقوياء ، والاهم من ذلك كله ، انها تعفو حين تقدر .

والعفو عند المقدرة ، لا يقوى عليه غير الكريم الشجاع ، ولا يمارسه غير القوي العزيز ، الواثق والقدير .

رجولة وفروسية صـــدام حســين في هذه الحقائق ، واضحة للحدود التي اظن ان الاعداء قبل غيرهم . لا يستطيعون انكارها او عدم الاعتراف بها .

مصدر القوة الكبرى للقائد في هذا المضمار . انه الرجل العامل بقوة المبادئ ، ومن يعمل بذلك يكون منهجه في الحياة ، منهج الفروسية في كل شيً ، وهو حتى في مواقع المسؤولية لم تكن قوة السلطة وسيلته في القوة او حجته القوية . . كانت قوته من قوة اخلاقه ومبادئه .

هكذا هو صـــدام حســين ، منذ ان ابتدأ حياته السياسية حتى وقتنا الراهن . . بعد ان قاد موكب الثائرين في ١٧ — ٣٠ تموز واستطاع ان يقيم دولة الشعب بالظفر الكبير الذي حققه بالثورة .

لم يكن النصر عنده ، تصفية الحساب مع خصوم الأمس ، ولم يستخدم السلطة كهراوة ، تضرب الرؤوس التي كانت لها اراء مزعجة او وجهات نظر لا ترحم او لا ترعى حرمة القيم الموضوعية .

كان النصر بالنسبة اليه . . بداية . .

وكان ايضا يعني له . . . نهاية . .

بداية لصفحة جديدة ، ونهاية تريد ان يتوقف صراع الحساسيات واراء التهم الجاهزة ، باستسهال الادانة او التشهير بلا دليل ! !

وكان صـــدام حســين للتاريخ هو . . صاحب الرأي القائل :

نرتفع على جراح الماضي ونسدل الستار على فصوله .

فلماذا عمد القائد الى ذلك . وحرص في رؤيته على ان يتجاوز كل اثر السلبيات ، وان يبعد المواقف الجديدة عن انعكاساتها .

هل كان في هذا المنهج ، يقف امام رجولته ام امام مسؤولياته الجديدة كقائد للعراق ، لانه قائد الثورة التي طوحت بالحكم المعادي ؟

ثم كيف ظلت رؤيته الستراتيجية والاخلاقية هذه للعمل السياسي حيال النوايا الدفينة للبعض ، الذي حاول اللعب التكتيكي على حساب فرصة الثورة الستراتيجية وصفحتها الجديدة المفتوحة في العمل الوطني ؟

أنا لا اضرب في الخيال ، لكي انتزع منه سطورا يكتبها قلم منحاز الى القائد والثورة .

ولست ادخل الى عالم التاريخ المكتوب بالقوة . او الذي يسوق الوقائع كما يهوى من غير رقيب او حسيب ! !

اريد ان اطرق ابواب الحقيقة .

وادخل الى ذلك من خصائص القائد ، ، وأمضي الى حيث الحقائق التي اظنها تبعدني عن الاقوال غير الدقيقة .

وبعد ذلك اظن ان الدخول بالاراء الى هذه الحقائق هو حق مشروع . ومنه اقول ، ان صـــدام حســين في ذلك كان يقف أمام رجولته مثلما يقف امام مسؤولياته .

أمام رجولته لان القائد ليس من الرجال الذين يستخدمون بطش السلطة ، تنفيسا لاحقاد او تعبيرا عن حالة انتقام كانت مخفية في الصدر الغاضب على خصوم الامس او دعاة الاقوال الزائفة والمزورة .

وأمام مسؤولياته ، لان النصر في حسابات صـــدام حســين ليس وضعا لتصفية الحساب مع المتطاولين من اصحاب الالسن الطويلة التي لم يكن لديها غير الاحاديث المناهضة لاحكام التاريخ والحقيقة ، كان النصر في حسابات صـــدام حســين ، فرصة الشعب العراقي بكل طبقاته وقواه ، شريطة ان يكون العمل الوطني منصبا على حقيقة مبدئية ثابتة هي : ان العهد الجديد هو عهد العراق وبنظرة

راسخة ليس فيها حساب للمناورة او المخاتلة السياسية ! !

فهذا النهج للقائد صـــدام حســـين ، وهو يسقط روح الثأر السياسي ، ويستبعد احتكار السلطة والعمل السياسي ، هو نهج فيه من صفات الفروسية للقائد ، ما يؤكد عفو المقتدر ورجولته التي هان عليها الأمر ، ان تأخذ على البعض مواقفه السابقة وأن تلاحقه لذلك ، ومن مواقع السلطة التي تديرها ، فهو نهج حرص على اعطاء الفرصة للجميع ، بعيدا عن التشنج السياسي ومقابلة اساءات الغير في الماضي بامكانات الدولة في الحاضر.

ان هذا العفو للقائد المقتدر ومغادرة روح الثأر فيه من الامور الموضوعية والذاتية الكثير التي تكشف جواهر اخرى في شخصية صـــدام حســـين ، الرجل والمسؤول . .

موضوعيا فان القائد في نصره ، جعل الثورة ملك الشعب ، وتماما مثلما كان النصر كبيرا في قائده واهدافه وقيمته ، اراده القائد كذلك في تصرفاته وممارساته ، ولهذا كانت سماحة الثورة من سماحة القائد ، وكان عفوها تعبيرا عن هذه الحقيقة ورغبتها في ان تنتهي غيوم الانانية من سماء العمل السياسي في العراق وان يتفهم الجميع ، ان الثورة هي خيمة العراق الوحيدة .

العفو الموضوعي هنا تجسيد لحقيقة الثورة التي يقودها صـــدام حســـين ، وهو عفو اقتدار ، لا يرتفع الى مسؤولياته غير قائد تاريخي يجعل المصلحة الوطنية هي معياره الرئيسي ويمنح الجميع الفرصة بغض النظر عن مواقفهم السابقة على شرط الا تستمر عقدهم في المواقف اللاحقة ! !

اما الجانب الذاتي في ذلك فيعود ، الى ان صـــدام حســـين لا يحب ابدا ان يجهز على اسير الزمن ، وهو من الوعي ما يرى فيه ، ان تعقيدات الظروف ربما دفعت البعض في مواقفه الخاطئة من غير قصد وكيد ، وفرصة السلطة ليست باستخدام سوط الحكم لترويض هذا النمط ، وانما هي فرصة يقرب العفو فيها ومن مواقع الاقتدار الكثيرين ، لكي يلتجئوا الى صدر الثورة .

ان صـــدام حســـين ليس كمن ذلك النمط من الناس ، الذي ينتظر فرصة الحكم ، ليجعل قامته طويلة لأن الرجل في تاريخه وتكوينه النضالي هو قامة تعالي

القمم العالية ومثله لا يضيف له كرسي السلطة مهما كانت قوائمه طويلة وهو مؤمن بأن القمة في هذه الحالات ، تكون فقط عندما يكون موقع القائد في قلوب الشعب عندها تستطيل هامته الى اعلى الحدود .

والثأر لا يصنع هذا الموقع مهما كانت الاسباب والدوافع ولهذا فتح القائد ابواب الثورة للجميع ، ولم يدقق في الدخول الى خيمة الثورة بالهويات المحمولة او يشترط هوية اللون الواحد ، لكن الابواب المفتوحة لم تكن من غير حقيقة اخرى هي : ان من يسيئ الى الثورة من جديد يكون التعامل معه بضوء ما يرتكبه من اساءات او عداء .

وأذن قائد الشعب في عفوه الموضوعي ، لم يتنازل عن حق موضوعي للشعب وهو ان لا تفريط ولا تضحية بها . وليس مسموحا على الاطلاق ، جعلها العوبة على مسرح الصراع السياسي او عرضة للحسابات السياسية الضيقة ! ! !

أما على الصعيد الذاتي فان صـــدام حســين القائد الانسان لم يجعل من مخلفات الماضي وما انجر اليه البعض من اساءات قيدا على سماحته وتساميه على ذلك وأنما تناسى بكل رجولة تلك الاساءات وعفا عن اخرين والاكثر من ذلك انه رعاهم وقدم لهم المساعدات .

وهكذا يقدم صـــدام حســين للمعنى الحقيقي للعفو والتسامح والصدر الكبير الذي لا يكتنز الضغينة او يجعل من فرصة الحكم فرصته الشخصية في تسديد فاتورة الماضي وحساباته .

ان شجاعة صـــدام حســين لم تكن بحاجة الى فرصة الحكم لكي توجه ضربتها لمن يستحقوا التأديب ، لأنها شجاعة الاحداث الملتهبة والمواقف الدامية لذلك فهو لم يتأخر من ملاقاة المسيئين او المعادين قبل الحكم ، ليؤجلها الى الغد الذي تكون في يديه قبضة السلطة ، عندما كانت الضرورة المبدئية او النضالية تفرض التصدي لهم ، فقد كان يتصرف بشجاعة نادرة وبقبضة مبدئية ، لكي يعيد الصواب الى الاذهان الطائشة ، او يفهمها ان ثمن مواقفها المعادية عسير ، وان تطاولها ، يقابله رجال اشداء ومناضلون شجعان ، لكن القائد بعد تسلم السلطة لم يفتح ملفات الماضي او ارشيف المعلومات المحفوظ في الذهن عن اولئك بل كانت كل الاساءات

الشخصية تتبخر من ذهنه ليفتح بدلها الفرصة لمن يريد ان ينظر الى الامور بحقائقها المبدئية .

من أين تعلم القائد هذا السلوك ، وكيف تربى على هذا النهج ، وما هي القوة الروحية التي تجعل من تصرفاته بعيدة عن الحقد الخاص او الانتقام الشخصي ، او دوافع الثأر المكتوم داخل النفس على الخصوم واصحاب المواقف السيئة والمؤذية في جانبيها الشخصي والعام ، الذاتي والموضوعي ؟

باختصار مركز . . تعلم كل ذلك كله من

– المبادئ

– التاريخ .

فالحقيقة الاكيدة . . ان صدام حسين في احلك الاوضاع لا يركن المبادئ وقيمها ، والتاريخ عنده ليس قراءة للتسلية او لتضييع الوقت او الاستزادة بالمعرفة المجردة . وأنما هو حكمة ودرس ورؤية ومن ذلك كانت رجولته تزخر بالعفو عند المقدرة .

فما الذي اعطته هذه الامور لصدام حسين ، القائد والانسان ؟

المكانة الخاصة في التاريخ ، ليست مرسوما بموجبه يكون في التاريخ دور للحاكم يظنه كافيا لذلك او هو المقصود بالموقع التاريخي المنشود في احداث الزمن المدونة . .

فلو كانت المكانة الخاصة في التاريخ بهذه السهولة ، لاصبح لأتعس الحكام اكبر الاماكن فيها ، لان الامر لا يعدو امرا بموجبه يدون كتاب التاريخ وحملة الاقلام الرخيصة بالكذب والتزوير والتشويه مثل هذه المكانة .

ان التاريخ نفسه شاهد امين على ان الكثيرين من الحكام الذين امتلكوا العرش والقوة وسخروا الاقلام ظلوا فيما بعد على هامش المجهول وفي مزابل التاريخ ، لان المكانة الخاصة في سجل الخلود لا يصنعها الحاكم مهما تجبر او طغى ، وانما تكون حقا لمن يكون بحق رجلا وتاريخا ، وهذه الصفة وثيقة يشترك في صياغتها قائد وشعب على ان تحظى بمباركة التاريخ بالاحداث الكبيرة الشاخصة وبالحقائق الكثيرة المصنوعة .

وصدام حسين وشعب العراق صاغا اروع وثيقة للعراق المعاصر فيها احداث هزت ضمير الدنيا والتاريخ لتستقر فيه ملحمة جديدة لعراق البطولة

والحضارة والانتصار .

فكانة صـــدام حســـين الخاصة في التاريخ ، لم يصنعها مرسوم الحكم ، ولم تكتبها بضوئه اقلام الباحثين والكتاب والمنقبين ، وانما هي مكانة صنعها اقتدار القائد وقيادته التاريخية وكتبها قلم التاريخ نفسه .

والواقع ان هذا هو الربح الحقيقي للقائد ، الذي هو على الضد من فوائد الحاكم الذي قد يجني بعض الثمار ، في مواقع السلطة او تخدمه صفقة سياسية . . ولكن الى اي رصيد تنتهي او اي مدى يمكن ان يضيف اليه !

هذا هو السؤال المهم . . من وجهة نظر القادة الباحثين عن مكانتهم اللائقة في التاريخ ، لان عندهم ان ربح الصفقة السياسية او الحصول على فوز المناورة او تأمين الفائدة بالحيلة والمكر السياسيين شيء ، والربح المبدئي شيء آخر .

أن النقاء القيادي والحكمة القيادية ، والذكاء في تأدية الادوار المقتدرة ، حالة لا تترادف مع الممارسة السياسية اللعوبة ، او تأمين ربح اللحظة على حساب ربح التاريخ الثابت .

ولهذا لا يتعامل الاقتدار القيادي لصـــدام حســـين مع اللحظة على اساس انها المطاف الاخير ، ولا يلجأ الى المراوغة ، وأنما يخط طريقه بشرف ورجولة ووضوح ، لانه واثق الا طريق خلاف ذلك لربح المبادئ وكسب التاريخ ، فعنده ان الاسلوب المجتزئ على حساب القيم والاخلاق المبدئية ، طريق لا يشرف اصحابه ولا ينتهي الى الخلود .

لهذا تشكل انتصارات صـــدام حســـين ، قيمة تاريخية ومغزى كبيرا للاجيال ، وهو لا يستحوذ على مجدها ليكون رصيده الشخصي الخاص بل هي عنده قبل ذلك رصيد للعراق وصعوده الى الامجاد .

صـــدام حســـين بهذا يربط انتصاراته بالمثل العليا ، لان من غيرها يستحيل للمسيرة ان تتميز تاريخيا او ان تشق دروبها نحو العلا او ان تسجل قيمة ذات أثر للانسانية . فالقائد لذلك يقول : (أن كل أمة بدون مثل عليا ، هي أمة بدون دور انساني نافع ، بل وبدون تاريخ مشرق ، ونحن نحرص على ان يكون لنا دور انساني متميز في الفكر والممارسة) .

والقائد في هذه الرؤية ، وضع المسيرة في حضنها التاريخي الأصيل ، لان قيادته لم تحفر دورا انسانيا متميزا لشخصيته سواء بما يقوم به من ممارسات او ما يقدمه من طروحات فكرية حسب ، بل هي كرست كل اقتدارها للعراق الجديد والنهوض به في كافة الاصعدة وفي المقدمة منها الحرص على المثل العليا والاخلاق في التعامل .

ولهذا يمثل اقتدار الثورة ميزة لاقتدار ورجولة قائدها صـــدام حســـين ، وهو اقتدار المتمكن الذي لا يهاب ولا يجزع من الحالات المريرة ولكنه في ذات الوقت اقتدار المؤمنين الذين يانفون من البطش وتطويع الامور بالاكراه في الحالات الحلوة .

ان بين اقتدار المؤمنين واقتدار المتسلطين فارقا جوهريا كون الاول اقتدار الفرسان الذين يتصرفون بخلق وأباء ولا ينسون رجولتهم في كل الاحوال عند تمكنهم واقتدارهم .

أما اقتدار الاخرين ، وأعني اقتدار المتسلطين فليس فيه من قوة النفس والشخصية شيئ . بقدر ما فيه من العنجهية المستمدة من قوة الزمان وتحكمه فالحكام المتسلطون لا يهمهم التاريخ والمبادئ وهم على العكس من القادة التاريخيين الذين لا هم لهم غير المبادئ وخدمة الشعوب .

أولئك الحكام لا يدخلون التاريخ الا من صفحاته السوداء ولا يكتب لهم فيه غير الخزي او ان يرحلوا من غير قيمة تذكر او تاريخ يكتب .

والقادة التاريخيون يكتب لهم التاريخ كل ما يجعلهم موضع اعجاب الاجيال من بعدهم لانهم يمثلون القادة المنقذين لشعوبهم .

والقائد صـــدام حســـين هو من الرعيل القيادي النادر ، الذي يمثل بحق القائد المنقذ للعراق . . .

فكيف نرى في صـــدام حســـين . . .

القـــائد المنقـــذ ؟

(٦) القائد المنقذ

كان العراق قبل الثورة ، ، يكتنف مصيره المجهول .

كان مستقبله السياسي ، ، أشبه ما يكون بورقة في مهب الريح ، ، لا يدري أحد الى أين تحملها أو كيف ستستقر وسط عواصف الحسابات الدولية ومخططات التربص وساعات الصفر العديدة المختلفة ، ، بحكم تباين قوى الصراع للاستحواذ على الحكم .

وكان أكثر ما يغري التيارات الدولية ، ، أمتداداتها ، ، السارحة في الأرض العراقية من غير قوة كافية ، ، تصون العراق ، ، حصة وحيدة لشعبه وأمته ، ، وتسد طريق الأطماع ، ، بحاجز الحكم القوي وجدار السلطة المركزية القوية ،

وكانت هذه الحالة ، ، تكفي لان يحدد الشعب ، ، موعد الشروع بالثورة على هذه الأوضاع المزرية وتسلم المخلصين للمسؤولية في العراق . .

وكان العراق على موعد مع القدر ، ، مع ثورة ١٧ — ٣٠ تموز / ١٩٦٨ ومع القائد صـــدام حســين الذي قاد ثورة الشعب .

كانت الثورة ، ، ثورة الخلاص والتخليص ، ، خلاص العراق من الحكم المشبوه والفاسد والضعيف ، ، وتخليص العراق من ستراتيجيات أقتطاع الحصص الدولية .

وكان القائد صـــدام حســين هو القائد المنقذ . وعندما أطلق هذه التسمية ، ، القائد المنقذ ، ، على صـــدام حســين ، ، فلأنني أعرف ماذا تشير وأية معان تحدد ، .

هي أذن تسمية أقصدها ، ، وليست عبارة حلوة جالت في الفكر صدفة ، . ليتبرع بها كاتب ينذر قلمه للقائد الكبير .

أقصدها ، ، لأنها تعبير صميمي وحقيقي عن دور وقيمة ومعنى صـــدام حســين ، ، لانه بحق القائد الذي أنقذ العراق .

وهي لذلك كلمة منقولة ، ، منقولة من حكم التاريخ وضمير الشعب العراقي . .

وأعترف أن دوري في التسمية ، ، لا يتعدى الأستعارة ليس أكثر . . .

ودوري الذي أريد أن أسجله بعد ذلك ،، يبتدئ بعلامة أستفهام كبيرة : كيف ؟

السؤال الكبير ، ، مخيف على الدوام ، ، لان الأستفهام فيه ، ، تصعب الأجابة عليه من غير هواجس بالقلق ، ، في أن لا تكون الأجوبة وافية وأمينة ،،

لكن ذلك لا يبيح على الأطلاق ، ، بقاء الأجابات حائرة أو حبيسة الخوف الذي يخشى التقصير ! !

ولذلك أقول . .

في صراع الأرادات المتضاربة ، ، ورحى الأحتدام المصيري ، ، يكون القائد المنقذ ، ، هو البارع في فرض أرادته وتحقيق الأنتصار للشعب ، ، غير أن بلوغ الأهداف ، ، لا يعني أن ذلك المرغوب الستراتيجي طريقه سهل ، ، يؤمنه السبيل العابر ، ، وأنما هو حالة ممكنة بالطريق المفتوح فقط .

والطريق المفتوح الذي أعنيه ، ، ليس المعبد الخالي من الحواجز . . وأنما الطريق الذي يشق الصخور ويزيح العراقيل الكثيرة والخطيرة .

ومشكلة هذا الطريق الدائمة تكمن في أن الوصول الى أعالي الجبال ، ، يتطلب قدرة خاصة في التحمل وموهبة عالية في التسلق وصولا للقمم المطلوبة .

وصعوبة هذا الطريق وخطورته ، أن قطاع الطرق الملتوية وقراصنة الكهوف المظلمة يبذلون كل جهودهم وأمكاناتهم للحيلولة دون الوصول الى ذلك ،

هنا تتبلور عبقرية القائد المنقذ في تحقيق المرغوب الستراتيجي ، ، من خلال الموارد المتاحة والأمكانات المتوفرة التي توحي بالنظرة التقليدية ، ، أنها غير كافية لتأمين النجاح والوصول الى الأهداف التاريخية .

والواقع يشير الى ان هذا الطريق وحده ، ، هو الذي ينقذ العراق من كل مخلفاته ويصونه من كل المخططات التي تستهدفه .

والحقيقة أن صـــدام حســـين لم يسلك غير هذا الطريق ، ، وعبر مسيرته ، ،

تتأكد الأدلة على أنه القائد التاريخي المنقذ للعراق ، ، مثلما تتوضح البراهين ، ، على زيف الأكذوبة القائلة : أن العصر الراهن ، ، غير مهيأ لظهور العمالقة من قادة الأمم والشعوب ، ، بعد رحيل زعماء الجيل السابق التاريخي ، ، وتظهر حقيقتها المقصودة كونها بدعة مصدرة من أعداء الشعوب لأحباط الجماهير وتيئيسها . . ومنعها من التطلع الى الخلاص وأنتظار القائد المنقذ .

أن صـــدام حســـين هو رجل الطريق التاريخي المفتوح ، ، لان كل المعوقات لا تغلق الدروب أمام تصميمه ، . ولا تسد الأبواب بوجه مسيرته ، ، ولا تجعله مستسلما لحالة العجز التي يقال عنها ، ، الطريق المسدود ، ، لان عنده من اليقظة والحساب والعزم والتخطيط والأرادة ما يجعل من الطريق المفتوح ، ، ممرا يتوازى مع الخط التاريخي في حركته المفتوحة على الزمن بأستمرار ،

وهذا عنصر الأمان التاريخي والأطمئنان للمسيرة وبلوغها النجاح الكامل والتام ، ، وبالمقابل فأنه الطريق المهلك للاعداء ، ، لانه يحرمهم من أية فرصة ويدفعهم الى طريق النهاية المغلوق الى الأبد .

وأقول بكل ثقة ، ، أن صـــدام حســـين هو الرجل المدهش في هذه الحسابات ، ، وهو المبادر دائما لان فقدان المبادأة عنده ، ، يعني منح الأعداء الفرصة في أخذ زمام الأمور والتحكم في الموقف .

وعندما أقول ذلك عن صـــدام حســـين ، ، واصفه بالرجل المدهش ، ، فليس المرجع في هذه الأمور ، ، كونه الزعيم الذي يوثق به أو أنه واسع التفكير وساحر الشخصية وخارق الذكاء فحسب ، ، بل لأنه قبل تلك الصفات وبعدها ، ، هو القائد المنقذ ،

لماذا . . ؟

في ظل أوضاع التخلف والتأخر ، ، وضمن الحقيقة الموضوعية المعروفة ، ، بحكم واقع التعددية القومية والدينية والمذهبية في العراق ، ، وفي أطار المساعي الدولية وستراتيجياتها الكونية ، ، التي تجعل الصعيد العالمي ، ، هو مساحة لغاياتها وتحركاتها ، ، تدخل بالنتائج تلك ، ، أوطان الشعوب في حساباتها للعبة الأمم .

أن تحديد الطريق الصائب الذي يصون العراق وينقذه ويحميه ، ، هو الذي

يقلب الحسابات المعادية ويدخل الأستحالة المادية لنجاح مخططاتها أو غاياتها .

وقد يتراءى أن هناك مسالك كثيرة ، ، توحي للوهلة الأولى ، ، أنها الطرق الأمينة في المنظور المرئي للامور ، لكن للحقائق الدفينة غاطسا عميقا ، ، أذا لم يحسن الأهتداء اليها والتعامل بدقة معها ، ، فربما تنتهي النتائج ، ، الى الدوامة القاتلة والغرق في تلك الأعماق غير المرئية .

وأذن خط التفريق في ذلك ، ، هو خط الأمان بحكم :

أن النظرة السطحية في مثل هذه الأوضاع ، ، تكون خداعة ، ، وهي تبدأ بالواقع السهل لتنتهي الى الواقع الصعب والمحير ! !

في حين تكون الرؤية العميقة أمينة ، ، لأنها تبدأ بالحقائق المرة لتصل الى الحقائق الحلوة .

أن طريق السير على القشرة ، ، مهما تكن الأوضاع ملائمة في البدايات ، ، لا بد أن تكون النهايات وخيمة ومدمرة ، ، بحكم حتمية الوصول الى الغلاف الخاوي والقشرة المتشققة التي تنتهي الى التجاويف السحيقة .

فهذا الواقع ، ، بقدر ما يحتاجه من دقة الأختيار للمسالك الصحيحة ، ، يحتاج ايضا الى دقة الخطوات على الطريق الأمين .

وفي خضم هذه الحالة ، ، يكون الحاكم امام المفترق الصعب ، ، ومشكلة الخيار لا تكمن في النوايا الصادقة ، ، وانما بالقدرة على تطبيقها في الواقع الصعب والمعقد والخطير .

ومسبقا أعتقد ، ، أن الحاكم حتى مع توافر النية المخلصة ليس بمقدورة النهوض بهذه المسؤولية ، ، لان مثل هذا الواقع الموضوعي تكون حاجته التاريخية الوحيدة في توجيه الأمور ، ، محددة فقط بوجود القائد المنقذ .

ما السبب ؟

لانه القائد الذي يتصرف في كل لحظة برؤية شاملة ، ولا تغيب عن مسؤوليته وضميره ، ، حقيقة أنه رمز الجميع ، ، وبأمانة مع النفس يسمو بها على كل المثالب والموروث المتخلف من قوة العادة والتربية التي طبعت تقاليدها في المجتمع .

من هذه الحقيقة ، ، يكون معنى وضرورة القائد المنقذ ، ، لان عداه يظل أسير

العقد الأجتماعية ، وسواه تتحكم به أهواء التربية والعادة ، ، وقوتهما على النفس التي لا تحسن قيادة نفسها ! !

ومن لا يقوى على قيادة نفسه ، ، لا يقوى على قيادة المجتمع ! !

هذه نتيجة بديهية أو على الأقل مسلمة لا تحتاج الى برهان ! ! !

فالخط المتعرج داخل النفس ، يرفضه القائد المنقذ ، ، الذي ليس في سريرته غير الأستقامة مع الدخيلة في نقائها ، ، وهكذا فعندما أقول : أن صـــدام حســين هو القائد المنقذ ، ، أعني أن من غيره لأمكن للعواصف العاتية ، ، أن تطمر بترابها وجه العراق المشرق وتشوه جماله ، ، أو أن تقتلع الكثير من غرسه المغري ! !

أذن فصـــدام حســين هو رجل المكانة الخاصة في التاريخ ، ، لانه حفظ العراق ، ، وهو لم يحفظه بيتا مهلهل الأركان ، ، وأنما قوياً حصيناً للجميع وملاذا لكل العراقيين .

وكان القائد المنقذ في منهجه هذا ، ، الأمين الأكبر ، ، على وحدة العراقيين والمتصدي الاول لمراكز الأستقطاب غير الموضوعي وغير المبدئي ، ، التي تجعل الفرقة سبيلها في تمزيق وحدة الشعب أو بتفضيل أقسام منه على أخرى عن طريق الأنحياز الضيق والمتعصب الذي يختزل الولاء من الوطن الى مراكز الأستقطاب غير المبدئية ، ، وهي التي يحددها القائد «بمراكز الأستقطاب الطائفي ، ، ومراكز الأستقطاب على أساس قبلي ، ، ومراكز الأستقطاب على أساس المدينة» .

أن الأستقطاب الذي أساسه الطائفية أو العشيرة أو المدينة ، ، لا يحقق كسبا للوطن ، ، لان الحصول على ولاء الجزء مقابل ولاء الكل ، ، يفتح الثغرات المميتة ، ، بما يخلقه من فرقة وحساسية ، ، وما يلحقه من أذى بالآخرين ، ، وليس لأصحابه ربح على الأطلاق ، ، لانهم يخسرون كل شيئ ، ، وتلاحقهم لعنة الله والوطن والتاريخ .

أن صـــدام حســين هو القائد المنقذ ، ، لانه رجل الحصانة المبدئية الذي يحذر من مغبة هذا النهج ، ، ويعتبر مثل هذا الولاء ، ، أنحرافا خطيرا وايضا ليس صادقا حتى مع طروحاته ، ، ولهذا يقول :

«لو كان أولئك الذين يتبعون مثل هذا المسلك المنحرف والمشبوه أحيانا ، ، صادقين في نواياهم ، ، فلماذا لا يكسبون كل الشعب ، ، بدلا من أن يكسبوا طائفة منه ؟ ولماذا لا يأخذون كل الوطن بدلا من أن يأخذوا مدينة منه ؟»

وعظمة صـــدام حســـين في هذا المجال ، ، كونه القائد المنقذ ، ، الذي يرتجف ضميره قبل خفقة قلبه ورمشة عينيه من كل تفريق بين أبناء الشعب أو تفضيل لأحد على سواه بفعل الحسابات الضيقة والمريضة والمسمومة .

ولهذا كان أبا الكل . .

مثلما هو قائد الجميع . . .

فأين كانت مواضع هذه العظمة وكيف ؟

أن ولادة العراق الجديد ، ، والنهوض به لأستعادة مجده ومكانته وهيبته ، ، كانت بمخاض عسير ، ، مصدر الصعوبة فيها ، ، أن قوى كبيرة وكثيرة لم ترغب بوجود العراق القوي العظيم ، ، أضافة الى أن حالة التخلف الموروثة تفعل ، ، بما يعيق هذه الولادة الجديدة .

أريد أن أصل من ذلك ، ، الى أن القوى الدولية ، ، ذات الشأن والبأس والأمكانات والأمتدادات ، ، كانت تضع تبعا لهذا الحساب أو ذاك ، ، قدراتها وسياساتها ، ، من أجل أن يكون جنين الولادة المطلوبة للعراق ، ، جنينا مجهضا أو مشوها ! !

والأوضاع الداخلية ، ، هي الأخرى نخرتها الأحداث والسياسات المخطوءة والمنحرفة للعهود البائدة ، ، بحيث جعلت حالة الولادة المرتقبة ، ، حالة صعبة أو تكاد تكون مستحيلة . .

صـــدام حســـين في رؤيته لكل هذه الأمور لم ينغلق مدى بصره عندها ، ، ويموت الأمل في أمكانية النصر أنطلاقا من ذلك ، ، بل كان العكس في رؤيته هو السائد ، ، وكانت تقديراته ، ، أن الولادة الصعبة هي التوأم الصحيح ، ، للمكانة التاريخية التي يجب أن يكون عليها العراق الجديد .

لهذا فأن عظمة الدور الذي نهض به القائد صـــدام حســـين ، ، وكان من

خلاله القائد المنقذ ، ، تعود الى أن الأوضاع لم تكن بفعلها يسيرة الى جانب ما يريده ، ، أو أن الظروف كانت سهلة أو مساعدة . . كانت غاية في الصعوبة والتعقيد والأشكال .

فما الذي تؤشره هذه الحقائق ؟

أقول بصراحة ، ، لو كانت الأوضاع سهلة والظروف مؤاتية ، ، لكان للدور القيادي ، ، وجه واحد مشرق ، ، هو أمانته مع حركة الرياح الملائمة ، ، ولكن حين يكون العكس هو السائد والصعاب هي القائمة ، ، يكون معنى القائد المنقذ في الحياة هو الذي يتخذ مغزاه ، ، من قدراته على ضرب كل الزوابع والرعود والعواصف وتأمين المكانة الأمينة واللائقة للعراق الجديد المطلوب .

فلقد وضعت قيادة صـــــدام حســــين العراق في مدار التاريخ الصحيح ، ، والذي يتشكل في الأفق المنظور ، ، من خلال مؤشرات الأزدهار التاريخي العميقة ، ، وحلم المبادئ البعيدة .

ولهذا يكون مفهوم القائد المنقذ ، ، هو الحالة التي تغاير مفاهيم قادة الأوضاع السهلة ، ، من الذين تصنعهم الأدوار ، ، دون أن يكونوا هم صناع الأدوار ذاتها .

فهو القائد الذي «تكون أعماله ذات مدى وتأثير تاريخي لا ينحصر في أثاره الأيجابية ، ، بمرحلة زمنية قصيرة ، ، وأنما يمتد بتأثيره الفعال الى ما بعد غياب القائد التاريخي عن الحياة ، ، وتكون مرحلة بارزة في السجل التاريخي للامم والشعوب وتلعب دورا حاسما في تغيير حياة الشعب من حالة الى أخرى ونقله من مرحلة الى أخرى متقدمة» .

فما ، هو الواقع الذي يكشف قوة صـــــدام حســــين وأسرار حيويته الفائقة ، ، وهل أن مرجعها يعود لفعل القوة المادية التي أحسن أستخدامها وتفجيرها ، ، أم هما عائدان الى قوة الأيمان وما في الصدر الكبير من آمال ، ، ومن ثقة تسهل الخطوات ، ، وصبر يحترس فيه ، ، وجرأة فيها أرادة لا تلين ورحمة لا تموت ؟

قوة صـــــدام حســــين الحقيقية في كل ذالك ، ، وفي الأعظم منها ، ، كونه الرجل المدهش الذي لم يضعف أمام الأشياء المغرية ، ، بحيث يندفع بسببها الى الخط

المتعرج الموجود في النفوس ، ، ويستعيض به عن خط الأستقامة والأباء والوضوح .
أن حالة الضعف أمام الأغراء ، ، أو نسيان المعاني القيمة . . لا تجد في أعماقه الصدود المبدئي فقط ، ، بل أيضا أنفة النفس الكبيرة التي لا يصغرها ذلك أو أن يستعبدها أمتياز الجاه والسلطان . .
هذه الأمور هي التي تجعل القائد والحب والحقيقة سواء . ، . لانه الرجل الذي لا يتنازل عن مثله ولا يتساهل فيها . .
وهي أيضا تعطي الضمان التاريخي ، ، على أن القائد لا تأكل الظنون ثقتة ولا تنزرع الشكوك في يقينه وايمانه بالشعب وأمكاناته .

أن صـــدام حســـين لا يداخله شك واحد في الناس ، وليس في تفكيره أثر للريبة منهم ، ، لان واحدة من خصاله الشخصية هي القناعة المطلقة بأخلاص الناس وعدم الشك المسبق بهم . . والثقة التي تفترض الأطمئنان اليهم ، ، دون أن يعني ذلك ، ، أن الفراسة غائبة عنه في معرفة البشر !
وهو يعرف كيف يقرأ السطور من بعيد ويضع النقاط على الحروف .
فرجل الحكمة والوعي لا تغيب عنه الحقائق على الأطلاق .
والقائد الذي يصوغ العصر الذهبي للعراق الجديد ، ، يعرف معادن الناس بالقيراط .

وهذه هي في الحقيقة ، ، قيمة القائد المنقذ ، ، لانه حين ينتشر اليأس وتسود الظلمة ، ، يكون هو باعث الثقة في النفوس ومصدر الضوء في الربوع الحالكة ، ، ولهذا كله صار صـــدام حســـين ، ، أمل العراق لعراق الأمل . .
أن قيادته تعني ، أنه رجل في شعب وشعب في رجل ، ، هو قمة وسط الشعب العراقي العالي معه بالكبرياء والمجد ، ، وليس هو علوا وسط الشعب الساكن أو القابع في الزوايا المهجورة . . لان العلو في السهول المنبسطة ، ، لا يعني قمة ، ، فقد يكون تلة تراب بسيطة ، ، تزيحها ابسط نسمة للهواء ! !
ولهذا فصـــدام حســـين رجل يكره الحالات المظهرية ، ، لان في مفاهيمه ، ، أن القائد الذي يوقظ شعبه لكي يحمل رسالة خالدة ، ، هو على طرف

التضاد مع الشكلية والأستعراضية الفارغة ، ، لان النجاح التأريخي لا تحققه مثل هذه الحالات ، ، وأنما هو وليد الحالة الصميمة الحقيقية .

أن القائد المنقذ هو باعث الأرادة ، ، وصانع النصر في أحلك الظروف وأقساها ، ، وهو قبل تحقيقها على أرضية الواقع ، ، يغرسها في أعماق الشعب وفي نفسيته المنتصرة من الداخل .

والأرادة عنده خارج هذه الحقيقة ، ، لن تكون غير أرادة منهارة وقبضة هاوية . .

وأرادة صـــدام حســين ، ، أرادة الشعب ، ، وقبضته القوية ، ، ليست قبضة حديدية وأنما هي قبضة مبدئية التي يقويها تقادم الزمن ، ، على العكس من القبضة الحديدية التي تتآكل مع مرور السنين .

ومن يكن كذلك ، ، يكن رجل المكانة الخاصة في التاريخ .

وصـــدام حســين بحق هو رجل مثل هذه المكانة ، ، لكل الأمور التي ذكرتها ، ، والتي ماكانت لو لا حقيقة كبيرة تميزه ، ، وأعني بها صدقة مع نفسه . .

فلماذا أفرد للصدق مع النفس . . هذه القيمة والأهمية ! ؟

(٧) الصدق مع النفس

أبتدئ ما أريد ، ، بحقيقة من التاريخ . .

الحقيقة عامة تشهد على : أن القادة الكبار فيه ، ، كانت أولى مميزاتهم ، ، الأمانة والصدق .

وأظن أني لست واهما في أن أقول : أن سجلاً للخلود ، ، لا يحتوي على أثر حتى بسيط ، ، لحكام الأكاذيب والخديعة والتزوير . .

وصدق الكبار من القادة ، ، أجزم باليقين الأكيد ، ، أنه قبل صدق المواقف والرأي ، يبدأ بالصدق مع النفس .

وصـــــدام حســـــين اولى مواصفاته ، ، هو صدقه مع نفسه ، ، وهذا كان ولا يزال بداية البدايات في كل ما تحقق أو يكون . .

وأبتدئ بعد ذلك عن القائد وأقول :

يتكلم بقوة ، ، قوة الحق والحكمة ، ، وليست قوة الحكم والسلطة .

ويتحدث الرأي الصريح لكسب المعية المفهومة ، ، وعنده الرأي الغامض والعبارة الملتوية ، ، طريق المهزوزين في الحياة والخائفين من الحقيقة . .

فأين تكمن قوة صـــــدام حســـــين في لغة الحديث والحوار ، ، وهل أن قوة الحجة في مفاهيمه ، ، مصدرها قوته كحاكم قوي ، ، يقول الذي يريد ، ، ولا يجد غير السمع والطاعة ، ، أم هي أبعد من ذلك وأشمل ، ، كونه قائدا أمينا ، ، لكلمته رنة في القلوب ومكانة في الضمائر . . ! ؟

أن الاتفاق العام ، ، الذي هو أجماع شامل من العراقيين كلهم ، ، او من الذين يعرفونه من أقطاب الدول وكبار الشخصيات العالمية التي تقابله ، ، هو أن صدام حسين رجل الكلمة الدقيقة والقائد الذي يحترم كلمته الى النهاية . .

من أين يبدأ خط الشروع الأول لذلك ، ، في عالم أصبح فيه أمر الكلمة الدقيقة غريبا ، ، وصار أحترام الكلمة فيه عجيبا . . . . ؟

يبتدئ من الصدق مع النفس ، ، فصـــدام حســـين من مزاياه الكبيرة ، ، أمانته مع نفسه ووقوفه الدائم مع الذات ، ، يقول القائد :

«أنني أقف مع نفسي يوميا وتفصيليا ، ، وأسأل نفسي يوميا ، ، لماذا أصبحت في هذا الموقع ، ، ولأي غرض ، ، وما هي الواجبات الملقاة على عاتقي» .

فهذا الأختلاء الى النفس والرجوع اليها ، ، هو ليس تحكيماً للضمير لملاحقة الذات ومساءلتها حسب ، ، قبله أن الحوار مع النفس ، ، لا يجعل من موقعه ، ، حالة مغرورة تنسيه الأمانة والمسؤولية المطلوبة .

ومن يصدق مع نفسه ، ، يكون صادقا في كل شيئ ؟ ، هذه معادلة القوة الحقيقية في حديث القائد وكلمته وأرادته ، ، وهي مصدر الحجة الأول فيها . .

والمصدر الأول لا يعني أنه المصدر الوحيد .

وما يدفعني الى هذه الملاحظة ، ، حقائق أخرى ليس من الصواب تجاهلها ، ، ولا من الموضوعية نسيانها . .

والأمانة تقتضي أن أقول :

أنا لا أريد أن أنكر خاصية البراعة التي يمتلكها صدام حسين في طرح مفاهيمه ، ، ولا النضوج الذي يميز كلامه ، ، والوعي الذي فيه ، ، ولكن عندي ، ، أن الصدق مع النفس ، ، هو بوابة الدخول ، ، هو العامل الأساسي وغيره وأن كان من الأمور المهمة الا أنه في مرتبة أقل ، ، هكذا أظن ، ، وأذا أردت أن أجتهد ، ، أقول هو العامل الرئيسي وغيره عوامل مساعدة . .

فالبراعة في الحديث ، ، ربما يجيدها مسؤول مثقف أو قد تكون وسيلة حاكم دعي ، يستطيع بها جر الأنتباه والسيطرة على دوائر الضوء . . ولكن الى متى ! ؟

البراعة الدعية قد تبدع في سوق الكلام والتبريرات والتحايل على الأمور ، ، ولكنها لن تظل الى النهاية سيدة الواقع والموقف ، ، في أحيان كثيرة تتحول الى العكس وترتد الى صدور الحكام ، ، سهاما فيها المقتل الأكيد . .

براعة الصادق مع النفس شيئ . .

وبراعة الكذب على النفس وعلى الآخرين شيئ آخر . .

مختلف تماما . .

الأول دليل على عبقرية وأصالة القائد الأمين .
والثاني دليل على مسخرة وزيف الحاكم الدعي .
فالقائد الأمين ، ، بهذه الصورة ، ، يقف مع النفس يوميا وتفصيليا ، ، وصـــدام حســـين لا يفوت لحظة تأمل واحدة ، ، فيها مصلحة للشعب ، ، أو ضغط معاناة يمكن أن تنضح خيرا للوطن . .
من هنا تكون قيمة الحقيقة في نظرة ومفاهيم وتصرفات صـــدام حســـين ، ، فالحقائق عنده يجب أن تذكر ، ، حتى لوكانت مرة ، ، لكي ينتبه الأنسان ويتبصر للصورة السليمة ، ، لأن الأمور من غير الحقائق ، ، تظل غولا يفترس الوقائع الصحيحة أو هي تزييف للحالة ، ، تحمل في النتائج من المفاجآت ، ، ما يجعل النار تسري كالهشيم في الواقع .
لهذا تسمو الحقيقة في مفاهيم صـــدام حســـين على كل شيء ، ، فهي مرتكز الأنطلاق السليم ، ، وهي الضمانة التي تصون المسيرة ، ، وهي فوق ذلك حق الشعب .
وهكذا ليس من الصعوبة الأهتداء الى حقيقة معروفة هي ، ، أن أكثر ما يشعر له القائد بالراحة والأطمئنان ، ، قول الحقيقة ، ، حتى عندما تحمل الأزعاج أو الأمور غير المشجعة .
فالكلمة الصادقة تجد صداها الأكبر عنده ، ، ليس لأنها تتطابق مع أحكام الواقع لامانتها التاريخية حسب ، ، بل أنها تدخل أولا الى قلب وذهن صـــدام حســـين ، ، رمزا لشجاعة الرأي وتعبيرا عن الثقة بالموقف .
وعنده الكلمة الأمينة ، ، هي كلمة الضمير التي يتحول أصحابها الى «شموع مضيئة في كل ركن مظلم لتشع أرض العراق من أقصاها الى أقصاها ، ، من زاخو الى الفاو ، ، منارة بوهج الضمائر الحية المتوقدة بالأيمان» .
فصـــدام حســـين لايستهويه أي شيء ، ، يكون بعيدا عن الواقع ، ، وكلمة اللسان الصادقة عنده كلمة النفس الصافية ، ، لهذا يقول : «أن الشيء الذي نتحدث به هو الذي ينطق به ضميرنا» . .
أن الكلمة الصادقة ، ، هي المطلوبة ، ، ومن يعتقد بغيرها ، ، فهو لم يتعظ من

التاريخ أو التجارب ، ، كما أنه يظن واهما ، ، أن الكلمة المخاتلة أو المنافقة ، ، يمكنها التستر على الأمور غير الدقيقة ، ، أو هي التي تغش الناس وتخدعهم . .

أن قائد الحقيقة ، ، هو رجل الكلمة الصادقة التي تدخل الى النفوس والضمائر ، ، قبل أن تلتقطها الآذان ، ، وكلمة الصدق هي أكثر ما يحتاجها الواقع ، ، وليس المقصود من ذلك أكثر من تبيان أمين ومخلص للحقائق . .

وهذا يبدأ مع الصدق ، ، بالأيمان أيضا ، ، ولهذا يقول القائد :

«عندما يكون الأيمان بالقضية والرسالة التي يحملها الأنسان عميقا ، ، ويكون قادرا على التعبير عنها بسلوك ممتاز مع الأيمان بها ، ، فأن صلته بالناس وكلامه معهم سوف يأسر النفوس ، ، وسوف يتداعى اليه القوم مساندين وقابلين بدوره القيادي والتوجيهي لهم ، ، لانه ليس هناك ما هو أبلغ تأثيرا في النفوس من كلام حي ، ، يخرج معبرا عن عقل وقلب مؤمن ، ، وليس هنالك ما هو أبلغ تأثيرا في النفوس ، ، من تصرف متزن وفعال يعبر تعبيرا صادقا عن أيمان صحيح وهكذا فأنك عندما ترى واحدا يتكلم مع الناس ، ، فأنه اذا لم يكن مؤمنا بالكلمة التي يقولها ، ، لا يمكنه أن يدخلها الى عقل وقلب الشخص الذي يتحدث اليه ، ، لانه يجب أن يدخلها الى قلبه أولا ، ، ليستطيع بعد ذلك أن ينقلها الى عقل وقلب المقابل» .

فالصدق هو الذي نحتاجه ، ، وكلمته ربما تكلف البعض أو تجعله يدفع ثمن أمانته ولكن الضمانة التي لا تحمي الصدق فقط وأنما تكافئ الصادق هو صـــــدام حســـين . .

والسبب الرئيسي في حب القائد للصدق والحقيقة ، ، كونه الرجل الذي يرى في الكذب أنتقاصا من الشخصية ، ، وفي التحايل على الحقيقة ، ، مراوغة ليس بينها وبين الأخلاق صلة .

وصـــدام حســـين في رجولته الكثير من الصفات الخيرة ، ، وفي مقدمتها كره الكذب والأمتعاض من الدوران حوله لتزوير الحقيقة أو تشويهها .

والواقع أن الكذب ضرره الأكبر ، ، أنه لا يرسم طرق الضلال أو يخلق جوا مشبعا بالأوهام فقط ، ، بل يوجد أرضية النفاق الواسعة وقاعدة الدجل الرخيص .

ولهذا يصر القائد على أن تسود الحقيقة والا يكون الكذب في المجتمع الذي

يقوده ، ، يؤكد هذا النهج بقوله :

«لا يجوز للمواطن أن يكذب وهو يعرف الحقيقة ، ، الكذب هو الكلام بخلاف الحقيقة ، ، رغم معرفة المتكلم بالحقيقة ، ، ويسمى نفاقا أحيانا عندما يأخذ أطارا معينا ، ، وكذلك المسؤول» .

أن الصدق والكذب على طرفي نقيض ، ، والحقيقة بينهما يمكن أن تكون راية المجتمع الخفاقة عندما تقال الأمور بصدق ، ، ويمكن أن تكون الضحية المغدورة عندما يفترسها الدجل والنفاق أو يغتالها الكذب العمد .

وقيمة الصدق في نظر صـــدام حســـين لا تعود الى أثره في تكوين الأنسان الجديد ، وموقعه المطلوب في المجتمع حسب ، ، بل لانها تضع الأمور على بساط البحث والحقيقة ، ، ولهذا يرى القائد «أن الحقيقة وفي كل الأوقات والظروف هي السبيل لبناء الأنسان الجديد على الطريق الصحيح» . .

وبهذا يكون الموقف الصادق ، ، هو الذي يريد أشاعته القائد ، ، وهو في هذه الغاية لا يفصل مفاهيمه عن أثر الخوف وما يأخذه من الحقيقة والصدق ، ، لان الخوف يسدل الستار على الكثير من الوقائع ، ، وهو ما يجعل للكذب مخابئ كثيرة ، ، ويدفع البعض الى أختيار ما يناغي النفوس الصغيرة ، ، وما يرضيها من أقوال أو أفعال خلافا لما يرضي الله والشعب والضمير . .

أن الخوف قيد على ذكر الواقع الصحيح وهو سيف يحمله سراق الحقائق ومزورو الوقائع ، ، لكنه في عقل صـــدام حســـين وما يريده ، ، هو سيف من خشب يكسره سيف الحق والحقيقة . . ولهذا يؤكد القائد على «أن الخوف لا يبني المجتمع» ويدعو الى أعتماد الحقيقة بقوله :

«لا بد وأن تعتمدوا الحقيقة مثلما هي ، ، وليس كما تتمنونها ، ، مثلما تتمنون اعملوا عليها ، ، ولكن عندما تقع حالة فمن حق الشعب أن يطلع عليها» . .

أذن أعتماد الحقيقة كما هي يجعل البينة واضحة ، ، ويسلح الناس بالأمر الصحيح ، ، ويزيد وعيهم وحصانتهم وأطمئنانهم ، ، لان القفز على الحقيقة ، ، لا يلغيها على الأطلاق ، ، وتجاهلها لا يشطب وقائعها أبدا ، ، وهي حالة خطيرة أكثر

منها خطورة هي أن توصف الحالة بما يخالف الحقيقة أو بكذب يرمي الى الأنتقاص منها أو الغائها بالكامل أو بوصف نقيضها . . ! !

فالحياة في نظر القائد يجب أن ترى كما هي ليس من أجل الخنوع للاوضاع أو الأستسلام لمشيئتها غير المتوافقة مع السياق المطلوب ، ، وأنما لكي تكون رؤيتها ، ، بكامل حقائقها عاملا لحركة التغير المنشودة ، ، لهذا يقول :

«يجب أن نرى الحياة مثلما هي ، ، ثم كيف نستطيع تغييرها ، ، بموجب نظرية الحزب ، ، ولكن يجب الا نخطئ الظن في وصف الواقع مثلما هو ، ، ولكي نصف الواقع مثلما هو ، ، يجب أن نعايشه ونلمسه» .

في ضوء هذه النظرة السليمة ، ، يجعل القائد من سلاح الحقيقة قوة الى أمام ، ، وليس وسيلة الى الأرتداد أو التراجع الى الخلف ، ، ومثل هذا الواقع هو الخط التاريخي الأمين للتغيير ولحركة الأوضاع فيه بما يلبي المطامح التاريخية ، ، والا فالعكس لا يعني بلوغا للاهداف من فوق تجاهل الحقيقة أو جهلها .

أن القفز على الحقيقة يعني الوقوع بعد ذلك في الهاوية ، لأن العمل التاريخي لا يتجاوز الوقائع ، ، بحكم واقعية أهدافه لان غاياته ليست أمنيات خيال ، ، وأنما هي غايات حقيقية مطلوب الوصول اليها من خلال تحريك الواقع والتفاعل مع حقائقة .

وهنا تبرز قيمة الصبر . . وما أعنيه ليس التأني الذي يجعل الفعل التاريخي متخلفا ، ، وليس حالة من التعجيل غير الموضوعي ، ، وأنما بالموقف العقلاني الواعي الدقيق الذي لا يضحي بالهدف ، ، ولكنه لا يتسرع الوصول اليه على حساب الحقائق مثلما لا تثبط حقائقه الصعبة العزائم والهمم . .

وفي تجربتنا الراهنة يمثل صـــدام حســين صورة أمينة للقائد الصبور والمقتدر ، ، فهو حيال المواقف التي تتطلب تأنياً يصبر ، ، ولكن بنظرة الحليم الحكيم التي ترفض التهور بمقدار رفضها للتردد ، ، ولهذا يرى القائد «أن الصبر كنز كبير عندما تكون له قيادة وطنية وشريفة» .

صـــدام حســين بهذه الحقائق ، يكون القائد المقتدر الذي حول الصبر الى أرقى حالة للمسؤولية الوطنية ، ، لذلك لا نجد أثرا للتسرع في خطواته التاريخية ، ،

وأنما نجد أقتدارا يسدد الضربة بوقتها المحدد وزمانها المطلوب ، ، ولم يكن عنده الصبر في يوم من الأيام رديفا للخوف أو الضعف أو القبول بالأمر الواقع «المفروض» على أساس أنه الحالة ، ، التي ليس بالامكان وجود أحسن منها ، ، وبالتالي يكون التراخي معه والأستسلام اليه ، ، هو السبيل الوحيد الذي لا سبيل سواه ! ! !

صبر صـــدام حســين ليس فيه قبول بمثل هذا الأمر الواقع ، ، فيه التأني والحكمة ولكن ليس فيه التنازل أو التفريط . .

هذا هو ما يميز نظرات وأفعال صـــدام حســين ، ، ويعبر عن تعامله مع الحياة من أفق ستراتيجي ، ، ويطبع أراءه وأحاديثه بالصدق والحقيقة . . التي لا تجد فيها صخب المزايدة أو أنزواء المناقصة .

أن قائدا من هذا الطراز ، ، لا تكون دقته في الحديث أو الكلام ، ، الا جزءا من مسؤولياته التاريخية ، ، وقبلها أنعكاس لصدقه مع النفس . .

فالكلام الجزاف . . مهما تكن عباراته منمقة وعالية ، ، لا يشكل عنده غير حالة وهن ، ، ضعفها الأكبر يكمن في النفس الضعيفة غير الواثقة التي تطلقه بلا معرفة أو تقدير . .

وهذا النهج الذي يحرص عليه القائد صـــدام حســين ، ، مكرس لغرض أكبر يتوخاه ، ، هو بناء جسر الثقة بين حكم الثورة والشعب ، لان العراقيين قد فقدوا ثقتهم بالحكام الذين يستسهلون الكلمة ولا يحترمونها .

وقد كان القائد لذلك يدخل ، ، ومنذ البدايات الأولى للثورة ، ، في نقاش مع أعضاء القيادة من أجل أن تقال الحقيقة للشعب ، ، والا تكون الوعود والتصريحات بعيدة عن الواقع وأنه «يجب أن نلتزم عندما نقول للعراقي بأننا سنعمل وفق هذه السياسة ونقدم لك هذه المنجزات» . .

ويكفي لكي أشير الى حرص القائد صدام حسين على هذه المسألة ، ، أن أورد بعضا من حديث له يقول فيه :

«أحيانا نتخذ قرارات ، ، ونكتشف أو يكتشف الرفاق فيما بعد أننا بحاجة الى التريث في تنفيذ القرار أو بحاجة الى الغائه ، ، وأنا أرفض وأقول لهم ، ، أنه قد تكون هناك خسارة ما في تنفيذ القرار ، ، ولكن هذه الخسارة جزئية ، ، أذا ما

وضعت في أطار النتيجة النهائية ، ، وهي كسب ثقة الشعب العراقي» . .

هكذا يرى الأمور صـــدام حســين ، ، ولذلك عنده الكلمة ، ، بمقدار ما هي مسؤولية ، ، هي شرف وألتزام ، ، والحقيقة في منظوره أمانة ، ، وصوتها مهما كان هادئا يظل الأعلى من كل الأصوات ، ، حتى لو كانت رخيمة أو على شكل صراخ . .

أن الكلمة الصادقة أقرب الى مسامعه من كل الصيحات الأخرى التي لا تدنو من الواقع ، مهما تكن عالية ، ، لان ضميره لا يصغي لغير الحقيقة مثلما يلتقط الصدق ، ، بدقة متناهية تثير الدهشة والأستغراب ، ، وهو في هذه الناحية يقدم أكبر البراهين على : أن همسة واحدة صادقة هي أقوى من الصراخ الذي تعوزه الأمانة وتنقصه الحقائق وهي الأنفع والأجدى للمجتمع .

كما أن تقدير القائد للصدق وقيمته فيما يريد أشاعته في المجتمع الجديد ، ، يعود الى ما يزخر به تاريخنا من رموز خالدة ، ، تركت أثارا شاخصة في هذا المجال ، ، تشكل في عالم اليوم رصيدا كبيرا لمن يريد الاقتداء بذلك . .

ومع صدقه . . يشكل عدله ميزة اخرى وراء كونه رجل المكانة الخاصة في التاريخ . .

فلماذا يريد العدل ويحرص عليه ؟

(٨) واعدلوا بين الناس

لمن يكتب التاريخ ؟

لمن يستحق ذلك ، ، بالجدارة والتضحية والأستشهادات التي تعطيه هذا الحق ، ، بالبينة الواضحة واليقين الثابت ، ، وليس بالكلام الجزاف والادعاء الاجوف الذي لا سند له ولا قيمة . .

وبعد ذلك يحق لي القول : ان من يتخلف عن انصاف من يستحق هو تماما كمن يركن الى مديح من لا يستحق ، ، بمقولة الزور والبهتان والضلالة . .

واذا كان الموقف الاول متعسفاً فان الاخر منافق ، ، وكتابة التاريخ لا تصلح بالاثنين معا ! !

التعسف يشطب الحقائق . .

والنفاق يقلب الحقائق . .

وكتابة التاريخ . . تحتاج قبل الصفحات البيضاء الى القلم الامين . .

وما يرفع الحرج عن السطور المكتوبة ، ، انها تكتب عن قائد ، ، لا يستطيع احد ان يشطب حقائقه ، ، ولا يحتاج الى من يقلب الحقائق له ، ، فهو القائد الامين ورجل الحقائق الكثيرة . ،

وحين يبرز في هذا التاريخ وهج عبرة خالدة ، ، قوامها ، ، أن نبي الخير والهداية محمد العظيم (ص) كان أول ما عرف عنه ، ، هو الصادق الأمين ، ، وأن عنوان الشر والرذيلة مسيلمة ، ، أول ما يعرف به هو الكذاب ، ، يكون لمن يفهم هذا التاريخ وعبرته ، ، الأقتداء بالرسول الأمين وتمثل سيرته الشريفة في كل شيء ومنها صدقة الكبير . .

وفي رحاب قبر الرسول الكريم أثناء زيارة القائد الى المدينة المنورة ، ، كانت وقفة صدام حسين ، ، قبل الخشوع والرهبة ، ، لها معان أخرى وحديث للروح يسري في الروضة الطاهرة ، ، وفي وميض عينيه وقتها ، ، كان بريق العينين ، ، بريقا لم

أشاهد نظيره حتى اليوم .

هكذا رأيت . . وما رأيته كان ولا يزال عندي ، ، هو الضمانة الأولى ، ، وهو أساس كل شيئ كبير وخير في قلب صـــدام حســـين .

كان بريق المعاني الكبيرة والكثيرة .

ولكن ورغم كل ما ذهبت اليه ، ، من خصائص وصفات ، ، يظل العدل فيها هو القاسم المشترك في وصول القادة الى المكانة الخاصة في التاريخ ، ، ومن دونه تكون هذه المكانة ، ، صيحة في الوديان السحيقة أو حبة رمل ضائعة في الصحراء . . !

فكيف صـــدام حســـين هو القائد العادل ؟

وحين احمل القلم للكتابة عن عدالته ، ، فان الشواهد الحية الملموسة تسهل ما اريد ، ، كون العبارات فيها تلامس وقائع محسوسة من الشعب . .

وعندما اقول : ان صـــدام حســـين هو القائد العادل . . فأن ذلك بمقدار ما يتناغم مع الحقيقة ، ، يتناغم مع اعماق الناس . .

فلماذا يحرص القائد على العدل ؟

الانسان تتنازعه قوة الخير وقوة الشر ، ، هذه حقيقة موضوعية وأنسانية ، . .

وفي كل الحقب التاريخية ، ، يكون صراع الخير مع الشر ، ، دليلا على ان القائد العادل ، ، هو الذي يقيم في سجل الخلود ، ، المكانة الاكثر اشراقا والاعلى سموا ، ، من خلال انتصاره للحق والعدالة . .

هكذا هي سنة التاريخ .

وعودة الى تاريخنا المجيد ، ، نجد ان حضارتنا متميزة بالكثير الكثير ، . ، لكنها ومنذ فجر السلالات ، ، كانت تضع العدل في مواقع الصدارة الأولى وفي مراكز الاهتمام الاكبر . .

فشريعة حمو رابي . . تعبير عن قوانين العدل الصادرة عن اله الحق والعدل ، ومغزاها الاكبر عندي ، ، ان العراق هو موطن العدالة والحق ، ، قبل اي معنى آخر سواه ! !

ومع الرسالة الاسلامية . . كان التركيز على العدالة التي يستوي في ميزانها جميع

البشر واضحا للحدود التي جعلت فيه الظلم من الكبائر . .

ومحاربة الظلم في الشريعة الاسلامية ، ، لا تحتاج الى توضيح ، ، يكفي ان اذكر للرسول الكريم محمد العظيم (ص) قوله :

* لا تمت وانت ظالم : . .

* واتق دعوة المظلوم . .

وتاريخ شعب فيه هذا التأكيد على العدل ومحاربة الظلم ، ، يكون للتواصل معه شرط وحيد . ، هو تكريس الحق ونصرة المظلوم . .

وفي عهد صــــدام حســـين ، اجزم قاطعاً ان اكثر ما يهم القائد ، ، هو العدل الذي ينصف المظلوم ولا يرحم الظالم . .

كيف ؟

قبل ان ادخل الى ذلك ، ، اريد ان اورد نصا عن معنى القائد كما يراه صــــدام حســـين ، ، لانه ضروري ويفتح الابواب الواسعة في الدخول الى دنيا العدالة ومحاربة الظلم في مجتمع صــــدام حســـين . .

يقول القائد :

«ان القائد هو ابن المجتمع وابوه ، ، في آن معا ، ، اذ هو ابن المجتمع في عملية الخلق الاول والتكون الاول ، ، وهو ابو المجتمع واخوه في المرحلة التي يلعب فيها ادوارا قيادية ، . وعندما يكون القائد ابا للمجتمع ، ، لا بعني ذلك ان يكون ابا عشائريا متخلفا ، ، بمعنى ان يكون وصيا عليه ، ، وانما تكون ابوته ضمن سياق العلاقة الديمقراطية الثورية . . وما تتطلبه من تفاعل ، ، بالاضافة الى الاسس والشروط الديمقراطية الاخرى» . .

هذا اظن كافيا لان يوضح حرص القائد على العدل . .

وهو ايضا يوحي ، ، ان صرخات الشعب في العهود البائدة «الظلم ان دام دمر» ما تزال في ضميره مثلما كانت ، ، ولكن هذه المرة تتصدى للظالمين ممن يخالفون عدل الثورة ، ، لان الظلم وقود لماكنة الفعل المضاد مثلما هو السوق المناسبة لبضاعة المعادين !

ومن هذه الحقائق ، ، يكون شعار كل صرخة مظلومة هو ، ان صــــدام

حســـــين هو الملاذ ، ، وهو بوابة العدل الكبيرة المفتوحة بأستمرار لكل عراقي مهضوم . .

وملاحقة الظلم لا تعني عند القائد فقط ، ، اقامة العدل الأجتماعي ، ، بتوزيع الثروة اشتراكيا وتأمين تكافؤ الفرص للجميع ، ، واعتبار خط الشروع واحدا لكل ابناء العراق ومن غير تمييز ، ، دون ان يقود ذلك الى النظرة الميكانيكية للتساوي المطلق ، ، وانما بالحرص على مكافأة الجهد المبدع والمتميز بصدق ومراعاة الكفاءة الحقة ، ، فالظلم العام ، ، او اي خلل اجتماعي فيه ثغرة تمس جوانب العدل يتم تحطيمه بالقوانين والتشريعات المكرسة لهذا الغرض ، ، لكن عدل صـــــدام حســـــين لا يكتفي بذلك وانما يلاحق كل اختراق يتجاوز على قيم الثورة بالظلم ، ، وبمصادرة حقوق الناس او الاساءة لهم من خلال التعامل معهم خارج السياقات المحددة . .

هذه المسألة تعيش في ضمير صـــــدام حســـــين وفي سريرته تجسيدا لنظرته وحبه للمواطنين والعدالة معا . .

ان العراقي هو . . مواطن الثورة ، ، أداتها وغايتها ، ، وحينما يضام يكون رفع الظلم عنه واجبا يتصدر كل الواجبات لانه من صلب الثوابت الدائمة في ضمير القائد . . .

لماذا ؟

في مفاهيم صـــــدام حســـــين ، ، ان الجهاد الاكبر هو الذي يبدأ مع الذات ، ، واذ تحتل مسألة النضال الجدي مع النفس هذه القيمة الجوهرية ، ، يشكل اغفالها ، ، بوابة للتساهل الخطير في الحياة . .

ان السلطة ملعونة ، ، وفوق كراسيها يسفح البعض الكثير من القيم والاخلاق ، ، وفي اجراس مكاتبها دقات غريبة ، ، فيها رنات خطيرة ، ، تضع الصراع بين النفس المطمئنة الراضية والنفس الامارة بالسوء ، ، بين مبدئية تصونها وانحرافات تغويها ! ! !

واكثر ما يحذر منه القائد العادل ، ، هو استخدام المواقع ، ، للاغراض الخاصة ومصادرة حقوق الاخرين او الاساءة لهم او محاولات اذلالهم او البطش بهم ، ، لهذا

يؤكد على ضرورة «ان ندخل في نضال جدي مع انفسنا ، ، اساسه احترام حقوق الاخرين والأدراك بأن الظلم في وطننا الجديد ، ، لا يمكن ان يقبل ويقوم بالسيف وليس بالقلم فحسب ، ، وان ندرك جميعا ، ، من انه ممكن ان نتعب من كل شيء الا في رفع الظلم ، ، لا يمكن ان نتعب» . .

ان صـــدام حســين لا يقبل بالتصرفات العرجاء ، ، وهو يرى ان الحياة تستقيم باستقامة المجتمع والنفوس ، ، وهو في رفضه لمظاهر الخلل جميعا ، ، يضع لبعضها ضوءا احمر . . ذا حساسية عالية بحيث يضاء لابسط خلل وادنى تجاوز . .

هذه الامور عنده لا تستوجب العقاب العابر وانما العقاب الصارم انها وكما يحلو لي ان اسميها ، ، محرمات صـــدام حســين . . وهي :

* الخيانة والتجسس . .
* ألتلاعب بالمال العام . .
* الظلم . .

وحزم القائد في التصدي لهذه المحرمات يعود الى تقديراته ، ، ان الاساءات المترتبة عليها والنتائج الوخيمة التي تفرزها ، ، هي ليست اساءات شخصية محدودة او تخريبا يبتعد في مخلفاته عن الضرر العام ، ، انها ذات فعل مناهض لنهوض الوطن وبناء المواطنين ، ، ولذلك يظل صـــدام حســين حارسا يمتشق سلاحه بوجه هذه الانحرافات ، ، ويكون دائما «رافعا للسيف بوجه الظلم الذى يقع على الانسان» . .

ولذلك كله ، ، فقبل عيني القائد المفتوحتين لرصد هذا الخلل ، ، يكون ضميره وعقله وقلبه ، تلامس كل صوت فيه من الاستغاثة والتململ من الباطل والظلم ، ، حتى لو كان هذا الصوت مكتوما في الصدور !

ان صـــدام حســين في تعامله مع الحياة ، يفرق بين ظلم مقصود واخر بالخطأ غير المتعمد ، ، وهو حيال ذلك ، ، يميز الحقيقة ليس بالاحساس وانما بالتحقيق العادل الذي يأمر به ويوعز باجرائه . .

والظلم المقصود لاشفاعة له في حساباته ، ، سوى برفع الظلم عمن يقع عليه والمحاسبة بصرامة لمن يرتكبه . .

والخطأ غير المتعمد ، ، عنده قبل المسألة والحساب ، ، الاعتراف به فضيلة لها معان كثيرة قبل ان يكون ظرفا مخففا للعقاب ، ، ولهذا يدعو الى ذلك بقوله :

«ان المسؤول عندما يكتشف المواطن مظلوما ، ، لا بد ان يقول له ، ، نعم انت مظلوم ، ، وسبب خطئي هو لجهلي بالامور» . .

ان نهج القائد في هذا المجال ، ، لا يهمه العقاب ، ، بقدر ما تهمه النتائج التربوية . . ومبدأ الحق الذي ينتصر له . .

وهو في ذلك لا يريد ان يوحي ، ، ان العقاب وحده الطريق لبناء المجتمع ، ، وان كان فهو لصيانته من العبث وحفظه من مخاطر الانحرافات ، . .

فالعقاب هنا مسؤولية اجتماعية ، ، وهو لذلك يكون في احد اوجهه مسألة تربوية ، ، يراد منها تقويم الانسان والحرص على المجتمع ، ، فهو عقاب موضوعي ، ، وليس عقاب التربص بالناس ، ، لان صـــــدام حســـــين لا يقود المجتمع بطريقة التربص ، ، وانما بوضوح االرجولة والفروسية ، ، ولهذا ينازل مصادر الظلم الكبيرة ، ، التي لا تلهيه عن ازاحة بقع الظلم الصغيرة ، ، لان العدل عنده يعلو على كل شيء ، ، ولهذا يقول :

«ان الطريقة التي نقود بها المجتمع ، ، هي ليست الطريقة القائمة على تربص الفرص لانزال العقاب ، ، وانما الحالة التي نقود بها هي اولا ، ، نتمنى ان لا يحصل الخطأ ، ، لكي لا نضطر الى ايقاع العقاب ، ، واذا ما حصل الخطأ واعترف المخطئ بخطئه ، ، ايضا يدخل هذا كعامل مخفف ، ، واحيانا يلغي اي حساب ، ، اذا كان الخطأ لا يرتقي الى مستوى كبير ، ، كل قضية يصحح بها الامر ، ، حينما يرتكب بها الخطأ ، ، والزمن بها لا يشكل عاملا محلا كبيرا الا موضوع العدالة» . . .

فهذا الذي اذكره يوضح ، ، ان صـــــدام حســـــين هو رجل العدالة ، ، ولكن أية عدالة ؟ انها عدالة صرخة الضمائر العراقية التي تستقر في ضميره ، ، وهي نداء المظلومين ، ، الذين يستودعونه ظلامتهم ، ، امانة ومسؤولية ، ، صرخة ودعوة ، ، ولكن بأطمئنان اكيد وبثقة لا يدانيها الشك ، ، والسبب :

ان العدالة عند صـــــدام حســـــين هي اثقل امانة واكبرها على الاطلاق ، ، وهي مسؤوليته الكبرى في بناء العراق الجديد ، ، وطريقه الاوضح لتبوء المكانة

الخاصة في التاريخ ، .

وان ضمير القائد لا يهدأ لأنة المظلوم التي يسمعها ووجدانه لا يستقر حتى يأخذ للمظلوم حقه . .

في العدل ليست عنده هناك حظوة لاحد على آخر ، ، ولا افضلية لقريب على بعيد ، ، الحظوة الوحيدة هي لصاحب الحق والانحياز لمن يقع عليه الحيف . .

ان اساس هذا المنهج بالنسبة الى القائد يعود الى كونه ابا لكل العراقيين وانحيازه الاكيد بحكم ابوته القيادية المبدئية ، ، تكون الى من يكون الحق الى جواره ، ، لان خط استقامة الحياة محصور بين نقطتين هما ، ، العدل والحق . .

ولان صـــدام حســين من قراء التاريخ فقد رأى اهم ما فيه من بهاء ، ودرب للخلود يتحدد في عدالة رموزه الخالدة ، ، حيث يقول :

«ليس اهم ما يميز اجدادنا ، ، الذين سبقونا ، ، والذين نعتز بهم في التاريخ ، ، انهم كانوا قد بنوا المكان الفلاني ، ، وشقوا الانهر الفلانية ، ، وعملوا على تنمية الزراعة ، ، حيث ان لهذه الاعمال . . خاصية تحتل مرتبة اخرى وتبقى الخاصية الاولى ، ، انهم كانوا صادقين في تطبيق المبادئ وعادلين في تطبيق هذه المبادئ . . الصفتان بصفة واحدة ، ، وهذا يجعلنا ان نقول ، ، اننا نتمنى ان نكون بما يجعل تصرفنا ، ، جزءا من روح الجسد الفلاني» . .

وفي العراق الجديد ، ، تحققت انجازات كبيرة وكثيرة هي في الواقع مدعاة للفخر ، ، ولكن اكثر ما يتباهى به العراقيون هو عدالة صــدام حســين ، ، وفتحه الابواب ، لسماع تظلمات وشكاوى الناس . . ولهذا اصبح في حياتهم ، ، هو الضمانة . .

ان اكثر ما يرتاح اليه القائد هو انصاف الناس بالضمير الحي الذي يرصد الحقائق من خلال رؤية المبادئ للحقوق ولهذا يكره الكذب والحذلقة والتحايل على الحقيقة ، ، التي يلجأ اليها من يظلم الناس . .

والقائد من الفطنة ما يجعل رؤيته قادرة على تلمس مصادر الظلم ، ، مهما تكن الاغطية كثيفة وهذه الحقيقة مردها ان صــدام حســين ، ، يعتقد جازما ان مصدر الاطمئنان الاولي للناس هو ، ، شيوع العدل وتقويض الظلم ، ، وان

«صرخة المظلوم اقرب الى ابواب السماء» . .

فما الذي يعنيه ذلك ؟

ان اول ما يعنيه . . هو ان العدالة هي هاجسه الدائم ، ، وانها ليست مسألة تنتهي بفترة او تتوقف عند مرحلة ، ، تسود فيها أخلاق الملائكة في المجتمع . .

ان المجتمعات البشرية تظل فيها زوايا مظلمة حتى حين يسودها نور وهاج يغطي مساحتها ، ، والجهد الخير ينصب في مثل هذه الحالة على اضاءة هذه الزوايا ، ، سواء كان ذلك بانارتها ام بردمها والقضاء عليها وتخليص المجتمع منها .

ان ملاحقة الظلم هي في اعماقه ، ملاحقة لا مهادنة فيها ولا راحة تحول دونها ، ، ولهذا يقول :

«ممكن ان نكون في حالة صحية غير قادرين بها على أن نوقع ، ، ولكن حتى في هذه الصيغة التي لا نستطيع بها التوقيع ، ، نستطيع ان نرفع السيف بوجه الظلم» . .

بهذه الروح العادلة ، ، يكون صدام حسين رجل المكانة الخاصة في التاريخ ، ، فهل تجعله هذه الحقائق ، ، مكتفيا بما يريده من نصرة للحق بالقوانين وبالرقابة الحريصة على ملاحقة الخلل او بالتحقيق الذي يميط اللثام عن ذلك ؟

من يعرف القائد عن كثب ، ، يستطيع ان يرى المغزى الاكبر الذي يريده في هذا المجال ، ، وهو ان يجعل من قيم العدالة ومحاربة الظلم ، ، عرفا بين الناس وتقاليد للمجتمع الجديد . .

فالقائد يريد للحياة الجديدة ، ، ان تكون بعيدة عن الطرق الملتوية ، ، ورغبته في ذلك ، ، قبل ان تعبد طرقها ، ، قوانين العدل وتشريعاته ، ، ان يزيح بالعرف الذي يتوخاه على هذا الصعيد ، ، الدروب المتعرجة من النفوس ، ، لان في مثل هذه الحالات ، ، تكثر المخابـئ المريضة وتزداد فرص الحيلة والخبث والجنوح الى الانحرافات . .

ان العرف الذي يريد اشاعته في هذا المجال ، ، القائد صدام حسين ، ، هو عرف اساسه الا صوت اعلى من صوت العدل ، ، ولا مجاملة في تحقيق العدالة لاحد على حساب غيره ، ، والكبير والصغير سواء في ميزان الحق ، ، واحكام العدل فوق الجميع والتساهل مع الظالم عيب والظلم عار ، ، لهذا يقول القائد :

«حينما يظلم انسان واحد ، ، فيجب على المسؤولين ان لا يناموا في الليل ، ، الى ان يرفعوا عنه هذه الحالة» . .

وعدالة صـــدام حســـين ، ، عدالة خيرة ، ، انها العدالة المنصفة ، ، والانصاف بين الناس ، ، حكم للحق ليس فيه أي انتقام . .

واكثر الاسباب في ذلك يعود الى أن :

صـــدام حســـين ليس قاسيا في الحياة وانما هو حازم . .

وبين القسوة والحزم فروق كثيرة اهمها ان القسوة تنتزع من القلب الشفقة والرحمة . . . في حين ان الحزم يضرب بصرامة ، ، من غير اثر للروح الشريرة او ارضاء لنزعة الانتقام لان اساس ما يتوخاه هو تقويم الخلل وليس التربص لانزال العقاب . . وهكذا حول القائد سلاح العدل الى اقوى الاسلحة وامضاها ، وصارت انواره في الدهاليز المظلمة ، ، شعاع الامل للنفوس الواثقة، ، ان استغاثتها ليست صيحة مخنوقة في الغابة الموحشة ، ، وانما هي نداء يجد الطريق المفتوح الى قلب صـــدام حســـين . .

وبفضل ذلك لم يسبح العراقي حينما يظلم في ليل حائر ، ، وانما اصبح يطمئن . . الى ان عدالة صـــدام حســـين ، ، هي شمس الحقيقة التي تنير اعماقه اولا ثم تبدد الظلام من حوله . .

وكان من جراء ذلك ، ، ان استقر في كل النفوس ، ، صوت يعيش معها ، ، يذكرها باستمرار على ان عدل القائد هو بالمرصاد للظلم دائما . .

وكان منه ايضا ، ، ان مكانة صـــدام حســـين الخاصة في التاريخ ، ، مثلما هي امانة في سجل الزمن الخالد ، ، هي وديعة في قلوب العراقيين للاجيال القادمة ، ، تحكي لهم قصص العدل الكثيرة عن القائد العادل . .

وحين يكتب التاريخ ذلك عن صـــدام حســـين ، ، يخط له المزيد من الصفحات على طريق المكانة الخاصة في التاريخ ، ، من افق آخر كونه رمز الكرامة الوطنية . .

فكيف ؟

(٩) والكرامة كل شيء

في الاوقات العصيبة ، ، تتجلى معادن الرجال ، ، ، وتظهر حقائق النفوس الكبيرة .

وقد يكون الرجال شموعا تحترق ، ، لكن كرامتهم تظل الشيء الوحيد الذي لا يلفظ أنفاسه . وأذن فالرجولة وجهها الآخر هو الكرامة الدائمة .

أعني : ان الكرامة في كل الأحوال ، ، لا تساهل فيها ولا تفريط بها .

التساهل يعني الامر الخطير .

والتفريط يعني الأخطر .

وفي حياة صــــدام حســـين ونضاله ، ، على هذا الصعيد ، ، امثلة وصور .

أمثلة تحكي الشواهد الكثيرة .

وصور ترسم المواقف الكبيرة .

وبين الامثلة والصور ، ، يسطع نور للحقيقة ، ، دليلا بعد دليل : ان الرجل لا يطأطئ رأسه ولا يحني هامته الا لله وحده .

وايضا ان رأس القائد المرفوع لم يصنعه كرسي الحكم ، ، وقامته المستقيمة لم تسندها مواقع السلطة ، ، كانا قبل ذلك وبالتحديد منذ ان وعى ، ، ان الحياة والكرامة سواء بسواء .

من هذه الناحية احب ان ابتدئ . .

وابتدئ بمثل شائع لاصل الى نتيجة اريدها . . ! !

المثل يقول : ان المهرة بخيالها .

والنتيجة التي اتوخاها هي ، ، ان الدولة برجل التصرف الاول فيها .

واذا كان المثل مفهوما ، ، فأن معنى النتيجة التي أقصدها احدده بالقول : ان سيماء الدولة تنطبع بسمات الرجل الاول فيها ، ، اعني ان مواقف الدولة وتصرفاتها

تتحدد بصفات الرجل الاول فيها . .

هكذا هو واقع الحال في دول العالم ، ، وعلى وجه الخصوص دول العالم الثالث ، ، القائد القوي والعزيز يقيم دولة قوية ومستقلة ، ، والحاكم الضعيف الذليل يصنع دولة ذليلة ومهلهلة .

ومن يريد الامثلة اقول ، ، ان مصر الزعيم الخالد جمال عبدالناصر هي غير دولة مصر في زمن الرئيس انور السادات !

ولهذا اقول واثقا ، ، ان عراق القائد صـــدام حســـين ، ، هو غير الدولة العراقية في عهود حكامها المختلفة ، ، صار عراق اليوم ، ، عراق الكرامة لان قائده رجل الكرامة في كل حياته .

هذه هي الحقيقة الاولى لواقع الكرامة الذي يعيشه العراق الجديد .

ومنها كانت البداية .

كيف ؟

صـــدام حســـين تعود في كل حياته ان يقف كالطود ، ، وان يتصرف بكبرياء ، ، ولم يكن شموخه اعتدادا بالنفس بقدر ما كان اعتزازا بها .

وفي كل مواقفه ، ، كانت الكرامة خطا ثابتا لم يتغير مهما تكن الاحوال ، ، ولم يسمح لاحد ان يتلاعب بها ، ، كانت عنده اثمن ما يعتز واسمى شيء يستحيل التهاون فيه . .

وخلال عهود ما قبل الثورة واستباحة الحكام هدر الكرامات ، ، وبشكل أخص كرامة المناضلين ، ، كانت تصرفاته تنبئ ان الرجل منتبه لذلك ، ، ولهذا ظلت رجولته تستسهل كل التضحيات الا التضحية بكرامته وحالة الاباء الكبير المستقرة في اعماقه .

وكان رجال السلطة واجهزتها يعرفون ان التعدي على كرامته ، ، ثمنه كبير ، وهو امر لا يمكن لحملة السياط الاقتراب منه ، ، لان غضبته كانت تخيفهم ، وهي اقوى من قيود الاسر ، ، وهديرها لا تمنعه اسوار السجن وقضبان الحديد .

ولم يكن حرصه على كرامته يبتعد به عن كرامة الوطن التي يريد الانتصار لها ، ، خوفا من ان تؤذيها يد طويلة ، ، او ان يمسها لسان متهور . .

فقد كان يعرف كيف يكسر اليد التي تمتد اليه بهدف المساس بكرامته .

وكان ماهرا في قطع اللسان المتهور ، ، الذي لم يعرف بعد من هو صـــدام حســين ، ، وما معنى الكرامة في حياته . .

وكانت مهابته ، ، بقدر ما فيها من قوة الشخصية ، ، فيها من الكرامة والاعتزاز بالنفس الكثير الكثير . .

وكان اعظم ما فيه ، ، في هذا المجال ، ، ان كرامة الاخرين تستحق منه نفس الاهتمام ، ، لان في قلبه ينام حب الناس والحرص على كرامتهم .

ان صـــدام حســين عاش يزرع الكرامة ، ، ويعتقد ان من ينثر بذور المهانة لن يحصد غير الكراهية والاحتقار ، ، ولهذا حين فجر ثورته ، ، فجر معها ينابيع الكرامة والشموخ للانسان العراقي الجديد ، ، وكان هذا الامر اكثر ما يخافه الاعداء ولهذا «يريدون تحطيم الانسان معنويا عندما يجردونه من اهدافه الاعتبارية» .

وهذا بحر السراب الذي يمخرون فيه ، ، وهو الوهم الخادع الذي يضيعون به ، ، لان كرامة العراقي في حرز امين ، ، اسمه : عهد القائد صـــدام حســين .

هذه هي الحقيقة التي يشيعها القائد في المجتمع العراقي الجديد ، ، لانه اصلا رجل الكرامة الذي يقدم للناس المثال على ، ، ان الخدش البسيط للكرامة يستحق نزيف العمر كله . .

ان تاريخ صـــدام حســين يشير الى ، ، ان الرجل والكرامة على موعد ثابت في كل المواقف .

وكان بفعل هذا الشعور ، ، انه لم يرتض ان يكون تابعا لاحد ، ، او ان يملي عليه ما يريد ، ، ولهذا ظل في حياته السياسية ، ، يرى في ظاهرة الاستزلام ضعفا في الرجولة والايمان ونقصا في الاخلاق ، ، لان المرور من تحت آباط الآخرين ، ، يقصر من قامات الرجال ويجعلهم يحنون رؤوسهم ، ، مثلما كان التكتل في تصوراته نزوعاً انتهازيا فيه خصال تمس التكون الشخصي لاصحابه بذات القدر الذي تصيب فيه تكونهم الآيديولوجي والنضالي .

وكانت لكل هذه الخصائص مواقفه السياسية والنضالية ، ، بعيدة عن كل

الاجواء التي تثلب قيم الرجولة والكرامة والفروسية ، ، مثلما تطعن المبادئ في احكامها الجوهرية . .

وكان المناضل صـــــدام حســـــين انطلاقا من هذه الحقائق ، ، يقول كلمته بكرامة ومبدئية ، ، دون ان يدخل في الحساب انها قد ترضي بعضا ، او قد تزعل آخرين ، ، فهو لم يتملق احد مثلما لم يستهدف ايذاء الغير ، ، كان يرضي المبادئ ويؤذي اصحاب النوايا السيئة وتجار التزوير والتشويه .

ان صيحات صـــــدام حســـــين في المؤتمرات الحزبية ، ، كانت مثالا لمبدئية المناضل ، ، مثلما هي توكيد على رجولة الفارس ، ، الذي يحمل في كلماته ، ، ضمير الشعب والبعث ، ، ويتصدى للانحرافات بقوة المبدأ والكرامة . .

وكان هذا النهج في مواقف صـــــدام حســـــين ، ، مرجعه بالذات ، ، ان العمل السياسي الذي ينضوي تحت لوائه ، ، هو عمل من نمط خاص يستهدف تغيير الواقع ، ، وهو امر لا يمكن من غير تغيير النفوس ، ، واول الامور المطلوبة عنده ، ، كلمة الحق والضمير والمبادئ ، ، وكان المرجع الاخر له في هذا النهج هو ، ، ان صدام حسين يعتقد ، ، ان الرجل من غير الكرامة ، ، هو بقايا انسان متهدم او شبح مسلوب من اغنى الاشياء .

هذه بعض من الجوانب الكبيرة في شخصية صـــــدام حســـــين ، ، المناضل والانسان ، ، وهي امور تركت اثارها على واقع العراق الجديد الذي يقوده ، ، وانعكست على صورة الحالة التي يعيشها عراق اليوم . .

كانت هذه الاثار هي البداية وليست النهاية .

وكانت هذه الانعكاسات هي الاضواء وليست الظلال .

كانت أساس الكرامة الوطنية للعراق الجديد الشاهقة في كل ربوع العالم الواسعة واماكن الدنيا الفسيحة .

فالقائد صـــــدام حســـــين الذي كان رجل المسؤولية الاولى في الثورة ، ، لم يجعل من موضوعة الكرامة ، ، حالة شخصية ترتبط به ، ، لانه بالاصل لم ينظر اليها من هذه الزاوية الخاصة البحتة وانما كانت رؤيته عامة وموضوعية ، ، ولكن ذلك لا يعني من القول ، ، ان الواقع الجديد ، ، عمق من نظرته العامة وحدد ابعادا اكثر

لمسؤولياته حيال كرامة العراق ، ، لان البلد الذي يفقد كرامته او تمس سمعته ، ، يصبح شبحا لدولة شاحبة وليس وطنا للعز والمجد .

وكانت افكاره ومواقفه ، ، تصوراته وتصرفاته ، ، جميعها مكرسة لكرامة العراق . .

وكان بحق رجل الكرامة الوطنية .

وكان قائد العزة الوطنية .

وواقع العراق الجديد ، ، يحكي الكثير الكثير . .

وعهد صـــدام حســين يسجل في التاريخ ، ، على هذا الطريق ، ، العظيم العظيم .

وما يتركه الزمن المقروء عن حقب التاريخ الراهنة ، ، وما تتفحصه الاجيال اللاحقة ، ، فيه الكبير الكبير ، ، لكن الاكبر منه شهادة المجد المكتوبة لصـــدام حســين ، ، على انه القائد الذي حمى كرامة العراق ، ، وحفر في الوجدان الوطني نهرا دائما للكرامة يروى النفوس بالعزة والكبرياء ، ، وبنى جدارا نفسيا يستحيل تحطيمه ، ، اساسه ، ، ان كل خسارة ممكنة الا الخسارة في الكرامة الوطنية اساساً لا تعوض ، ، ويكون ثمنها الوحيد فقط ، ، هو أفهام من من يريد اذلال العراقيين على ان الحياة من غير الكرامة لا تساوي شيئا .

وعندي من الاقوال التي يتحدث فيها القائد عن ذلك امور يصعب حصرها .

لا اريد ان استشهد بها .

اريد ان اتطرق الى الاحداث والحوادث .

ولكن قبل ان امضي الى شهادة الزمن والتاريخ ، والى افعال التصرفات ، اطرق ابواب الواقع ، ، بحقيقة كبيرة ومفيدة في هذا المضمار هي : ان صـــدام حســين رجل الاستقلالية لان التبعية في رؤيته محو للكرامة الوطنية ، ، والتصرف المستقل هو الوجه الاخر للعزة الوطنية . . .

بعد ذلك ادخل الى احداث الحقيقة وحديث الحقائق . .

وابتدئ رحلة البحث عن ذلك في ثنايا الزمن وصفحات التاريخ . .

واقول . . . .

في عام ١٩٦٩ كان القائد لا يحب ان تعلن تسميته الرسمية ، ، وقتها كان في منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، ، لحالة نفسية ترتبط بكرهه للسلطة ، ، وكان السفير البريطاني يطلب مقابلته ، ، لانه كان يعرف موقعه القائد في عملية الثورة ، ، بهدف بحث العلاقات الثنائية بين البلدين . .

كانت اجابة القائد على السفير البريطاني تعكس المعاني الكبيرة ، ، وفي مقدمتها معاني الكرامة الوطنية ، ، وكان صـــدام حســين في ذلك صريحا وغير هياب وهو يقول :

«اننا لا نحبكم ، ، ولكننا لسنا معقدين ، ، كمركز قيادي تجاهكم ، ، اي اننا بامكاننا ان نقيم علاقات حسنة ، ، عندما نقتنع بان من مصلحة العراق ان تكون علاقاتنا جيدة معكم ، ، وان تبرهنوا انتم بانكم قد غادرتم حالة الشعور ، ، بان العراق كان يوما ما جزءا من الامبراطورية البريطانية» .

وفي عام ١٩٧٤ اثناء زيارة وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية ، ، كان القائد يؤكد له ذات الحديث ، ، بكل ما فيه من حقائق وادلة ومعان . .

وفي شهادة الزمن ايضا ، ، انه في عام ١٩٧٠ ، ، كان القائد صـــدام حســين على رأس وفد عراقي في زيارة الى موسكو ، ، وكانت للاتحاد السوفيتي وقتها على العراق ديون مستحقة الدفع لتلك السنة ، ، وكان وضع العراق المالي سيئا ، ، وطلب القائد من القادة السوفيت ان يؤجلوا الدفع ، ، لكنهم اعتذروا ، ، وحاول اقناعهم ، ، ولكنهم اصروا على ذلك ، ،

وأزاء هذا الاصرار لم يتوسل القائد بهم ، ، بل قال لهم بكل كرامة «عندما ارجع للعراق ، ، سأبيع السترة التي ارتديها ، ، لو اقتضى الامر واوفي ديونكم فورا» .

وبالفعل فان القائد بعد عودته من زيارته ، ، امر بتسديد الديون السوفيتية وبالأقساط التي أرادوها . .

وتدور دورة الزمن ، ، وتفرض الضرورة احكامها . .

ففي عام ١٩٧٥ – ١٩٧٦ جاء السفير السوفيتي يطلب المقابلة مع القائد . .

في مكتبه في المجلس الوطني كان السفير يحمل طلب حكومته عن حاجتها الى كمية من النفط ، ، بالاضافة الى الكمية المتعاقد عليها ، ، ولكن ليست لديها القدرة على

دفعها في تلك السنة ، ، وكانت قيمتها حوالي ٢٥٠ مليون دولار .

كان القائد يستمع وبعد ان انتهى السفير السوفيتي من الغرض الذي قدم له ، ، تساءل القائد : هل ان الاتحاد السوفيتي بحاجة الى النفط فعلا ؟

وحين كانت اجابة السفير بالأيجاب . .

قال صـــدام حســين : نحن موافقون ، ، واخبر حكومتك باننا ننظر الى الصداقة بهذه الطريقة . .

ولم يكن تصرف القائد صـــدام حســين هذا الا مؤشرا فيه من الشهامة الكثير ، ، وفيه من قيم الكرامة الاكثر ، ، لان الكرامة لا تستغل حاجة الآخرين بهدف تصغيرهم او الترفع عليهم في ظروفهم الصعبة .

هذه الحقائق تذكرني باخرى لها نفس المغزى ، ، ففي ظروف ما قبل الحرب ، ، كان القائد يناقش مع بعض اعضاء القيادة ، ، وعلى مستوى ضيق ، ، في موضوع عودة العلاقات العراقية الاميركية ، ، لان اعتقاده كان يقوم ، ، على اساس انه ليس من الصواب ان تبقى علاقات العراق البلد غير المنحاز ، ، والبلد المستقل ، ، مقطوعة مع واحدة من اكبر دولتين في العالم ، ، وحين جاءت الحرب جمد الفكرة لفترة طويلة لانه لا يريد اعادة العلاقات في ظروف يمكن ان يتصور بها احد ، ، اننا بحاجة الى اميركا لمفهوم ضيق .

والحقيقة اننا لا ننطلق من العقد في مواقفنا الدولية ، ، ولكننا لا نحب ان يتصور احد ، ، ان مواقفنا تمليها علينا الاعتبارات الآنية او الحاجة الانتهازية ، ، خصوصا في المراحل الصعبة التي نخوض غمارها ، ، وهذه الناحية لها صلة وثقى باوضاعنا النفسية وحالة الاعتزاز الكبير بكرامتنا الوطنية . .

وشاهد التاريخ لا يكتفي بذلك ، ، يريد الافاضة بالمزيد ، ، وفي اقواله ما يزال الكثير ومنها ، ، احكام من معركة التأميم .

وقبل الاصغاء لصوت الحقيقة ، ، اريد ان اطلق على معركة التأميم اسم معركة الكرامة الوطنية .

ومن التسمية انطلق الى نظرة القائد الى يوم التأميم ، ، هو عنده يوم الاستقلال الوطني الحقيقي للعراق ، ، قبله كان استقلالا في النوايا والتصور ، ، وبعده كان

استقلالا في التصرف ، ، كان وجود شركة نفط العراق يعني مساسا بالاستقلال الاقتصادي ومن ثم بالاستقلال السياسي ، ، وكان القضاء على الاحتكارات النفطية يمثل تعزيزا للكرامة الوطنية . .

هذا الذي ذكرته يكفي ، ، لانني لا اريد ان اتحدث عن مغنى التأميم اكثر من هذه الاشارات ، ، ولكن ما اريد ان اسلط الاضواء عليه هو جانب من الاحداث التي رافقته ، ، كان للقائد فيها تصرفات لها صلة بما اتناوله في هذا الموضوع .

والاضواء في هذا المجال تمر على حوادث مهمة اوجزها بالتالي :

بعد قرار التأميم بمدة قليلة زار القائد في مكتبه ممثل عن ملكة هولندا ، ، يحمل رجاء ، ، على امل ان يتراجع العراق عن قرار التأميم ، ، بأعتبار ان الملكة يعنيها هذا الامر !

وكان جواب القائد وقتها : متأسف جدا ، ، وارجو ابلاغ سلامي الى صاحبة الجلالة ، ، واخبارها ان الكلام المقبول هو في تقبل العلاقات الجديدة ، ، وليس في ظل التصور بالعودة عن هذا الواقع . ! !

ودائرة الضوء لا تكتفي بذلك ، ، وانما تتسع لغيره من الاحداث ، ، فخلال زيارة القائد صدام حسين الى الاتحاد السوفيتي ، ، في الربيع الذي سبق التأميم ، ، التقى مع كل من كوسيجين وبريجنيف ، ، وتطرق القائد في مباحثاته الى المفاوضات التي كانت جارية مع شركات النفط الاحتكارية ، ، وقال : «واذا تعثرت المفاوضات وتعنتت الشركات ، ، فعلى المرء ان يفكر ، ، ما هي الخطوة اللاحقة ، ، وقد يكون من تدابير العراق ، ، اللجوء الى التأميم كليا او جزئيا ، ، ونريد ان نفهم ما هي امكانيات الاصدقاء ، ، في حالة وصولنا الى هذا الظرف لدعمنا» .

وكان وعد القادة السوفيت هو ارسال فريق فني ليدرس هذا الموضوع لتكون الصورة واضحة امامهم في المستقبل . .

وحصل التأميم ولم يأت الفريق ، ، ونحن في العراق لم نعاود الطلب ، ، لان قرار التأميم هو قرار العراق ، ، ومعركته هي معركة للكرامة الوطنية يمضي العراق في

اشواطها الى النهاية من غير أن ندخل حسابات الاخرين او تصرفاتهم بها . .
وشعاع الحقائق ينفذ الى واقعة اخرى لها دلالة مقصودة ، ، لمن يفهم تصرفات القائد صـــدام حســـين . .
فعند زيارته للاتحاد العام للجمعيات الفلاحية ، ، قبل ثلاثة عشر يوما من التأميم ، ، كان الاعلام ينقل تصريحاته التي تؤكد بأن الحكومة العراقية ستتخذ القرار الذي يحمي مصالحها ، ، ومع تصريحاته كان ينقل صورته وهو يأكل الخبز والخيار ! ! !
وكانت الصورة ايحاء ، ، بان العراقيين حيال كرامتهم لا يهمهم ما يأكلون ، ، لان الكرامة عندهم ، ، كل الاشياء واحلاها على الاطلاق . .
هكذا علمنا صـــدام حســـين ، ، ومنه كان اليقين الاكيد ، ، أن الحياة بلا كرامة هي صحراء جرداء ، ، والهدوء فيها لن يحول البوادي الى جنان ، ، ولذلك فهو يعتقد ان من يخلد الى السكينة في قلب الزوابع يخدع نفسه بالهدوء وسط العواصف ، ، لهذا يضرب الرياح ليحتفظ من فوقها ، ، بكرامة شاخصة لعراق الحضارات العظيمة . .
ولهذا يحرص على كرامة الشعب ، ، ويوصي اجهزة الدولة عموما للحفاظ عليها ، ، ومنها اجهزة الأمن القومي ، ، فكيف هي وصاياه على هذا الصعيد ! ؟

(١٠) الوصايا

كانت الساعة تزيد على العاشرة بدقائق قليلة حين ابتدأت سيارات الموكب تحرك عجلاتها ، ، بطيئة ثم مسرعة . .

كان الركب يتجه الى مديرية الأمن العامة في ضحى ٣٠ تموز ١٩٧٨ ، ، في مرافقة القائد كان ، ، الرفيقان عزة ابراهيم وسعدون شاكر . .

هناك بالأنتظار كان الرفيق الدكتور فاضل البراك مدير الأمن العام وقتها . .

داخل مبنى الأمن العام ، ، كانت خواطري تعبر الى ماضي الأيام ، ، مع وقفات بطولية للرجل والقائد ، ، التي كان فيها السجين يرعب سجانيه ، ، وكانت فيها القوة تخاف الضحية . !

كانت التصورات أمامي ، ، فلما يطوف المخيلة بشريطه المنظور على شاشة الذكريات .

وكانت الأراء ، ، تغزو الذهن ، ، بعلامة للاستفهام مرة ، ، وتارة للتعجب ، ، وبأستنتاج في ثالثة ، ، وغيرها وغيرها من الكثير . . .

كانت الزيارة بالنسبة لي فرصة ، ، أستمع منها الى دنيا الأسرار وعالم السرية . . وقد كان . .

والأكثر من ذلك ، ، أنني كنت أشغل نفسي بما يريده صدام حسين من الزيارة ، ، وما يقوله من حديث لمنتسبي هذا الجهاز الحساس والمهم ، ، ومن خلالهم الى كل منتسبي أجهزة الأمن القومي . .

وأعترف أن مشكلتي ، ، كصحفي مع الأسرار عويصة ، ، في أعماقي رغبة تريد السبق كسبا للمهنة ، ، يزيد أهمية ذلك في تصوراتي ، ، أن الكاتب في الصحافة ، ، هو غير مندوب للاخبار فيها ، ، ينقل ما يسمع أو ما يشاهد ، . الكاتب يدخل من الخبر الى عالم الأستنتاج والرأي والأجتهاد ، ، الخبر عنده بداية وللمندوب يكون النهاية . . ! ! !

وكان لذلك خبر الزيارة عندي البداية ، ، لأن ضغوط الكتابة كانت تحمل خطوطها الى العقل ، ، تتساءل فيه وتجيب ، ، وتمضي الى حيث الصعاب من الحقائق الممكنة وليس الى السهلة منها التي لا تستهويه .

وكان التنازع قويا بين حب المهنة وأصولها وقوة الألتزام وتقاليده .

حب المهنة وحقوقها يفرض الاقتحام من غير حدود . .

وقدسية الألتزام ومعانيه تؤشر واجبا واحكاما ، ، أن ليس كل ما هو معلوم مباحا وليس كل حقيقة تصلح للنشر او الاعلام .

في غرفة مدير الأمن العام ، ، كان حديث مع الرفيق الدكتور فاضل البراك عن عمل مديريته ، ، يؤشر لي أن تنازع حقوق المهنة مع واجب الألتزام ، يكون حين يكون ، ، لصالح قيم الألتزام ، ، كانت بعثيته تتغلب على وظيفته . . ! !

وكان هذا وجها واحدا . .

وكنت أبحث عن الوجوه الأخرى ، ، عن الحقائق الأكبر ، ، من حديث للقائد مع منتسبي هذا الجهاز ، ، موعده ليس بعيدا . . ! !

ومع أن موعد الحديث قريب قريب ، ، فقد كنت أنتظره بشوق أو بفارغ الصبر كما يقال . .

ولم يكن في الرغبة الجامحة ، ، شك أو ريبة ، ، لان مبادئ صـــدام حســـين ، ، واضحة في منطلقاتها المبدئية في كل شيئ . . كانت مزيدا من الصور تريد أن تتعمق في أبعادها بالمزيد عن حقيقة صـــدام حســـين ، ، القائد والأنسان . .

وكانت الصور والملامح .

ومشهد الحدث ينتقل الى قاعة عقد فيها مؤتمر لضباط الأمن . .

والمؤتمر كان مكرسا « . . . . . . » ودور رجال الأمن في ذلك .

كان صـــدام حســـين كعادته يستمع .

وكان يراقب ويتأمل . .

وبأمر من القائد ، ، لم يبق في قاعة المؤتمر غير المؤتمرين . . وعضوي القيادة اللذين رافقا القائد في زيارته ، ، والمرافق الأقدم الرفيق صباح مرزا ، ، عينا يقظة

يستقر فيها حب القائد والتفاني في سبيله ، ، وكنت الرابع معهم . .
كان كل شيء يوحي أن القائد يستعد للحديث .
وكان الحديث . .
كان فيه ما يستدعي ، ، الألتزام وأن تظل في الصدور ، ، أمانة الوطن ، ، لان أسراره هي كل الأشياء ولا أقول أغلى الأشياء .
وكان القسم الآخر من الحديث ، ، وثيقة تركها صـــدام حســـين ، ، وديعة لمنتسبي الأجهزة الخاصة ، ، وقبل ذلك أودعها الى خزائن التاريخ ، ، كنزا من أغلى كنوز الخلود .
كانت الوصايا . .
وكان أمر القائد وتوجيهه ، ، أن تنشر وتذاع وتطبع في كراس .
والوصايا شاهد على الكثير الكثير . .
وقبل هذا الكثير ، ، اوردها نصا كاملا ، ، لأن فيها المزيد المزيد ، ، على أن صـــدام حســـين هو رجل المكانة الخاصة في التاريخ . .
يقول القائد في وصاياه التي يخاطب فيها منتسبي أجهزة الأمن القومي :
يجب أن يكون سلوككم قائما في كل تفاصيله على أساس أحترام حرية الأنسان طالما أنه يحترم الثورة في أتخاذ سياستها التي تخدم منطلقاتها المبدئية ، وأن نحترم تصرف الأنسان طالما لا يصطدم أو يتعارض مع مسيرة الثورة وسياستها .
ينبغي أن يشعر كل عراقي أن جهاز الأمن والأجهزة الخاصة الأخرى ، ، أجهزة لمهات المحافظة على حريته من الأمتهان او الأنتقاص ، ، وليست أجهزة من النوع الذي لا يستطيع أن يحقق واجباته الا على حساب حرية الشعب .
وينبغي أن يكون العرف السائدة لكم ، ، أن من لا يرتكب ما يسيئ الى الثورة والمجتمع فهو في حرز أمين لا يستطيع كائن من كان أن يتعرض له ولحريته بالسوء .
يجب أن تكون أخطاء الأجهزة الخاصة الان وفي المراحل اللاحقة أقل من أخطاء أجهزة الدولة الأخرى ، لانها أجهزة أختصاص في التحري عن الحقيقة المتصلة بسلوك المواطنين وأنها تمتلك وسائل وصلاحيات فعالة اكثر من غيرها في معرفة الحقيقة المرتبطة بواجباتها أكثر من الكثير من الأجهزة الأخرى .

يجب أن لا تدخل الأعتبارات الشخصية غير المبدئية وغير الموضوعية في تقديراتكم ، ، وأن ينظر لها أذا ما حصلت وبخاصة في ما يتعلق بمصير الأنسان ، ، بأنها تقع ضمن باب الأنحرافات الكبرى والجرم المتعمد ، وأن تحاسبوا منتسبيكم على هذا الأساس بعد أن تجهدوا أنفسكم في التوعية حول مخاطر هذا المسلك وأهمية تجنبه .

يجب أن لا تنسوا ولاءكم للمبادئ وأنتم تمارسون الأختصاص في هذا الميدان أو في أي ميدان آخر للدولة والمجتمع ، ، وأن لا يتحول ولاؤكم الى الأختصاص على حساب المبادئ . . وعليكم أن تتذكروا أن الأختصاص وسيلة لخدمة المبادئ . . وفي المقدمة منها أحترام الشعب والأنسان ، ، وليس بديلا عن المبادئ أو على حسابها ، .

لا تجعلوا الأختصاص صيغة أو وسيلة للانغلاق في المعلومات الخطرة عن حزبكم الا بقدر ما يحفظ السرية المشروعة للمعلومات . . وتجنبوا الأنغلاق النقابي أو التضامن النقابي على الحق ، ، والباطل في التصرف ، وتذكروا أن التفسير الصحيح لمقولة «أنصر أخاك ظالما أو مظلوما» تعني أنتصر له عندما يكون مظلوما وأنتصر له بمعنى أنصحه ودله على الطريق الصحيح وعاقبه عندما يكون ظالما . .

تذكروا أن التقاليد النضالية في المركزية الديمقراطية داخل الحزب هي قانون مركزي عام للعلاقة داخل أجهزة الدولة كذلك ، مكيفة بظروف الدولة دون أن تفقد جوهرها الأصيل ، .

مضت على الثورة عشر سنوات أصبحنا في موقع قادرين من خلاله أن نميز النوايا تمييزا صحيحا مما يستوجب أن تكون المحاسبة على النوايا السيئة بأشد العقوبات .

تجنبوا أن تجعلوا من المعلومات الأجتماعية التي تمتلكونها عن الناس معلومات شخصية تجعلكم تتصرفون بها خارج أطار السرية المطلقة والمهام الشريفة لوظيفتكم ، وبما يلحق ضررا أجتماعيا بالناس المعنيين أو بسمعتهم .

ولا تنسوا أنكم جزء من حزب الشعب وأنكم جزء من ثورة الشعب العظيمة وبالتالي فأنكم مربون وقادة شعب بالدرجة الأساس وما مواقعكم الوظيفية الا لخدمة هذا الأتجاه .

أن الصيغ السهلة والوسائل المباشرة ليست طريقكم الأساس في أكتشاف الحقيقة وأن الصبر والعمل الدقيق والدؤوب والحضور الدائم للضمير ومبادئ الثورة شروط لا بد منها لمعرفة الحقيقة . .

أن الخصم العرضي أو المرحلي يجب أن لا يلهيكم عن الأعداء الرئيسيين وتعقب نشاطاتهم والحاق الأذى بمخططاتهم .

تذكروا دائما أن من أكبر الخطايا التي تتحملون وزرها ، هو دفع مواطنين صالحين الى صفوف الأعداء نتيجة لاخطاء قد ترتكبونها . .

لا بد أن تعملوا تحت شعارين مركزيين هما :

اولا ، ، صونوا المبادئ في عملكم يوميا وتفصيليا .

ثانياً . . أستخدموا صيغ الضرورة وأحكامها بقدر الحاجة لها ، ، وغادروها عندما تؤدي أغراضها .

وأنتهى الحديث . .

لكن معانيه تظل من غير نهاية ، ، تبقى في الذاكرة الى الأبد ، ، وقبلها في سجل الزمن الذي لا يستطيع أحد ، ، أنْ يحذف حرفا منه أو أن يشطب سطرا من وقائعه وأحكامه .

ومع دموع للفرح بما تعنيه الوصايا وتفرضه ، ، كانت أسئلة ثلاثة . .

هل من غير ذلك يمكن للقائد أن يتبوأ المكانة الخاصة في التاريخ ؟

لماذا الوصايا ؟

ولماذا التسمية ؟

والجواب عندي ، ، ليس نزوعا الى الخيال ، ، أستخلص منه ما أريد . .

من الحقائق والوقائع أشير اليه ، ، والى التاريخ أثبته وأقول . .

أن صـــــدام حســــين قد خط في قلمه ، ، وهو يأمر بنشر الحديث في كراس ، ، أن تكون تسميته :

«وصايا الى منتسبي أجهزة الأمن القومي»

وكان قصده ، ، وهذا أجتهاد مني : أن الوصية لها معنى الأمانة وطابع التقديس . . هي في النفوس التزام له حرمة ، ، ولهذا لم يكن عنوان الكراس «أوامر

أو تعليمات الى منتسبي أجهزة الأمن القومي» وهو صاحب الحق دستوريا وقانونيا في أصدار الأوامر والتعليمات .

والسبب في ذلك يعود الى :

أن الألتزام الذي له حرمة . . هو غير التقيد بالامر . . الأول خضوع طوعي من الذات ، ، وأرتضاء روحي بالأحكام ، ، مصدرها قناعة الوجدان وخوف الضمير . .

والثاني أذعان للقوة مصدره الخوف من القانون والأوامر .

في الأول خوف من الله .

وفي الثاني خوف من المسؤولية .

وشتان بين خوفين .

والقائد في وصاياه أراد كل ما تعنيه ، ، والوصايا قد أكدت بالمضاف الآخر ، ، أن صدام حسين قائد . . وليس حاكما ، ، وهو قائد أنسان على خلاف أولئك الذين تحجر السلطة قلوبهم . ، فهو صاحب ضمير كبير ووجدان لا ينام ، ، وهو ثائر وصل بالنضال الى مواقع القيادة ، ، ولم يصعد للحكم لانه وريث للسلطة .

وهو الخبير بعلم الثورة والكفاح ، ، الذي علمته السياسة وتجاربها ، ، الدروس الكثيرة والكبيرة في هذا المجال . .

في يقينه ، ، أن السلطة من غير المبادئ التي تحدها ، ، هي كابوس ثقيل وأبعد هي الوحش الذي يفترس الضحايا .

وفي رؤياه . . أن السلطة في كثير من تجارب العالم الثالث ، ، تعتمد القمع وسيلة للحماية والأرهاب طريقا الى البقاء . !

وحكم التاريخ والتجارب قد أفضى بالأدلة القاطعة .

أن القمع لا يجدي . .

والأرهاب لا يفيد . .

وهما أكثر ما يصنعانه ، ، جداراً من العزلة بين الشعب والحكم ، ، يكون بعده السيل المدمر . .

وصـــدام حســـين لا يريد جدارا بين الشعب والثورة . . هناك تحولت الأجهزة الى خطر أخلاقي ، ، لأنها تمتهن كرامة الأنسان ، ، وصارت سيفا على رقاب المواطنين . .

هذه الظواهر ، ، مرفوضة ومدانة . .

وهي نقطة الخلل الخطير ، ، الذي حول شعبية بعض الثورات الى شبح أو مسخ ، ، أحالها في الأخير الى بقايا من الأطلال . .

وعظمة صـــدام حســـين على هذا الصعيد . . أنه القائد الذي يريد الثورة أنجازا كبيرا يخترق التاريخ ، ، ويحتل موقعه المشرق في أحداثه ، ، وهو يعتقد أن أختراق التاريخ بهذه الحقيقة ، ، يجب أن يبتدئ بالنفوذ الى النفوس وأقامة مواقع الثورة فيها . .

صـــدام حســـين يدرك كل هذه الأمور ، ، بوعيه وحسه النضالي ، ، وبعبقريته القيادية التي تنزع ، ، وهذا حق مشروع ، ، الى المكانة الخاصة في التاريخ ، ، وهي التي بموجبها يصر القائد على الحفاظ على حق الشعب وحقوق الأنسان . .

وهو من أجلها ينبه لأي أنتهاك ، ، ويحذر ويعاقب . . والوصايا كانت على هذا الطريق . .

فالنفس الأنسانية بطبيعتها تكره في السلطة ، ، حالة الأكراه فيها . .

والنفس العراقية متشددة في ذلك .

والنفس البعثية متمردة على ذلك .

وقائد مثل صـــدام حســـين ، ، عاش الشعب والنضال ، ، وعاش معها حياة السجون ، ، وتعرض الى أحكام الأعدام ، ، يدرك بالمعايشة والأحساس الحي معاني حق الشعب وحقوق الأنسان . .

لهذا كانت الوصايا . . .

وكان حديثها عندي يحفر القلب كله ليسكن فيه الحب كله .

حب مبصر لمعاني هذه الحقائق . .

وليس حبا أعمى لا يرى مغازيها . .

ومشكلتي في الحب . .

حينما أحب ، ، أحرق قلبي في نار الحب وأذريه رمادا لمن أحب ، ، وهذا عندي قبل الوفاء ، ، زاد للروح التي لا يمكن أن تعيش من غير الحب ومعانيه .

وصـــدام حســـين هو الحب في حياة العراقيين ، ، وأنا واحد من بينهم ، ، لا أدعي أنني أزيد عليهم ولا أرتضي أن أنقص عنهم . . ! ! !

وحب صـــدام حســـين لم يبدأ من فراغ .

ابتدأ لانه باني نهضة العراق المعاصرة ، ، ورجل المكانة الخاصة في التاريخ .

ومن يكابر في ذلك ، ، ينطح صخرة التاريخ ، ، ومناطحة هذه الصخرة لا تشج الرؤوس المريضة ، ، بل تحرق النفوس الحقود ، ، بلعنة التاريخ ، ، زمنا يحملها الى آخر ، ، وجيلا يتوارثها بعد جيل . .

وفي الوصايا براهين وبراهين ، ، على قلب صـــدام حســـين الكبير . .

وفيها الفوارق الكثيرة ، ، عن كيف يقود صـــدام حســـين وكيف يحكم غيره . .

غيره يأمر أجهزته القمعية الا تخاف الله وأن تستعين بالشيطان . .

وصـــدام حســـين يوصي الأجهزة الخاصة أن تخاف الله وأن تستعين بالرحمن . .

والخوف من الله بداية البدايات لكل شيء صحيح . .

وصـــدام حســـين قائد يخاف الله . . لأنه قائد أنسان . . .

كيـــف ! ؟



الفصل الثالث

القائد
الانسان

(ا) نظرة الى الجذور

من اين ابتدأ

واذا كانت البداية حائرة في تحديد نقطة المسار الاولى ، ، يكون الحديث بالضرورة في خضم واسع ، ، فيه ما يكفي وايضا ما يحرج ، ، في تناول ، ، القائد الانسان .

فهل ان مصدر الحرج يعود الى ان العنوان كبير والموضوع لا يرقى الى ما هو مطلوب ، ، ام انه يقتضي الوقوف عند محطات كثيرة في الرحلة الطويلة مع الذات الكبيرة ، ، ومثل هذا الوقوف يتطلب صبرا لا اقوى عليه ، ، وتنقيبا اعجز فبه من ان اقلب الاحداث والمواقف والتاريخ .

قد يكون الاخير هو السبب ، ، وقد يكون اخر معه ، ، هو ان الحديث عن القائد الانسان ، ، هو حديث عن الحب والخير ، ، وانا في محراب الحب اخاف من الكثير ، ، اخاف من نفسي ومن ضعفي ، ، ان يقوداني الى خيار لا اريده في مثل هذا الموضوع ، ، ففي الحب ابحر الى خيال وامان ، ، واتجه الى جزر للاحلام وشواطئ للفرح ، ، وقد تكون فيها ، ، خيوط من عالم الخيال الخادع ، ، او تكون مجرد جزر لا تستقر في بحر او محيط ، ، وانما موقعها في السحب البيضاء الساكنة في اعالي السماء .

وايضا ان الحديث عن رجل الخير ، ، عندي قبل كل شئ حديث عن صاحب النفس الكبيرة وليس صاحب المنصب الكبير ، ، ومنه ايضا ينعكس في اعماقي شعور ، ، ان اصحاب النفوس الكبيرة ، ، لهم معان سامية ودلالات كبيرة ، ، واخشى الا اوفق في تناولها او ان اكبو دونها ، ، اما بفعل ان الشوط الطويل المطلوب ، ، متعب لا اقوى عليه أو ان ظلال المنصب الكبير تعكس اثارها عليّ ، ، فتبعدني الى حيث النفور من السلطة او تغريني الى افق يحمل من الامتيازات ما يثير الشهية ويحرك النفوس اليه .

واذن البداية بعد هذه المقدمة ، ، كم تبدو صعبة ، ، وكم اوفق فيها ، ، وانا ادخل منها الى موضوع كبير ، ، عن صـــدام حســين ، ، هو القائد الانسان . .

اريد ان يكون الدخول في البداية ، ، من حديث للقائد في مجلس الوزراء ، ، كان ذلك والعراق على وشك ان تدخل ثورته عامها الثاني عشر ، ، في مجلس الوزراء ، ، وجدول الاعمال مكرس لقضايا المنهاج المقرر لجلسة ١٩٨٠/٧/٢ .

كان الوقت حينها يقترب من الحادية عشرة صباحا ، ، حين كان للقائد تعقيب .

وكانت فقرة من التعقيب معي مفتاحا للكثير من الامور في نظرة صدام حسين الى الإنسان . .

يقول القائد :

«الانسان هو ارقى واغلى مخلوق على البسيطة» كانت العبارة ، ، حزمة ضياء تخترق جميع المعاني وتقف أمامها ، ، بمعنى عميق لجوهر النظرة الانسانية ، ، التي تحكم تصورات وتصرفات القائد حيال المسؤولية والعلاقة مع الشعب كمجموع والمواطن كأنسان .

كان هذا الجوهر يرتبط بحقائق لها مغزى من خلال :

- ان الانسان هو خليفة الله في الارض . .
- وان الانسان هو قيمة عليا في المجتمع . .
- وهو لذلك ، ، أثمن الاشياء ، ، وعليه تعلق الامال .

والقائد في الحقيقة التي لخصها بعبارته الصغيرة الكبيرة ، ، يحدد من خلالها القيمة والموقع والدور للانسان ، ، وهو في ذلك لا يجعل الحدود مفتوحة وسائبة ، ، ولا هو يتجاهل الشروط المطلوبة للتكافل الاجتماعي ، ، بحيث يغدو الفرد من دونها ، ، اداة عبثية تلحق فوضويته بالكيان الاجتماعي الخطر وتهدد وجوده وآماله العامة بالضرر أو بالفناء . .

ولهذه يكمل القائد نظرته في نفس الجلسة ، ، والجميع من الوزراء والحضور مشدودو الابصار والسمع اليه وهو يقول :

«ينبغي ان ندرك القيمة الانسانية لمصلحة الفرد غير المتعارضة مع مصلحة

الجماعة ، ، وعلينا ان ندرس ظروفه بشكل واقعي ، ، لكي ندعم كل مقومات الارتقاء به الى مستوى اعلى من الوعي وفي التصرف» .

بهذا فأن صــدام حســين وهو يحدد القيمة الغالية والراقية للانسان ، ، لا يفصلها عن مكانها المشروع وموقعها الصحيح ، ، وهي انها قيمة عليا ضمن القيمة العليا التي هي المجتمع .

وبهذه النظرة يرسم القائد موازنة التعايش للحقوق والواجبات على سطح واحد ، ، ويحفظ الصلة العضوية بينهما على مبدأ أنساني رفيع اساسه المركزي هو :

- ان الحقوق ، ، هي حقوق الفرد في المجتمع .
- وأما الواجبات ، فهي واجبات الفرد حيال المجتمع .

ومن غير هذا المبدأ ، ، يكون الحديث عن قيمة الانسان ، ، غائما ومرتبكا وحائرا في تلمس الخطوات الصحيحة .

ان القائد صــدام حســين ، ، وهو يحدد النظرة الجدية الدقيقة في هذا المضمار ، ، يكون في هذا التحديد قد حمى المجتمع والفرد على السواء ، ، واختار خط الحياة الصائب ، ، من غير عبث او تسلط يطغى على الانسان ، ، كأرقى قيمة واغلى شيئ ، ، او على المجتمع ككيان مقدس يشكل مصدر القيمة العليا واساسها الرصين .

هذه النقطة كانت موضع اشارة من القائد صدام حسين ، ، وهو يزور امانة العاصمة في ٤ تشرين الثاني عام ١٩٧٩ .

كان هم القائد ، ، ان توفر الخدمات للمواطنين ، ، وان يرى الناس مفردات الحديث عن التغيير في شؤون حساباتهم اليومية ، ، وعلى ارضية الواقع ، ، بمنجزات ملموسة يحسها المواطن ، ، وتسهم في راحته ، ، وكانت نظرته لهذه المسألة يحددها بقوله :

«اننا نعطي الحقوق والواجبات على حد السيف أي أن الحقوق عدالة لا بد ان تعطى للمواطن مثل حد السيف ، ، والواجبات عدالة لا بد ان ينفذها مثل حد السيف» .

فلماذا يحرص صدام حسين على هذه الدقة المتناهية في منح الحقوق والمطالبة

بالواجبات ؟

ان الوضوح في الامور عند القائد ، ، من القضايا المهمة في تحديد المطلوب وفي اداء الواجب ، ، وعدم السكوت على الحقوق .

وصـــدام حســـين في قيادته ، ، لا يريد المجتمع الذي يتولاه ، ، قطيعاً من البشر ، ، مثلما لا يريد أن يتحول المواطنون الى افراد مجردين من المسؤولية الاجتماعية ، ، وتطغى عليهم الروح الفردية الجانحة الى الذات .

ان مجتمع القطيع لا يرتقي الى الدور التاريخي ، ، والمجتمع الخالي من القيد الاجتماعي ، ، ومن ادراك الوظيفة الاجتماعية للانسان ، ، يضطرب في بحار الطغيان الفردي وتضيع رسالته في اتون الانانيات الفردية المتضاربة المتطاحنة .

وهذا التحديد عند القائد ، ، اساسه المبدئي هو ربح المجتمع ، ، لان الكيان الاجتماعي من غيره يخسر الكثير ويتعرض الى الهزائم العديدة ، ، التي اخطرها الهزيمة الاخلاقية .

ان الشعوب تربح عندما تستقر اعمدتها الحقيقية والانسانية للنهضة ، ، وليس هناك نهضة اصيلة من غير موازنة انسانية للحقوق والواجبات في المجتمع ، ، ومن غيرها تكون الخسارة الحقيقية للانسان والمجتمع .

فكيف ينظر القائد صـــدام حســـين الى هذه المسألة المهمة ؟

يقول القائد في اجتماع مجلس الوزراء بتاريخ ١٩٨٠/٧/٣ ، ، بعد تأمل يلتقط من خلاله ، ، جوهراً دقيقا لذلك ، ، لم يرحل مع بقايا دخان سيجاره وهو يرحل خطوطا تتلاشى في اجواء قاعة الاجتماع ، ، يقول :

(خسارة الانسان في غير موقعها هي اعظم خسارة ، ، فخسارة الانسان ليست عملية هينة) .

ولكن كيف تكون رؤية القائد لهذه الحقيقة ، ، وكيف يتصرف وصولا لها ، ، هل يكون الطريق هو ربح الجميع ، ، حتى اذا كان ذلك على حساب الحق وشروط القيادة الناجحة في المجتمع ؟

هذه التساؤلات لم يجعلها صدام حسين ، ، تساؤلات حائرة ، ، أو يبقيها بدون اجابات دقيقة ، ، لتفتح المجال للشطط او للاجتهادات التي تطير الى حيث تريد :

يحدد القائد الجواب بدقته القاطعة وهو يقول :

«القائد الجيد ليس هو الذي يرضي الناس فقط ، ، هو الذي يغضب بعضهم ، ، اذا تطلب الامر ذلك ، ، وعليه ان يكافئ المصيب عندما يصيب ، ، ويؤشر على الخطأ ايضا ويعاقب المخطئ عندما يخطئ خارج الحدود المسموح بها .

يجب ان يحمل القائد الجنة والنار على كتفيه . . الجنة للشعب والنار للناس الذين يحاولون الخروج على طريق الشعب .

أن الصفة القيادية تتطلب الانسان صاحب القرار ، ، وان القرار لا يرضي كل الناس دائما ، ، والقائد الحقيقي هو الذي يمارس دوره الحقيقي في خلق قادة» .

هذه النظرة الصائبة الى الانسان التي يؤكدها القائد ، ، والتي فيها الحرص على عدم خسارة الانسان ، ، لا تجعل تصرفاتها منقادة الى رؤية مستلبة تستبدل النظرة المعادية للانظمة المعادية بنظرة نقيضة عمادها الرضا على طول الخط ، ، من دون تدقيق أو موازنة مبدئية رصينة ، ، وانما هي نظرة تركز الرضا على الانسان كقاعدة لها ، ، ولكن لها استثناء مرده التصرفات الخاطئة والعرجاء التي تستوجب وقفة للحساب والعقاب .

واذن ربح الانسان كمنهج ثابت عند القائد لا يسقط من حسابه خسارة البعض من الناس عندما يكون تصرفهم الشاذ هو الحالة المستديمة والسلوك الدائم .

وهذا المنهج مطلوب لاستقرار المجتمع ، ، والحفاظ على الجوهر الانساني السليم ، ، وعداه يعني فتح الثغرات للانحراف ، ، التي تترك اثارها السلبية في المجتمع وتحفر خطوطها مشوهة فيه .

ان نظرة صـــدام حســين هذه يكملها بأخرى ، ، اساسها الحرص على المساواة بين المواطنين ، ، وهو حرص بمقدار ما يستهدف تعزيز انسانية الفرد وحماية آدميته وحقوقه ، ، وعدم تفضيل احد على آخر في اطار المواطنة الصالحة ، ، والقائد في هذا المنطلق الانساني ، ، يرتفع بمنهجه عن مخاطر التجريد التي تسحق بتعسفها روحية الانسان وتلحق الاذى به وبطموحه وبالمجتمع ككيان ناهض في طريق التطور والصعود .

هنا يلتقط صـــدام حســين حكمة الحياة في مسارها التطوري ، ، ويمتد منها

الى يحفز الانسان في نطاق المشروعية الاجتماعية ويحددها بدقة متناهية . .

كان القائد وهو يلتقط ذلك يترأس اجتماعا لمجلس الوزراء في ١٩٨٠/٢/١٩ ، ، وكان بريق عينيه وهو يتابع الجلسة ومناقشاتها ، ، يوحي ان ما يشغل القائد هو كيفية الوصول الى ما يحفظ للانسان آدميته وحقوقه ، ، في نفس الوقت الذي يحفز في اعماقه روح الحماسة والابداع ، ، ومكافأة الجد والمثابرة والعمل على التطوير.

وكان حديث القائد في تعقيبه يحسم هذه المسألة بنضوج وبأفق انساني مفتوح ، ، وهو يقول :

«ان المواطنين متساوون في القيمة الانسانية ، ، دون ان يعني ذلك تساويهم في مردود العمل الذي يعتمد على التحصيل الدراسي والابداع والمخاطرة وعامل الزمن» .

يتضح من هذه الحقائق ، ، المعيار الاول لمعنى القائد الانسان . .

فكيـــــف ؟





(٢) المعيار الاول

مع بداية الثورة ، ، كانت الحالة العامة تشكو من حذر قابلت به قطاعات ليست قليلة من الشعب ، ، التغيير بترقب مشوب بتساؤلات عديدة عن الوضع الجديد ، . . ! ! !

وكان كسب الثقة ، ، قبل الولاء ، ، يقتضي تبديد الوهم وتسريب الظنون ، ، التي سببها يأس الناس من التغييرات ، ، وهواجس للقلق لبعضهم ما تزال في اذهانهم عن تجربة ٨ شباط التي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي وظلت تطاردهم بعضها كان محقا وآخر كان محرضا ، ، وقسم منها كان عفويا وآخر كان مقصودا ، ، اضاف له النجاح بالثورة ، ، تقول الحساد والحاقدين .

كان الواقع العام بهذه الصورة ، ، وخريطة الاوضاع السياسية تعاني من تأزم شديد ، ، وكان مثل هذا الواقع والاوضاع السياسية فيه ، ، يتطلب الصبر والحكمة في التعامل ، ، وكان بعض اعضاء القيادة وقتها يضجرون من هذه الحالة ومن الصعوبات التي تسببها ، ، وكانت مرارتهم التي تتصاعد من الصعوبات التي يلقاها الوضع الجديد ، ، تأخذ شكل لا يخلو من جزع مثلما تجد فيه خيوطا واضحة لنفس قصير ونظرة يمتزج فيها العتب بشعور يمن على الشعب بالثورة التي قام بها الحزب ، ، وكانوا تحت تأثير هذه الامور يقولون :

«ان العراقيين صعبون وهم لا يقبلون بأي شيءٔ ، ، وانهم لا يعطوننا الفرصة لكي نعمل ماآثرنا من اجلهم»

وكان بعضهم يستشهد بأمثله يستقيها من سطح الحالة ويقف عند مدلولها السلبي بسكون غريب ، ، وكان هذا البعض يبني احكامه من غير تفحص للاعماق او الحقائق ، ، ليمسك بتطابق الرغبة الوطنية مع الغاية المبدئية والتاريخية للثورة ، ، لكن صدام حسين كان يخالف اولئك ويمسك بالحقيقة في اعماقها السحيقة ويرصد الحالة من منظورها التأريخي ومن قيمتها الكبيرة ودلالتها الكامنة في رحم الواقع . .

كجنين اصيل مطلوب لولادة العراق الجديد .

كان تعقيبه على هذه الحالة ، ، يكشف حقيقة نظرته الى الشعب ، ، ولهذا يقول :

«هؤلاء العراقيون الصعبون هم الذين نحبهم ، ، والشعب الذي نريده ، ، لا بد ان يكون شعبا صعبا ، ، لان الشعب الصعب عندما يعطي قراره بالتأييد ، ، يعطيه بأستقرار مطلق ، ، وبولاء نهائي لا تنخره المصاعب ولا تكسره الظروف الحرجة .

ودور العراق الذي نريده . . هو الذي يصرع الصعوبات ولا يدع لها المجال لكي تصرع ارادته ، ، والشعب الصعب هو المؤهل لذلك ولتحمل مسؤولياته ومواصلة المسيرة في خضم الاحداث القاسية والمريرة والصعبة».

كانت رؤية صـــدام حســين تمتد الى الحقيقة في الاعماق .

وكان حديثه ، ، حديث القائد الواثق القدير . .

ومن وقتها . . كانت خطواته في الواقع تمضي الى ذلك ، ، وتشق الطريق في مشوار الرحلة الطويلة ، ، رحلة التعامل مع الواقع الجديد ، ، بالرؤية العميقة للامور وبمنطق الحديث . الذي يخاطب الحقائق الدفينة ولا يكتفي مع المرئي على سطح الواقع القائم .

ومنذ تلك البداية ، ، كانت الجماهير ترقب هذا الفارس ، ، وترصد خطواته وكلماته ، ، فأذا الخطوات اصيلة واثقة واذا الكلمات حية وصادقة واذا هو في الحكم ثائر وقائد . .

وكان مع توالي الايام والتجارب ، ، ان صار ولاء العراقيين ، ، بمثل ما توقع في البدايات ، ، ولاء صحيحا يتحدى المصاعب ويقوى عليها .

لم يكن هذا التحول ، ، الا تعبيرا عن نهج وتصرف اكد فيهما صدام حسين ، ، انه يحرس العراق اكثر من حدقتي عينيه .

هذه الحقيقة يكشف ابعادها القائد في حديثه الى المؤتمر الشعبي الذي انعقد على هامش دعوته للاعلان القومي .

كانت الوفود التي انتظرت اللقاء تملأ القاعة ، ، وكان تصفيقها الحار تعبيرا عن حب تحمله للقائد ، ، كان الحماس دليلا على ان نهر الحب لصدام حسين ليس نهرا

ثالثا في وادي الرافدين حسب ، ، وانما نهر آخر يجري حيث توجد الارض العربية .
"كانت اجواء القاعة المدوية بالهتاف والتصفيق تحكي الرصيد الكبير الذي يتمتع به صـــدام حســـين ، ، وهو رصيد اساسه يكمن في ما قاله القائد :
«هناك فرق بين الانسان الذي يحمله شعبه وبين الانسان الذي يختني في قصر يتحصن فيه ضد شعبه .
هنالك فرق بين الحاكم الذي يخشى الناس وبين القائد الذي يقاتل الناس في سبيله ويدافعون عنه .
ان بعض الحكام يستخدم الصيغ الفنية واللعب بالاوراق الى كل مداها ، ، بعضهم سقط ، ، واخرون ساقطون حتى وهم في مواقع الحكم الاولى .
ومسألة صـــدام حســـين ، ، ليست مسألة السلطة والبقاء فيها ، ، لان غايته ليست البقاء في الحكم ، ، وانما بعدم الوقوع في المأزق التاريخي الحقيقي للحاكم ، وهو حالة انفصال بينه وبين الشعب ، هذه الحقيقة تكشف ان القائد صدام حسين لا يرى بعينه المفتوحة بأستمرار وانما قبلها بضميره اليقظ على المبادئ والمحافظة على آمال الشعب ، ، وهي جوهر التعامل في الحياة والاساس الراسخ لاخلاقية الحكم وقيادة المجتمع .
ان الصيغ الفنية المعزولة عن المبادئ ، ، واللعب على الحبال ، ، وادارة الاوضاع من خلالها ربما تمكن من بعض النجاحات او قد تفضي الى نتائج في الحساب الآني لصالح الحاكم ، ولكن مثل هذه الممارسات التي لا تربطها اية صلة صحيحة من صلات التعامل مع الشعب ، تنتهي في الاخير الى المأزق المحتوم ، ، بلا نتائج مشرفة او أخلاق حميدة .
واذكر ما يؤكد ذلك ، ، انه في منتصف ايلول عام ١٩٨١ ، ، كان هناك مقال في صحيفة الوطن الكويتية ، كتبه الزميل عبد الهادي ، ، كان ابرز ما فيه التطرق الى العلاقة العراقية السورية ، وكان القائد وهو يطلع عليه قد قرر ان يكتب ردا فيه الكثير من الحقائق ، ، ابرز ما فيها ، ، الذي جاء في رسالة القائد التي خطها بيده ، ، وهو يقول :
«انني اعتقد ان اول معيار لطبيعة اخلاقيات اي قائد او حاكم ، ، هي طريقة

تعامله مع شعبه ، لان هذا هو المفتاح في التعامل مع الاخرين» .

والحقيقة التي تبرز واضحة من خلال هذا المفهوم ، ، ان صـــدام حســـين امتلك في تعامله مع الشعب المفتاح الذي يفتح قلوب الناس ويحرك فيه النفوس ، ، الى كل ما يريده من مجد للعراق . .

وكان بفضل ذلك له سحر يفعل به الاعاجيب ، ، ومن خلاله اعاد للعراق حلم اغنية ، ، كاد الزمن المر يلاشيها ، ، في دروبه المظلمة ومنعطفاته الحادة والكأداء .

وقد كان يفعل ذلك ، ، ما نشاهده اليوم من حالة القوة التي يحياها العراق ، ، والاستقرار الراسخ الذي يعيشه ، ، فما هي الاركان الاساسية في ذلك ؟

قبل ان ادخل اليها ، ، اريد ان اشير الى حقيقة مصدرها حديث للقائد ، ، خلال احد اجتماعاته في القيادة العامة للقوات المسلحة .

كان صـــدام حســـين القائد العام للقوات المسلحة يترأس الاجتماع وضباط القيادة العامة للقوات المسلحة يتطلعون اليه ، ، بين شوق حب يطغى على عواطفهم ، ، وتوقد عقول تريد الاستفادة ، ، من تصورات القائد وآرائه العسكرية او في ميدان السوق والتعبئة او على صعيد التوجيهات ذات المهمات المحددة .

كان القادة العسكريون يمعنون النظر الى قائدهم ، ، وكان وقع كلماته وحديثه مثلما هو دائما ينساب الى العقول والمشاعر على السواء .

ومن ميزة صـــدام حســـين في اجتماعاته المتخصصة انه لا يركز الحديث صوب الجوانب الفنية بمعزل عن الحقائق الاكبر منها ، ، وذات الصلة والتأثير عليها .

وقتها كان الحديث هناك لا يشمل الامور العسكرية ، ، وانما كان القائد يتحدث في شؤون الحياة من موقع الاختصاص العسكري .

وكان جانب في حديثه يمر على التاريخ الذي سبق الثورة وحصول الانقلابات على الحكام السابقين ، ، ومما قاله القائد :

«ان الحكام في السابق ، ، اذا ما اجتمع اربعة ضباط فأن كيانهم يتهدد ويهتز .

ولكن الحالة الجديدة ولا اقول النظام الجديد ، ، لان التعبير اكثر قربا الى نفسي من كلمة نظام وحاكم وغير ذلك ، ، الحالة الجديدة جيشها يقاتل كله خارج

الحدود ومعهم الحرس الجمهوري ، ، ولا نشعر بأي خطر أو قلق بأي شكل من الاشكال» .

فالحالة الجديدة ، ، هي حالة الثورة الدائمة ، ، والثورة المستمرة ، ، وهي حالة لصدام حسين فيها الدور القائد والرائد .

ومن خواصه القيادية وخصائصه كقائد انسان ، ، كان استقرار هذه الحالة وتطورها وصمودها وسط كل العواصف والتحديات .

ان صـــدام حســين لم يمنح العراق الاستقرار فقط ، ، بل منحه التقدم والرفعة ، ، ولم يكن ذلك صدفة ، ، وانما هو منهج يعتمد على اركان راسخة ارسى دعائمها بقوة ، ، القائد الانسان صدام حسين .

هذه الحقيقة ، ، كانت امامي ساطعة من خلال حديث للقائد في مأدبة افطار لكبار الضباط ، ، كان الوقت يقترب من موعد آذان الافطار ، ، حين كان المدعوون يتوافدون على القصر الجمهوري ، ، وقتها لم يبق من شمس الاصيل في كبد السماء ، ، غير حمرة تكاد لا تصمد امام زحف الليل الذي بدأ يغزو السماء لتوه رويدا .

وكانت حرارة آب ، ، تزيد من معاني الصيام وصبر الصائمين .

في هذه الدعوة كان حديث القائد في ١٩٨٠/٨/١٤ ينفذ الى اسباب قوة الثورة واستحالة ضربها كما يحلم الاعداء ، ، يقول القائد :

«ان قوة اي نظام وأي نهج تعتمد على ركنين اساسيين ، ، وركن ثالث مستنبط من خلال التجربة ومن خلال التفاعل مع الحياة .

هذان الركنان الاساسيان في أي نظام هما مقدار ما يمثلان من حقيقة في منهجه العام ، ، ومن قيمة اساسية جديدة تحاكي الانسانية بشكل حي وصحيح ، ، وبمقدار ما يمتلك من قدرة في تنفيذ هذه القيم والافكار الاساسية لتغيير حياة الشعب .

والركن الثالث هو الدقة في التعبير عن النهج بأركانه الاساسية ومواجهة الصعوبات فيما يمتلك من سلاح واع .

وهنا يأتي دور الجيش لكي يكون سلاحا مركزيا ، ، بيد أية امة وبيد أي شعب

وبيد أي نظام يريد ان يكون له مكان متميز تحت الشمس .

ان الجيش يمكن ان يتحول الى قوة غاشمة عندما يكون النظام بلا مبادئ ، ، وان الجيش في النظام الذي تحكمه المبادئ ، ، يكون دائما سلاحا واعيا ، ، له عيون وعقل يستند الى اصل العقيدة التي يبنى عليها النظام وهذا ما يميز جيشنا عن كل جيوش المنطقة» .

ولهذا السبب فأن القائد لم يتأخر لحظة من اجل بناء المجتمع بشكل صحيح وبما يحاكي الانسانية في كل متطلباتها ويجري التغيير الشامل للعلاقات الانسانية في المجتمع بكل قنواته ومؤسساته ، ، بما فيها القوات المسلحة ، ، لبناء تقاليد تعيش في المجتمع ولا يتخلى عنها الانسان الجديد . . . .

ولهذا كانت علاقة القائد بالشعب حية ، ، وعلى اتصال دائم بقضاياه ، ، وكانت زياراته للناس صورة ناطقة عن معنى القائد الانسان ، ، وكيف يتعلم القائد من الميدان ؟

(٣) التعليم من الميدان

في اوآخر عام ١٩٧٩ والساعة تقترب من التاسعة مساء وخطوات الاستاذ المرحوم رياض طه نقيب الصحافة اللبنانية تقطع طريقها الى مكتب القائد صـــــدام حســـــين في القصر الجمهوري .

في تمام الوقت المحدد ، كان اللقاء . وقبل الحديث كانت مشاعر صادقة من رجل عاش شريفا ومات شريفا .

كانت اولى كلمات الشهيد رياض طه الى القائد :

سيادة الرئيس ، كنت خلال ايام وجودي في بغداد اتابع من على شاشة التلفزيون زياراتكم الى بيوت المواطنين ، وجولاتكم في بعض المدن ، انها شيء مدهش ، ولكن وجودكم لم يعد ملكا لكم ، صار ملك للعراق وللعرب ، وارجو الا تتصوروا هذا تدخلا في اموركم الخاصة ولكنه حرصا عليكم اناشدكم ان تقللوا من ذلك حفظا على حياتكم» .

لم يكن وقع الكلمات مفاجأة لكل قلب احب صـــــدام حســـــين ، ويعرف قيمته ومعنى وجوده ، ولم يكن الطلب غريبا على النفوس التي هوت القائد وتعلقت به ، كان يستقر في كل قلب وكان مطلب كل نفس احبت العراق ووجدت في القائد معنى واضحا لهذا الحب . . .

كان السكوت يطغى على اجواء الغرفة بعد كلمات الاستاذ رياض طه . .

وكانت كلمات القائد بعده تبدد ذلك السكوت ، كانت في البداية تحمل شكر القائد على صدق مشاعر الرجل الضيف ونبل مقاصده الشريفة ، ثم بعدها قال القائد :

«اســـتاذ رياض . . .

ان شعبنا العربي ، بحاجة الى تقاليد في المسؤولية ، تهزه وتوقظ فيه كل محركات الفعل الصحيح والعمل الدائم .

ان تجارب عديدة من ممارسات الحكام ، في وطننا العربي صارت تحفر بأتجاه يزيد من مرارة المواطنين وتسهم في حالة اليأس التي يراد لها ان تنتشر في الوطن العربي .

مطلوب منا ان نزرع الامل ، وان نعيد الثقة للمواطنين العرب ، بأن ليس كل الحكام سواء ، قد يصاحب هذا النهج خسارة او ان يقع المكروه ، وانا لا اكتمكم بأنني اشعر بسرور لزياراتنا وافرح عندما ارى شعبنا يحتفي بنا ولا يهمنا ما يحدث ، نحن نثق بشعبنا وقدر الله لاراد له ، وطموحنا الاكبر والأبعد هو ان نسمع بعد الرحيل ، ونحن في القبور ، ان شعبنا راضٍ عن سياساتنا» .

كان حديث القائد في شقه الأخير ، يملأ اعماقي ، ويستقر منه فرح لمعنى فهم القائد للمسؤولية وألم لحديثه عن الرحيل ، كان يستودع دموعا ، كنت اجهد نفسي كي لا تطفر الى العيون ، وكنت الوذ بنظري بعيدا عن القائد والضيف لاحتفظ بدموع صامته في الاعماق ، خوفا من ان تفسر الدموع بمعان لا احبها . . ! !

كان حديث الاستاذ الزميل رياض طه ، جسرا يوصلني الى زيارات القائد الميدانية ويوصلني الى حيث معانيها الانسانية التي تكشف الكثير من القيم ابرزها قيمة القائد الانسان .

عبر هذه الزيارات يتوصل القائد الى الكثير من الحقائق ، ويتعامل مع الواقع كما هو ، وفي الكثير من المرات ، فأن هذه الزيارات تثمر قوانين لصالح الشعب ومكاسب للمواطنين ، لان صـــدام حســـين لا يلتقط منها القضية الخاصة ، كهم شخصي ينهيه عند حدوده الفردية ، وانما يمد نظره الى البعيد ، ويضع المفردة الخاصة في حضنها الاجتماعي الاوسع .

وفي الكثير من الزيارات يتوصل الى مظاهر الخلل والقصور واحيانا الى ظواهر ترتقي الى مستوى الانحراف والاهمال المتعمد .

وهكذا فزيارات القائد ولقاءاته مع المواطنين وشرائحهم المختلفة ، تمنحه المزيد من الرؤية في رصد الحالات الحية والامساك بالحقائق وتأشير الخلل الذي يمكن ان يحصل في هذا المرفق او ذاك .

والامثلة على ذلك عديدة ، وهي كثيرة يصعب عدها او حصرها . . ! !

ومبدأ الزيارات اساسه رغبة خاصة من القائد في تفقد هذه المدينة وتلك

والاطلاع على هذه الدائرة او غيرها ، والوقوف على اوضاع الناس في هذا القطاع او ذاك المعسكر او غيره .

وفي مرات اخرى ترد تقارير تتحدث عن سلبيات او شكاوى يرفعها المواطنون بعرائضهم او خلال مقابلاتهم والقائد لا يستمع الى ذلك وانما يتحقق منه ويقوم احيانا بزيارات ميدانية تعمقا في لمس المظاهر المؤشرة .

وأتذكر مرة ، ان وصلت الى اسماع القائد ، ممارسات بيروقراطية متسلطة لمدير عام المنشأة العامة للخياطة ، كان على اثرها ان يقوم القائد بزيارة المنشأة وفي ساحتها الواسعة كان احتفال العمال ومنتسبي المنشأة بالقائد العزيز ، يعبر عما يكنونه من حب لقائد العراق وباني نهضته .

كان ابرز ما دعى اليه القائد في زيارته ، وسط تهليل العاملات وهتاف العمال ، هو الاقتراع الحر والديمقراطي والسري لانتخاب واحد منهم يكون مديرا عاما ومديرا للادارة واثنين كممثلين للعمال في الهيئة الاستشارية .

واضاف القائد في حديثه ، ان هذه التجربة سوف نتابعها وبعد ذلك نضع لكم حدا للانتاج مع المحافظة على نوعيته .

كان حديث القائد يقابل من قبل ٢٧٠٠ منتسب بالفرح والحماس المنقطع النظير .

وفي مرة اخرى ، كان القائد يستقبل مواطنا في مقابلاته المعروفة مع المواطنين في مكتبه في المجلس الوطني ، وكان القائد قبل ان ينظر مشكلته يسأله من أي المدن قد قدم .

كانت اجابة المواطن : من الصويرة سيدي .

وكان القائد كعادته يسأل في مثل هذه الحالات عن احوال اهالي المدينة عموماً . .

وكانت اجابة المواطن : سيدي ان اهالي الصويرة بخير وحالتهم جيدة ، لكن المدينة تشكو من اوضاع شوارعها السيئة .

لم تذهب كلمات المواطن التي شكا فيها احوال المدينة ، ادراج الرياح ، ولم يمر عليها القائد مر الكرام . . ! !

فمع بدايات الصباح التالي ، والشمس تغازل بأشعتها النخيل الذي يحيط

بالمدينة ، وهبات من نسيم الربيع تلامس الوجه الحبيب المبكر في زيارته للصويرة ، كان موكبه يتجول في المدينة ويزور مستشفاها ، ودوائر المسؤولين فيها ويجتمع اليهم ويأمرهم بتبليط شوارع المدينة حتى نهاية السنة ، ويخصص مليون دينار لهذا الغرض .

وامام مبنى القائمقامية ، كان موج البشر المتدفق الفرح بزيارة القائد ، يعكس ذات المعاني الكبيرة عن حب العراقيين لصـــدام حســـين ، وكان حديث القائد مع هذا الحشد ، اكبر رد على ما يقوله الاعداء ، فقد خاطب الناس المحتشدين بقوله :

«الاذاعات الاجنبية تقول : ان صـــدام حســـين يحكم الشعب العراقي بالحديد والنار ، اننا عندما نسمع هذا الكلام نفرح ، لانه صادر من اعداء لشعبنا العراقي ولامتنا» .

كان هدير الجماهير وحماستها ، يمثل الرد على اولئك الذين يتمنون ان يكون قائد العراق حاكما لغته في الحديث مع الشعب ، غير اللغة التي يخاطب فيها صـــدام حســـين الجماهير .

ومرة اخرى ، والقائد يتفقد جبهات القتال ، ويتخلص من تحديدات القيادة العامة التي لا تريد تنقله في المحاور الساخنة حيث مخاطر القصف ، وكل ما تحفل به المفاجاة من التواجد في الخطوط الملتهبة ، هناك في خندق متقدم ، كان يسأل احد الجنود ، من أي المدن هو . .

وعندما اجاب المقاتل : بأنه من اهالي عنه .

كان سؤال القائد الاخر له المعتاد : وكيف هي احوال اهالي عنة وسد حديثة ؟

وكانت اجابة المقاتل :

سيدي اهالي عنه بخير ، ولكن والدتي تقول ، كيف ان مدينة عنه ستغرق وصـــدام حســـين لم يزرها . . ؟

وقتها كانت تعلو وجهه ابتسامة رد فيها بضحكة محببة من ثغره ، مع بريق في العينين ، كانت معانيه معروفة ، في عزم القائد على زيارة عنه . .

في بداية اذار من عام ١٩٨١ ، كان القائد في مدينة عنه يتجول في شوارعها بسيارة مكشوفة وينتقل منها الى مدينة راوة ، ويمزح مع الجماهير هناك ، من خلال

النعرات التي كان يثيرها الاستعمار بين ابناء الشعب الواحد ، وكيف ان خميني يريد العودة الى نفس اللعبة باستخدام الدفاتر القديمة .

ان ما اشار اليه القائد ، من محاولات الفرقة التي كان الاعداء يلجأون اليها ، بحيث ان مدينتين لا تفصل بينهما فاصلة تذكر من المسافة ، كانتا عرضة لمثل هذا النهج ، يكشف اغراض الاعداء ورخص الاساليب القذرة التي يعتمدونها لتفريق الصفوف ، وهذا النهج يريدون به ان يتصارع العراقي العربي مع العراقي الكردي ، وان يكون الشيعي بمواجهة السني ، والمسلم في تضارب مع المسيحي ، ولكن هذه المحاولات التي قبرتها حصانة الشعب ، تجد موتها في اصالة المنهج الذي يقوده صدام حسين ، وهو المنهج الذي يؤكد فيه القائد انه حصة الجميع والعراق بيت الامان لكل العراقيين . .

وبفضل هذا المنهج لم تعد الخصوصيات الموضوعية في العراق سواقي صغيرة يجد فيها الاعداء ما يحلمون فيه صارت روافد صافية لمجرى العراق الجديد واصبحت مركزا لقوته بعد ان انهى صدام حسين الاراضي الواطئة التي كانت تستقر فيها المياه الاسنة الراكدة وتستوطنها الامراض الاجتماعية وتشكل زواياها مخابئ للفعل المضاد .

هذه الحقائق يشير اليها القائد في حديث له في مجلس الوزراء . . القاعة وقتها كان يطغى عليها هدوء غريب مصدره اصغاء كامل للقائد وهو يتحدث حتى ان اقداح الشاي التي كانت موضوعة امام السادة الوزراء والحضور لم يشغل احد باله بها لان الاذهان كانت بالكامل مركزة الى القائد وهو يقول :

«ان الزمن الذي كان الاستعمار فيه يزحف في الارض الواطئة ولا احد يراه قد ولى ، واصبح اليوم ان اراد الزحف في الوادي فسيراه كل الناس ويعرفون انه جاء للاقتناص وامتصاص دماء الشعب ، ويعرفونه بوجهه القبيح ويعرف شعبنا كيف يسحقه» .

كانت الكلمات كبيرة في معانيها . .

وكانت مغازيها اكبر من ان تقف في الذهن وتنتهي عنده ، افكارا رائدة او عبارات حلوة لها طعم جميل يتناغم مع النفوس .

كانت اكثر من ذلك واكبر منه ، لانها تؤشر أن الدار العراقية محروسة بالقائد

الامين صاحب النهج المبدئي الذي حول السواعد العراقية الى ساعد واحد والخصوصيات المتعددة الى وطنية خاصة تنبض بقلب واحد ولهذا لم تعد في العراق ارض واطئة تصلح ميدانا للخصوم لكي يستثمروا فيها مشاريعهم .

والقائد وهو يحول ارض العراق الى قمم للذرى ، يكون الوادي بعدها مكشوفا لمن يتربع في الاعالي . . وصـــدام حســين وهو يصل بالعراق وشعبه الى هذا المستوى لم يحقق ذلك بالعصا السحرية وانما كان ذلك بالجهد والتعب والتضحية التي شقت مثل هذا الطريق وعبدته بالمكاسب والانتصارات والضمانات لسعادة العراقيين وتأمين مستقبلهم وبالصلة الحية التي تجمع القائد والشعب في روحية واحدة .

من هنا تكون الزيارات الميدانية مجالا لتعميق الصلة الانسانية بالشعب ، وميدانا للتعلم والتقاط ما يفيد الناس ويخدمهم وللمزيد من الادلة ، اذكر ان القائد في احدى جولاته الى كردستان تقدمت منه أمرأة مسنة مقطوعة وشرحت اوضاعها الصعبة .

كان صـــدام حســين يستمع لها بكل جوارحه ، وكان في ضميره تصميم على ان يعالج مثل هذه الحالة بنظرة شاملة ، تحقق الضمان الاجتماعي المطلوب .

وبعد ان عاد الى بغداد لم تنسه جولته واتصالاته العديدة حالة المرأة الكردية والعزم الذي استقر رأيه عليه وهو اصدار تشريع يؤمن حلا جذريا لامثال هذه القضية الاجتماعية .

وهكذا ولد مثل هذا التشريع الذي نصت مواده على تخصيص راتب لكل اسرة يقل دخلها الشهري عن الحد الادنى لاجرة العامل غير الماهر ، ويستحق هذا الراتب كل ارملة لها ولد قاصر او يتيم قاصر او عاجز بسبب المرض او الشيخوخة .

ان زيارات القائد الميدانية تسهم في حل المشاكل فعلى سبيل المثال حينما كان القائد يزور محافظة التأميم في ١٩٨٠/٢/١٠ تفقد في هذه الزيارة المؤسسة العامة لنفط الشمال .

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة صباحا وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، وكانت برودة الجو تضرب الوجوه ، وكان كثيرون يتمنون ان ينزوا في غرفهم هربا من البرد ، لكن صـــدام حســين كان في ذلك الجو يتفقد هذه المؤسسة ويلتقي برئيسها الذي قدم له شرحا عن اعمالها .

وقد عرض رئيس المؤسسة على القائد المشاكل التي تواجههم في العمل ، وخاصة جراء بعض القوانين التي صدرت في الفترة الاخيرة .

وحين كان رئيس المؤسسة ينهي حديثه كان القائد يطلب منه الحضور الى بغداد ، لكي يحضر جلسة لمجلس قيادة الثورة ، يطرح فيها ما يريده ، بعد ان يكون قد هيأ كل المشاكل والمعوقات التي تواجهه في العمل .

وقال القائد : اننا سنعمل على تنفيذ ما هو صحيح ومشروع ، ولن ننفذ ما هو غير صحيح وغير مشروع .

واضاف : اننا كالعادة لا نعدكم بشيئ غير صحيح وانتم ايضا يجب ان لا تقبلوا منا ان نعمل شيئا غير صحيح .

ان زيارات القائد ، فيها كل هذه الفوائد والقيم ، وهي معنى كبير لقيادته الانسانية ، وهو في هذه الزيارات وما تقوده الى لمس مظاهر الخلل او القصور يثق انها غير مقبولة من اصحاب تلك الممارسات المنحرفة وهي تشكل مصدر ضعف لهم .

ولهذا عندما كان في جولته في محافظة ديالى في ٦ تشرين الثاني عام ١٩٧٩ كان يشير الى ذلك .

ففي صباح ذلك اليوم كان القائد يشق طريقه الى بعقوبة ومع البدايات الاولى للصباح والندى يغسل اوراق البساتين واشجار البرتقال تزهو بحملها كان القائد يزور مستشفى المدينة ويتفقد احوال المرضى ويوعز باجراء انتخاب لمدير المستشفى .

كانت الجماهير التي افاقت من نومها مع البشارة تهرع الى حيث القائد في مبنى المحافظة وهي تمني النفس برؤيته وبحديث تتمنى سماعه .

وقد كان الحديث رائعا كالعادة صريحا كما هو مألوف امينا كما هو متوقع . . . قال صدام حسين فيه :

«سنبقى ثوارا نؤمن بالشعب ، ولن نتحول الى حكام ، البعض يتساءل هل من واجب رئيس الدولة ، ان يقوم بهذه الزيارات الميدانية ويزور المستشفى والمدرسة والبيوت .

واقول : نعم ان هذا من واجبه لان رئيس دولة العراق ، ليس رئيس دولة تقليدية ، يتعامل مع الناس من خلف الكرسي والطاولة .

رئيس دولة العراق ينبغي ان يكون مواطنا بالدرجة الاساس ، ولكي يكون كذلك ينبغي ان يرى مفردات الميدان بعينيه ، وان يلمس مفردات الميدان بيديه ، وان يعيش كأنسان اعتيادي في صحيحة حياته الانساتية ، ان يزور المستشفى وان يزور المدرسة وان يلتقي بالعامل والفلاح والطفل والشيخ والمرأة لكي لا ينسى واقعه بأنه هو جزء من الشعب .

نحن بحاجة الى الزيارات الميدانيةَ ، لاننا نتعلم من الميدان» .

والقائد في هذه الزيارات يشعر بحب الناس ، ويلمسه في كل تصرف وفعالية لهم وهذا الحب يستودع في ضميره الكثير من القيم في التعامل مع الشعب واهمها النظرة المنصفة التي تساوي الجميع . .

(٤) تعاملوا بسواسية مع الناس

الحقائق لا تجعله يلف او يدور حيال احكامها ، ، ومنطق الحق يقوله ، ، من غير تحسب او مداراة . .

والسلطة لم تجعله يغير لهجته ، ، ولم تقدر أن تجعله يلوذ بالكلمات بعيدا عن الحقيقة وصوت المبادىء الذي يقيم معه .

هكذا هو صـــدام حســين ، ، وكلماته وتصرفاته ، ، فيها ادلة قاطعة ، ، وشواهد ملموسة على كل ذلك .

وابتدىء بعد ذلك بمقولة للقائد ، ، فيها معانٍ كبيرة على هذا الطريق ، ، يقول :

«السلطة لعينة ، ، ولا تتصوروا أن يوجد العن وأقذر من السلطة ، ، عندما لا تكون في خدمة الشعب ، ، تغري البعض وقد أغرت ، ، فالذي لا يرى بضميره تغريه السلطة» .

ان القائد صــدام حســين يحمل بهذا التوضيح ، ، تحذيرا الى مسؤولي الاجهزة الادارية ، ، مثلما يضع أمام رؤياهم ، ، مناعة كافية في التحصن من امراض السلطة ، ، وتفضيل مواطن على آخر ، ، من غير سبب موضوعي أو مبدئي .

فلماذا هذا التنبيه . . . ! ؟

ولم هذا التحذير . . ! ؟

وما هي دواعي العقاب لمن لا يكترث بالتنبيه او التحذير؟

صــدام حســين يريد بالاساس تحصين المجتمع ، ، ووقايته من الانحراف والخلل ، ، وعنده الالتزام التربوي بأحكام المبادىء هو الغاية والعقاب هو حالة تماثل ابغض الحلال .

يضاف الى رؤيته امر آخر هو ان امراض السلطة لا تشابه غيرها من

الانحرافات ،.، التي يقتصر مداها على مرتكبيها ، ، هي مرض موبوء ومعدٍ ، ، يحاول الانتشار والاصابة بعدواه اكثر مايستطيع عليه .

في ضوء ذلك يكون الجواب على التساؤلات الثلاثة التي طرحناها في البداية . والوضوح فيها يقطعه القائد بقوله :

«ان الناس الذين يصابون بأمراض السلطة واجهزة الدولة ، ، يسعون لان ينقلوا العدوى الى آخرين كي يتساووا مع بعضهم ، ، فلا يكشف أحدهم خلل الاخر ويحاسب عليه ، ، وبذلك يتصور المرضى الاوائل ، ، انهم قد تخلصوا من عذاب الضمير والمبادىء بعد ان تساوى الجميع» .

ان هذه النظرة لدى القائد ، ، تكشف قبل كل شيء معنى المسؤولية القيادية ، ، ذلك ان امراض السلطة لا تشمل أصحابها ، ، كونهم عناصر مهزوزة تبيع ضمائرها وترتضي بمغريات الحرام او بالممارسات المغلوطة فقط ، ، بل انها تحفر أثرا سلبيا في المجتمع وتلحق اذى كبيراً في الكيان الاجتماعي ، ، لان فعل التصرف المنحرف يكون ذا نتائج وخيمة على المصالح العامة .

ومثل هذا الاعوجاج والانحراف لا يتقبله صـــدام حســـين كقائد وكأنسان ، ، وهو بالنتيجة مرفوض في المجتمع الذي يقوده .

والقائد في هذا التحديد ، ، ينطلق من مسؤولية تقسو على النفس قبل الغير ، ، وهو لذلك يقول جهارا وامام اهالي بلد ، ، خلال زيارته لهم في الخامس والعشرين من تشرين من عام ١٩٧٩ :

«اذا رأيتم فينا أعوجاجا فقومونا بسيوفكم ، ، ولكننا اذا رأينا اعوجاجا في نفس الوقت ، ، فسوف لن نتردد من ان نقومه بسيوفنا» .

هنا يضع القائد معادلة القوة العادلة التي يلخصها بقوله : (لا سيف قوياً بدون مبادىء راسخة ولا مبادىء راسخة بدون سيف مقتدر) .

ان هذه المعادلة التي يكرسها صـــدام حســـين ، ، كأساس للتعامل في الحياة ، ، يكون نصيب الاجهزة الادارية منها واضحا ، ، لان هذه الاجهزة تتعامل مع الناس وتشكل احدى الوسائل الرئيسة في تغيير الحياة .

ولهـــذا . . .

يرفض صـــــدام حســـين السيف الظالم ، ، لانه يكون سيفا قاتلا بغير حق .

وهو ايضا لا تستهويه المفاهيم الخالية من القوة التي تحولها الى فعل مؤثر في الواقع ، ، لان المفاهيم الضعيفة لا تفرض هيبتها واحترامها .

ولكن السؤال الاهم ، ، هو كيفية النظر الى الاعوجاج او الانحرافات الحاصلة ، ، وهل يكتفي بالتقدير السطحي للحالات ؟

أن أكثر الأمور التي تهم القائد وتشغل اهتماماته هو ان لا يقع الانسان في تصرفاته اسيرا للنظرة احادية الجانب ، ، القاصرة عن الالمام بكافة الجوانب والتعقيدات ، ، لكي يصون التصرفات من التسرع او الاحكام غير الدقيقة .

وهو في هذا التحديد ، ، يريد الاجهزة الادارية ان تراعي هذه الحقيقة ، ، بحيث يكون تقديرها رصيناً للحالات التي تتعامل معها .

هذه المسألة يصر عليها القائد وهو يتطرق اليها في جلسة مجلس الوزراء في ١٩٨٠/١٠/٨ ، ، وهو يقول :

«يجب اعتماد النظرة الشاملة في رَصد الظواهر والحالات .

ولذلك فعندما نبحث حالة ما ، ، يجب ان نضع امامنا كل الحالات الاخرى التي ترتبط بها وتؤثر عليها ، ، ليكون بحثنا واقعيا وقرارنا دقيقا .

ولهذا فأن مسؤولي الاجهزة الادارية عليهم ان يتعاملوا بمسؤولية الانسان المسؤول وليس الاداري التقليدي .

ان منهج الثورة منهج عملي وهو منهج عدل يتوخى تطبيق الحق وحماية حقوق المواطنين ، ، وازاحة اي غبن يلحق بهم وضرب اي ظلم يستهدفهم» .

ان القائد في تحديده للمسؤولية وفق هذه الصورة ، ، يعتقد أن التعامل مع الواقع الجديد ، ، لا يصح ان يكون وفق العقلية الادارية التقليدية لان هذه العقلية تتجمد رؤيتها عند الحدود الشكلية ولا تقوى على النفاذ الى روح الحالات وجوهر القضايا في اساسياتها العميقة والانسانية .

وهذه النظرة عند القائد ، ، مردها في الاساس النظرة الحية للمجتمع والانسان ، ، وهي التي بمقتضاها يكون المسؤول الاداري قادرا على التعاطي الفاعل والمتفاعل مع قضايا الناس ، ، في حين يكون المسؤول التقليدي ، ، ساكنا في

تصرفاته عند آلية لا تجاري حركة الواقع والحياة والنفوس .

وبالتأكيد ان العمل بروح الشعب يستوجب الاداري المستوعب لهذه الحقيقة في جانبها المبدئي والانساني ، ، لان الشعب لا يحتمل على الاطلاق مسؤولا خلاف هذه الحقيقة التي يؤكدها القائد بقوله :

«من لا يعمل بروح الشعب ، ، سيطرد حتما لان الشعب قد يصبر يوما او يومين ، ، سنة او ثلاثا ولكنه لا يصبر الى النهاية» .

ولهذا تكون حركة القائد ومتابعاته منصبة في هذا المجال على من يسميهم «الغطاء الثقيل» وهو النمط الاداري المتعالي ، ، العامل في وظيفته بروح البيروقراطية والفاقد لروح الشعب في ادائه للوظيفة .

وحركة القائد في هذا الميدان تزيح عن كاهل الناس ، ، كابوسا ثقيلا ، ، وهي دائما موضع راحة المواطنين . .

وهذه الحركة تشكل احدى الضمانات المهمة للشعب في ازاحة مثل هذه العناصر والتخلص منها .

أن القائد يريد من مسؤولي الاجهزة الادارية ، ، الاقتراب من الحقيقة ومن الناس والاقتراب من الحقيقة يتم بالاصغاء الكامل لصوت المبادىء وبرؤية موفقة للواقع ، ، والتقرب من الناس يصنعه التعامل الامين مع حقهم وحقوقهم ومعاملتهم بسواسية . .

ومثل هذا الطريق ، ، هو الذي يعزز الثقة ويمنح الاداري القوة الحقيقية ، ، اما الثقة والقوة التي مصدرها الموقع المعزول عن ذلك ، ، فأنها تكون غرورا ، ، وهو غرور عائم على جبل من ثلج سرعان ما يذوب ، ، وبالتالي فلن تكون قوة مثل هذا الموقع الا قوة خداعة سرعان ما تتكشف عند اول صدمة ، ، كونها اوهى من بيت العنكبوت ! !

هذه الحقائق يؤشرها القائد في دقة متناهية وهو يتحدث في ١٩٨٢/٧/٨ الى عدد من المحافظين ويقول :

«إن من الامور التي تعزز الثقة بالنفس ، ، هي ان يكون الانسان مقتربا من الحقيقة ، ، وان يكون قد امتلك ناصيتها في الجوانب الاساسية منها ، ، واهم جزء

من الحقيقة ، ، ان تكون معلوماته دقيقة عن الحياة الاجتماعية .

ولهذا فعليكم ، ، ان تتعاملوا مع كل الناس بسواسية واحدة ، ، بغض النظر عن مكانتهم وقربهم وبعدهم عن الحزب ، ، وحتى اذا كان الأنسان معاديا للثورة ، ، وله حق في جوانب معينة في الحياة ، ، يحفظها له القانون لا تحرموه منها وان تحاسبوه في علاقاته بالثورة في باب آخر من القانون .

قد يأتيكم شخص منحرف أجتماعيا ، ، عليكم أن تستمعوا الى شكواه ، ، كما تستمعون من أي شخص آخر ، ، واذا كانت لديكم مسؤولية في تعديل أنحرافه الأجتماعي ، ، عليكم ان تفعلوا ذلك ولكن لا يجوز ، ، ان تكون النظرة الاجتماعية له في المنطقة حجة تحجب حقه بأي شكل من الأشكال» .

بهذه الرؤية الأنسانية يحدد القائد الفهم الموضوعي للمسؤولية ، ، ومن غيرها تقحم الادارة نفسها بأشكاليات ومخاطر ويربك الروتين والمسؤولية الخيطية أعمالها ، ، وتنحدر الى ممارسات منحرفة وظالمة ، ، تكون الوساطة أحدى مظاهرها .

هذه الناحية أولاها القائد اهتمامه ، ، وحدد قاعدتها المبدئية بقوله :

«نحن نريد بناء تقاليد راسخة ، ، تجعل البلد يمضي في مسيرته الى امام ، ، دون توقف او تراجع ، ومن هذه التقاليد أن يشعر المواطن ، انه يعيش في بلد فيه عدالة وليس فيه وساطة»

ان القائد لا يكتفي بالتحذيرات التربوية حيال انسياق البعض الى الوساطة ، ، وانما هو يعمد الى العقاب عندما ترتب الوساطة ضررا بأنسان آخر . .

واذكر ان هناك اجتماعات عديدة ، ، كرس فيها القائد وقتا طويلا لتقليص مخاطر هذه الظاهرة غير الصحيحة ولتعميق حصانة الموظف والمواطن ، ، وهو ليس غائبا عن حقيقة ان اكثر الناس توسطا هم البعثيون ، ، ولهذا يواصل توجيهاته وفي ندوات عدة لكادر الحزب والدولة لابتعادهم عن التوسط ، ، ويدعو الى اقلاعهم عن هذه الظاهرة التي يرى فيها «رشوة بطريق آخر» .

ولهذا كان في جلسات عديدة لمجلس الوزراء يحث السادة الوزراء على الابتعاد عن قبول الوساطة ومحاسبة المروجين لها في وزاراتهم .

وفي اجتماع لمجلس الوزراء في ١٩٧٩/٩/٢٨ دعا القائد الى نبذ اسلوب الوساطة

في كافة الاجهزة الادارية للدولة واعتماد الاسس الموضوعية في معالجة قضايا الناس ، ، والابتعاد عن الامزجة الشخصية في التعامل معهم ومع طلباتهم ، ، وبما يحقق العدالة في جميع الميادين .

ان تقاليد الدولة العصرية التي يريدها صـــــدام حســــين ، ، هي التقاليد التي تعتمد فحواها على تعزيز قيمة الانسان والسهر على راحته وخدمته .

والقائد لذلك لا يريد ، ، ان يكون الموقع الاداري ، ، هو البعبع الذي يخيف المواطنين ويشكل مصدر ازعاج لهم عند مراجعاتهم ، ، وهو لا ينطلق في هذه المسألة من تقدير للروح الديمقراطية التي يتوخى ان تسود في دولة الشعب التي يقودها ، ، وانما يضع يده على واقع موضوعي جديد يعيشه العراقيون ، ، وهو الواقع الذي نشأ اساسا بتوفير فرص العمل لكل العراقيين وتهيئة المستلزمات التي تسهم بفاعلية اشد لصنع النهضة الجديدة .

ان تعامل أجهزة الدولة بالموروث من التقاليد لا يشكل تعارضا مبدئيا فقط ، ، بل هو تعارض عملي لا يجد طريقا الى سبيل النجاح في الواقع الجديد .

ولهذا فتحطيم الروتين وقيوده ، ، في أخطر حلقاته ، ، هو أسهام في تسريع خطوات النهضة مثلما هو توفير لراحة المواطنين ، ، كما انه سياق يواكب شروط التطور التأريخي ، ، فضلا عن استجابته للروح الثورية الوثابة .

ولهذا يدعو القائد السادة الوزراء الى العمل بضوء هذه الروحية وهو يقول :

«ان المواطنين في المجتمع العراقي اصبحوا جميعا مرتبطين بالعمل اليومي في دوائرهم ، ، مما يستوجب دراسة حالة المجتمع الجديد لمعالجة الوقت الذي يذهب هدرا ، ، وراء متابعة المعاملات اليومية للمواطنين .

وان استطعتم توفير ما مجموعه مليون ساعة عمل سنويا ، ، فأن الدولة وبالتأكيد وبالحسابات الاقتصادية ستجني بالنتيجة ملايين الدنانير .

وأن مسألة التعامل مع معاملات المواطنين وفق الاساليب البالية المتوارثة ، ، هي تخلف واضح وحقيقي في الذهنية وبطبيعة القوانين ، ، لان هذه القوانين وضعت بذهنية اولئك الناس الذين كانوا قبل خمسين سنة ، ، عندما كانت ميزانية العراق لا تتعدى ثلاثة ملايين دينار . .

ان من يتصور أن مهمة تغيير القوانين ، ، هي من مهات مجلس قيادة الثورة فقط ، ، يكون عمليا غير مستوعب للصورة والواقع ، ، وهذا غير صحيح بل ان الذي يغير القوانين ، ، هو المجتمع كله ، لانه أول من يدرك طبيعة هذه القوانين ويدرك بدائلها ، ، ثم يقترح هذه البدائل على الجهات الاعلى ، ، وعند ذلك ينمو التعاون بين الاعلى والادنى ، ، ليأخذ ميادينه الصحيحة» .

بهذه الحقائق يحدد القائد الطريق الصائب لعمل الاجهزة الادارية مستهدفا منها خدمة الانسان العراقي .

وهو بهذا التحديد لا يضع المسؤولية على جهة واحدة ، ، وانما هي مسؤولية جماعية يساهم فيها الجميع .

ولهذا يريد القائد صـــدام حســين ان يمزق شراك الروتين ويقطع المسؤولية الخيطية التي تتمسك من خلال بيروقراطيتها ، ، بسلسلة معقدة وطويلة ، ، تتصورها بأنها هي المطلوبة لهيبة الكرسي الذي تجلس عليه .

وهو في تفقداته المستمرة للدوائر الرسمية ، ، يركز أبصاره الى هذه المسألة ، ، ففي زيارته الى مديرية تربية الكرخ ، ، كان القائد يطلع على المعاملات ويتابع مسارها الوظيفي ، ، وكانت رؤيته نافذة في رصد حلقات الروتين التي تمر بها لكي تطبق على المعاملة وتطيل زمن انجازها ، ، ولهذا دعا الى الخلاص من الروتين وتقليص هامش مسار المعاملة واختصار زمن انجازها واستثمار الوقت المتبقي في عملية البناء واراحة المواطن في مراجعاته ، ، وقال وهو يعقب على هذه الحالة :

«ان المواطن الجيد هو الذي يبدع في عمله ويختصر حلقات الروتين ، ، ويستثمر اوقاته لخدمة وطنه ، ، لان استثمار الوقت وتقليص الروتين في الحياة يوفر الفرص للنجاح الامثل في البناء والتطور» .

وهذه التوجيهات التي يدعو القائد فيها الى اختزال وقت المعاملات والتخلص من أثر الروتين عليها ليست الاولى ، ، ففي كثير من اجتماعات مجلس الوزراء يوجه السادة الوزراء على العمل في وزاراتهم بما يستجيب لهذا المطلب الحيوي .

وصـــدام حســين في فهمه للجوهر الانساني للمسؤولية لا يركز على ذلك فقط بل يضع يده على مسألة غاية في الاهمية ، ، تعكس جوانب اخلاقية مهمة .

فالقائد برؤيته العميقة والانسانية ، ، يدرك أن اي عمل في اطار المؤسسات والدوائر لا يقدر الرأس لمفرده من النهوض به ، ، وهو امر يعني تضامن الجميع في تحقيق النجاح الاداري ، ، ولهذا فالقائد لم تغب عن رؤيته بعض المحاولات الانسانية لدى بعض المسؤولين ، ، وما يستهدفونه من ذلك ، ، في نسب النجاح الى ذواتهم فقط .

ان القائد يمج مثل هذا التصرف ويعتبره تدنيا في الاخلاق وفي فهم روح المسؤولية التي يفهمها بأنها أمينة ومخلصة ولا تصادر حقوق الغير ، ، ولهذا يعتقد أن لجوء هذا البعض الى هذه الممارسة ، ، هو لجوء فيه اخطار اجتماعية قبل اخطارها الادارية ويحددها بقوله في اجتماع مجلس الوزراء في ١٩٨٠/٧/٣ :

«ان الذي ينسب عمل الاخرين وابداعاتهم اليه هو سارق .

المدير العام الذي يتجاهل الاخرين ، ، الوزير الذي يتناسى الركائز الذين هم قد جعلوه ناجحا ، ، ويضع نفسه بالامام دون ان يوضح للجهة المعنية بالتقييم ، ، دور الصفوف الثانوية التي بعده ، ، هو سارق ، ، لا يفرق عن اي سارق آخر ، ، . الذي ينشر بحثه بأسمه ، ، وهو مكتوب من خبراء عنده ، ، هذا سارق ، ، حاله حال اي واحد يذهب ويكسر اقفال الدكاكين ، ، والذي يقدم الفكرة بأسمه ، ، وهي من غيره ، ، سارق بالتقييم الخلقي والعملي ، ، ويراد ان نتجنب هذه الامور ونعتبرها خلقيا بمستوى السرقة» .

ان هذه القيم وهي تعكس واقع القائد الانسان في شخصية صـــدام حســـين ، ، تكملها حالة اخرى لها مغزى عميق ، ، فقد لاحظ القائد ان بعض الاجهزة التي تتولى التحقيق في الجرائم او في شكاوى المواطنين تتردد في اتخاذ الاجراءات القانونية بحق المدعى عليهم ، ، متى ما رأت ان هذا الشخص تربطه صلة قرابة بأحد المسؤولين في الدولة والحزب .

وكان القائد وهو يلاحظ هذه الناحية ، ، يرى فيها فضلا عن كونها خروجا على القانون ومخالفة لمقتضيات الوظيفة العامة ، ، أنها تعكس شعورا عاما لدى المواطنين ، ، مقتضاه ان هناك فئة من الاشخاص لا يطولها القانون . .

وكان القائد حيال هذه المسألة ، ، يشعر بمسؤوليته ولهذا حمل مجلس قيادة

الثورة الى دعوته للجهات المختصة الى عدم التردد في اتخاذ الاجراءات القانونية والتدابير اللازمة بحق الشخص المشتكى منه او المتهم بجريمة ، ، مهما تربطه من صلات قرابة او مصاهرة او اية علاقة اخرى بأحد المسؤولين في الدولة والحزب .

وهكذا يؤكد صـــدام حســين مسؤوليته القيادية ، ، ويرى في قيادته للمجتمع ، ، ان الشعب هو الأمانة .

(٥) امانة الله الخاصة

كانت اشراقة يبدو فرحها وهو يغطي الوجه ، ، وكانت ومضة العينين ، ، تحكي العبارات ، ، قبل ان ينطقها اللسان .

وكانت المشاعر النبيلة ، ، يمتلأ فيها القلب ويعمر بها الوجدان ، ، ولم تكن خطوط تلك المشاعر الساكنة في الاعماق ، ، خطوطا تنتهي عند هذه الحدود ، ، كانت تتدفق بابلغ العبارات ، ، واعمق ما في الدلالات السامية من المعاني الكبيرة .

كانت تلك هي حالة القائد صدام حسين ومشاعره ، ، وهو يداعب في مبنى محافظة البصرة في عام ١٩٧٩ مجموعة من الاطفال بعد ان انتهت من تقديم فعالياتها ترحيبا بزيارته الى مدينة البصرة .

كان القائد وقتها يعيش بكل جوارحه معهم ، ، وكانت كلماته ، ، تعكس دواعي هذا الفرح وحقيقة تلك المشاعر ، ، وهو يقول :

«الطفولة امانة الله ، ، وقد يقال ان الشعب بالنسبة الى القادة الصميميين ، ، هو امانة اللهووديعته ، ، هذا صحيح ، ، لكن الصح الاخر هو ، ، ان الطفولة هي امانة الله الخاصة في اطار الامانة العامة الذي هو الشعب» .

وقتها لم تكن الافكار ، ، تلاحق الجموع الغفيرة ، ، التي ازدحمت امام مبنى المحافظة تنتظر رؤية القائد ، ، كان ما يشغل الافكار معنى تلك الكلمات وتقف امامها تستجلي ابعاد الحكمة والمسؤولية المستقرة في عقل القائد صدام حسين .

وكان اكثر ما يدور في الذهن ، ، سؤال محدد هو : لم هذا الحب الكبير الذي يحمله صـــدام حســـين للطفولة ؟ وهل ان مقولته البليغة بنت المشاعر الانية التي دفعتها انشودات الصغار وهي تتغنى بالثورة والقائد ، ، وتعبر عن حبها بسجية ليس فيها تكلف وبعفوية بعيدة عن الحسابات ؟

كانت الافكار تطارد الذكريات الى حيث ، ، مواقف اخرى ، ، كان للقائد فيها ذات الحب للطفولة ونفس الاهتمام بهم والحرص الكبير على رعايتهم .

وكانت العودة الى زيارات القائد الى رياض الاطفال ، ، وهو يحنو على كل طفل بحب تشعر من خلاله ، ،ان كل اطفال العراق هم بمنزلة اولاده ، ، وهو يرى في عيونهم ما يراه في عيون اولاده .

وكانت الذكرى تمتد الى ١٩٨٠/٢/٢٣ ، ، والى القائد وهو يزور روضة الفارس ، ، ويطلع على الوسائل الحديثة المستخدمة في تعليم الاطفال ، ، ويؤكد على ضرورة استخدام الوسائل المتطورة في تعليم الطفل المبادئ الصحيحة في التربية ، ، بما يلبي طموحات المستقبل في البناء والتقدم .

كانت ضحكاته توحي ، ، اية راحة يستشعرها القائد وهو يلتقي بالاطفال .

كانت راحة القائد اكبر ما فيها راحة ضمير ، ، تتجلى بكل وضوح ، ، بعذوبة روحه وكلماته التي تستقي من القلوب الفتية ، ، الكثير من المشاعر ا. يئة بالحب والنبل والنقاء ،

وكان القائد وهو ينتقل بين صفوف الاطفال ، ، يعبر بعبارات ، ، فوق بلاغتها وشاح من المحبة يؤطر كل كلمة وكان اهمها قوله :

«في العيون البريئة أقرأ خطابا يلازمني كل لحظة ، ، فيه سطور عريضة تحثني على الحرص على العراق ومستقبله .

وارصد مع كل رمشة ، ، نداء يدفع الى اعماقي مزيدا من الهمة للعمل في سبيل الحياة الافضل للعراقيين» .

ان هذه الحقائق التي تعبر عن حب القائد صـــدام حســـين للاطفال ، ، تفسر في جوانب كثيرة منها ، ، ان العظماء في الحياة والتاريخ ، ، لم يبدأوا مسارهم المشرق ، ، من غير حب اصيل للطفولة .

هكذا تشهد سير الخالدين ، ، وهكذا يسطع الدليل على ان العظماء يشع في مواقفهم حب كبير للطفولة وحرص مستمر على رعايتها .

ان الطفل العراقي صار في عهد صـــدام حســـين ، ، يحظى برعاية خاصة واهتمام يظهر الحرص واضحا فيه .

وهذا الحرص ليس مرجعه ، ، ان واجبات المسؤولية تفرض ذلك ، ، بأعتبار ان طفل اليوم هو رجل المستقبل وانما نستطيع ان نتلمسه في قول القائد :

«ان كل طفل يغني للثورة ، ، هو مسؤولية كبيرة على اكتافنا وفي ضمائرنا»
فهل يخشى القائد صـــــدام حســـــين من حمل هذه المسؤولية ؟
لا ارجم في الغيب . . .
ولا اكشف سرا . . .
وانا اقول :
ان القائد صـــــدام حســـــين لا يخشى عبء تحمل هذه المسؤولية ، ، وهو قد اكد في الواقع بأنه رجل الامانة الكبير.
وعنده مثل هذه المسؤولية حب وجهاد يتقوى بها على كل الحالات التي قد توهن الانسان او تضعف طاقاته .
ولهذا كان لطاقته فعل السحر والعجائب .
والعمل من اجل الطفولة يجد فيه منتهى سعادته وافراحه .
ان حب صـــــدام حســـــين للاطفال ، ، صار مصدرا لراحته والهامه ، ، وحب الاطفال يمنحه المزيد من القوة في قيادته للمجتمع والدولة .
ورؤيته لعطاء الطفولة تتخطى النظرة التقليدية لتقف عند ينابيع المجد التي تفجرها الطفولة في الواقع ، ، لهذا يقول القائد وهو يفتتح قصر الثقافة والفنون :
«ان المجد لا يصنعه السياسيون والقادة لوحدهم وانما يشارك في صنعه الطفل في الروضة وهو يغني للمجد والذرى» .
ان شواهد الزمن كثيرة عن حب القائد صـــــدام حســـــين للاطفال ، ، وجولاته في رياض الاطفال او استقباله المستمر لهم في القصر الجمهوري واحد من هذه الشواهد .
واتذكر مرة والتاريخ وقتها كان في ١٩٧٩/٤/٢٥ ان القائد عزم على زيارة مدينة الثورة – مدينة صدام حاليا – وكان في حسابه ان يبدأ بزيارة لروضة الاطفال ، ، وحين اكتشف ، ، ان المدينة ليس فيها روضة لاطفال ، ، كانت عيناه تحكي هموم القلب الكبير وحزنه لهذه الحالة ، ، ولم يكن ذلك الحزن والتأسي يتوقف عند حالة الالم ، ، بل كان يندفع الى عزم على الاسراع بتقديم الخدمات المطلوبة لهذه المدينة وتطويرها وتهيئة كل ما يجعل منها صورة اخرى . .

وقد كان . . .

ولم تهدأ مشاعر الحزن الا بزيارة اقرب روضة اطفال ، ، كانت في مدينة جميلة ، ، وكان لقاء القائد مع الاطفال هو الذي يدخل الفرحة الى القلب الكبير.

والحقيقة ان الذين يعرفون القائد ، ، يعرفون فيه قوة الشخصية التي لا يتداخل الضعف اليها ، ، ولكن هؤلاء يعرفون ضعفا واحدا عند القائد وهو ضعفه حيال الاطفال ، ، الذي يتبلور بحب طاغ ، ، يقدم في سبيله اية تضحية . .

واذكر ما يؤكد ذلك ، ، انه اثناء عودة احد قواطع الجيش الشعبي من جبهات القتال ، ، وكان القاطع هو قاطع البياع ، ، كان منتسبوه يطلقون عيارات نارية في الهواء ، ، وكان قبلها توجيه من القائد يحذر من هذه الظاهرة ، ، ويأمر بأحالة مرتكبيها الى محكمة الثورة .

وبالفعل كانت الجهات المعنية تلقي القبض على المخالفين وتودعهم في التوقيف انتظارا لموعد المحاكمة .

وفي احد الايام التي اعقبت القاء القبض على المخالفين ، ، كانت امرأة حامل مع خمسة اطفال ، ، تحمل طلبا الى القائد ، ، تشرح فيه ظروفها وترجو اطلاق سراح زوجها .

كان الطلب امامي ، ، امانة لا بد ان ارفعها الى القائد ، ، وقد رفعته مع هامش كتبت فيه :

«سيدي . . امرأة ام لاطفال خمسة ، ، والسادس في الطريق ترجوكم العطف على اطفالها بأطلاق سراح زوجها» .

وكان أمر القائد :

لعيون الاطفال يطلق سراح الجميع . .

(٦) دموع المحبة

في مساء ٢٢ أيلول ١٩٨٠ ، ، كان القائد صـــدام حســـين يتوسط القيادة العامة للقوات المسلحة . . في اجتماعها المتواصل في غرفة العمليات العسكرية .

كانت محاور القتال واضحة فوق الخرائط التفصيلية وكان يتداخل مع الحديث عن المعارك رنين للهواتف العديدة ، ، وهي تعطي صورة الموقف في الجبهة .

وكانت الاوامر والتوجيهات تحملها الشفرة الى قيادات الميدان ، ، كان كل شيءٌ يتحدث عن المعركة وسيرها .

وفي خضم هذا الواقع ومعاني المجابهة الملتهبة ، ، كانت حقائق كبيرة ، ، تبدو مع البداية الساخنة ، ، ابرزها ان صـــدام حســـين ليس قائدا سياسيا كبيرا حسب ، ، انما هو قائد ستراتيجي كبير ملم بفن الحرب وخطط القتال ومنها ايضا حقيقة اخرى كانت لها ادلة عميقة . . تظهر من توجيهات القائد العام الى قادته الميدانيين : حققوا النصر بدون خسائر لا مبرر لها في الارواح .

كان التوجيه مؤشرا ، ، يحكي حب القائد للمقاتلين ، ، من ضباط جيشنا وجنوده ، ، وكان الاساس الاول لمعادلة الفعل المطلوب ، ، لأرواء شجرة الوطن بالدماء ، ، بحيث تصان وتنمو هذه الشجرة في ذات الوقت الذي يجري الابتعاد فيه ، ، عن التضحيات غير المبررة ، ، وان يكون شهداء النصر ، ، في اقل حالة ممكنة تؤمن الغرض المقصود من غير خسارات يمكن توفيرها .

وكانت الحقيقة الانسانية في عقل القائد التي تعايش فيها ، ، حب العراق والدفاع عنه ، ، وحب المقاتل والحرص عليه ، ، تقرع الذاكرة بصورة الوقائع واحاديثها حين كان الهوس الايراني يدق طبول الحرب ويطرق ابواب العلاقة العراقية الايرانية بأحاديث التدخل والنار ولغة القنابل والرصاص ، ، لتعيد اليها دوافع الصبر الكبير الذي قابل فيه القائد تلك اللغة والاحاديث ، ، وهو يحاول ان يعيدها الى لغة العقل واحاديث المنطق ، كان من بين الاسباب عنده ، ، وهو يصبر على تلك

الامور ، ، ما يظهر من قوله :

«لا يوجد شيء يقلقنا لا في شعبنا ولا في جيشنا ولا في اقتصادنا ولا تخيفنا مسؤوليات الدفاع عن العراق بوجه المحاولات المعادية ، ، لان لنا من الاصرار والعزيمة والثقة بالشعب والجيش ، ، ما يبقي لنا العراق عزيزا ومحصنا ، ، ولكننا فقط لا نريد الحرب لان ابناء شعبنا وجيشنا اعزاء علينا ، ، نريد لهم الحياة ، ، ولكن حينما يستهدفون اذلالنا والسيطرة على بلادنا ، ، لن يكون امامنا غير الدفاع عن الوطن والحصول على مجد النصر او شرف الشهادة» .

وهكذا فأن القائد في توجيهاته الى القادة الميدانيين بعدم تقديم الخسائر غير المبررة بالارواح ، ، يعكس حقيقته الانسانية ، ، التي هي حقيقة مطلقة ، ، تجد ما يضيف لها ابان احتدام المعارك واستمرارها لان القائد وهو يتابعها يسأل أولا بأول عن عدد الشهداء من المقاتلين ، ، وكان كل رقم يسمعه عن عدد الشهداء ، ، مهما يكن صغيرا ، ، يحفر في قلبه مكانة يمتزج فيها الاعتزاز بالالم . .

كانت عيناه في كل لحظة من تلك اللحظات ، ، تزدحم بآمال خضراء تحييها قيم الشهادة ويحزن للرحيل الذي يزهق الطغاة فيه ، ، ارواح رجال وشباب لهم امانيهم واما لهم في الحياة .

كانت نظرته لحظة اطلاعه على عدد الشهداء ، ، يستقر فيها حنان غريب يستجمع خواصه من الزهو بالرجولة وما تعنيه والحزن لفقدان الرجال وما يعنيه ، ، من الشموخ بالتضحية الكبيرة والالم لافتقاد مثل اصحابها ، ، هو حنان يحكي الحقائق الكبيرة عن الحب والشهادة وعن المغزى الكبير الذي يقصده صدام حسين وهو يردد بأستمرار ، ، الشهداء اكرم منا جميعا . .

ان قيمة الشهداء ومكانتهم عند القائد صارت معروفة وهو لم يخف مشاعره عما يجيش به قلبه من عواطف حيال اسرهم ، ، ففي مرات خلال مقابلاته لهم ، ، تطفر دموع عينيه وهو يحنو على طفل لشهيد او يلتقي مع امه .

واذكر مرة والقائد يترأس اجتماعا لمجلس الوزراء في ١٩٨١/١١/١٧ ، ، وكان الحديث يتناول امورا لها صلة بالحرب ، ، ومما قاله القائد وقتها ، ، ان اكثر ما يهمني هو الشهداء ، ، لان الحالة الاقتصادية يمكن تعويضها ، ، وضرب مثالا على

ذلك ، ، وان الجهد الخير يستطيع ان يتجاوز الاوضاع الاقتصادية الصعبة ، ، من خلال ما ورثته الثورة من ميزانية خاوية الامر الذي رتب ان يكون الوضع المالي غاية في السوء ، ، ولهذا بعث مجلس قيادة الثورة احد اعضائه الى دول الخليج للاقتراض بهدف تجاوز الوضع المالي الصعب . . فأقرضوا العراق خمسة ملايين دولار ، ، وذكر ايضا كيف اقترح لدعم الميزانية عرض معسكر الوشاش للبيع ، ، وكان قرار بهذا الصدد اصدره مجلس قيادة الثورة ، ، بموجبه تقسم اراضي المعسكر وتباع ، ، وكانت التقديرات ان يوفر ذلك مبلغ ثلاثة ملايين دينار . .

كان القائد وهو يشير الى ذلك الوضع الاقتصادي الصعب ، ، يشير الى ان الجهد المخلص قد استطاع تجاوز ذلك الوضع والعيش بالوضع الجديد ، ، بما يمثله من قوة اقتصادية عالية ، ، واذن فالخسارة الاقتصادية لا نريدها ولكنها لا تقلقنا ، ، الشئ الذي نحس بالالم نحوه هو الشهداء .

ان حب القائد للشهداء جعله يتعامل معهم كأحياء ، ، ولهذا اصدر اوامره التي تجرى بموجبها ، ، ترقية الضابط حتى رتبة عقيد ومنح العلاوة السنوية للشهيد من نواب الضباط ، ، وترفيع ضباط الصف والجنود .

ورعاية القائد الى عوائل الشهداء ، لم تشمل الدعم المادي وتهيئة كل المستلزمات التي تضمن لهم حياة شريفة وكريمة ، ، بل تشمل الدعم المعنوي واعطاءهم الاولوية في لقاءاته مع المواطنين وفي زياراته الميدانية يحرص على الاستفسار عن عوائل الشهداء ويقوم بزيارتها في بيوتها .

وفي احدى زياراته الى دار احد الشهداء ، ، كان يستمع الى حديث من والدته ، وحينما انتهت قال لها القائد :

«ان الاستشهاد هو شرف ومحط فخر واعتزاز المواطنين جميعاً ، ونحن ننظر اليه بأعتباره القيمة الاكثر ايصالا الى طريق الخلود» .

ان قيمة الشهداء عند صــــدام حســـين لا تحتاج الى ادلة ، ، ولكن من المفيد ان نشير الى تعقيب له كان على اثر وقوع «تندوكيان» وزير النفط الايراني في اسر قواتنا المسلحة .

فعلى اثر ذلك قامت اوساط دولية بأرسال رسائل وطلبات الى القائد تطالب فيها

بأطلاق سراح وزير النفط الايراني .

وكان رد القائد على ذلك : لماذا نطلق سراحه ، ، هل وجدناه يتجول في شوارع باريس وقمنا بجلبة الى بغداد .

ان وزير النفط الايراني ، ، هو اسير ضمن الاسرى الذين وجدوا في ساحة العمليات ، ، ويعامل وفق قانون الاسرى وبموجب القوانين الدولية ومن يريد التوسط له ، ، عليه ان يعي ان ذلك امرا غير موضوعي ولا عادل ولا منطقيا ومن يتوسط له عليه ان يذكر دماء الشهداء الذين يسقطون بغير حق ونتيجة اصرار الطغمة الايرانية على القتال ، ، ونحن لسنا من النوع الذي ينسى دم شهدائه» .

ان القائد صـــدام حســـين ، ، وهو يعطي للشهداء والشهادة هذه المكانة ، ، فلانه يدرك ان الاستشهاد هو الطريق الذي يجعل الاعداء يعرفون ان ارض العراق محروسة بالتضحيات التي لا تبخل بنفسها في الساعات المطلوبة .

هذه الحقيقة كان القائد يدركها قبل الحرب ، ، ويلمسها لمس اليد ، ، ويثق منها بضحالة اولئك الذين تصوزوا بأن ايديهم طويلة وقادرة على ان تلعب بالعراق بمثل ما تريد ، ، وهي الحقيقة التي كان على الخميني ادراكها قبل تورطه في الحرب ، ، من خلال مقولة القائد في اجتماع مجلس الوزراء في ١٩٨٠/٤/٨ وهو يقول :

«ان من يحاول ان يمد يده على بلدنا ، ، سنقطع يده بدون تردد .

ان شعبنا اصبح مهيأ لان يدافع عن وطنه وان يدخل في سبيل ذلك اي نوع من المعارك دفاعا عن شرفه وسيادته» .

هذه الحقيقة التي يبلورها القائد ، ، تستند الى واقع معاش اصبح العراقي من خلاله ، ، يدرك اسباب قوته في الدفاع عن الوطن ودواعيها في صد موجه الحقد المعادي ، ، واعتبار طريق النصر والشهادة واحداً ، ولهذا فعندما يرتبط العراقي بوطنه الى الحدود التي يستسهل من خلالها الاستشهاد ، ، يؤكد للاعداء ، ، ان سور الوطن لايطوله احد ، ، وان حب العراق والحياة الجديدة يدفعانه الى ذلك ، ، هذا الامر يؤكده القائد صـــدام حســـين وهو يقلد مجموعة من صقور الجو نوط الشجاعة في ١٩٨١/٦/٢٤ ، ، وهو يقول :

«الشهيد في عراق اليوم ، ، لا يستشهد تخلصا من الحياة ، ، وانما حبا في الحياة ، ، وحب الحياة للجماعة الذي يسبق الحب الفردي ، ، ويكون بديلا عنه» .

وبهذا الفهم الصائب الذي يحدده القائد ، ، يكون للمقاتل وهو يدافع عن الوطن ويختار في اللحظة الحاسمة طريق الشهادة ، ، حالة من السمو الروحي يحلق بها مع صورة العراق الجديد ويقارنها بأوضاعه السابقة ، ، ويكون له في ذلك اندفاع الشجعان مع صوت نخوة للعراق يحثه على العطاء والبذل والتضحية لان الاعداء يريدون العودة به الى الوراء .

هذه الصورة يلمسها القائد بكل دقة وهو يقول :

«كيف ممكن للانسان ان يستشهد ، ، كيف ممكن لاي انسان ان يفقد روحه ، ، لو لم يكن يغفو على خيال خصب هو رؤية المجتمع الذي يناضل من اجله» .

هكذا تكون الشهادة ، ، ولهذا يكون لها موقع ومكانة عند القائد صـــــدام حســـــين ، ، الذي يجعل من نفسه مشروعا دائما للشهادة ، ، وهي عنده فوق كل ذلك طريق المجد والخلود . .

(٧) قيم تربوية كبيرة

في أواخر نيسان ١٩٨١ ، ، كان متحدث بأسم رئاسة الجمهورية الأيراني ، ، يعلن نبأ زعم فيه ، ، وقوع أنقلاب في العراق ومقتل الرئيس صـــدام حســـين ! !

وفي نفس اليوم ، ، كان قطب زادة وزير خارجية أيران السابق ، ، يعقد مؤتمراً صحفياً في دمشق ، ، قال فيه بالحرف الواحد : يسعدني أن أخبركم أن أنقلاباً قد وقع في العراق ، ، وأن الرئيس صـــدام حســـين قد قتل ! !

كانت هذه الأنباء الكاذبة ، ، تثير الضحك والسخرية ، ، ولكن الأكذوبة جاءت مشبوهه وبتوقيت كان لصوت الجمهورية الأيراني في طهران صدى يردده وزير الخارجية الأيرانية في زيارته الى سورية .

كانت الكذبة بذاتها ، ، والخيط المشبوه الممتد بين مصدرها في طهران وصداه في دمشق ، ، تستوجب وضع القائد في صورة الخبر . .

وتشاء الصدف أن يكون القائد قد غادر مكتبه في القصر الجمهوري ذلك اليوم ، ، قبيل أنتهاء الدوام . .

ولم يكن من خيار ، ، غير مذكرة عاجلة ، ، بالخبر المزعوم ، ، ترسل الى القائد في داره .

لم يمض وقت طويل حتى عاد القائد الى مكتبه والضحكة ترتسم على شفتيه .

كان الوقت لحظتها يشير الى تمام الساعة الواحدة والنصف ظهراً ، ، حين كان القائد يستدعيني الى غرفته .

في مكتبه كان يرد على مكالمة هاتفية لحظة دخولي .

وبعد أن أنهى مكالمته بدأ حديثه مع ضحكة محببة على الخبر ، ، وأذكر جوانب من هذا الحديث والقائد يقول :

«أن أقتدار الثورة صار يقلق الأعداء ، ، وأن هؤلاء واهمون أن تصوروا عودة

الظلام ، ، فلقد تربى شعبنا على قيم المبادئ وتقاليدها ، ، وأصبح من المستحيل أن يهزه الأعداء أو يزيحونه عن مسيرته الواضحة» .

حين كان القائد ينتهي من حديثه ، ، كانت عندي قناعة اليقين ، ، بأن رصيد صـــدام حســـين هو أعالي البحار ، ، وأن رصيد السواقي الصغيرة لا يعرفه وليس له وجود في تفكيره ، ، وكان مع هذا اليقين تأكيد على أن مثل هذا الرصيد ، ، يخلق نهجاً تربوياً له قيمة بالغة في المجتمع ككل وعلى صعيد المواطن فيه .

والواقع أن النهج التربوي الذي يشيعه القائد ويريد لقيمه وتقاليده ، ، أن تتركز أكثر وتمد جذورها الى روحية الشعب ، ، لم يبدأ بأحاديث المبادئ ولا في الوعظ بها ، ، وأنما صار في مفاهيم القائد ، ، يتخطى التوعية الفكرية والحصانة المبدئية الى ممارسات تحفر في وجدان الشعب ذلك وتؤشر في ضميره نقاط الهداية والمسارات الصحيحة ، ، ولهذا فعندما يكثر القائد في فعالياته بهذا الشأن ، ، أنما يطرح بذلك النموذج المرئي للناس ، ، ويقدم لهم بما يتقصده أحياناً من تصرفات وكلمات ، ، تقوية الوعي وفتح حلقاته الى قيم تربوية يريد أشاعتها .

أن النقطة المركزية في النهج التربوي الذي يستهدف القائد أشاعته ، ، هو التطلع الدائم الى امام ، ، وأن يكون هذا التطلع شاملاً في وجهيه الرئيسين المادي والروحي .

أن النهضة المادية التي لا تخاطب روحية الشعب ، ، تظل مشوهة وأنجازاً متدنياً بعيد الصلة عن المنجز الحضاري المطلوب ، ، وهي تظل وقتية ولزمان محدد وغير قادرة على أن تحفر قيمة تأريخية تذكر .

والنهضة بالروح ، ، وأن كانت مستحيلة ، ، من غير النهضة بالمسار المادي ، ، فأنها لا تعدو سموا مثالياً ينتهي بعد حين الى فراغ تتحطم فيه الآمال وتضيع صور الواقع الحية في ثناياه . .

هذه الحقيقة يمكن أدراك معناها من حديث للقائد . .

في مجلس الوزراء في ١٩٨٠/٩/٢٩ ، ، كان الرئيس صـــدام حســـين يتابع جدول الأعمال ، ، ويستمع الى أحاديث كانت تدور حول منهاج الجلسة ، ، كانت نظراته تتوقد بأفكار قيمة ، ، تظهر قيمتها من قوله :

«أننا نؤكد على أهمية النظرة المتطلعة الى أمام ، ، والتصرف بما يعزز حركة التقدم ،.، حيث لا يجوز للعقلية أن تتصرف رجوعاً .

أن النهضة بالمسار المادي أذا لم ترافقها ، ، نهضة روحية وبالذوق ، ، فأن المجتمع يتعرض الى حالة تكسر عميق» .

هذه الصورة التي يرسمها القائد للتعامل مع الحياة وتحريكها الى الأمام ، ، لا تجعل من النهج التربوي في صيغه المحدودة للتعامل مع الحياة بعيداً عن أمرين متداخلين هما :

الأول : أن الأنسان يجب ألا يسحق ويتحول الى كائن مطحون ، ، ليس مطلوباً منه غير أن يكون لبنة جامدة في الوجود المادي . .

والثاني : أن الأنسان يجب الا يتحلل بعيداً عن المسؤولية الجماعية وشروط الوفاء للكيان الأجتماعي ، ، بحجة أن حقه في الحياة وتمتعه بها يتطلب ذلك .

مثل هذه الأمور تشكل أنحرافاً ، ، الأول يوازي بفعله الثاني ، ، والنهج التربوي الصحيح لا يرسم خطاً وسطاً بينهما ، ، وأنما يصوغ منهجيته بضوء الفهم المبدئي المطلوب في حياة متحركة وأنسان فاعل حي فيها ، ، له حقوق وعليه واجبات . .

هذه الحقيقة يظهرها القائد بكل وضوح أبان أستقباله في ١٩٨٠/٨/٢ عدداً من المتفوقين الطلبة .

كانت القاعة الكبرى في القصر الجمهوري تدوي بتصفيق حاد وطويل ، ، وكانت فرحة القائد بهذه الكوكبة المتفوقة تؤشر تقديره للجد والمثابرة والأجتهاد .

وكان حديثه بليغاً ، ، وكانت كلماته لها مدلول تربوي عميق وهو يقول :

«علينا أن نتعامل مع الحياة ، ، وهي حية متحركة ونحركها الى أمام ، ، وفي نفس الوقت أن نعد أنفسنا بأن نفي بمستلزماتها ، ، عندما تتطلب جلداً وصبراً عاليين .

أننا نريدكم أن تتمتعوا بالحياة ، ، ولكن بنفس الوقت أعدوا أنفسكم لأن تعيشوا في حلقاتها الصعبة ، ، وهذه هي الموازنة الصحيحة كما نراها في الحياة والتمتع بها» .

هذه النظرة الموفقة للقائد ، ، ترسم الخط الأجتماعي السليم ، ، وهي تبين عمق

التفكير الأنساني والأجتماعي وأبعاده التربوية ، ، وهي تمثل تصويباً أميناً لبعض العقليات التي لم تتفهم مثل هذه الموازنة وضروراتها التربوية ، ، وتضيع في الوهم العقائدي المتزمت الذي يحرم الأنسان من حقه في الحياة وخياراته في التعامل معاً .

لقد كان القائد صـــدام حســـين واعياً لذلك ، ، وكان مبكراً في أدراك الخط الصائب السليم على هذا الصعيد ، ، لأن بعض الرفاق في الحزب ، ، كان فهمه للأنسان المناضل قاصراً لانه يفصل بين انسانية المناضل ، ، ونضال الأنسان ، ، وكان أمثال هؤلاء يعتقدون ، ، بأنه من أجل أن يكون الأنسان مناضلاً ينبغي أن يترك الحياة .

أن هذا الفهم الساذج والقاصر لا يعتدي على حق الأنسان وأنما على المجتمع برمته ، ، لأنه يقود الى التعامل مع الحياة ، ، تعاملاً غير حي ، ، ومثل هذا المجتمع بالنتيجة يكون ، ، مجتمع القطيع والتسلط وليس مجتمع النضال والأنسان .

كان صـــدام حســـين يدرك في وقت مبكر خطورة هذه النظرة ، ، وكان يرد عليها بقوله :

«أن الأنسان البعثي هو أبن الحياة وهو نبتها ووردها وهو ريحانها ، ، في الوقت الذي هو مستعد للأستشهاد دفاعاً عنها» .

وهكذا فأن فهم القائد لهذه المسألة ، ، يقوده الى الأمساك بحقيقة الموازنة التي تحفظ ذلك ، ، وهي تعويد العراقي على الضبط والنظام .

أن الأنضباط بقيمه التربوية ، ، يؤمن الصلة الحية للفرد بالمجتمع ، ، والمجتمع بالفرد من دون تعسف أو تهور ، ، والنظام يربي المواطنين على أحترام ذلك والوفاء لمستلزماته التربوية .

ولهذا يكون الضغط مرفوضاً في أن يكون قاعدة العمل التربوي ، ، ولكنه قد يكون الأستثناء في حالة الضرورة .

هذه الحقيقة يؤكدها القائد خلال زيارته الى معسكر أبطال القادسية للعمل الشعبي في ١٩٨٠/٧/٨ كان الطلبة وقتها منهمكين في العمل الشعبي ، ، وحرارة تموز تلامس الوجوه السمراء فتزيد من سمرتها ، ، في هذه الحالة كان موكب القائد يخترق معسكر الطلبة ، ، ويترجل معهم ، ، ويحمل آلة العمل لكي يشاركهم في حملتهم .

كانت الشمس قوية والعرق يتصبب من الوجه الحبيب وهو منهمك في العمل معهم . .

لم تكن مشاركة القائد شكلية تنتهي بخبر وصورة ، ، كانت مشاركة تربوية وقصدها يظهر من قول القائد :

«نريد أن نعود العراقي على حب النظام بدون ضغط ، ، ولكن عندما يكون الضغط لابد منه للحفاظ على النظام فنحن نستخدمه لتطبيق النظام» .

أن تربية المواطن العراقي ، ، نهج يعطيه القائد قيمة خاصة ، ، لأنها عماد لتكون الشخصية وشعورها بالمسؤولية ، ، ولهذا يضع القائد للعاملين في الدولة وعموم أبناء الشعب ، ، أهمية قصوى في هذا المجال وهو يقول :

«مطلوب منا جميعاً أن نربي العاملين في الدولة والشعب على الأحساس بشكل كبير بقيمة الدور التأريخي الذي يؤدونه» .

أن هذه القيم والمفاهيم والممارسات ، ، ذات الشأن التربوي ، ، يراد منها أن تعطي وزناً للأنسان العراقي في القيمة والنوعية والفعل ، ، تتجاوز قيمته في المنظور التقليدي ، ، ومثل هذا النهج يريد القائد أن يعززه بقوله الحق والرأي الصريح ، ، لأن له أثراً كبيراً في هذا المضمار ، ، حيث يؤكد القائد ذلك بقوله :

«دعوني أقول ، ، عندما نخطئ لا نستحي أن نقول أخطأنا أمام شعبنا .

أننا نريد أن نسمع الأراء ، ، حتى لوكانت مخالفة لرأي صـــدام حســـين ، ، لأننا نريد أن نربي العراقي الواحد ليساوي عشرة من الناس الأخرين» .

هنا تظهر قيمة النهج الذي يريده صـــدام حســـين وهو نهج يرى في كل المخلصين أبناء بررة للعراق العظيم .

(٨) الانتماء ام الاخلاص

سؤال ربما يجده البعض صعباً ، ، وقد يكون لغيرهم محيراً ، ، يتلمسون الجواب عليه في دوائر مغلقة لا تتعدى حدودها الى الصلة المبدئية والموضوعية .

والسؤال يبدأ بمقدمة مطلوبة هي :

أن في العراق ، ، منذ ثورة ١٧ - ٣٠ تموز - ١٩٦٨ ، ، حكماً لحزب البعث العربي الأشتراكي ، ، وأن قائد الثورة والحزب هو صـــدام حســـين .

والتأسيس الذي يرد تحصيلاً لهذه الحقيقة ، ، هو السؤال الذي يبدو صعباً للبعض ومحيراً لأخرين هو ، ، هل أن صـــدام حســـين قائد للحزب أم هو قائد للشعب . .

أقرب السؤال بعبارة أخرى الى ما أريد هو ، ، كيف يكون قائد حزبي هو قائد للشعب ؟

هل يعني ذلك أن يتحول الشعب الى الأطار الحزبي ، ، ليكون الشعب كله ، ، هو الكيان التنظيمي للحزب ، ، أم أن التنظيم القائد يقترب الى الشعب ويعتبر أن روح الشعب هي أطاره الواسع الكبير؟

أن الأجابة على هذه التساؤلات ، ، تبدد كل أثر للأشكالية التي قد تبدو للبعض .

وقبل الأجابة أستعير قولاً للقائد يقول فيه :

«القائد عندما يكون متعصباً لا يصلح للقيادة» .

بعد ذلك أقول : أن صـــدام حســـين هو قائد الشعب قبل أي شيء لأن في مفاهيمه : أن الشعب أولاً ، ، وأن الأنتماء الحزبي لا يعني أن هناك أولوية تتقدم بقدسيتها على قدسية الشعب .

وأزاء هذه الحقيقة المبدئية والموضوعية ، ، يحدد القائد ، ، الأرضية الصلبة

لصلة الأطار الحزبي بالكيان الأجتماعي ، ، من خلال الصلة بين خلايا الحزب وخلايا المجتمع العامة .

في الأولى تسرى القاعدة التنظيمية وشروطها . .

وفي الثانية تسرى قاعدة الثورة وقوانينها . .

أي أن الكيان التنظيمي تحكمه قواعد الحزب ، ، في حين أن الكيان الأجتماعي تحكمه روح الحزب . .

بهذه النظرة تحدد رؤية القائد الى الشعب ، ، وهو أمر ندركه من قوله :

«أنا أعتبر كل عراقي يؤمن بالثورة والتغير الجديد المخلص للوطن هو بعثي وأن لم ينتم» .

بهذا المفهوم يضع القائد مفهومين مترابطين هما :

البعثي الخاص ، ، الذي هو الحزبي

والبعثي العام ، ، الذي هو أبن الشعب

فكيف هي نظرة صـــدام حســـين بعد ذلك ، ، هل هي منحازة الى الخاص ، ، لأن القائد هو قائد الحزب أم أنها منحازة الى الشعب لأن صـــدام حســـين قائد الوطن ؟

الحديث عن الأنحياز بهذه الشكلية الألية المجردة لا يفهمه صدام حسين ، ، لأن النظرة الشكلية عموماً لا يقيم لها القائد أية قيمة وأعتبار ، ، وهي حيال مثل هذا الموضوع الكبير ، ، تكون من أكثر الأمور التي يرفضها ولا يركن الى أحكامها المباشرة .

ولهذا لا يحدد القائد الهوية الحزبية معياراً يقود الى تفضيل حملتها على أبناء الشعب المخلصين . .

هذه الحقيقة يؤكدها القائد صـــدام حســـين ، ، في الندوة الختامية لمناقشة ورقة عمل قطاع التربية والتعليم العالي وهو يقول :

«يوجد مواطنون عراقيون كثيرون ، ، غير مرتبطين بالحزب ، ، أصفى قلباً وعقلاً وضميراً في حبهم للحزب والثورة ، ، وفي التعبير عن هذا النهج بعراقيته الأصلية . أن العراقي الذي يخدم ويحب العراق ، ، ولا يحاول أن يضع العصي في طريق

الثورة ، ، مثل هذا العراقي موضع تقديرنا أكثر من ذلك النمط المرتبط بالحزب» .

أن القائد صـــدام حســـين بهذا المفهوم يسقط النظرة الحزبية الضيقة ، ، لأن التعصب الفئوي عنده ينتهي الى مأزق يلحق بأصحابه المخاطر فضلاً عن أن مصلحة الوطن لا تقاس بمثل هذه المسطرة الحزبية القصيرة .

ولهذا لا يحسب صـــدام حســـين نفسه حصة وحيدة لحزب وحيد ، ، حتى لوكان حزب البعث العربي الأشتراكي الذي يعتنق عقيدته ويتولى أمانة سره ، ، وهو بهذه الرؤية حصة لكل العراقيين بما فيها الأحزاب السياسية التي لا تفصل بين مسؤولياتها الحزبية والمصلحة الوطنية ، ، ويكون صـــدام حســـين قائدها مثلما هو قائد البعث ، ، لأنه قبل ذلك هو قائد الشعب .

ولهذا السبب يرى صـــدام حســـين ، ، بأن حزب البعث هو حزب الشعب ، ، ليس بحمل الشعب لهويته التنظيمية وأنما بحمل روحه المبدئية .

يوضح القائد هذه المعادلة بتساؤل يطرحه ومن ثم يجيب عليه وهو يقول .

«لماذا نعتبر حزب البعث ، ، حزب العراقيين جميعاً ، ، المنتمي أو غير المنتمي ؟

لأن هذا الحزب يعبر عن ضمير الشعب وطموحه ، ، بالمبادئ وبخطه السياسي وبنضاله لتحقيق المبادئ ، ، وعندما يفترق حزب البعث عن الشعب ، ، فأنه لا يكون حزب أحد من الناس بما فيهم البعثيون ، ، لأن البعثيين عندما أنتسبوا أساساً الى هذا الحزب ، ، فلأنه حزب الشعب .

وعندما يمارس البعثيون ، ، وهم جزء من الشعب النضال والمعاناة والتضحية والعمل بصبر وأخلاص وسعة صدر ، ، فأن حزبهم يكون وعن قناعة صحيحة ، ، حزب الشعب من وجهة نظر الجميع بما فيهم العناصر الوطنية التي تنتمي الى أحزاب أخرى سياسية من غير حزب البعث» .

ولهذا ليست هناك أفضلية بالتميز لأن التميز الذي يفهمه صـــدام حســـين هو أن يخدم بتميز ويضحي بتميز ولهذا يؤكد :

«نحن لا نميز بين الشعب على أساس حزبي ، ، لا نميز بين المنظم وغير المنظم ، ، بل أن العراقي أصبح وطنياً مؤمناً بوطنه وأفراد قلة غير وطنيين» .

وبضوء هذا الفهم الذي يحدده القائد ، ، لا تكون الوطنية حكراً لأي

حزب ، ، بما في ذلك حزب البعث ، ، وهو أمر يقطعه القائد صـــدام حســين بقوله :

«الوطنية لا تنحصر في الأنتماء للحزب وأنما أيضاً في المواطنة الصالحة التي ترتبط بأرضها وتعمل في سبيل خدمة الشعب وتقدمه» .

وهذا التحديد مرجعه الى أن القائد يرى ، ، أن الشعب هو السيد وأن الحزب هو الخادم ، ، وأن الشعب هو أساس التزكية ، ، وبمقدار ما يزكي الحزب ، ، يكون الطليعة الشعبية القائدة .

وأنطلاقاً من هذه المفاهيم يحدد صــدام حســين مفهوم الخيمة الوطنية تعبيراً عن الوطنية العراقية التي ترتضي الثورة ، ، كحقيقة نهائية لآمالها الوطنية .

وعليه يكون عند القائد ، ، البعثي وغير البعثي من العراقيين المخلصين ، ، هو أبن العراق ما دام الأخلاص رائد الجميع ، ، وتكون الخيمة العراقية موطناً دائماً لكل عراقي مخلص .

وتحصيلاً لذلك ، ، فمن ينظر الى الخيمة العراقية كملك وحيد هو مخطئ يوازي بخطئه من ينظر اليها كملك مشاع يحق له أزالة الشيوع وقتما يريد .

أن هذه النظرة عند القائد مصدرها الأيمان بالشعب والفهم الصائب لحقيقة الواقع التنظيمي ، ، ولهذا يقول :

«الشعب العراقي هو أكبر من حزب البعث العربي الأشتراكي ، ، والحزب هو حالة قليلة ضمن الشعب عندما نقيس عدد البعثيين المنظمين ، ، ليس قلة بمعنى أن نسبته قليلة بالقياس الى نسبة الشعب ، ، لأن نسبة الحزب بالقياس الى الشعب ، ، ينبغي أن تكون أقل ، ، لأن المناقشة حول نسبة الحزب من بين عدد المواطنين ، ، هو أكثر من النسبة المقبولة ، ، فلابد أن نقلل نسبة المنظمين لكي تتوازن الأمور» .

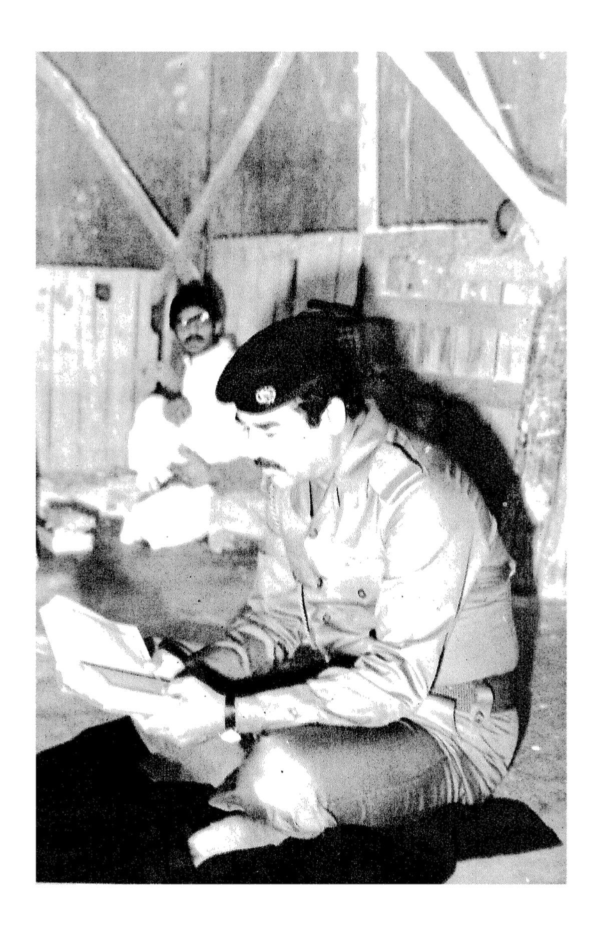
أن هذه النظرات الصائبة التي يحددها قائد الشعب صــدام حســين ، ، تعكس أن فهمه للأمور يتجاوز النظرة الرقمية الى النظرة الحية ، ، التي في روحها تكون الصلات الأعمق والأدق والأمتن ، ، وهي نظرات لا يمكن أن يكون لها وجود لو لم يكن صــدام حســين بحق هو القائد الأنسان . .

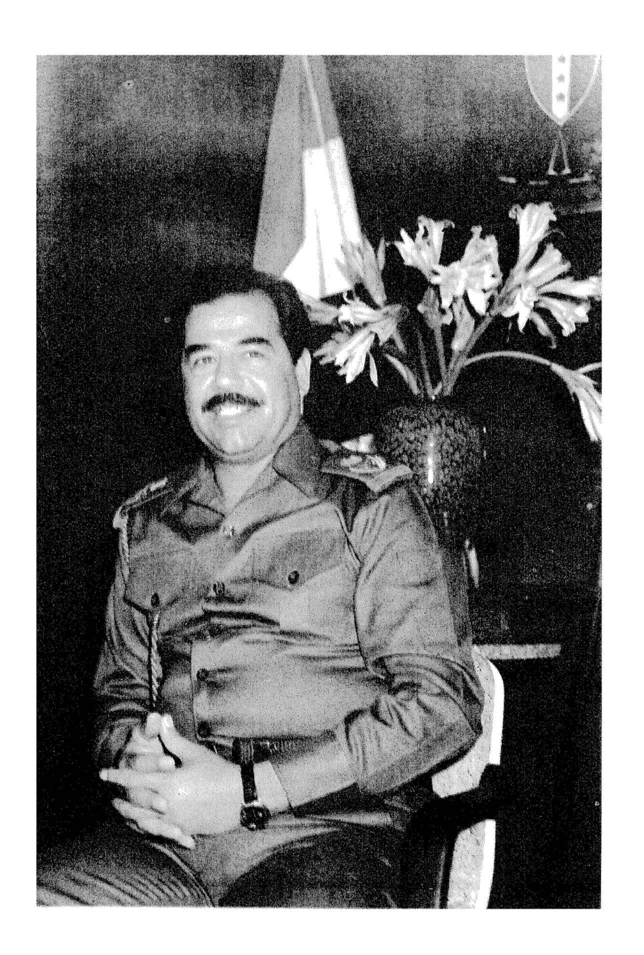
ومثل هذه الحالة لا ترضي الاعداء . . ولهذا تجابه المسيرة وقائدها بالتحديات المضادة .

لماذا وكيف ؟ !

الفصل الرابع

القائد والتحديات المضادة





(١) حالة غير مألوفة

منذ البداية كانت الدوائر المعادية تعرف ان صـــــدام حســـــين هو قائد الثورة والرجل الذي يقود مسارها بحالة غير مألوفة وبصيغ غير مطروقة لم تعتد عليها .

وكانت هذه المؤشرات والتقارير المتجمعة لديها تضع في اذهانها حقيقة مزعجة وهي ان هذه الثورة لا تنطبق عليها النظرات التقليدية ولا يصح قياسها بما هو متداول من معايير يجري بموجبها فهم الغاطس العميق او التوقف عند الجذور الرئيسة لحركتها وتصوراتها .

وكانت هذه الدوائر في خضم هذا الواقع ، وفي ظل انشغالها فيه وبحثها عن المصدر الكامن وراء هذه الحالة غير المتداولة التي تشاهدها تقف حائرة امام مأزق خطير هو ان الثورة تدخل الحدود غير المسموح بها للثورات وهي تقتحم المحاذير التي لم تجرأ التغيرات على اقتحامها وتحطم الممنوعات التي كان غيرها يقف هيابا من ضيائها الاحمر ، ليحرف مسيرته بعيدا عن حدود الخطر ! !

وكان اكثر ما يقلق الاعداء ، ان للثورة قائدا وراء هذا النهج وهو من المهارة الكبيرة التي يستخدم من خلالها فرصة الشعب بدقة ويحرمهم من أية امكانية يمكن ان تقود الامور الى الفرصة السانحة لهم .

كان القائد الماهر هو صـــــدام حســـــين وكانت ميزته على هذا الصعيد هي انه يعرف كيف يختار الاسلوب الموفق الذي يسدد من خلاله الضربات لخطط الاعداء وحساباتهم .

وكانت البداية بالنسبة لهم ، ان صـــــدام حســـــين ظاهرة غير مرغوبة وهو حالة غير مقبولة عندهم والخلاص منه بداية البدايات لعودة العراق الى الطوق الذي كسره .

ولم يقف هذا التشخيص المعادي عند ذلك ، بل اعتمد على حلقات عديدة وفتح صفحات كثيرة للتآمر الغرض منها انهاء حالة الثورة في العراق او تحويلها الى حالة

نظام يتساوى مع الاخرين .

ومن وقتها ابتدأ مشواراً طويلا ومتنوعا من التآمر على القائد صـــدام حســين ، واستهدفت حياته كطريق لانهاء الحالة الجديدة في العراق .

كانت هذه الحقائق ، وهي تكشف الحقد على القائد تعكس القيمة التاريخية لقيادته كونها الظاهرة القيادية التي يستميت الاعداء من اجل التخلص منها ، (فمنذ البداية شخص اعداء الحزب كلهم ، وكل المخابرات المعادية دور الرفيق صـــدام حســين في حماية الثورة وكانوا وما يزالون يضعون في حسابهم ، انه لا يمكن لاية مؤامرة ان تنجح ، قبل ان تستهدف القائد صدام حسين ، وعندما فشلت المحاولات الخارجية للتآمر على الثورة صار التركيز على التآمر على الحزب والثورة من داخلها ، وفي هذه العملية كان الرفيق صدام حسين الهدف الاول كما كان هو في الطليعة والمقدمة في مواجهة هذا الطراز الخطير والدقيق من التآمر) .

ان تآمر الاعداء منذ البدايات الاولى للثورة على صـــدام حســين يعني انهم يعرفون انه هو القائد الفعلي للثورة ، وان قيادته من النضوج والذكاء والمعرفة ما يجعلها تختط طريقا جذريا في الحياة مثلما هو طريق جديد يربك في حساباته مخططاتهم .

وكان ذلك هو المخيف عندهم لانه يوضح الحقيقة الكبرى عن صـــدام حســين كونه رجل المبادئ والحضور القائد .

ولم تكن هذه الحقيقة معزولة عن صورة كونتها الدوائر المعادية عن صدام حسين بحكم كونه القائد الفعلي للثورة او بحكم مواصفاته القيادية .

فلماذا كان ذلك وكيف ؟

اريد ان اعود الى الوراء ، والى حوار ابتدأ بسؤال محدد .

كان السؤال الصعب . . !!

وكانت علامة تعجب كبيرة وراء التساؤل الغريب !

المفاجأة غير متوقعة تطرق الافكار بقوة تفجر كلمات التساؤل العجيب . . لم تكن مطرقة السؤال ضربة وتهدأ ولم يكن انفجار الكلمات حروفا تتناثر وتنتهي كان سؤالا فيه اصرار اشبه بالعناد وكان التشبث فيه مؤشرا لمعان استجمع الذهن مقاصدها بالسرعة وكان لا بد من الرد وبالسرعة ايضا . . !!

لم يكن مفر للتملص او وسيلة للهروب ، كان السؤال المحدد ، من مراسل صحفي غربي ، في مطلع عام ١٩٧٨ يومها كان الرفيق صدام حسين نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة كان السؤال : هل ان صـــدام حســـين هو القائد الفعلي للبلاد !؟

وكان الرد تعمدت الا يكون جوابا حائرا تلف العموميات افكاره ، كان بعيدا عن الجواب الدبلوماسي الذي يتلاعب بالعبارات وينسل من المخاوف بعيدا عن السؤال والمسألة ! !

قلت : دستوريا الموقع الرسمي لصـــدام حســـين معروف ، نضاليا موقع الرفيق صدام حسين ، وهو موقع القائد الكبير ، ولكي تكون الصورة جلية من غير غموض ، اوضح أكثر بأن ثورة ١٧ — ٣٠ تموز ثورة صنعها التغيير النضالي وليس التغيير الدستوري ، اقرب الصورة اكثر واقول : ان التغيير الدستوري هو حصيلة للتغيير النضالي ، وأذن فالشرعية النضالية اسبق بالقيمة والاولوية من الشرعية الدستورية .

قال : لقد فهمت وعرفت معنى صـــدام حســـين الظاهرة وليس الفرد . .

كان الرد مطلوبا . . لان التلعثم مع هذا النمط من الصحفيين ، يعطي حسب مفاهيمهم ، الكثير من الامور غير المستساغة عن البلد .

وكان الجواب ، تعبيرا عن الحقيقة ، وارضاء للتاريخ لان صـــدام حســـين هو القائد الكبير في كل المراحل النضالية .

هذه الحقيقة ، كتبتها الوقائع المعروفة . .

هذا الواقع تنطقه احداثه المشهودة . .

وما فعلته لم يتعد الواقع ، لانني لا اريد ان اعتم على دور هو الحقيقة بعينها ، فالتاريخ يخط احداثه ، شئت أم أبيت ، ولم اسق التاريخ الى معابر اهواها ، لانني حتى ان فعلت فالاحداث الكبيرة لا تنحشر بهذه السهولة والانتقاد بالاماني وحدها .

لا اريد ان اكتب بقلم ما يحلو لي ، مع عواطف احملها لقائد احببته ليس بصورة الخيال المتصورة وأنما بالمشاهدة التي رأيت وعايشت او بتناغم مع مشاعر وفاء لرجل يحمل الوفاء في ذاته قبل كل شيء ، لان الكتابة الامينة تتطلب الانصاف ولأن قلم التاريخ يكتب في سجل غير خاضع للتزوير او الرغبات .

هذه الامور اطرحها ابتداء عن الثورة في البداية والثورة في النهاية ، من مشروع الثورة الى الثورة الكاملة ، في البدايات يبرز السؤال الكبير : كيف كانت ثورة ١٧ — ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، وأي دور كان للقائد صـــدام حســين؟ هل كان واحداً يتساوى مع الاخرين ام هو حالة خاصة يتميز بها وينفرد من خلالها ؟

واذا كانت مواصفاته القيادية الاستثنائية ، مشهودة له من الجميع ، فكيف سجل التاريخ دوره المميز ، وكيف دون القدر تميزه وهو في اطار مؤسسة جماعية !

هذا يتطلب الاجابة عن سؤالين مهمين هما :

هل كانت الثورة ممكنة من غير دور قائد وخاص لصـــدام حســين في عملية التفجير في ١٧ تموز من حيث التخطيط والتدبير والتحوط ، وعملية الاكتساح في ٣٠ تموز من حيث التصور والاقتحام ؟

هل كان بالامكان قيام الثورة ، من غير مؤسسة ثورية وقيادة جماعية ؟

عندما تخاف ان لا يرحمك التاريخ ، فيما تكتبه وتخشى ان تكون الكلمات منحازة ، تحت ضغوط المحبة ، الى المغالاة تحرص على ان تكون الموضوعية هي سيدة التصور ، وأساسه الذي ينجيك من شطط المبالغة ومخاطر الانسياق العاطفي ، لهذا لكي تكون الاجابة دقيقة وامينة على التساؤلين أشير الى :

ان نظام الردة التشرينية ، ولد وهو يحمل نقيضه البديل ، وكان الواقع وهو ينوء به ، يختمر بجنين الثورة والتغيير.

وكانت . . الثورة في الافق ممكنة وليست مستحيلة ، ولكن امكانية اندلاعها لم تكن هينة ، لان الواقع والاحداث عقدت الامور والغمت الاوضاع كانت الثورة الصعبة .

والثورة الصعبة ، تطلبت مؤسسة عامة لقلب الاوضاع ، اطراف عديدة تمنت اوسعت الى ذلك ، بعضها اراد انقلابا يوصله الى القمة في الحكم ، واخرى ارادت ثورة لحسابها الخاص ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، كانت نظرته واعماله ان تكون الثوزة للشعب كله .

الظروف الموضوعية والذاتية ، ورغم المصاعب والتعقيدات كانت ترشح البعث للقيام بالثورة ، ليس للثأر من سراق حلمه الاول او قتلة وليده البكر ، بل لانه

الاكفأ قدرة والاكثر تصميما والاصدق عملا ، على هذا السبيل . .

الحزب ، في كل تاريخه وتقاليده ، مؤسسة ثورية بقيادة جماعية هذا لا يعني انه لم يكن عرضة لتصورات تحمل مخاطر مردها ، ان جماعية القيادة كانت تعني لدى البعض تساويا مطلقا او توازيا متعادلا ، مما الحق بالحزب اضرارا ودفع البعض من قيادييه الى التكتل والتصارع ، كان المطلوب قيادة جماعية برأس قدير ، لان جماعية القيادة من غير العقل المركزي الحاسم واليد القوية الحازمة يظل افرادها بشرا والبشر مهما كانوا هم عرضة لكل شيء من دون القائد التاريخي المنشود . .

هل كان لاحد ، غير صـــدام حســـين في تشكيلة القيادة التي قامت بالثورة ان ينهض بمهمة القائد التاريخي وصمام الامان المطلوب ؟

في معرض الحديث عن الثورة وموقع وقيمة وضرورة ومعنى صـــدام حســـين فيها ، اقول ان الثورة لم تكن بنت الساعات الاخيرة من ليلة ١٧/١٦ تموز ١٩٦٨ ، ولم تبدأ من لحظات الراية البيضاء المرفوعة اعلانا بالتسليم مع رئيس النظام المقبور ، بعد ان اقتحم موكب الثائرين القصر الجمهوري .

كان يومها المرسوم ابعد . .

وكان بعدها التاريخي اعمق . .

كان مع البيان الاول للردة التشرينية السوداء . . . وكان صـــدام حســـين اول الذين احسوا بمرارة البيان واول الثائرين على حكم الردة . . والمرارة الاولى والحقد الاول كان هو الاساس في ان يكون قائد «الدبابة الاولى التي اقتحمت القصر الجمهوري وأعلنت شرارة الثورة» .

مع بيان الردة الاول ، كانت النوايا ، وكان المطلوب ان تتحول ثورة الاعماق الى مسيرة للثورة ، وكان رجل الاصرار والتصميم هو صـــدام حســـين ، كان عين الحزب ويد الشعب ، وقيمته التاريخية لا تتجلى بذلك وحده ، بل لان حسابات البعض راحت وقتها تشتط بعيدا حتى فقدت الهوية ، وآخرين غرقوا في اليأس وعجزوا حائرين امام باب موصد اسمه المستحيل في الاطاحة بالحكم التشريني الاسود . .

صـــدام حســـين كان الوحيد او كان المميز في قلة رأت قبر الردة المحفور

وصممت على القاء النظام فيه كانت هذه الرؤية بمقدار ما هي صافية واصيلة تصطدم بعقبات الظواهر المعوقة ، كانت ظروف الحزب والواقع وصعوباته تضغط بالأتجاه السلبي ، تعطل الحركة أو ترمي في طريقها العراقيل ، ، وكانت خصائص المرحلة تبحث عن رجل المرحلة القدير والقائد المتمكن ذي الصفات المتكاملة «المبدئية ، الحكمة ، الشجاعة الأخلاق ، الصبر ، العقل الستراتيجي ، والقدرة التكتيكية» . لأن تلك المرحلة أكدت :

أن ساحة العراق ، ، بحاجة الى الثورة ، ، ليس غيرها من خيار لهوية تتوافق مع هويته التاريخية .

وكانت الساحة تبحث عن حزب النضال الذي يعرف كيف يصل الى الهوية المطلوبة . .

وكان الحزب يؤكد حاجته التاريخية الملحة لوجود القائد الرمز ، لان الثورة من غير حزب نضال وقائد مسيرة ، تكون أمنية قلب عاشق ، ومشاعر محب حالم والامنية والحلم مطلوبان ، لكنهما من غير الفعل التاريخي تكونان ، في الأقل ، آمالا مستحيلة وطيف خيال لا أكثر . . ! !

والثورة تتطلب الأحلام ولكن مع أرادة عقل حكيم وتصميم سواعد قوية تخطط للحلم ، وتضرب في سبيله المصاعب ولا تهاب الظروف القاسية . .

ولم يكن الواقع يوحي بغير حزب البعث العربي الاشتراكي . ولم يكن حزب البعث يوحي بغير صدام حسين ، ، فقد كان رجل الحزب في المواقف الخطيرة ، وكان قائد حركته في المواقع الخطرة ، وعملية الثورة تحتاج القائد الذي يعرف كيف يقهر المخاطر ويجتاز الخطورة . . هكذا كانت ثورة ١٧ — ٣٠ تموز ، بالرغم من أن الحسابات والظروف كانت تشير الى أنها مسألة شائكة ومعقدة ، وحالة صعبة وخطيرة . . ! !

كيف تم أجتياز السياج الشائك ، وعبور الخوانق المعقدة ، وكيف تم تحويل الحالة الصعبة الى حالة متحققة ! ؟

لولا صـــدام حســين ، لكانت الحالة الصعبة ، محالة ولأصبح الطريق الشائك ، طريق المجهول يكتنفه الرعب ، ولا يقوى على أقتحامه أحد أو السير

فيه . .

صــدام حســين حول المستحيل والصعب المخيف ، بضربة قديرة الى أمر ممكن ، لهذا كانت ثورة ١٧ - ٣٠ تموز ١٩٦٨ بفضل حكمته ورؤيته ، من غيره لكان ذلك وهما أو حالة واقعة ولكن ليتها لم تكن ، كان يمكن أن تكون ، أنقلابا مشكوكا ، ، تلاحقه التهم وتطارده الظنون ، ، وترافقه أحاديث مرة تجري عنه ! !

لهذا يكون النظر الى ثورة تموز ١٩٦٨ ، من خلال صفحتها الأولى في ١٧ تموز وفي صفحتها اللاحقة في ٣٠ تموز ، ، الفصل غير ممكن ، هو أما أن يكون خاطئا أو جاهلا أو متعمدا بالكيد المضاد . . «أن تغيير ١٧ تموز ، لو لم يكمله ما حدث في ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، لكان أنقلابا عسكريا ، أقرب الى الطابع اليميني الأصلاحي منه الى الثورة الجذرية الشاملة ، ولو تمكنت العناصر المضادة للثورة ، ، عبدالرزاق النايف وأبراهيم الداود وغيرهما ، ، من السيطرة على الأوضاع لتحول تغيير ١٧ تموز فعلا الى ثورة مضادة ، ولضرب الحزب ، وضربت كل آمال الشعب في الحرية والتقدم والأستقلال والنهضة . وفي التحضير لـ ١٧ تموز ، كان الرفيق صدام حسين ، العقل المخطط والمدبر والمحتاط . .

ولكن في يوم ٣٠ تموز ، كان صــدام حســين هو قائد الثورة حقا ، فهو الذي أصر على تصفية قوى الثورة المضادة وبسرعة ، وهو الذي وضع الخطة ، وهو الذي أختار ساعة التنفيذ ، وهو الذي وزع الأدوار ، وهو الذي قام بنفسه بالضربة الحاسمة ، وبذلك ولدت الثورة ، ولادة حقيقية» لقد عرف صــدام حســين كيف يخطط ويدبر ويتحول لعملية التغيير ، وكيف يقود عملية الثورة . .

أن عقل القائد أمتاز بالوعي الدقيق والتصرف السليم فهو يعرف الذي يريده وكيف يصل الى ما يريد ، ، لان المعرفة وحدها لا تكفي ، الاصعب أن تضع الخطوات في الطريق السالكة الى الهدف . .

لقد كان القائد ، واثق التصور مثلما هو واثق التصرف ، ، الرؤية الصحيحة يستكملها بالخطوة الصائبة . ، ، والحركة بالعيون المفتوحة يكملها بالفكر المفتوح ، ، فمن الخطأ البالغ ، أن يكون الوضوح محصورا فقط في الغاية المرئية ، لأن الوضوح يتطلب مع ذلك ، معرفة السير وأدلة المثابة ، والا يكون الهدف المرئي في الصحراء ،

مهلكا لمن لا يعرف مسالك البيداء وشعابها ورمالها الواسعة الكثيرة . .

الواقع أن صـــدام حســـين ، لم يكن دليل الثورة حسب ، كان عراف الثورة وقائد المسير ، ومن غيره فأن الثورة أما أن تكون تسمية جوفاء ، أو أغنية حلوة محببة ، أو شعارا براقا في النشريات السرية . . ! ! هذه الحقيقة أثبتها ، من غير خشية من الزمن ، أو تهيب من التاريخ ، لأن سجل الزمن وصفحات التاريخ قد دونتها أولا بأول . .

وعلى أمتداد كل السنوات من النصر في ١٧ تموز الذي كان صدام حسين رجله المخطط والمدبر والمحتاط ، الى ٣٠ تموز الذي كان فيه قائد الثورة القدير ، ، وصولا الى يوم ١٦ تموز ١٩٧٩ ، يوم تسلم صـــدام حســـين المنصب الأول في الدولة والحزب ، بعد أن كانت تسميته الدستورية نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، على أمتداد هذه السنوات لم يكن صدام حسين «الرجل الثاني» الذي ينفذ الأوامر ويجيد تطبيقها ببراعة ، كان في كل تلك السنوات قائدا أماميا كبيرا ورجل المبادئ الذي يبدع برسم سياسات تطبيقها في الواقع . .

هذه أمانة ليست أنصافا لصـــدام حســـين ، بقدر ما هي أنصاف للواقع والتاريخ . .

هذه حقيقة وهي أحترام للقيم الموضوعية وأحكامها التي لا تقبل بالتجاوز ولا ترضى بالتلاعب على الأمور .

لهذا كان صـــدام حســـين في تلك المرحلة ، صانع الأحداث الكبيرة ورجل الأقتحام الكبير ، كان «عبر مسيرة الثورة كلها ، ، وفي كل المنعطفات التي مرت بها ، والأنجازات الكبيرة التي حققتها ، ، كان الرفيق صـــدام حســـين في المركز الأول ، كان المبادر ، والمخطط ، ، والمتصدي للصعوبات ، ، وواضع الحلول» .

أن الثورة ليست قاربا تدفعه تلقائيا حركة الريح الى المرافئ المطلوبة ، أنها سفينة كبيرة تقطع البحار وتجتاز المحيطات ، ، ترافقها زوابع ، وتتعرض لأمواج هائجة ، ، وتقترب من جزر موحشة ، ، ويفاجئها القراصنة ، ، وهي لذلك من غير ربان أمين ، ، أما أن تتكسر وتغرق أو أن تصل خالية من أي شيئ ، ، بعد أن يسلب القراصنة منها كل شيئ ! !

الثورة الحقيقية ، لكي تجتاز دروبها التاريخية وتصل الى أهدافها وتخيب آمال الأعداء ، ، ولا تتحول الى شعارات غوغائية ، ، تحتاج الى قائد قدير ، ، وصـــدام حســـين هو زعيم الثورة الذي صانها من الضياع ، ومن سراق الثورات حاملي الشعارات الجوفاء . . هذه المسألة لم أحصل عليها رجما في الغيب ، ، أو أن تكون مجرد مقولة بلا مسؤولية ، ، أرضاء أو تزلفا ، ، أبدا أنها المسألة الواضحة التي ترصدها في مواقف الأعداء ، ، الذين كان همهم وشاغلهم الوحيد صـــدام حســـين ، ، «فمنذ البداية شخص أعداء الحزب كلهم ، وكل المخابرات المعادية ، ، دور الرفيق صدام حسين في حماية الثورة ، ، وكانوا وما زالوا يضعون في حسابهم ، ، أنه لا يمكن ، ، لأية مؤامرة أن تنجح قبل أن تستهدف القائد صـــدام حســـين ، ، وعندما فشلت المحاولات الخارجية المباشرة للتآمر على الثورة ، ، صار التركيز على التآمر على الحزب والثورة من داخلها ، ، وفي هذه العملية ، ، كان الرفيق صـــدام حســـين الهدف الأول ، كما هو في الطليعة والمقدمة في مواجهة هذا الطراز الخطر والدقيق من التآمر» .

كان صـــدام حســـين في تلك المرحلة ، القائد بكل ما تعنيه الكلمة ، وبكل ما تحمله من مسؤولية ، ولم تغره الظروف لكي يستعجل الوصول الى موقعه الطبيعي ، كان يريد دروسا للواقع العربي ، تشهد على أمرين مهمين باتا مفقودين ، هما :

الأخلاق . . .

الوفاء . .

فمن غير الأخلاق والوفاء ، ، يكون كرسي الحكم مطمعاً للقراصنة ، ولا تقوى على الثبات ركائزه القائمة على المخاتلة والخداع ، وتطغى المفاجآت على الاحداث ومثل هذا الكرسي لا يهواه صـــدام حســـين ، لأنه لا يغري غير النفوس التافهة الضعيفة ، ولا يحبه الرجال الاقوياء . .

أن الميزة الكبرى في صـــدام حســـين ، أنه رجل المبادئ ، ، الذي يشعر بقوته ، ، من خلال قوة العمل بالمبادئ ، ، ومن تفانيه في سبيل الشعب ، ومن حب الشعب له ، لهذا تمثل شخصيته القوية ، شموخ الرجل الذي تنطبع على محياه كبرياء القيادة ، وليس أنفة الحاكم الذي تتسم على وجهه أشارات التجبر

الأجوف . .

صــــدام حســــين ، رجل الثورة المهيوب ، وهيبة الثورة الكبيرة ، وهو في نظر الكل والتاريخ القائد القدير ، الذي يعرف كيف يضع مسيرة الثورة في المكان المطلوب ، وينتزع لها النصر في الزمان المحسوب . . لهذا لم يكن صدام حسين رجلا ثانيا ، ، من الزاوية الشبيهة في تجارب الحكم الأخرى ، ، كان قائدا أماميا ، ، وكان من طراز القادة التاريخيين ، ، الذي يصنع بحضوره القيادي ، ، المعجزات والمنجزات الكبيرة . .

لهذا فالأنتقالة الدستورية بتسلمه المنصب الاول في الدولة والحزب ، ، لم تعن أن القائد بالمسؤولية الجديدة ، ، يريد أن يعبر بمنهجه عن سياسات كانت في الاعماق ، ، أو أمنيات ظلت مستقرة في النفس ، ، لانه في الواقع وراء المنهج التاريخي الذي سارت عليه الثورة منذ يومها الأول ، ، ولن تكن للانصاف أية أمارة توحي أن الرجل بمنصبه الجديد ، ، يعبر فيها أو من خلالها ، ، عن مظهر مستجد أو صفة جديدة ، ، كانت ملامح شخصيته ذاتها وكان الحدث بالنسبة اليه شخصيا لا يعني أية أضافة كانت تنقصه . .

كان هذا يظهر واضحا للذين عايشوه ، أو شاء القدر أن يكونوا بالقرب منه يوم توليه المسؤولية الجديدة . .

كان الاعداء لا يريدون لهذه الأنتقالة أن تتم ، ، لحسابات تتيحها الحالة السابقة ، ، وكانت أبرز محاولاتهم وأخطرها ، ، المحاولة التآمرية التي أستجمعت خبثها وغدرها خلال تموز ١٩٧٩ للحيولة دون تولي القائد لمسؤولياته في الموقع الأول في الدولة وللحزب . .

فكيف كانت هذه المحاولة ! ؟

(٢) شكوك ام يقين

كانت ساعة الصفر محددة باغتيال الرئيس صـــدام حســـين . .

وكانت هذه المهمة الغادرة ، ، تحددها اللجنة المتآمرة ، ، التي استجمعت خيوط الحقد وحركتها نوازع العقد من قائد المسيرة ، ، ومن مسيرة القائد .

وكان هذا الاختيار ، ، يقترب من واقع تصورروه ، ، حلا ينتهون منه الى التخلص من صـــدام حســـين اولا للقضاء على طموحات الشعب وامانيه التي جسدها في قيادته .

وكان مأزق هذا الخيار ، ، انه جاء مناقضا لشروط الحاجة التاريخية وضروراتها التي استدعت وجود القائد صـــدام حســـين تعبيرا لها وتلخيصاً لمتطلباتها ، ، وكان الخانق الاخر المميت ، ، انه جاء وسط أوضاع لم يحسبوا لها حساب ، ، او انها عاجلتهم في تطوراتها الى الحد الذي افاقوا عليها قبل لمسات اخيرة كانوا يستحضرون صيغها ، ، وقبل حلقات فنية لم تكن بعد مكتملة .

كانت اللجنة التآمرية ، ، التي ضمت وجوها قيادية في الحزب ، ، امام الحالة المربكة والمحذور الذي ظلت حريصة على ان لا يقع او يحدث ، ، وكانت لذلك وهي تستقبل الحدث المزعج ، ، تنشط بعد فوات الاوان بالخبث والمراوغة التي تضمر الحقد في النوايا وتصوغ العبارات المنافقة في العلن . .

وكانت بداية الحالة المربكة .

خبر حمله الى اللجنة التآمرية الدكتور منيف الرزاز . .

فقد كان الدكتور منيف الرزاز ، ، احد حضور جلسة مهمة ، ، جرت في البداية على مستوى ضيق ، ، كان فيها كل من القائد صـــدام حســـين والمرحوم احمد حسن البكر والرفيق الاستاذ عزة الدوري والرفيق الاستاذ طارق عزيز ، . .

في هذه الجلسة كان المرحوم البكر يريد التخلي عن مواقعه في رئاسة الدولة والحزب . .

وكان الحضور وهو يتابع هذه الرغبة يستمع الى المبررات ، ، التي كانت صحية ، ، لم يفاجأ بها ، ، فلقد كانت حالة البكر الصحية سببا ظل المرحوم في العديد من المرات يكرر طلباته على القيادة لقبول فكرة تخليه ، . .

وكان الجديد في طلب المرحوم احمد حسن البكر هذه المرة ، ، اصرارا وتصميما على ما عزم عليه ، ، لان حالته الصحية لم تعد تحتمل غير قبول الفكرة والاستجابة لها .

وكان القائد صـــدام حســـين ، ، وللتاريخ ، ، هو اكثر الكل تمسكا بوجود البكر ، ، مثلما كان في المرات السابقة

لم يكن صـــدام حســـين في هذا الموقف ، ، الا امينا على قيم الاخلاق التي تربى عليها ، ، يضاف الى ذلك ، ، ان اصرار القائد صـــدام حســـين على ثني البكر على ما عزم عليه ، ، كان له جانب خفي لمن يعرف حقيقة صـــدام حســـين الانسانية ، ، وهذا الجانب كان يرتبط بكونه هو الرجل الذي تتعلق عليه الامال وتحط الخيارات عليه في تولي المنصب الاول .

وليس مرد هذه الحقيقة ، ، كون الشرعية الدستورية تنحاز اليه ، ، كونه نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة ، ، وانما كانت لان التخلي ينهي الحالة التي ارادها منذ البداية واستبقى نفسه من خلالها دستوريا في الموقع الثاني ، ، على الرغم من كونه القائد الفعلي للثورة ولمسيرتها .

هذه حقيقة لا اريد ان اقحم نفسي بها ، ، ولكن استعير للتاريخ شهادتين فيهما ما يكفي . . الاولى يقولها الرفيق القائد المؤسس الاستاذ ميشيل عفلق بقوله :

(ان الرفيق صـــدام حســـين كان مهندس الثورة قبل ولادتها ، ، والذي استمر في بنائها وقيادة خطواتها وتحقيق الانجازات والانتصارات بالحكمة والشجاعة معا ، ، وبالتعاون مع رفاقه المناضلين ، ، حتى بلغت هذا الحد من البناء الصميمي المتألق الزاخر بالحيوية والعطاء)

والثانية يقول فيها المرحـــوم احمد حسن البكر :

«وكان الرفيق صـــدام حســـين طيلة مسيرة الثورة الحافلة ، ، القائد الفذ القادر على مواجهة كل الصعاب وتحمل كل المسؤوليات» .

وهكذا . .

فأن صـــدام حســـين هو القائد الفعلي للثورة ، ، وهذه حقيقة يعرفها الجميع ، ، وكان الاعداء اكثر الناس علما بها ، ، ولكنهم اعتقدوا ان الحالة الدستورية القائمة قبل ١٦ تموز ١٩٧٩ . تؤمن لهم فرصة سانحة لمخططاتهم ، ، وتسهل لهم التسلل الى مواقع ملائمة ، ، وتوجد مجالا واسعا لتحركاتهم التآمرية عن طريق تأزيم العلاقة بين الرجلين الكبيرين .

ولهذا كان اضطراب الزمرة المتآمرة ، ، وهي تتلقى نبأ القرار الذي استقر عليه المرحوم البكر ، ، وتعقد عند سماعها ذلك اجتماعاتها المتعاقبة ، ، وتحقق اتصالا جديدا مع النظام السوري لتولي التوجيهات المطلوبة .

كانت التعليمات السورية تتركز حول دراسة القيام بانقلاب عسكري ، ، وان اولى خطواته تبدأ باغتيال صـــدام حســـين .

كان المتآمرون وهم يصلون الى هذا القرار يطعنون التاريخ ، ، بابشع طعنات الغدر والخسة والخيانة ، ، لان العناصر المتآمرة كانت موضعا لرعاية القائد ، ، وكان لدعمه لهم ، ، أثر في صعودهم وتبوُّهم لمواقعهم الحساسة .

وكانت الوجوه المتآمرة ، ، غانم عبد الجليل وعدنان الحمداني ومحمد محجوب ومحمد عايش ومحيي عبد الحسين ، ، تثير الحيرة ، ، ليس لان اسلوبها التآمري قد فاجأ القائد ، ، ولكن لأنها قدمت الصورة الحقيرة لتردي الانسان ووضاعته وهو يقابل الاحسان بالسوء !

فاسلوب التآمر لم يكن غائبا عن رؤية القائد على الاطلاق ، ، وهو قد حدده بدقة متناهية خلال اجتماعه مع الكادر المتقدم ، ، قبل المؤامرة بسنوات وبالذات في ٨/٦/٩٧٥ ، ، وهو يقول :

«الثورة المضادة ستعتمد اسلوب التسلل الى حيث – تؤمن – ادواتها او من حيث نأتمن نحن ، ، وعندما لا يكون اختيار من نأتمنهم وفق الشروط الموضوعية والمبدئية المطلوبة ، ، عند ذلك تتحقق مقولة – يؤخذ الحذر من مأمنه – ومن اجل تحقيق ضربة الثورة المضادة باسلوب فني وبطريقة لا تلفت انتباه الثورة الى الحزب ، ، كضمير وكمبادئ الى نواياها ، واهدافها ولكي يتحقق هذا التسلل وبهذه

الكيفية ، ، فهو يحتاج الى غطاء كثيف ، ، وافضل غطاء له ، ، هو مراكز الاستقطاب غير الموضوعي وغير المبدئي ، ، ومن مراكز الاستقطاب هذه تتسلل الثورة المضادة لتصل الى اقرب نقطة تقرب من الاجهزة والمفاصل الحيوية والمركزية للثورة لضربها من الداخل» .

ان هذا الاسلوب الخبيث الذي أعتمدته المؤامرة ، ، يستدعي سؤالاً مهما هو : لماذا المؤامرة :! ؟

ان احد الاسباب الجوهرية للتآمر ، ، هو القضاء على النمط القيادي الذي بلورته شخصية صـــــدام حســـين ، ، كرمز وطني وكقائد قومي تأريخي .

واذن سبب الحالة موضوعي في رصده للقيمة الموضوعية التي يمثلها صـــــدام حســـين . .

وهو تاريخي اراد ان يقطع صلة المرحلة عن اهدافها التاريخية بالقضاء على القائد التاريخي القادر على الوصول اليها .

وهو سايكولوجي استهدف الا يتشكل نمط للبطولة القيادية وسط شعب وامة ، ، لمثل هذه الظاهرة اثار نفسية على نهوضها وتقدمها وعزتها . .

وآخر توخى المتآمرون شخصيا التخلص من مركب النقص والشعور بعقدته حيال مواصفات صـــــدام حســـين القيادية وتعلق الشعب بها .

فالعقدة من صـــــدام حســـين التي استحوذت على جوانب في تفكير المتآمرين ، ، تعني ان نوازع التآمر . . من هذه الزاوية ، ، قد حركتها الاغراض الذاتية الانانية ، ، ولكن الاقتصار على ذلك يعني تبسيطا لحالة التآمر ، ، لان التخلص من ظاهرة صـــــدام حســـين ابعد من هذا التبسيط للمسألة ، ، لانها كانت اصلا لحسابات خارجية واجنبية .

ان الفراغ القيادي الذي ظل يؤمن للحسابات المعادية . . فرصا مناسبة لمخططاتها ، ، شكلت ظاهرة القيادة لصـــــدام حســـين تجاوزا لها وملأت ذلك الفراغ بوجود حي للقيادة التاريخية يعكس صورة البطل القائد امام الجماهير . .

ويكفي ان استشهد بواقعة لها دلالة على هذا الصعيد هذه الواقعة نشرتها صحيفة يديعوت احرونوت الصهيونية في ٩٨١/٦/١٩ . . تقول الصحيفة الصهيونية :

(حذر الرئيس المصري انور السادات (اسرائيل) من الاخطار المحدقة بالمنطقة والكامنة بشخصية الرئيس العراقي الجديد صـــدام حســـين ، ، وقال الرئيس المصري لشمعون بيرز «أنتبه» خلال اجتماعه به في تموز ١٩٧٩ ، ، ان تغيير السلطة في بغداد الذي جرى هذا الاسبوع ، ، لم يتم بشكل هادئ ومريح . ويشير الرئيس المصري ببيانه الى مكمن التهديد ، ، ان هذا الرجل هو صـــدام حســـين ، ، وهو لا يأبه وسيلة من اجل تحقيق اهدافه . .

وتضيف الصحيفة الصهيونية ، ، ان السادات في الاجتماع قد اسهب في حديثه عن المشاريع السلبية لصـــدام حســـين ، ، واعاد تأكيداته ، ، بأن رئيس العراق الجديد ، ، هو شخص سياسي متزمت برأيه ، ، ويسير وفق اهداف رسمها لنفسه» .

هذه الواقعة تكشف ابعاد التآمر على صـــدام حســـين وهي مؤشر يلقي الضوء على العمق الاجنبي لمؤامرة ١٩٧٩ الغادرة ، ، وعن اسبابها الخفية ، ، ومع هذه الاسباب يقرع السؤال الخطير الاذهان ، ، وهو : كيف تمكن المتآمرون من هذا المسلك الخبيث ، ، وهل ان يقظة القائد لم تفطن اليهم . . ! ؟

كانت يقظة صـــدام حســـين هي الاساس الذي هوى على التآمر ، ، كانت المطرقة الاولى التي صفعت الرؤوس الخائنة ، ، لكي تنجلي بعدها الحقائق عن الخيوط المتصلة بمركز الحقد الاسود . .

كانت الشكوك في ذهنه ترتقي الى اليقين الاكيد ، ، وهي ترصد النوايا الكامنة في الاعماق ، ، على الوجه الاسود الذي ظل عاجزا عن اخفاء قسماته المريبة .

كان القائد في نظرته الى محمد عايش يقرأ القسمات المشبوهة ، ، ويعرف ان خطوطها غير المريحة ليس مصدرها اوضاعاً نفسية قاسية ، ، وانما مرجعها ، ، مرض في النفس يستقر فيها مرض للخيانة .

لم تكن شكوك القائد حدسا او فراسة ، ، كانت ابعد من ذلك ، ، وهي تلامس روح الغدر والخيانة في الاعماق المريضة ، ، ولكنها كانت تقف امام القيم المبدئية واعتباراتها ، ، احتراما وانتظارا تريد في التريث مزيدا من الوقت تمني النفس فيه ، ، ان يكون اليقين الاكيد شكا او وهما ، ، وان ما يطغى على الوجه الاسود

حالة خاصة بعيدة عن الظنون .

وكان لهذا السبب ، ، يكلف الاستاذ الرفيق عزة ابراهيم مرة والرفيق الاستاذ طارق عزيز مرة اخرى بان يلتقيا مع محمد عايش ومعرفة ما يشكو منه او يشغله .

كانت الاجوبة المحمولة لا تلغي قناعاته عن معاني سواد الوجه الذي اصبح يزداد مع دورة الزمن والايام .

كانت الايام تقدم كشفا للحقيقة التي رصدها صـــدام حســـين مبكرا ، ، وظل يلاحقها بعيدا عن الشك ، ، الى ان كانت الامور تقطع بصحتها ، ، يقينا لايأتيه الشك من اي جانب . .

لهذا فان فطنة القائد لم يغلبها مكر المتآمرين ، ويقظته لم تغف عنهم ، ، وما تعرض له القائد في هذه المؤامرة ، ، تكفي شواهد التاريخ لان توضح ابعاده المبدئية ، ، مثلما يكفي قول القائد لان يسلط المزيد من الاضواء على هذه الابعاد وهو يقول :

«ليس بالامكان ان نقلب الفهم الصحيح ، ، من ان الثقة اولا ، ، والشك على اساس الظاهرة ، ، فهل نتعامل بالشك وصولا الى اليقين» .

ان القائد صـــدام حســـين في هذا التصور يؤكد نظرته التي عمادها : رفض الانحدار الى الاسلوب الذرائعي الانتهازي الذي لا قيم له ولا اعراف .

وهو ايضا لا يبدأ في الشك كطريق لليقين ، ، لان ذلك معناه مغادرة المبادئ وخسران الشعب .

وهو في ذلك يعود الى التاريخ ، ، الى شاهد حي فيه جرى مع الامام علي عليه السلام ، ، معناه يفسر الكثير ، ، يقول القائد :

(نعود الى التاريخ مرة اخرى لنقول ان الامام علي لم يغلب من معاوية ، ، وان الامام علي ما كانت تعوزه الفطنة ، ، ولكنه كان دائما وابدا يعيش للمبادئ والشرف وقيم الفروسية وقيم الاسلام .

لم تكن عملية الصراع بين الامام علي ومعاوية ، ، هي صراع عقليتين تشتركان في ارضية واحدة من الايمان .

ولم تكن العقلية في جانب الصراع ، ، هي عملية رجحان لعقلية على حساب

عقلية اخرى ، ، وانما كانت صراعا بين انسان وبين نفر ، ، بين حالة وحالة ، ، بين عقلية وعقلية ، ، بين ايمان ومسلك من طراز اخر ، ، بين قيم السماء وبين مغريات الارض عن طريق المخادعة والضلال .

لم ينتصر معاوية على الامام علي ، ، لقد ملك جانبا من الارض التي يجلس عليها طيلة حياته ولكنه فقد الذكر في انه يمتلك قيم السماء ، ، وربح الامام علي قيم السماء ، ، وما زلنا نذكره على هذا الاساس ، ، وسوف تبقى تذكره الاجيال الى سنين لاحقة طويلة .

لقد انتصر الامام علي لأنه انتصر لقيم السماء ، ، وهكذا امتلك قيم السماء الى ما لا نهاية واوجد ظلاله في الارض الى ما لا نهاية ، ، وحين لم يمتلك معاوية الا جزءاً من الارض لفترة محدودة من الزمن ، ، وما كان تصرف، معاوية عملية تميز وارتقاء بالعقل لايجاد طريق يرتفع عن قدرات الاخرين في ادراكه ، ، وانما كان انحدارا الى مستوى اخر من النوع الذي كان لا يستهوي الامام علي ورفاقه لكي ينحدر اليه) .

هذا الفهم للتاريخ ، ، يحدد عقلية القائد ويتحكم بها ، ، وهذا الفهم يعكس حقائق تلك المؤامرة التي حاول اصحابها ، ، اغتيال القائد ، ، لكن خطوات الخيانة لم تكن سالكة ، ، وكان لها صـــدام حســين بالمرصاد ، . . . .

(٣) ويصيب الحقيقة

كان الخبر الذي ابلغه الدكتور منيف الرزاز الى المجموعة المتآمرة ، ، عن عزم البكر على التخلي من مناصبه الرسمية والحزبية ، ، موضع نقاش من قبلها .

وكان رأي الزمرة الخائنة ، ، يبلوره محيي عبدالحسين ، ، وهو يحدد المهمة العاجلة للتحرك المناوىء ، ، بابعاد القائد صدام حسين من الوصول الى الموقع الاول في الدولة والحزب .

وكان اقصر الطرق الذي تصوره المتآمرون ، ، لتنفيذ هذا الغرض الحقير ، ، هو التمسك بابقاء المرحوم احمد حسن البكر في مواقعه الدستورية والحزبية .

كانت هذه الغاية تستقر في العقول الشريرة الجاحدة المتآمرة ، ، وكانت مقابلها غاية شريفة ونبيلة تستقر في عقل القائد صـــــدام حســـــين ، ، لم يكف عنها مع كل طلب للبكر فيه رغبة للتخلي ، ، وكانت جهوده لتثنيه عن ذلك سواء بالجهد الجماعي في اطار اجتماعات القيادة او من خلال الجهد الفردي مع المرحوم البكر ، ، دليلا على قيمه العالية وروح الايثار المتأصلة في أعماقه ، ، ولهذا فالقائد صدام حسين وهو يستمع الى رغبة البكر ، ، عمل كالعادة على أن يمنعه من التمسك بالفكرة ، ، ولكن دون جدوى .

ولم يكن امام صـــــدام حســـــين الذي لم يوفق في حمل البكر عن الاقلاع عن عزمه ، ، الا قبول الفكرة على مضض والارتضاء بها مادامت تريح البكر ، ، ومادام اصراره عليها قاطعا وليس فيه اية امكانية للرجوع عنه .

كانت المجموعة المتآمرة التي سمعت بذلك ، ، تستعد لحركتها الخبيثة ، ، للابقاء على الحالة الدستورية القائمة ، ، لكي تستحضر كل مستلزماتها التآمرية من خلال اللعب في اجواء وجود قائدين في السلطة .

كانت الاقدام المهزوزة ، ، وهي تقطع خطواتها الى مكان الاجتماع المشترك الذي ضم اعضاء مجلس قيادة الثورة واعضاء القيادة القطرية تستعجل منيتها ، ، وتكشف

عن جلدها الحقيقي وطبيعة ملمسه الناعم ، ، كونه جلد افعى ، ، تحاول أن تدس سمومها في العسل ، ، من خلال اقوالها المنافقة التي بطنتها باردية الدجل والمراوغة .

في هذا الاجتماع ، ، الذي تم في ١٩٧٩/٧/١١ ، ، كان البكر الذي جلس الى جوار القائد صـــدام حســين ، ، يتحدث عن اوضاعه الصحية ، ، وعن قراره بالتخلي . .

لم تفاجأ الزمرة المتآمرة بالحديث والقرار ، ، وكان صوت الأفعى المرسوم له الحديث ، ، كما جرى في أتفاق الزمرة المتآمرة ، ، هو محيي عبدالحسين ، ، كان صوتا مناورا ، ، لم تخف مقاصده عن القائد صـــدام حســين ، ، وهو يصر خلافا لرغبة البكر ، ، في عدم قبول الفكرة ، ، وبهدف لئيم هو الحيلولة دون وصول القائد الى الموقع الاول . .

كانت مناورة مفضوحة . .

وكان الحديث مكشوفا . . .

وكانت عيون محمد عايش ، ، الذي حاول ان يبقى خلف الستار ، ، تتسع بالحقد ، ، لتشير الى مزيد من الدلائل ، ، ان شكوك القائد فيه هي في محلها وان اسس هذه الشكوك صارت تلامس خطوط اليقين في بداياتها الاكيدة ، ، ونهاياتها ربما تعطي المزيد . . .

وأنتهى الاجتماع بأول فشل للمؤامرة من خلال فشل المناورة ، ، وتمت الموافقة على قبول تخلي البكر عن مسؤولياته . .

تمت الموافقة في التصويت الذي انهى ذلك دستورياً واخلاقيا .

لكن الغباء والحقد حينما يلتقيان على الشر ، ، يقعان في الهاوية ويكشفان عن النوايا الدفينة .

ففي أجتماع القيادة الاخر في ١٩٧٩/٧/١٢ كان المزيد من الصور يتضح ، ، وكثير من الحقائق يطفو ، ، وصارت القناعة اكيدة بان هناك أمرا خطيرا يجري الاستعداد له .

ففي هذا الاجتماع ، ، كان محيي عبدالحسين ، ، يطرح موضوعا ليس له وجاهة دستورية او تنظيمية او اي مبرر قانوني او اخلاقي ، ، كان الموضوع المطروح هو اعادة

النظر في قرار القيادة المتخذ بشأن قبول فكرة تخلي المرحوم احمد حسن البكر عن مسؤولياته .

كانت رائحة الخيانة تفوح . .

وكانت صورتها توحي ، ، ان عقلية متكتلة وراء هذا الطلب الغريب . . ! ! !

وكانت يقظة القائد ازاء ما يجري تتابع العيون وترصد نظراتها ، ، وكانت الورقة التي كتبها محيي عبدالحسين الى محمد عايش ، ، هي ورقة النهاية . . .

بعدها . . .

كان موقف للقائد فيه ، ، بعد النظر ودقة الرؤية ، ، وكان فيه ان رؤية القائد ، ، وهو يتابع ما يجري وما يدور ، ، قد حان موعد التعبير عن حكمتها المطلوبة بضربة قاضية تقصم ظهر المتآمرين ، ، وتحول أحلامهم الى كوابيس مرعبة . .

وكانت البداية اعفاء محيي عبدالحسين واعتقاله وكان يوم ١٩٧٩/٧/١٦ ، ، هو اليوم المحدد الذي اعلن فيه المرحوم البكر ، ، تخليه عن مسؤولياته في خطاب مهم قال فيه :

«انني اشعر بالاطمئنان والاعتزاز ، ، لان المسيرة العظيمة للحزب والثورة ، ، قد هيأت القائد القادر على النهوض بمسؤوليات القيادة بكل استحقاق واقتدار ، ، ذلك هو الرجل الذي تعرفون ، ، الاخ الرفيق صـــدام حســـين الذي اختاره مجلس قيادة الثورة رئيسا له ورئيسا للجمهورية» .

في نفس اليوم كان القائد يؤدي اليمين الدستورية ، ، وهو في تأديته لهذا اليمين ، ، كان يلتزم بعرف دستوري مطلوب ، ، لان يمين صـــدام حســـين كان قبل ذلك حين عاهد الشعب ان يكون في خدمته وان يسترخص كل التضحيات في سبيله .

وكانت اول زيارة له عقب ذلك ، ، هي زيارة معسكر القدس لنا للطلبة للعمل الشعبي . .

وفي ١٧ تموز كان سيل البرقيات يتقاطر على الرئاسة كانت اولى البرقيات من الملك حسين والشيخ حمد بن خليفة والسيد ياسر عرفات . وكانت اول برقية يتلقاها القائد من قادة الدول الاجنبية ، ، برقية الرئيس الفرنسي وقتها فاليري جيسكار ديستان

وكان اول استقبال للقائد يجري مع الوفود الاجنبية ، هو استقبال دوم منتوف في ١٩ تموز ، ، وكذلك استقباله للدكتور كارلوس روفائيل رئيس مجلس الوزراء في جمهورية كوبا ، ، وهو يحمل تهاني الرئيس الكوبي فيديل كاسترو .

كان القائد كما هو كتلة نشاط لا تهدأ ، ، وظل في مكتبه في المجلس الوطني يدير مهام مسؤولياته الجديدة .

ولم يكن يشغل باله شيء او يقلقه هم ، ، جراء النشاط الشاذ ، ، الذي عبر عنه محيي عبدالحسين ، ، رغم ان رؤية القائد لم تكن محصورة في الاطار الشخصي لهذا النشاط وانما كانت تمتد الى الابعد من ذلك ، ، كونه نشاطا يفصح عن تكتل ونوايا شريرة ، ، وله جذور وامتدادات ، ، ولكنه رغم ذلك ترك الامر للتحقيق ، ، يكشف ما في النفس ويسلط الاضواء على الخيوط التي حركتها واستندت اليها فيتصرفها العجيب .

لم يكن صـــــدام حســـين في تقديراته الا مصيبا للحقيقة ، ، فسرعان ما اعترف محيي عبدالحسين وكشف الاوراق المستورة وفضح النوايا والتصرفات .

كانت الاعترافات مذهلة . .

وكانت محزنة لانها تكشف عن تورط قياديين في الحزب وكادر متقدم في مؤامرة خطيرة ، ،استهدفت حياة القائد وتحويل الثورة في العراق الى نظام ممسوخ . .

وكانت اسماء المشاركين في التآمر المرفوعة الى القائد ، ، بمقدار ما تثير المرارة في ان ينحدر الانسان الى هذا الدرك من الخسة ، ، لم تجعله في حومة الغضب او التأثر من الصدمة ، ، ان ينجر الى تصرفات الثأر والقرار الذي يصفي هذه المجموعة بدون تحقيق او محاكمة .

وكان قراره ان يكون تشكيل المحكمة بعيدا عن اشكال المحاكم الثورية التي تصدر احكامها بدون تحقيق وتنفذها على الفور ، ، وكان لذلك ان اصدر اوامره بتشكيل محكمة ولجنة تحقيق جميع اعضائها من اعضاء القيادة المتبقين .

وكان أسلوبه في مجابهة المتآمرين بالحقائق يعتمد على طريقة خاصة غير مألوفة فالبنسبة الى من كان عضوا في القيادة ، ، دعاهم الى اجتماع للقيادة . .

كان القائد في الاجتماع مثالا للرجل المتزن الذي لا تترنح خطواته في

العواصف ، ، ولا تضيع في اتون ضغط النفس وصراعها في مواجهة مثل هذا النفر المجرم الخبيث ، ، كانت رباطة جأشه كبيرة ، ، وتعطي الادلة على ان صخب الاحداث لا يقوى على ان ينال منها .

في هذا الأجتماع توخى القائد كشف صورة المؤامرة وكيف كانت زمرتها تدبر محاولة لأغتياله وأيجاد غطاء لذلك بالقول ، ، أنه من تدبير كتلة البكر ضد كتلة صـــدام حســـين ، ، لتجري بعدها عملية التصفية المطلوبة والسيطرة على الحكم .

وفي هذه الجلسة ، ، كان القائد يوجه سؤالاً مركزياً واحداً للأعضاء المتورطين في المؤامرة هو :

لماذا خنت الشعب والوطن والحزب ! ؟

كان هذا السؤال بالنسبة للمتآمرين هو السؤال القاتل الذي ظلوا عاجزين عن الأجابة عنه ، ، وظلوا ساكتين من غير مقدرة على الحديث . .

لم يكن الصمت مجدياً ، ، ولم تكن مع السكوت نهاية لهذه الجلسة التأريخية ، ، كانت نهايتها مع أمر من القائد بأعتقالهم من داخل الأجتماع . . وبعد الأمر كانوا يقتادون من قبل بعض أفراد الحماية الى حيث لعنة التأريخ قبل كل شئ أخر . .

أما بالنسبة الى الآخرين من المتآمرين ، ، فقد كان القائد يدعو الى عقد مؤتمر قطري أستثنائي في صبيحة ١٩٧٩/٧/٢٣ ، حضره أيضاً أعضاء قيادات الفروع والشعب .

كانت قاعة الخلد مليئة بالحضور ، ، الذي لم يعرف الغرض من عقد الأجتماع ، ، وكان من بين الحضور محيي عبدالحسين ، ، لم يكن هناك من يدري ، ، أن مؤامرة غادرة ، ، لفظت أنفاسها الأخيرة ، ، غير قلة تعد بأصابع اليد .

وكان المتورطون يراهنون على أن حقيقتهم ستظل مدفونة ، ، وأن أسرارهم محفوظة ، ، ولكنهم كانوا واهمين لأن المتآمرين لا أخلاق لهم ، ، وأن القلوب الحقودة لا تستوعب الأسرار ، ، ساعة تضربها رياح الأنانية الحاقدة على كل

شيئ ، ، لأن قلوب الأحرار وحدها هي مقبرة الأسرار ، ، وهؤلاء المتآمرون ليسوا ألا نفراً ذليلاً وحقيراً .

كان دخول القائد الى القاعة ، ، أيذاناً لتصفيق طويل طويل ، ، وكان بداية الأعلان عن الحقيقة المرة بتورط البعض بمؤامرة غادرة . .

وكان أول حديث القائد ، ، أمراً الى محيي عبدالحسين للحديث أمام الرفاق عما أعترف له . .

كان محيي عبدالحسين يشق طريقه الى مسرح القاعة منكس الرأس ذليل الخطوة ، ، وفي صوت غير خجول ، ، بدأ حديثه الخطير ، ، حديث التآمر بالتفاصيل والأسرار . .

وكانت الأسماء تترى مع الأعترافات

وكان صاحب كل أسم يرد يقاد خارج القاعة ، ، ليودع الى جهة التحقيق التي تكفلت بالتحقيق في المؤامرة ، ، لكي يدرك بعد فوات الأوان ، ، أن التآمر جريمة محفوفة بالمخاطر واللعنات . .

(٤) امال من رمال

كان القائد صـــــدام حســـــين ، ، ومعه الشرعية الدستورية والشرعية الثورية ، ، قادراً على أن يهوي بضربة تنهي المتآمرين بلحظة .

وكانت طبيعة المؤامرة ، ، وحالة الغدر الخسيسة التي مثلتها ، ، تعطيه حقاً أخلاقياً مضافاً في أن يكون الأقتصاص من أصاحابها سريعاً ، ، لا يأخذ سوى دقائق ، ، حتى تتساقط الرؤوس الخائنة ، ولكن القائد لم يندفع الى ذلك ، ، ولم يصدر أوامره بتشكيل المحكمة التي تتولى محاكمتهم على غرار محاكم الميدان ، ، التي تصدر أحكام الأعدامات الفورية ، ، كان يصر على أن تستكمل الأجراءات القانونية صيغها سواء بتشكيل المحكمة أو بتشكيل لجنة التحقيق الخاصة ، ، التي أوعز اليها أن يكون التحقيق متأنياً ودقيقاً .

ولهذا حرص القائد توخياً للعدل ، ، أن يكون تشكيل المحكمة الخاصة واللجنة التحقيقية من أعضاء القيادة .

كما كان أمر القائد أن تكون لجنة التحقيق من بقية أعضاء القيادة .

أن القائد في هذا التشكيل الذي أراده من أعضاء القيادة ، ، أراد مزيداً من الضمانات توخياً للعدل والدقة ، ، ذلك لأن أشتراك أعلى هيئة دستورية وحزبية هو الكفيل الذي تصوره ، ، بالحرص على أمنية الثورة ومبدأ الحق في الكشف عن الحقائق . .

كانت اللجنة التحقيقية ، ، تمارس عملها ، بضوء التوجيه الصادر لها من القائد ، ، بضرورة الدقة وتوخي الحقائق والأصغاء لصوت العدالة وقيم المبادئ ، ، وحين أنتهت من مهمتها ، ، بدأت المحكمة الخاصة أولى جلساتها في الأول من آب ١٩٧٩ وأستمرت في جلساتها الى السادس منه .

في اليوم السابع من آب ، ، كانت المحكمة تصدر أحكامها بحق المتآمرين .

وكانت أعمال المحاكمة تسترشد بتوجيهات القائد الحازمة والقاطعة ، ، في أن

يكون العدل هو رائد الجميع ، ، وأن تكون الدقة متناهية في تثبيت الأتهام وتحديد المسؤولية .

وبفعل هذه التوجيهات ، ، صدرت الأحكام بحق المتآمرين متفاوتة ، ، مثلما برأت المحكمة متهمين كانت أسماؤهم ترد على لسان محيي عبدالحسين ، ، وهو يدلي بأعترافاته في المؤتمر القطري الأستثنائي الذي عقد في ١٩٧٩/٧/٢٣ وحين هوت عدالة الثورة تنزل العقاب الصارم بالمتآمرين .

وحين كانت يد الثورة حازمة وهي تصفي المجموعة المتآمرة . .

كانت الحالة وقتها لكثيرين ما تزال تشوبها الحيرة ، ، ويتداخل معها شعور من المرارة ، ، عن هذا الأنحدار المخزي ، ، الذي وصله المتآمرون .

وكان القائد وقتها ، ، بمقدار ما أزعجته الحالة من زاوية معانيها الأخلاقية ، ، وتوقيتها الذي جاء مع الأنتقالة الدستورية ، ، كان واثق الخطوة والتصور ، ، وهو يواصل أعماله من مكتبه في المجلس الوطني .

كانت علامات الثقة يشيعها ، ، أطمئنان لا حدود له بالآخرين ، ، وعزم على مواصلة المنهج الذي أستهدف المتآمرون التخلص منه .

وكانت المؤامرة وهي تستهدفه كشخص وقيادة وتصور وسبيل ، ، تزيد من قناعاته بأن لا طريق ينزل الضربة الأكثر أيلاماً بالأعداء ، ، غير طريق خدمة الشعب والوفاء لأمانيه .

كانت ثقة القائد بذلك مطلقة ، ، ولم تضعفها الحالة الشاذة ، ، بقدر ما عمقتها وزادت من صلابتها ، ، واليقين الأكبر ، ، أن الشعب هو القوة التي تتصدى لكل أنواع التآمر .

هذه الحقيقة ، ، كانت واضحة ، ، منذ اللحظات الأولى ، ، التي تتكشف فيها المؤامرة وطبيعتها وأكدها حديث القائد خلال زيارته الى الفوج الأول للحرس الجمهوري .

فمع مساء ١٩٧٩/٧/٢٩ كان موكب القائد في الطريق الى مقر الفوج ، ، كانت بقايا الشمس تلامس السحب العالية ، ، وهي تضفي عليها لوناً كان يصطرع بين أحمرارها وزحف الظلام القادم .

وكانت الأشجار هادئة ، ، تبحث عن نسمة هواء تلامس الأغصان والورق ، ، علها تتمايل بها ، ، تهربا من حرارة واضحة .

وكان الرجال وحدهم ، ، يميلون صوب القائد حيثما يكون ، ، وقلوبهم ترقص فرحاً بالزيارة الغالية . .

في تلك اللحظات ، ، كان اللقاء عميقاً ، ، وأعمق ما فيه قول القائد وهو يخاطب ضباط ومراتب الفوج ، ، ومن خلالهم الى الشعب :

«أطمئنوا على ثورتكم ، ، لأنه أنتم أبناؤها لأنها كل الشعب العراقي ، ، وكل شريف في الوطن العربي هو أبن هذه الثورة ، ، وهو ساعدها ، ، وهو قلبها وهو عقلها .

أن المؤامرة التي تحوكها القوى الأمبريالية ستقبر بأيمان وشرف ونقاء وأخلاص كل عراقي على أرضنا الطيبة .

وأن اولئك الخونة الذين شاركوا في المؤامرة قد باعوا شرفهم وخانوا الثورة والشعب والحزب» .

أن المؤامرة لم تجعل القائد قلقاً ، ، ولهذا لم يصدر أوامره بأستنفار القوات المسلحة ، ، أو أجهزة الأمن القومي ، ، وأنما تعامل مع الحالة بصورة طبيعية أكدت عمق ثقته بالشعب وكونه الحامي الأولى للثورة .

وأكثر من ذلك أن المؤامرة لم تجعل القائد يثني عزمه ، ، عما أستقر عليه أمره بضرورة تقليص الحالة الأستثنائية ، ، لأنه كان يرى بأنه «لا يجوز تحويل الحالة الأستثنائية الى قانون عام بديل عن الممارسة الديمقراطية ، ، حتى في حالة ثبوت نجاح الصيغ الأستثنائية» وكانت رؤية القائد هذه يستكملها بنظرة يطل منها على تمكين القضاء من أن يأخذ دوره أكثر ، ، لأنه كان يعتقد أن مثل ذلك يستجيب الى عزمه المتجه الى تقليل صيغ الطوارئ .

كانت هذه الحقيقة ، ، ملموسة في أهتمام القائد ، ، وهي لم تكن هذه المرة ملموسة كفكرة تستقر في ذهنه ، ، وأنما صارت واقعاً يريده ، ، وهو يطلب اللقاء مع القضاة للحديث معهم .

كان الحديث في ليلة رمضانية ، ، وكان القائد وهو يدخل الى قاعة الخلد ، ،

تدخل معه المهابة وروح العدل الكبيرة . .

وكان وهو يتخذ مكانه للحديث ، ، عميقاً في أفكاره ، ، دقيقاً في تصوراته ، ، كان الحديث صورة رائعة ، ، للقائد الحق ، ، وهو يقول : «أنتم تعرفون أننا نطرح شعار تعقيب الظلم أينما يكون ، ، وأجتثاثه وتحقيق العدالة في كل زاوية من زوايا المجتمع ، ، ومن تأريخ العراق ومن تأريخ الأمة العربية المجيدة ، ، ولذلك ومن أجل هذا سوف نتعامل مع القضاة بما يرفع مكانتهم الأجتماعية وبما يمكنهم من قول الحكم العادل ، ، ومن النطق تعبيراً عن العدالة كما ينبغي ، ، لأننا سوف نقلص ونقلل من صيغ الطوارئ ، ، ولذلك فلابد أن يكون القضاء عيناً ساهرة على مصير المواطنين وعلى تطبيق العدالة ولابد أن تكونوا أحد الروافد الأساسية والحيوية في المجتمع في تطبيق العدالة» .

والقائد في توضيحه لهذه الأمور التي يريدها من القضاة ، ، يكون قد سدد ضربة لمخططي المؤامرة ، ، من أنها ستقود الى تعزيز صيغ الطوارئ ، ، لأنها بالعكس أفصحت عن أصرار القائد لتقليلها والغاء تدابير الصيغ الأحترازية غير الضرورية .

ولهذا كان القائد في ١٩٧٩/٨/١٦ يحمل الى جلسة مجلس قيادة الثورة ، ، قرار العفو العام ، ، بموجبه يعفو عفواً عاماً عن جميع السجناء المحكومين من قبل المحاكم الخاصة ومحكمة الثورة ، ، وكذلك أعفاء جميع المتهمين بجرائم تقع ضمن أختصاص المحاكم المذكورة ومازالت في دور التحقيق والمحاكمة ويطلق سراحهم من السجون والتوقيف .

كما شمل نص القرار عفواً عاماً عن جميع المحكومين بعقوبة الأعدام الصادرة بحقهم ، ، وأعادة جميع الموظفين والعمال الى أعمالهم السابقة .

كانت قرارات القائد ، ، بمقدار ما تريد أن تفتح الفرصة لبعض المواطنين الذين أنحدروا الى ممارسات منحرفة ، ، توجه ضربة لمن أراد أن يشهد العراق بعد الأنتقالة الدستورية ، ، تشديداً في الحالة الأستثنائية وتعاظماً في التدابير الاحترازية وصيغ الطوارئ ، ، مثلما كانت مزيداً من الدلائل على أنسانية القائد وقيم الفروسية المتأصلة فيه . . والواقع يشهد ، ، وبالذات واقع المؤامرة ، ، كيف أن صدام حسين ، ، جعل من العامل الأنساني ، ، حالة يسمو بها على قرارات المحكمة . .

فقد كان في ١٩٧٩/٨/١٥ يستقبل عدداً من المواطنين ، ، كان من بينهم زوجة لأحد المتآمرين ، ، رجته في المقابلة ، ، أن يبقيها في دارها التي صدر قرار المحكمة بمصادرتها . .

كان القائد يستمع الى الحالة . .

وكان كبيراً كعادته ، ، لم يدفعه الحقد الى مقابلة مثل هذا الطلب بالرفض ! !

ولم توغر خسة المؤامرة صدره ، ، ويعتذر لأن حكم القانون ومن قبله حكم الشعب ، ، هو الذي أصدر مثل ذلك القرار .

ولهذا لم يتصرف كرئيس دولة ، ، وأنما تصرف كقائد أنسان . .

ولم يكن أمره خاصاً حيال طلب محدد ، ، كان شاملاً وهو يأمر ولأسباب أنسانية بعودة عوائل الذين حكمت عليهم المحكمة الخاصة ، ، وصادرت أموالهم المنقولة وغير المنقولة ، ، الى دورهم بصورة وقتية ريثما تقوم الدولة ببناء دور يتم تخصيصها لهم بصورة دائمية ، ، وأكثر من ذلك فأن أمر القائد كان يقضي بتخصيص دور لمن لا يملك داراً منهم .

وأذكر أيضاً أن القائد بعد أن أصدر أوامره بأعتقال أعضاء القيادة المتورطين في التآمر ، ، كان كل من عدنان حسين الحمداني وغانم عبدالجليل ، ، قبيل حضورهما الى جلسة القيادة المكرسة لهذا الغرض ، ، معتقلين في غرفتيهما في المجلس الوطني ، ، كان عدنان حسين في غرفة غانم عبدالجليل ، ، وكان غانم في غرفة عدنان حسين . .

كان المتهمان يقبعان في الغرفتين ، ، اللتين قطعت أسلاك الهاتف عنهما .

وحين حل موعد وجبة الطعام ، ، كان القائد يأمر بأن يرسل لهما الطعام ! !

وكانت هذه الحالة وغيرها ، ، تحفر الواقع ، ، بحقيقة الأنسان الكبير الذي يستقر في أعماق صـــدام حســـين ، ، وهي حقيقة تعني في النهاية أن التآمر على مثل هذا القائد ، ، أنما هو تآمر خسيس ليس أكثر ، ، وأن آماله لا تعدو كونها أمالاً من رمال . .

الفصل الخامس

القائد والسلام

(أ) كانوا يستعدون لغزو العراق

كل شيئ في الافق ، ، ينبئ بأن النظام الخميني يطرق ابواب العراق ، ، وهو في محاولته هذه يريد غزو اراضيه .

ولم تكن المحاولات الايرانية ، ، حديثا معاديا ، ، وانما هي تصرفات عدوانية ، ، صارت تلمس باليد .

وكان القائد وهو يتابع ذلك ويقف على التقارير حريصا على أن يدفع بالامور بعيداً عن الحرب ، ، فكيف كان يجري ذلك ، ، كيف كانت ايران تستعد لغزو العراق ؟

لا اريد ان اتحدث عن التواطؤ الايراني مع التيارات الدولية المشبوهة ، ، التي حركت نظام خميني للحرب على العراق ، ، ولا استهدف تسليط الاضواء على الدوافع والغايات المرسومة والمصممة لاشغال العراق وشن العدوان عليه .

تلك امور جرى فيها الحديث الطويل ، ، لا احب العودة اليه ، ، ولا ابغي التكرار فيه . . ! !

اريد ان اتطرق الى مظاهر كانت تجري على الساحة الايرانية ، ، وكل ما فيها يقطع الشك باليقين ، ، من أن رياح الحرب توشك ان تهب وان هذه الرياح ليست هبوب سموم عابرا ، ، وانما هي عاصفة شديدة ، ، يراد لها ان تسود العلاقات العراقية – الايرانية . . ! !

قبل ما اريده من حديث في هذا المجال ، ، ابتدئ بتصور اقول من خلاله ، ، ان الحرب اشتباك سياسي ، ، قبل ان تكون اشتباكا عسكريا ، ، وهي قبل الصدام السياسي الساخن صدام ايديولوجي ملتهب ، ، عقيدة مقابل عقيدة تريد المعتدية منها ان تسود بأنهاء المقابلة واحراقها في لهيب الحرب وسعيرها . . اذن حرب الجيوش تسبقها حرب الساسة والسياسات وقبلها حرب العقائد المتقاطعة وغير المتعايشة .

اين النظام الايراني من ذلك . . ! ؟

ان الموقف الايديولوجي للنظام الايراني ، ، لا يهمني الصدق أو الكذب فيه ، ، لأنني اريد موضوعيا ان اتعامل مع المعلن وابني عليه الاستنتاج ، ، هذا الموقف يعلن انه يؤمن بالعقيدة الاسلامية ، ، ويريد انتشارها وتحويل الانظمة الوضعية في الدول الاسلامية الى «انظمة رسالية» لانها «انظمة كافرة» ، ، محددا طريق الوصول الى فلسفته بالتدخل والوصاية واستخدام القوة .

كيف صرف النظام الايراني تصوراته الايديولوجية في عالم السياسة ! ؟

أن معرفة ذلك تتطلب الوقوف على مفهومين رئيسيين ، ، صرف من خلالهما النظام الايراني ، ، منطلقاته الايديولوجية في الواقع السياسي هما :

موضوعة الحكومة الاسلامية التي طرح عبرها الخميني تصوره السياسي في تهديم شرعية الانظمة القائمة وتجريدها من مصادرها الشرعية لصالح مفاهيمه حول الحكومة الاسلامية وما يريده من آراء سياسية تؤكد على ان الفقيه هو مالك السلطة الشرعي الوحيد ، ، وبالتالي فأن ولاية الفقيه هي وحدها مصدر المسؤولية والشرعية . .

ان ولاية الفقيه يريد من خلالها الخميني ، ، ان يقدم للاجتهاد الفقهي مثالا سياسيا يتجاوز به ميدان الشرع والواجبات الروحية ، ، والغرض من ذلك بسط السيطرة السياسية على الدولة ، ، عن طريق دمج الدين بالسياسة ، ، ومد النفوذ على الدول الاسلامية ، ، على اساس ان دولة الفقيه لا تعرف الحدود . . . ! !

هذا التصور السياسي الخطير ، ، تزداد خطورته عندما يسقط من منهجيته ، ، حق الشعوب الاسلامية في تقرير مصيرها وتحديد خيارها للحكم ، ، وعندها يتجاوز على منطق الهدى والاقناع ، ، ويستعيض عن حكمة الله «وجادلهم بالتي هي احسن» بموضوعة تصدير الثورة الاسلامية ، ، وهو أمر يعني تحقيق الشعارات بالقوة ، ، التي ينتج عنها اللجوء الى الحرب لتنفيذ ذلك . . ! ! !

اذن . . . .

عقائديا كانت افكار الخميني ، ، افكار حرب . .

سياسيا كانت تصوراته ، ، تصورات حرب . .

كيف صاغ النظام الايراني ستراتيجيته في هذا المجال ، ، واين كان هدف الضربة الرئيسية التي توخاها . . ! ؟

اوّل شيءٌ في تصرفاته كان التأليب على العرب واشاعة روح الكراهية ضدهم ، ، وتصوير القومية العربية رديفا لعنصرية الحركة الصهيونية . . . ! ! !

كان في عمومية العداء للحركة القومية العربية ، ، يستهدف التوصل الى مفتاح لخصوصية محسوبة ، ، هي الصدام مع العراق وشحن الاذهان ضده واتهامه بالكفر . . . ! ! !

هذا الذي اثبته لم يكن من اسرار الموقف الايراني ، ، كان المعلن في الموقف السياسي ، ، عبر تصريحات المسؤولين الايرانيين ، ، والمعلن في الاعلام الايراني ، ، والاكثر من ذلك كله ان مرشد النظام ومرجعه خميني كان داعيته ، ، يكفي ان اشير الى حديث واحد من أحاديثه الكثيرة ، ، ففي لقاء له مع أئمة الجماعة في تموز عام ١٩٧٩ ، ، يوضح ذلك بقوله : «ان الأئمة هم القادة والجنود والمحاربون ، ، وان حكومة الفقهاء هي المطلوبة ، ، لان لها شرعية تاريخية ، ، وان ولاية الفقيه الشرط الاول لقيام الحكومة الاسلامية ، ، ولامتداد الدولة الاسلامية التي لا يمكن تحصرها الحدود القومية . .

ان الدعوات القومية التي نسمعها ، ، وابرزها دعوة القومية العربية ، ، يراد منها اضعاف الاسلام ومحاصرة سلطة ولاية الفقيه .

وان العرب الذين يقولون انهم مادة الاسلام ، ، يحاولون النزوع الى عصبية الجاهلية .

ان واجبنا التصدي لهذه الافكار واعلان الحرب المقدسة عليها للقضاء عليها ، ، وان مسيرتنا يجب أن تبدأ بالعراق ، ، لانه اكثر الاصوات العربية دعوة الى ذلك ، ، كما يجب ان تحصل حكومة الفقهاء على قبول العلماء الدينيين المعروفين ، ، ومن يشذ عن هذا النهج لا مكان له في دولة الاسلام ، ، لان الله يريده ان يكون داعيا لها وحاملا للسلطة في الشؤون السياسية والدينية» . .

ان هذه الافكار ، ، تكشف حقيقة المنهج الخميني واغراضه وتصوراته ، ، وبالطبع لم ترض هذه المفاهيم العلماء الروحانيين الحقيقيين ، ، لانهم اعتبروها انحرافا عن الاصولية الاسلامية ، ، مثلما اعتبروا التأليب على العرب طعنا للاسلام والتحريض على العراق خروجا على الرسالة الاسلامية ، ، لانه وليد عقد خاصة

مرتبطة بشخصية الخميني ليس الا ، ، وكان ابرز المعارضين هو اية الله الطالقاني ، ، الذي لم يجد مبرراً لعداء العرب والاحتراب مع العراق ، ، كما انه كان معارضا لفكرة ولاية الفقيه ولادخالها في بنود الدستور ، ، ونحا مثله آخرون من رجال الدين الذين رأوا ان واجبهم الشرعي يحتم عليهم الابتعاد عن اشعال الحرب مع العراق ، ، وكذلك الخروج من الاعيب السياسة . .

لقد كان تعامل الخميني مع هؤلاء ، ، بعيدا عن الأخلاق والفضيلة ، ، وعمد الى التخلص منهم بالتهديد أو الأتهام أو بنشر الأشاعات التي تسيئ الى سمعتهم ومع ذلك ظل آية الله الطالقاني أكبر متحد له لا يجرؤ على أتهامه بشيئ ، ، لانه كان من أبرز الثائرين من رجال الدين ضد الشاه ، ، وأكثرهم عرضة الى الأعتقال ، ، ولهذا تخلص بموته في أيلول سنة ١٩٧٩ ، ، وهو الموت الذي كان محل شكوك في طهران ، ، تخلص من مشكلة خطيرة كانت تعيق حركته في مجال ولاية الفقيه ، ، وتوسيع حدود دولته ، ، وجعل العراق أولى الولايات المضمونة ، ، أو أعتباره «فتح الفتوح» كما كان يحلو له تسمية ذلك . . ! !

كيف كانت خطة التحرك . . ؟

بعد أن أستطاع الخميني التخلص من المعارضة الدينية لمبدأ ولاية الفقيه ، ، وأبعد عن طريقه العلماء المعروفين كرس من نفسه المجتهد الاكبر الذي يحق له عقد ولاية الفقيه . . ! !

أما بالنسبة الى توسيع دولة الفقيه التي لا تعرف الحدود ، ، وجعل العراق الهدف الاول في مخططه التوسعي ، ، فقد عمد الى أطلاق يد الحزب الجمهوري الاسلامي ، ، الذي يتزعمه بهشتي ، ، لكي يرتب البيت الايراني بما يلبي هذا الغرض ، ، من خلال :

تهيئة الجبهة الايرانية الداخلية للحرب ، ، والعمل لكي يكون «التيار الديني» هو القوة المسيطرة كليا على الأوضاع ، ، وتحويل مشاعر الايرانيين للحماس وتقبل «الحرب المقدسة» التي تمزج الروح العنصرية بالعقيدة الدينية . .

التوسع في تشكيلات «حرس الثورة» وتكليف أبو شريف قائد الحرس ، ، بجعل تشكيلاته المسلحة ذات مقدرة تتجاوز دورها الداخلي ، ، الى دور أكبر على

الحدود «والجهاد» لتوسيع «دولة الاسلام» ويبدو أن «أبو شريف» لم ينجح بذلك ، ، الامر الذي قاد الى أقصائه ، ، وتعيين محمد خادم بورجوردي خلفا له في ١٩٨٠/٧/١ .

العمل على تحريك الجيش الى الحدود الغربية ، ، وجعل قواته تنتشر بالقرب من الحدود المشتركة مع العراق ، ، على أن تكون المرحلة الاولى من ذلك دفع قوات من الجندرمة الى الخطوط الدولية ، ، واسعة ومجهزة بأسلحة ثقيلة ويستعان بقوات من الجيش ، ، تكون بضيافة قوات الجندرمة ، ، على أن تكون قطعات الجيش متأهبة لأخذ الموقع المباشر ، ، عند أصدار الأوامر بذلك . .

كانت هذه الامور تجري على الحدود القريبة من العراق ، ، بشكل تدريجي ، ، زادت حركتها الملحوضة في الشهور الثلاثة التي سبقت العدوان الايراني بتاريخ ١٩٨٠/٩/٤ . .

كان النظام الايراني يحاول أخفاء تحركاته ، ، لكن يقظة الأجهزة العراقية وكفاءتها فوتت على النظام الاراني ذلك ، ، ولهذا كانت ترصد وتراقب التحركات العسكرية والحشود المتزايدة ، ، بالاضافة الى متابعتها للنوايا السياسية الكامنة وراء ذلك .

وكان من جراء الرصد الدقيق ، ، أن جرى الانتباه الى أن الزيادة في الحشود العسكرية تتعاظم ، ، فقد تم التأكد في تموز عام ١٩٨٠ ، ، أن تحركا مكثفا للقوات الايرانية يجري بالقرب من الحدود العراقية ، ، فقد دفعت غربي ايران في اقليم كرمنشاه ، ، وبمنطقة عبادان والمحمرة ، ، والشوش والحويزة والاحواز والحميدية ، ، قوات كثيرة لوحدات عسكرية وبتشكيلات متنوعة ، ، أضافة الى قوات الجندرمة وتشكيلات من حرس خميني ، ، وكان تواجد هذه القوات بمحاذاة الطرق والمواقع والجسور الستراتيجية ، ، يؤكد التقديرات التي تشير الى أن هذا الحشد العسكري لم يكن لاغراض التأديب الداخلي ، ، وأنما هو لحساب خارجي ، ، لانه لو كان لاغراض تخويف المعارضين لتمركز داخل المدن الايرانية ، ، ثم أن طبيعة التشكيلات وأنتشارها وكثافتها ، ، وتنوع الأسلحة التي بحوزتها ، ، وهي أسلحة ثقيلة كالدبابات والمدفعية ومقاومة الطائرات ، ، أوحى أن الجانب الايراني يستعد لامر خطير يتعدى التحوط (المعتاد) الذي تشهده الحدود الدولية ، ،

الى مسألة خطيرة ، ، زادت من القناعة بها ، ، الاوامر التي اصدرتها القيادة العامة للجيش الايراني ، ، بتحريك قوات اضافية كثيرة تحركت على اثرها فرق عسكرية الى المناطق القريبة من الحدود ، ، والخطأ الذي وقعت به القيادة العسكرية الايرانية ، ، انها حاولت التستر على تحركاتها والكتمان ، ، في عالم الحصول فيه على الاسرار ليس صعبا ، ، أضافة الى جهلها لكفاءة اجهزتنا المختصة في الحصول على المعلومة والأسرار كما أن ضخامة الحشود وكثرتها لا يمكن ان تجعلاها بعيدة عن الرصد ، ، الامر الذي يعكس غباء القيادة العسكرية الايرانية لتغطيتها لمثل هذه التحركات بالطريقة السرية الساذجة ، ، في حين كان يفترض منها بدل ذلك ان تدعي وجود مناورات تجريها لتبرر مثل هذه الحشود الواسعة والتحركات الكبيرة . . ! !

كما فضحت اغراض هذا التواجد الكثيف للقوات المسلحة الايرانية ، ، الزيارات الكثيرة التي قام بها القادة العسكريون الايرانيون ، ، حيث ان الجنرال فلاحي نائب رئيس القوات المشتركة واصل تفقداته لهذه القطعات ، ، أضافة الى اهتمام العقيد جواد فأكوري قائد القوة الجوية بزيارة القواعد الايرانية ، ، والتأكد من قابلية الطيران الايراني وتحديد الهدف لكل قاعدة في حالة تلقيها الاوامر بالأغارة على القواعد والمنشآت الحيوية العراقية ، ، يتأكد هذا الامر بعد ضربة الوقاية الرادعة التي قام بها الطيران العراقي في ٢٢ أيلول ١٩٨٠ ، ، لان رد فعل الطائرات الايرانية بعدها كان يؤكد وجود خطة مسبقة حددت بموجبها المواقع العراقية كأهداف لاغارة الطائرات الايرانية ! ! !

لم تكتف القيادة العسكرية ، ، بهذه التحركات ، ، بل أنها قامت في مطلع تموز من عام ١٩٨٠ بأرسال اسراب كثيرة من الطائرات العمودية المدرعة ، ، تحطمت احداها بمنطقة دالاهو ، ، وقد حاولت الجهات الايرانية ان تعتم على اغراض هذا التواجد الواسع للطائرات العمودية المدرعة ، ، بالادعاء انها موجودة لمراقبة الحدود . . ! ! ! !

واكثر من ذلك ، ، فأن تحرك القوات المسلحة الايرانية بدأ يتصاعد بشكل مفضوح ، ، فقبل شهرين من بدء الحرب ، ، أخذت القوات الايرانية تقوم بمحاولات لاختبار رد الفعل العراقي على عمليات أستفزازية تتعمدها ، ، فقد قامت

قوات ايرانية تقدر بلواء متجحفل مع بطرية مدفعية وكتيبة دبابات بالتمركز في منطقة هاوناته ، ، جعلت من مخفر هنجيرة مقرا متقدما لها ، ، ودفعت قسما من هذه القطعات الى فتح النار على مخفر الشهداء العراقي في الساعة ٢٣١٠ من يوم ٢ تموز . .

كما اصدرت القيادة العسكرية الايرانية الاوامر الى قواتها بالانتشار على الخط الممتد بين الدعامتين الحدوديتين في قاطع ميسان مقابل بئر الفكة ، ، كان حجم هذه القوة يقدر بلواء من الجيش ولواء من تشكيلات حرس خميني وسريتين من الجندرمة ، ، دفعت منها قوة فصيل للتقدم واطلاق النار على المواقع العراقية ، ، وذلك في تموز ١٩٨٠ في الساعة ١٧٣٠ وكررت الرماية اربع مرات حتى حدود الساعة ٢١٥٥ .

لم يقف التحشد الايراني على هذه المناطق ، ، وانما جرى تعزيزه بقوات اضافية وبتشكيلات عسكرية كثيرة في مناطق أخرى كالمحمرة ونوسود ومنطقة خانه شور في سربيل زهاب والحويزة ، ، وتقدمت قطعات أضافية نحو المنطقة المواجهة للشيب وجعلت من مخفر السويبلة الايراني مقرا لعمليات القاطع ، ، وحاولت قوة أيرانية التقرب من مخفر الخلفاية وقصفه ، ، لكشف حجم التواجد العسكري العراقي ، ، وعلى أثر القصف والرد العراقي ، ، طلبت قيادة الميدان الايراني تعزيز القوة ، ، وبالفعل تم ارسال قوات مدفعية مسحوبة بالعجلات تقدر ببطريتين ، ، مع بطريتين مدفعيتين ذاتية الحركة في منطقة السيدية أمام ميسان . .

لم يكن هذا التطور الخطير بعيدا عن الرصد ، ، كما ان دفع قوات الجيش الى الحدود الدولية ، ، هو الاخر كان موضع متابعة ومراقبة دقيقة من قبل الاجهزة العراقية المختصة ، ، بالاضافة الى ما كانت تجمعه من معلومات سياسية ، ، تستجلي النوايا والخطط . .

لقد كان الامر المؤكد ، ، ليس بالتخمين أو الاستنتاج ، ، وأنما بالمعلومات الموثوقة ، ، ان الجانب الايراني قد أتخذ قرار الحرب ، ، وان خطته تبدأ بالعدوان في ٤ أيلول لاختبار القوة والمقاومة العراقية وطبيعة الردود العسكرية والسياسية في العراق ، ، على أن تستكمل الخطة غرضها في اواخر ايلول ، ، بقرار الهجوم الشامل وغزو الاراضي العراقية .

ان هذه الخطة الايرانية جرى الاتفاق عليها في لقاء القيادات السياسية والعسكرية ، ، وقد كان بهشتي رئيس الحزب الجمهوري الاسلامي ، ، ورئيس المحكمة العليا ، ، ورفسنجاني رئيس مجلس الشورى ، ، أكثر المسؤولين الايرانيين تحمسا للحرب ، ، وكانت وجهات نظرهم ، ، ان هذه الحرب هي «حرب مقدسة» تستجيب لوصايا ورغبة «آية الله خميني» وتتطابق مع مفهوم تصدير الثورة الاسلامية ولم تكن قيادة الجيش الايراني تعارض ذلك الا أنها كانت تتحسب من ردود فعل داخل القوات المسلحة ، ، التي ترى اوساط منها الا مبرر للحرب ، ، وان اشعالها من جانب القيادة السياسية يراد به ابعاد الجيش والتخلص من مخاطره على النظام ، ، اضافة الى معرفتها ان وقود الحروب غير المشروعة دائما هم البشر والآمال والمصالح الوطنية . .

في ضوء ذلك عمد الاتجاه الذي يقوده بهشتي ورفسنجاني ظاهريا وعمليا خميني ، ، الى التخلص من ابرز الوجوه العسكرية غير الموالية والمشكوك بها ، ، بأستغلال ما قيل عن محاولتي أنقلاب جرت الاولى في ١٩٨٠/٧/١٠ والثانية في ١٩٨٠/٨/١٦ ولم يكتف ما كان يسمى بالجانب المتشدد بذلك ، ، بل اوفد غداة الاعلان عن كشف المحاولة الانقلابية الثانية ، ، المدعو حسين فردوسي مسؤول جهاز الامن الداخلي الى احدى العواصم الغربية تحت ستار العمل على تصفية المعارضين ، ، في حين ان المصادر الدبلوماسية كشفت عن اتصالات مكثفة اجراها هناك ، ، بحيث ان دبلوماسيا غربيا ذكر في اعقابها ، ، ان هزة كبرى سيشهدها الشرق الاوسط ، ، وان ميدان ذلك ليس ساحة الصراع العربي (الاسرائيلي) ، ، وانما ساحة الخليج التي ستشهد تحول الحرب الباردة الى حرب ساخنة عن قريب ! ! !

في هذه الفترة ، ، كانت القوات الايرانية تزيد من تحركاتها ومن تعزيزاتها ، ، واصدرت الحكومة الايرانية في ١٩٨٠/٨/٢٣ قرارا بحظر النشاط السياسي على الاحزاب في الاحواز ، ، لانها كانت مصممة على ان تكون هذه المنطقة ، ، منطقة عمليات حربية الامر الذي يستدعي اعلان حالة الطوارئ بها اولا والتخلص من ردود الفعل لسكانها العرب ثانيا . .

وقبل الحرب بايام اكتفي بأن انقل حديثا للجنرال فلاحي يقول فيه ، ، للقوات المسلحة الايرانية المتحشدة على الحدود ، ، يقول :

«أنني واثق انكم بأيام معدودة تطرقون أبواب بغداد» وحديثا آخر لبهشتي يقول فيه : «أن راياتنا التي سنرفعها في بغداد عن طريق الزحف المقدس ، ، تؤكد أن مفهومنا لتصدير الثورة الأسلامية ، ، ليس مفهوما خياليا وأنما هو واقع» . .

هل أعطي المزيد من الادلة على نوايا ايران العدوانية ! ؟

عندي الكثير الكثير. . . ! ! ! !

ما يهمني هنا كيف كانت نظرة القائد صـــدام حســـين لهذه الامور ، ، وكيف كان يتصرف للحيلولة دون اندلاع الحرب ومن ثم العمل من اجل ايقافها وتحقيق السلام بين البلدين ؟

(٢) كيف حاول القائد تفادي الحرب

كان في حكمته عميقا كالبحر . . .
وكان في عطائه فياضا كالنهر . . .
وكان في صبره كبيرا كقمم الجبال . . .
وكان لذلك ، ، واثق التصور دقيق الحركة والقرار ، . . .

لم تخف خطواته في السهول ، ، ولم تغص قدماه أو تعجز عن الصعود الى القمم العالية ، ، كان في كل الحالات يخط الطريق الصحيح بأتزان ، ، ويبقي الحركة بأمان ، ، ويوصل المسيرة الى الهدف المحدد بأتقان . .

وكان عبر التاريخ الطويل والأحداث الجسام ، ، القائد القدير ، ، الذي لا ينتظر الزمن ، ، يرسم له الحالة بتلقائية الصدف والعفوية ، ، وأنما يصنع الأنجازات الكبرى ، ، ويصارع الظروف الصعبة ، ، ليكتب بعد ذلك للعراق الجديد ، ، النهضة والكرامة والزمن الجديد . . عظمته في صفات كثيرة ، ، أبرز مافيها ، ، أن الحياة عنده تتطلب ، ، الحكمة والكبرياء ، ، وان التهور والخنوع يحولانها الى مقبرة أحياء ، ، تسكنها البقايا المحطمة للبشر المهدمين ، . . ! !

هذا هو صـــــدام حســـــين . . . .

ولهذا أنصب جهده على بناء العراق الشامخ القوي ، ، من غير غرور ، ، فحقق الاعمال العظيمة ، ، وصنع التاريخ الكبير ونهض بالعراقيين من سبات القرون السوداء الى عصر النور الجديد . .

والوصول الى ذلك لم يكن ، ، من غير مشاق ، ، كان بالتعب الطويل وبالسهر الكثير ، ، وبالعقل الواسع الذي يتفهم الواقع ويدرك الفارق بينه وبين الامنيات ، ، لم يكن السير سهلا على هذا الطريق ، . . لهذا عاش المصاعب وتحسب منها ولها ، ، وأجتاز الحواجز الكثيرة والموانع الاكثر ، ، ولم يخلد الى الراحة

كما لم تمنعه من السير اشارات الخطر الموضوعة في الطريق ! !

لقد سار القائد بالشعب العراقي في الطريق الصحيح والمطلوب ، ، ولكنه في تقديرات القوى الطامعة والمعادية الطريق غير المسموح والطريق الممنوع . . .

مشكلة الصدام الاولى كانت ليس بتخطي اوامر النهي حسب ، ، بل ان الحركة على هذا الطريق لم تتوقف ولم تساوم ، ، وانما كانت مصرة على أن تندفع الى الأهداف المحدودة . .

والمشكلة الأخرى ، ، هي أن المسيرة لا تلوذ بالصمت مع كل نجاح تحققه ، ، وانما تترك الصدى الكبير وخطورة الصدى المدوي ، ، أنه ليس صيحة في عالم الوديان الموحشة ، ، يتردد بين ثناياها وعالمها غير المأهول ، ، كان صوتا قويا للمبادئ يملأ المنطقة ، ، الاكثر أهمية في حسابات القوى المعادية والطامعة ، ، وخطورته أنه كان يستوقف الابصار والأسماع والأذهان . .

والافتراق الاخر ، ، أن حركة المسيرة لم تكن بنت الأنفعال وأنما هي فعل يصوب مساره بأحكام ، .

هذه الحالات تؤكد ، ، ان القائد القدير ، ، يدخل معاركه المقدسة ويقاتل فيها ، ، بالحق والمبادئ والحكمة ، ، ويصل الى الظفر المطلوب ، ولهذا كان التآمر شرسا عليه وعلى البناء الشامخ الذي يقيمه ، ، وكانت الحرب ، ، أخطر حالات التآمر التي أعدوها لضرب العراق الجديد . .

كان اكثر من تنبه للمؤامرة الجديدة وخطورتها هو القائد صـــدام حســين ، ، لهذا عمل بكل ما بوسعه من اجل ان لا تتصدع الامور ، ، كان الجهد الكبير للرئيس صـــدام حســين ، ، هو الا يندلع اللهيب وان يخمد كل شرارة تقضي نحوه أو تقود اليه ، ، وكان هذا الجهد يقظا للمؤامرة الخطيرة ، ، وللاصوات المسعورة واعمال اللعب بالنار ، ، لاشعال الحرب على العراق . .

ويقظة القائد وتبصره ، ، لما يجري وما يراد ، ، لم تدفعه الى أستعجال الضربة الرادعة ، كان صبره وحكمته في مقابلة ذلك ينمان على تقدير عال للمسؤولية والحرص على تجنب العراق شرور الحرب ، ، لم تجره الأستفزازات والأستعدادات الايرانية المعادية الى سكب الزيت على الجمر المتوقد مثلما لم تمنعه من التأهب لأبعاد النيران عن

العراق . .

وأذكر للتاريخ شواهد ، ، قد لا استطيع حصرها بالكامل ، ، للوقوف على كم من الصبر والحكمة والجهد بذلها القائد ، ، لكي لا تتفجر الحالة بين العراق وايران الى مستوى الحرب . .

أذكر ما تعينني الذاكرة عليه ، ، وأبتدئ :

لقد كانت الطغمة الايرانية ، ، تضع العراق هدفا لستراتيجيتها المسماة ، ، تصدير الثورة ، ، وهي في توجهاتها المعادية لم تكتف بالحملة الاعلامية والسياسية ، ، وانما أبتدأت بأستخدام الوسائل المؤذية للعراق ، ، كالتدخل في شؤونه الداخلية والتحضير للاعتداء عليه ، ، في هذه الفترة اتصل شاه ايران بأحد سفراء العراق عن طريق أخته اشرف بهلوي ، ، وطلب أجراء لقاء للتنسيق ضد النظام الايراني الجديد ، ، ورغم ان المنطق والمصلحة كانت تقر أستخدام كل ما من شأنه أضعاف الخصم ، ، الا أن العراق رفض ذلك ، ، وكان القائد صدام حسين وراء هذا الرفض لانه كان يريد الا تتعقد الامور وان ينزع فتيل الانفجار وأن تقوم العلاقة مع ايران على أسس سليمة وصحيحة . .

كان تدهور العلاقات العراقية الايرانية ينحدر الى مستوى خطير ، ، وكانت طهران تتحدث بصوت عال فيه من الأزعاج والغرور الكثير ، ، وكانت المعلومات تشير مع ذلك الى قرقعة في السلاح تجري على حدودنا الشرقية . .

كان الذي نسمعه يشيع الالم والحزن والمرارة ، . . .

وكانت فرقعة السلاح تثير الهواجس والترقب والحذر . . ومع ذلك ، كان العقل الحكيم والمتبصر ، ، وسط هذا الصياح والتهور ، ، وهو عقل القائد صـــــدام حســـــين ، ، كان يتمسك بالصبر وبسياسة ضبط النفس ، ، والعمل على تهدئة النفوس الغاضبة في العراق وتسكين المشاعر الملتهبة فيه ، ، صبر القائد وحكمته في هذا المجال تظهران بشكل جلي من خلال قوله :

«كنت اذكر اخواني في القيادة بحالتنا عام ١٩٦٣ ، ، حالة الأرباك وربما الفوضى ، ، لكي نصل الى عذر نقول فيه ، ، مطلوب ان نعطيهم زمنا اضافيا لكي نجرب ، ، لكن كل شهر يمضي نتأمل ان يكتسبوا منه شيئا من الحكمة والدراية

والموضوعية ، ، ولكنهم يزدادون شرا وتصميما ، ، على أن يضعوا العراق تحت مطرقة المهانة» .

فالقائد بهذا الموقف الواعي والمسؤول ، ، لم يقابل بالمثل نذر الشر القادمة من طهران ، ، وانما كان يعمل على ان يبعد العراق عن هذه الشرور بالحسنى ، ، وكان صبره وحكمته ومسؤوليته منصبة على ان لا تندلع الحرب ويجري سيل الدم ويحل الدمار والتخريب ، ، لان الحرب كانت عنده آخر حالة اضطرار للرد على العدوان الايراني المرسوم ، ،

وصبر القائد وحكمته لم يجعلاه يهرع طالبا من طهران تقدير المسؤولية ، ، او أن يركض خائفا متوسلا ، ، لان يمتنعوا عن اللعب بالنار ، ، كان صبرا وحكمة مقرونين بالحزم والكبرياء والوطنية ، وكانت هذه الجهود المسؤولة والمتفهمة يقابلها حكام طهران ، ، بوهم خيالاتهم السخيفة ، ويعتقدون ان الضعف والخوف وراء الصبر العراقي وحكمة قراره السياسي ولم يمتدوا بنظرهم الى ما تعنيه الحرب ، ، وما يشكله خطر لهيب النيران ! !

ورغم ظهور النوايا الايرانية ، ، في المواقف المعلنة ، ، وأتضاح الاهداف والمخططات المعادية للعراق ، ، ظل القائد متمسكا بالحلم والحكمة والحرص على تجنيب البلدين مخاطر تفجير الموقف بينهما الى مستوى الحرب ، ، لهذا كان حديثه مع ممثلة نساء ايران ، ، التي حضرت مؤتمر دور المرأة لدول عدم الانحياز ، ، يعكس التقدير العالي للمسؤولية والصبر الكبير الذي يحمله القائد وهو امر يظهر من حديث الرئيس صدام حسين مع ممثلة ايران في المؤتمر بقوله :

«نقول لا خشية ولا تملقا ، ، نحن مسرورون لانتصاركم على حاكم جائر فاسد ، ، وحسب ما تعلمون ان الثورة هنا قد صنعت بدماء الشهداء ، ، وكان ثمنها هذه الدماء الحارة لخيرة شبابنا في العراق . .

لقد اوينا الخميني ١٥ سنة على أرض العراق ، ، وكرمناه بعقلية المسلم العربي العراقي الخاصة كما كانت لاهم وجوه الوضع الجديد صلة بثورتنا حتى آخر لحظة . .

لقد وضعت اذاعتنا في خدمة المعارضة الايرانية مدة سبع سنوات كاملة ، ، لكننا عندما نعطي كلاما في السياسة نحترمه ، ، لاننا نعتبر الكلام كالشرف .

لقد أتفقنا مع حكومة ايران السابقة على الا نتدخل في شؤونهم الداخلية ، ، وفي الوقت نفسه الا يتدخلوا بشؤوننا الداخلية ، ، وبناء على ذلك قلنا للخميني ، ، لا يجوز لنا وفق المبادئ التي نحترمها ان تجعل من العراق وكرا سريا لك ، ، وعليه أما ان تحترم هذا المبدأ او تتصرف بما تراه مناسبا ، ، وكان جوابه أنه لا يستطيع ان يحترم هذا المبدأ ، ، ولذلك غادر العراق الى الكويت التي لم تقبله وبقي على الحدود وأرسل لنا من هناك خبرا ، ، يريد دخول العراق ، ، فقلنا له أهلا وسهلا . .

أذن نحن مع الشعوب الايرانية في الطريق الذي تختاره لكننا لسنا بديلا عنها في اختيار طريقها . .

وهذا هو مبدأنا في العمل ، ، لاننا لم نطلب من احد ان يحرر العراق نيابة عنا ، ، وهكذا فعلنا في تحرير العراق . .

وكما أوضحت سابقا ، ، لم تصدر عنا أية أساءة اطلاقا الى الشعوب الايرانية المسلمة الصديقة ، دون أن اقصد من وراء هذا الكلام ، ، خشية أو تملقا ولا اطلب ودا بطريق غير شرعي .

نتمنى لكم التوفيق من اعماقنا ، ، طالما قوتكم على الطريق الحق ، ، هي قوة لنا على نفس هذا الطريق» .

هذا الذي أنقل ، ، جزء صغير من صبر القائد وتدبره الحكيم ، ، لكنهم ظنوا غير ذلك ، ، وكانت نواياهم مليئة بالحقد والشر ، ، وتصرفوا بالظن وبالنوايا ! !

حولوا النوايا الى سياسات ، ، ونقلوا السياسات الى تصرفات عدوانية . ، ، واتجهوا بالتصرفات المعادية الى التحركات العسكرية ، ، وشنوا الحرب على العراق بقصف المدن الحدودية بالمدفعية ، ، بالحشود العسكرية الواسعة ، ، وبتعطيل الملاحة في شط العرب وفي نهاياته التي تفضي الى الخط الملاحي في الخليج العربي ، ، وبأغلاق الاجواء الايرانية ، ، وبشن غارات جوية مكثفة واسعة على جيشنا . ، وكانوا بهذا التصعيد العسكري الخطير يشعلون لهيب الحرب . .

قبل هذه الامور ، ، كان العراق حريصا على أن تتخلى أيران عن نهجها العدواني وتستجيب لمنطق الاصول ، ، وكان القائد صـــــدام حسين الاكثر حرصا على تسوية الامور بعيدا عن الحرب ، ، لهذا كان في اجتماع مجلس الوزراء العاشر من

ايلول ١٩٨٠ يؤكد «اننا لا نريد الحرب مع ايران ». ونحن لا نطمع بالأراضي الايرانية» .

ان صبر القائد وحكمته لكي لا تندلع الحرب ، ، دفعاه الى عدم التوقيع على المبادئ الاساسية التي وضعتها القيادة العامة للقوات المسلحة ، ، كخطة مستقبل في الرد على أيران كعدو محتل حتى يوم ٧ أيلول ١٩٨٠ ، ، لانه لم يكن يريد ان يدخل في حسابات الجيش ، ، ان هذا التوقيع هو انعكاس للحالة النفسية القائمة بسبب الأستفزازات الايرانية ، ، كان تفكيره الاكبر ان يسوى الامر بعيدا عن الحرب والقتال ، ، لكن العدو الايراني الذي ابتدأ حربه في الرابع من ايلول ويستعد لغزو الأراضي العراقية وضرب المطارات العراقية ، ، لم يترك غير خيار الرد الرادع والمسؤول .

أن الجانب الايراني لم يأخذ هذه الامور بنظر الأعتبار ولم يستجب للمذكرات التي أوعز الرئيس القائد بأرسالها الى الحكومة الأيرانية ، ، لدعوتها الى الركون الى منطق الحق والتخلي عن الغطرسة ، ، بل ان الأدهى من ذلك ، ، أن الحكومة الايرانية ركبت رأسها ، ، وأخذت تعمل على تصعيد الموقف العسكري والقيام بالاعمال العدوانية الخطيرة التي ذكرناها ، ، اضافة الى ذلك كله بدأت بالتهيؤ لضربة واسعة تشمل مطارات العراق العسكرية والأستعداد لدخول الأراضي العراقية . . ! !

لذلك وأزاء هذا التطور أجتمعت القيادة في ايلول ٢١ ايلول ١٩٨٠ ، ، وكان تقييمها الدقيق للواقع العسكري ، ، هو ان النظام الايراني يعد لهجوم شامل بري وجوي على أراضينا وعلى المدن والمنشآت الحيوية العراقية ، ، وعلى قواعدنا الجوية ، ، لذلك تحوطا من هذا الضربة المعادية ، ، أتخذت القيادة قرارا تاريخيا بالهجوم الشامل على المواقع العسكرية الايرانية وأحتلال مناطق محددة في ايران .

وكان قرار الرد ، ، هو قرار الهجوم الشامل . . .

لم يكن غيره من قرار يصون ارض العراق وسيادته وحقوقه ومستقبله . . .

عداه يعني فتح ابواب العراق للزحف الايراني الحقود ، ، غيره يعكس اللامسؤولية والضعف في مواجهة التحدي الصعب . . وهو امر يجعل السكين

الايرانية ، ، تنحر الرقاب العراقية وتذبح الكرامة الوطنية . .

لم يكن هناك من خيار آخر ، ، غير الرد بضربة الهجوم الرادعة . . ان الذين لا ينظرون الى هذه الحقائق ، ، ويركزون ابصارهم فقط صوب الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الثاني والعشرين من ايلول ، ، ساعة أغارة الطائرات العراقية على القواعد والمطارات الايرانية ، ، وأجتياز القوات المسلحة العراقية للاراضي الايرانية ، ، أنما يقعون في خطأ النظرة السطحية ، ، التي تنظر للحالة الماثلة ، ، من خلال المشاهدة الآنية المبتسرة أو انهم ينطلقون من الحقد الذي يجعلهم يتعامون عن رؤية الاحداث في جذورها العميقة ومسبباتها التاريخية . . ! !

ان الحرب لم تبدأ مع القذائف الاولى لطائراتنا المغيرة في ظهيرة الثاني والعشرين من ايلول عام ١٩٨٠ على القواعد الجوية الايرانية ، ، انها عسكريا قد أبتدأت في الرابع من ايلول ، ، وسياسيا كانت مع القرار السياسي الايراني المتخذ لتصدير الثورة وجعل العراق اول ساحة لتطبيق هذا الشعار ! ! !

يكفي للتأكد أن اورد نصا للخميني يقول فيه :

«أن تصدير الثورة الأسلامية ، ، هو الركيزة الاولى لانتشار دعوتنا ، ، واول باب يجب ان نطرقه ، ، هو باب العراق ، ، ذلك مطلوب لجهادنا الطويل ، ، وهو يفتح لنا السبيل لكي يتهاوى الاخرون ، ، مباركين منهجنا الرسالي» .

أزاء هذا الصلف الاحمق ، ، لا يمكن ان يكون الرد غير أفهام الاشرار ، ، ان صخب الكلمات الزائفة ، ، لا يستر حقدهم ونواياهم الشريرة التي تحلم بالحريق الذي ينفس عن عقدهم وتراثهم الأسود المريض . .

وأزاء هذا التبجح ، ، الذي ينسى ان الصبر على تهويشاتهم ، ، ومحاولات الغدر التي يلجأون لها ، ، والسكوت عنهم ، ، ليس خوفا او ضعفا وانما التزاما بمسؤولية ووفاء لها واحتراما لنداء كبير . .

ولهذا كان الرد ، ، تعبيرا عن القدرة العراقية وتوضيحا للحقائق ، ، من ان الارادة الحازمة الصادقة هي الكفيلة بأظهار حقيقة الأنتفاخ المشبوه للنظام الايراني ، ، كونها نفخة كرش مترهل ليس فيه غير السموم . . ! !

لقد سكت العراق قادرا وصابرا ، ، وكانت مسؤوليته الوطنية والقومية تدفعه

لكي يتمسك بهذا الموقف الواعي . .

وحاول بكل الوسائل ان يبدد الجهود الشريرة ، ، ولكن الوضعاء اعتقدوا ان التغاضي عنهم معناه ان العراق يخشى (جبروتهم) وبيتهم في الواقع من زجاج ولا يملكون غير تجارة الكذب والدجل التي لا يمكن ان يستمر خداعها الى النهاية ، ، ولا بد ان تظهر حقيقتهم وتتكشف نواياهم ، . لهذا فعندما كان الرد العراقي ، ، كان معه التقدم الواسع الذي يصل الى أهدافه ، ، طبقا للخطة العسكرية الموضوعة والتزاما بالابعاد التي حددها القرار السياسي . .

ورغم تهاوي المواقع الايرانية ، ، وسقوطها موضعا بعد آخر ، ، وتقدم الجيش العراقي في العمق الايراني ، ، كان القائد صدام حسين ، ، رجل المسؤولية التاريخية في تلك الساعات ، ، مثلما هو دائما في كل الأوقات . .

لم تطر أفكاره على أجنحة الغرور ، ، ولم تركب الوهم وتبحر فيه ، ، كانت مع المسؤولية التاريخية ، ، وكانت كلماته في أمسية الثاني والعشرين من ايلول في غرفة العمليات العسكرية ، ، مثالا للحكمة والشجاعة والتقدير العالي للمسؤولية ، ، يقول القائد :

«كنت أتمنى ان يستجيب حكام طهران لمنطق العقل ونداء المسؤولية . .

لا تراودني في النصر لحظة شك واحدة ، ، وثقتي كبيرة بالجيش العراقي وبالشعب العراقي ، ، ولكن لو كان الحكام في ايران عند مسؤولياتهم ، ، واسقطوا من افكارهم المغامرة على العراق ، ، وابتعدوا عن غزو أراضيه ومحاولات توجيه الضربات الجوية لقواعدنا العسكرية ومنشآتنا الحيوية لجنبوا البلدين مخاطر الحرب التي أشعلوها . .

اننا لا نريد الحرب ، ، ولكننا لا نضحي بكرامتنا وسيادتنا ، ، ولا يمكن ان نرضخ لمخطط الخميني بأحتلال العراق وأستباحته وتفجيره» .

ويضيف القائد الى ذلك قوله : «ان اشجار الوطن تروى بالماء والدماء ، ، وان اصحاب المكانة في التاريخ بفعل الارادة الحريصة على المبادئ هم الخالدون» . .

كان القائد في تلك الساعات ، ، رجل العراق ، ، ورجل المسؤولية ، ، ورجل القرار ، ، وكانت ثقته الكبيرة بالجيش العراقي تزيدها الصولات عمقا وأيمانا ،

أن الأفكار الخاطئة التي سيطرت على العقل الايراني وضياع المسؤولية في تصوراته ، ، جعلته لا يقدر خطورة اللعب بالنار التي يلعبها . .

وكان من الطبيعي ، ، أزاء الأفكار الايرانية المغلوطة وأتخاذ قرار الحرب على مستوى الستراتيجية العليا ان يكون الفعل العراقي بمستوى المسؤولية . .

أن الستراتيجية الايرانية الهجومية وأستعدادها لتوجيه الضربة الشاملة للعراق ، ، لم يكن ممكناً مقابلتها بأنتهاج الستراتيجية الدفاعية البحتة .

صحيح أن الضربة العراقية الرادعة ، ، كانت في جوهرها معركة دفاعية ، ، الا انها لم تركن في تصوراتها وأفعالها الى الستراتيجية الدفاعية التقليدية ، ، وانما اعتمدت ستراتيجية عسكرية مناسبة لمواجهة التحدي الايراني ، ، واعتداءاته الحربية . .

ان تحويل الموقف الى منجزات ستراتيجية ، ، يقتضي ان تكون المعركة الدفاعية ، ، معتمدة على الستراتيجية الهجومية لضرب النوايا المضادة وأفشال الهجوم المقابل ، ، ولهذا كانت مطلوبة ، ، ضربة الطيران العراقية الرادعة ، ، والتقدم العراقي في الاراض الايرانية الذي يوفر العمق الستراتيجي المطلوب أو هامش الأمن الجغرافي المحسوب . .

ان ستراتيجية المعركة الدفاعية التي أتخذت طابع الهجوم من جانب العراق ضمنت المفاجأة الستراتيجية للعراق مثلما جعلت القوة الجوية العراقية ، ، قوة حسم استراتيجي قادرة على أحراز السيادة الجوية ، ، وشل قدرة الطيران المضاد . .

أننا أذ نشير الى كل هذه الحقائق ، ، نريد الأشارة منها الى قدرة العراق على أحراز النصر ، ، وافهام المعتدين ان ثمن الاعتداء عليه باهظ القيمة ، ، ومنها نوضح ان القائد صـــــدام حســــين ، ، كان اكثر الكل ايمانا بهذه المقدرة مثلما كان هو الاكثر حرصا على ان لا تندلع الحرب ويقوم القتال . .

كيف . . ؟

(٣) تبت يدا ابي لهب

كل شيئ يوحي بالأهتمام . . ! !

وكان الأستعداد لتسجيل الحديث ، ، يؤشر أمراً غاية في الأهمية يريد القائد أن يوضحه للشعب . .

في العاشرة الا ربعاً كان الركب يغادر بناية المجلس الوطني ، ، بحيث كان مقر القائد ، ، ويتجه الى مبنى أتحاد نقابات العمال ، ، كان ذلك أواخر الشهر الأول من عام ١٩٧٩ .

لم تكن المشاركة في أجتماع المكتب التنفيذي للأتحاد العام لنقابات العمال ، أساسها الوقوف على ما يستقر في أذهان الطبقة العاملة أو التعبير عن الأعتزاز بها حسب ، ، كانت مناسبة للحديث المهم الذي أكد فيه القائد صـــدام حســين من أن القيادة أقرت المباشرة بأجراء أنتخابات عامة بهدف قيام المجلس الوطني .

كانت معاني ذلك الحديث كبيرة بمدلولاتها الديمقراطية وقيمتها في صياغة القرار السياسي من قبل ممثلي الشعب ، ، وكان أهم ما جاء في الحديث الطويل مع تلك الحقيقة ، ، تأكيد القائد على : أن الخوف لا يبني المجتمع ، ، المجتمع الذي يصلح لكي يشع على أطرافه في الوطن العربي .

وكان في أعقاب الحديث . . .

لقاء تلقيت فيه توجيهاً حول الموضوع الأساس في الحديث المهم .

وأعترف . .

أن اللقاء مع القائد فرصة كبيرة ، ، خصوصاً للصحفي ، ، كي يلتقط أمراً نسميه في لغة الصحافة بالسبق الصحفي أو يكتنز معلومة يضعها في الذهن وديعة لحينما تسنح الظروف بها أو يحفظها في بنك الأسرار للوقت الذي لا يكون هناك محذور من نشرها .

كان موضوع الحديث . .

قيمة المجلس الوطني وما يعنيه للممارسة الديمقراطية ، ، وكانت الأراء على ردود الفعل ، ، التي يمكن أن يقابل بها الأعداء الأعلان عن قيام هذه التجربة ، ، وكان من بين ما جاء ، أن الأعداء سيشيعون أن التجربة جاءت في أعقاب (الأنتفاضة الأيرانية) وأنها بذلك تستهدف (التوقي من تيار) تريد تبديده في هذا الأطار ، ، وهم سيتناسون أننا لا نعاني من خانق ولا نمر بأزمة تلجؤنا الى ذلك ، ، والأكثر أن القضايا المبدئية لها عندنا وقت مطلوب للتطبيق مثلما لا ندخلها ميدان الممارسة التكتيكية ، ، وأتعس حالة في تصورنا ، ، أن تكون القضايا المبدئية لعبة رخيصة في الممارسة السياسية ، ، ذلك لا نجيده ، ، بتعبير أدق لا نحبذه بل نكرهه . .

كان الحديث الخاص . .

يفتح الذهن على (الأنتفاضة الأيرانية) وكانت أحداثها في تلك الفترة من القوة ما تحاصر بها التظاهرات الصاخبة مؤسسات النظام الشاهنشاهي ، ، للحدود التي راحت فيه عشرات الدبابات وآلاف الجنود تصطف بالقرب من قصر نياوران مقر الشاه ، ، ولكنها لم تكن قادرة على أن تحمي الشاه أو تطمئن القلق العاصف في مداخله أو أن تضمن له مكاناً أميناً للحد الذي جعله يغادر طهران في أجواء كان مشهدها في مطار مهرباد يوحي أنها أقرب الى الهروب منها الى الوداع . .

كانت طائرة البوينغ ٧٠٧ على أهبة الأقلاع ، ، لم يكن يمسك عجلاتها على المدرج ، ، غير الصعود الأخير . .

وكانت الكلمات الأخيرة ، ، يمزقها القلق والخجل وهي تخرج من فم الملك ، ، وتحكي النهاية المرة ومعنى الرحيل الأخير ، ، كانت تثير الفزع أكثر ما توحي بأشاعة الثقة ، ، وكل ما قاله الشاه لحظتها : أنه شعر بالتعب وأنه يحتاج الى الراحة . . . ! !

وطارت الطائرة في الساعة الواحدة وعشر دقائق بتوقيت غرينش من يوم ١٩٧٩/١/١٦ وطار معها عرش الطاووس وحلم الشاهنشاه محمد رضا بهلوي . . وقتها . .

كانت حالة الجيش تثير تساؤلات ، ، وتدفع بعلامات أستفهام كبيرة ، ، تنبعث من حقيقة أن النظام على وشك أن يغرق في الطوفان الشعبي المناوئ له .

ذلك . .

أن طبيعة الجيوش يستحيل عليها في حالة كهذه ، ، أن تظل متماسكة ، ، على أهمية الضبط العسكري والتقاليد الصارمة في بناء الجيوش ، ، لكن الجيش الأيراني ظل على ولائه للشاه ، ، وكان يصطدم مع المتظاهرين ، ، حتى أن رئاسة الأركان المشتركة ، ، ذكرت بتأريخ ١٩٧٩/١/١٨ أن وحدات من الجيش فتحت النار على مجموعة من المتظاهرين قامت بالتوجه الى مقرات الجيش وهي تهتف بشعارات معادية مما نجم عنه سقوط العديد من الضحايا . .

كانت هذه الحالة تبحث عن الجواب الذي يمسك بدوافعها ويحللها بدقة ، ، وكان مدخلي الى ذلك سؤال :

سيدي . .

أذكر لكم حديثاً قلتم فيه ، ، أن الشاه في أتجاهه الى التوسع الأفقي بالجيش ، ، لتنفيذ سياساته في المنطقة ، ، سيجد صعوبة في ضمان ولائه بالكامل ، ، ولكن ما نشاهده حتى الآن ورغم قوة المعارضة الأيرانية أن الجيش ما يزال متماسكاً ويعبر عن ولائه للشاه ، ، كيف ترون ذلك سيدي ؟

وكان الجواب . . .

«في الأمور الكبيرة لا يصح أن تكون المحاكاة بنظرة تتعامل مع المرئي وكأنه الحقيقة النهائية ، ، أن ما يطفوا على السطح يكون له غاطس في الأعماق ينتظر حركة الزمن أو الحدث ليطرح الأمور كما هي ، ، أو ليقذف عما يجيش في الأعماق في الوقت المحدد . .

بضوء ذلك يجب أن ننظر الى الحالة المذكورة ونحاكيها ، ، وأيضاً أنني أرى أن نظام الشاه قد أنتهى والتغيير لم يعد أحتمالاً أراه وأنما هو واقع أشاهده ، ، وهو ليس بعيداً ، ، والجيش الأيراني سيتعرض للحالة المذكورة ، ، ولا يظل ولاؤه ، ، سيتغير ، ، ويبدأ ذلك بتمردات عسكرية ، ، وأصطدامات عسكرية ولا يكون مفر بعدها من حصول التغيير حتى الحرس الأمبراطوري سيستسلم هكذا أشاهد الأحداث أو هكذا أتصور حركتها . .

أنتظر . .

لترى . .»

وأعترف . .

أنني أنتظرت ورأيت . .

أول ما تناقلته الأخبار بعد ذلك وفي مساء اليوم نفسه كان :

– قيام مجموعة من ضباط ومنتسبي القوة الجوية بالتظاهر والهتاف ضد الشاه . . أعقبها . .

– قيام مجموعات عسكرية بالهجوم على بعض الدوريات العسكرية .

– أستسلم في ٢/١٢ الحرس الأمبراطوري الذي كان يحرس قصر الشاه ولجأ الى ثكنة نيافران شمال طهران .

– أنهيار المؤسسة العسكرية وعجزها عن تأدية مهاتها . .

كان شريط الأحداث يأتي متعاقباً ، ، كما تصوره القائد ، ، وكأنه قد أطل على حركته من عالم كشف له فيه الأحداث ! !

كل شيء حدث كما توقع .

بالضبط والتمام . . .

وما يزال عندي غير ذلك الكثير ، ، الذي يسلط الأضواء الكافية عما جرى وكيف جرى والى أين يمضي ! ؟

ومع رحلة الزمن والذكرى التقط ما يفيد ، ، وأمضي اليه . .

في أمسية التاسع من شباط ١٩٧٩ ، ، كان القائد يستقل القطار في زيارة خاصة للبصرة . .

كان هدوء الليل يقطعه صوت القطار ، ، وهو يطوي المسافات الطويلة . .

كان القائد وهو يغادر مقصورته يتجول في عربات القطار المخصصة للوفد ، ، وأتجه بخطواته الى حيث كان وجودي مع زميل مهنة ، ، أختار الخارج ، ، لا أريد أن أقول عنه أكثر من ذلك ، ، لأن الحديث بسوء عن غائب معيب ، ، والأساءة اليه في وقت تساعد به الظروف لا رجولة فيه . .

كان الحديث في تلك الجلسة طويلاً ، ، وتناول أوضاعاً عديدة ، ، ومر على الحالة في أيران ، ، وما قاله القائد ظل يرن في مسامعي ، ، وكل ما فيه أكدته مسيرة

الزمن اللاحقة ، ، كأن القائد يقرأ الغيب ويميط اللثام عن المستقبل . .
وقتها قال القائد :
أن رحيل الشاه أبعد من أبعاد ملك ، ، أنه بداية النهاية لرحيل الملكية عن أيران . . وأن مجلس الوصاية لا يصون العرش ، ، ولا أمل للنظام الشاهنشاهي في البقاء ، ، وأكثر أن التغيير المرتقب وهو يجتاز العهد الملكي ، ، سيتجاوز صورة الحكم الليبرالي ، ، التي ربما ترد في بعض الأذهان كأحتمال قوي ، ، ولكني أرى أن ذلك بعيد ولم يعد له مكان في واقع التغيير القادم ، ، والبديل الذي أشاهده بوضوح هو ، ، أن التغيير (الديني) هو صاحب الفرصة الوحيدة ولا أقول صاحب النصيب الأكبر ، ، والأسباب عديدة بعضها داخلي وأخر لتسهيلات دولية تتوخى فيها مقاصد معينة .
أذن لاتفاجأوا عندما تجدوا يوماً أن التغيير أعد وكأنه لتجديد صيغة العداء مع العراق . .»
وساد الصمت والقائد يتأمل ، ، وأمتدت يده الى السيجار تشعله ، ، ليأخذ منه نفساً عميقاً ظلت خطوط الدخان المتصاعدة ترسم دوائر وخيوطاً تسبح في المكان ، ، ثم واصل الكلام وبرقته المعهودة قال :
«انا لا اتفاجىء من حركة الاحداث ولا اشعر بالحرج من أية حالة تقذفها علينا الرياح العاصفة . . لان ثقتي بشعب العراق وجيشه كبيرة ، ، والتحوط في حساباتنا ليس تصورات فقط وانما هو استعدادات ايضا .
وهذا الذي أقوله هو أمر عام ليست له صلة بما يجري في أيران ، ، وأنما هو سياق عام يصح عليها وعلى غيرها ، ، وهو لا يعكس في عقولنا وضمائرنا تصميماً مسبقاً نقابل به التغيير الجديد بالشك أو أن نستعد له بالعداء ، ، بل على العكس أن عقولنا تريد علاقات جيدة مع جارنا وضمائرنا لا تقبل بتأزيم الأجواء معه ، ، لأن الصدام معناه فتح أبواب الصراع الذي لا يفيد أحداً ، ، ومخاطر مثل هذا الصراع تكمن في أن الدعاوى الدينية يمكن تسخيرها بأتجاه السيطرة والتوسع على حساب حقوق الغير بحجة أن ظلال العقيدة الدينية يجب أن يمتد مع أمتداد العالم الأسلامي .
على كل حال لا تقلقوا على بلدكم ، ، أنه في حرز أمين» .

كانت حركة القطار ، ، وهي توقظ العيون وتطرد النوم منها ، ، كانت تفتح الذهن لحسابات الثقة بالغد ، ، لأن حارس العراق يقظ لكل شيئ ومستعد لكل شيئ ، ، وأن وراءه شعباً وجيشاً عرفا معنى القائد ومنحاه الحب بيقين راسخ . .

لماذا وكيف ؟

في البصرة كان الجواب . . .

كان الحب يلاحق القائد حيثما يكون ، ، وكانت المشاعر تجيب على التساؤل ، ، في موقع عسكري تفقده القائد وهو يقول :

«عندما نرى الأبطال في جيشنا الباسل العظيم ، ، نزداد أعتزازاً بالثورة التي أستطاعت أن تصل بالأنسان العراقي الى هذا المستوى من الوعي .

أن القيادة السياسية منكم وأنتم منها ، وقد ذهب الوقت الذي تتخذ منه القيادة موقعاً متميزاً للتميز ، ، بمعنى التعالي على الشعب ، ، وجاء الوقت الذي يكون فيه التميز المطلوب من القيادة فقط ، ، أن تعمل وتسهر أكثر وأن تضحي أكثر وتكون واعية أكثر ، ، وهذا أمر طبيعي ، ، ولا يمكن للقيادة أن تفعل شيئاً عظيماً بدون شعب عظيم ، ، كما لا يمكن للشعب أن يفعل شيئاً عظيماً بدون قيادة مقتدرة ، ، وسوف لا نخيي ظنكم أطلاقاً في ذلك» .

وكان الذهن وهو يصغي لذلك يردد : وكيف يخيب الظن وأنت القائد فينا ! !

ودارت الأيام . . .

وتعاقبت حركة الزمن . . .

وأنتهى حكم الشاه ، ، وكان البديل هو حكم خميني .

وكان كل شيئ يؤكد صحة توقعات القائد وصواب أستنتاجاته . .

وكانت أخطر التوقعات . .

بعد قيام الجمهورية الأسلامية الأيرانية ، ، والى بداية العدوان المسلح على العراق في الرابع من أيلول ١٩٨٠ ، ، شهد مسلسل الأحداث ما يؤكد أن التغيير الأيراني الجديد وكأنه أعد لتجديد صيغ العداء مع العراق . .

وكان القائد وهو يراقب ذلك بدقة يتصرف بصبر دقيق ، ، وكل همه أن يبعد حكام أيران عن هذا المنهج الغريب .

وأذكر . .

قبل بدء العدوان بمدة قصيرة ، ، كان هناك أمر من القائد ، ، أن توجه رسائل ومذكرات الى الخارجية الأيرانية تبصرها بحقائق الأمور وتحذر حكومتها من مخاطر اللعب بالنار ، ، مع توجيه من سيادته الا تنشر ولا تذاع تلك الرسائل أعلامياً ، ، لكي لا يؤدي ذلك الى تهيج الشعب أو أن يستشف من ذلك أن حكومة الثورة تريد تصعيد الأزمة وتفجيرها . .

وكان صبر القائد وحكمته كبيرين ، ، وكان أسهامهما يظهر من قول سمعته منه قبيل الحرب يقول فيه :

«نسمع من حكام أيران الجدد أشياء خطرة ونشاهد منهم حركات خطيرة ، ، أطمح أن يسود العقل حكام طهران وأن يتمثلوا الحكمة في تصرفاتهم معنا ، ، وأن يبتعدوا عن هذا النهج الذي تشير كل المعطيات أنه ماض الى الطريق الخطير.

أن أستفزازاتهم وتحرشاتهم وحشودهم عندما توضع في المنظور الستراتيجي ، ، تؤشر لنا أنهم عازمون على اشعال الازمة بنيران الحرب . . أن الحرب تقلقني ليس في النتائج ذلك لا يخيفني على الأطلاق ، ، وأنما لشعوري بأن كل قطرة من دماء جيشنا وشعبنا لا يعادلها أي ثمن ، ، أن حياة كل ضابط وجندي ومقاتل غالية وهم عندي قطعة من أعماقي وكذلك فأن كل لبنة في بناء العراق أتلمس فيها تعبنا وسهرنا لهذا أكره الحرب وأحس بوطأتها ، ، ولكن حينما يريدون ذلك لا يتركون لنا غير خيار الدفاع عن حياة شعبنا وسيادة وطننا ، ، وعندها سيجدون أية لعبة قذرة وخاسرة أعتمدوها» .

هكذا كانت حربهم على العراق في الرابع من أيلول ١٩٨٠ ، ، تصميماً مسبقاً ومتعمداً . .

وكان لابد من التأديب والضربة الرادعة التي جاءت في الثاني والعشرين من أيلول ١٩٨٠ . .

وفي أمسية ذلك اليوم ، ، كان لي موعد مع التأريخ في غرفة العمليات العسكرية ، ، وفي غرفة مجاورة كان القائد يستريح فيها كنت أستمع منه الى بعض التوجيهات ، ، وأيضاً الى بعض الكلام المهم عن الحرب قال فيه :

«لقد وضعوا السكين على رقابنا ، ، وحاولنا أن نعيدهم الى جادة الصواب من غير جدوى ، ، وعندما أعتدوا في الرابع من أيلول كنا عازمين على أن نحصر الأذى في مواقع حدودية ضيقة ، ، لكن الغرور زين لهم الهجوم الواسع على أراضينا ، ، الأمر الذي لم يبق لنا خيار فيه غير الدفاع عن أنفسنا ووطننا ، ، أن الدفاع عن النفس حق يكفله شرع الله وتقره القواعد القانونية ، ، والدفاع عن الوطن مع مباركة السماء وللمجاهدين في سبيله ، ، تقره كل شرائع الأرض» .

هكذا كانت الضربة الرادعة التي لولاها لكان الثمن باهضاً وخطيراً . . ! !

وهكذا أنقلب كل شيء رأساً على عقب ، ، وصارت يدا خميني اللتان أشعلتا الحرب تحرقه بنيرانها ، ، للحد الذي ينطبق فيه عليه قول أصدق القائلين : تبت يدا أبي لهب . . ! !

هل يكفي ذلك أم أمضي بعد كل ما قدمت الى المزيد من ذكريات الأحداث والأحاديث !

لان المطلوب هو مواصلة الكشف عن الحقائق في هذا المجال قبل وصولهم الى المحذور ! ! !

أذن . .

لنقرأ الحديث الهام الذي كان قبل الحرب بأيام . . !

(٤) حديث مهم قبيل الحرب بأيام

كانت النية . .

ان تكتب «الثورة» افتتاحية ، ، تتطرق بها الى مسألة خطيرة ، ، وأمر في غاية الاهمية .

وكان التاريخ هو ١٩٨٠/٨/٢٧ ، ، والوقت تمام الساعة الثامنة مساء . .

وكان . . . .

الذي يجعل التاريخ والوقت ماثلين في ذهني ، ، هو ان الحدث كان على مستوى المسؤولية الكبيرة ، ، مما يتطلب رأيا وموقفا ، ، يحدد العراق من خلالها تصوره وتصرفه . . ! !

كان الحدث . . .

سلسلة من الاعمال العدوانية الخطيرة استخدمت فيها القوات الأيرانية نيران مدفعيتها الثقيلة ، ، والدبابات على منطقة مجيد قادر اغا ومخفر حذيفة من الساعة ٥٣٠ والى الساعة ٩٣٠ .

ثم . . .

مواصلة العدوان من الساعة ٨٠٠ والى الساعة ٩٢٠ وبالاسلحة الثقيلة والهاونات على مخافر الحسين القديم ، ، المقداد قتيبة الجديد ، ، الاحنف . .

وايضا . . .

قصف شديد وبكل الاسلحة الثقيلة على قريتي قامشلا وبابير من الساعة ١٠٢٥ والى الساعة ١٢٠٠ . .

كذلك . . .

وجهت القوات الايرانية اسلحتها كافة على منطقة جوار كلاو من الساعة ٩٣٠ والى الساعة ١٢٠٠ . .

اضافة الى ذلك . .

كانت النيران الايرانية ومن شتى صنوف الاسلحة الثقيلة ، ، تقذف حممها على مخفر حدود يثرب من الساعة ١٨١٥ والى الساعة ١٩٣٠ . .

يومها . . .

كان القائد يتابع الموقف وتطوراته ، ، ويمارس ضبطا للنفس ، ، لا تدرك معانيه الا من معاني الحكمة التي يتميز بها ، ، والمسؤولية التي يقدر مدلولاتها .

وفي لحظة تأمل ، ، كان التوجيه ، ، ان نكف عن «الافتتاحية» وان نصرف النظر عنها . .

وكانت دوافع ذلك واضحة في قول القائد :

«لا داعي الى كتابة الافتتاحية ، ، لنكتفي بتوجيه مذكرة احتجاج توجهها وزارة الخارجية الى سفارة الجمهورية الايرانية ، ، لتبليغ حكومتها بالاعتداءات والكف عنها ، ، ومراعاة حرمة الاراضي العراقية ، ، وتحميل الحكومة الايرانية مستقبلا نتائجها .

ان كتابة الافتتاحية حول الموضوع ، ، من شأنها ان تعبئ الشعب ، ، وتزيد من حماسته للحدود التي يطالبنا فيها بموقف كاسح ، ، ونحن لا نريد اللجوء الى ذلك ، ، ونرغب بتسوية الامور بلغة العقل التي يختفي فيها منطق العدوان واصوات المدافع .

اذن . . .

لنصبر ونحذر من مغبة هذا الطريق ، ، ولنعمل بكل قوتنا من اجل اطفاء الشرارة لكي نتفادى مخاطر الحريق الذي تريد اشعاله» .

وقتها . . .

كنت اصغي للقائد بكل انتباه واهتمام ، ، واتطلع الى حكمته وانا اطمح بالمزيد من الرؤية لحالة لم تكن صورتها غائبة عني . . ! ! !

واتذكر ما قلته : —

«سيدي . .

اننا عرفنا عنك وانت في مواقع النضال ، ، قوة للتحمل كانت موضوع احاديث رفاقك . .

وكنا نسمع عن صبرك المذهل في اقسى الظروف الانسانية ، ، ولكني الان

اشاهد ، ، اروع حالة لصبر القائد واعمق مغزى لحكمة قرار لا يريد غير ان تسود العلاقات العراقية الايرانية ، ، روابط الجيرة وأجواء الامن والمصالح المشروعة بين البلدين .

اعانك الله سيدي في مهمتك الصعبة مع طغمة لا تقدر هذه المعاني ولا تفهم غير طريق الشر والخطر الذي تسير عليه» .

وكان ذلك . . .

مدخلا لحديث مهم ، ، سلط الضوء على حقائق كبيرة ، ، مثلما اوضح حرص القائد على انّ يسود الوئام علاقات البلدين الجارين . .

وابدأ بالحديث المهم . . .

وقبل البداية اوضح ، ، انني استعيده بذاكرة الذهن ، ، وقد تأخذ منه السنوات البعض أو أن يعوز قسم من عباراته الدقة .

والعذر . . .

ان ما يكشفه من حقائق لم يعد مقبولا ان يظل طي الكتمان . .

في هذا الحديث ، ، الذي كان في امسية ١٩٨٠/٨/٢٧ يقول القائد :

«ان اعتداءات اليوم ، ، ليست الاولى قبلها عمليات عدوانية سابقة ، ، مارس فيها الحكم الايراني قوة السلاح ضد قرانا ومخافرنا الحدودية ، ، واستخدم فيها القوات المسلحة لانتهاك حدودنا .

والاعتداءات الايرانية ، ، اعتداءات بلا مبرر ولا مسوغ لها ، ، وحين يكون العدوان من غير اسباب معقولة ، ، لا ينحصر مداه في غاية محدودة ، ، بل يمكن ان تتسع ابعاده ، ، تبعا للعقلية المخططة له ومجمل تصوراتها الفكرية والسياسية .

ان في ايران فكرة لا تخفي القول ، ، انها تريد ان تنتشر ، ، وان تقتحم الحدود لكي تصدر ما تسميه الثورة الاسلامية .

والعدوان الايراني الذي تعرضت له قرانا ومخافرنا طيلة هذا اليوم ، ، نراقبه بيقظه وحذر ، ، ولا نسقط دوافعه وتطوراته ، ، في اطار الدعاوي الايرانية المرفوعة ، ، كشرار يمكن ان يشعل الحريق ، ، في الاقل كأمر محتمل يمكن ان يتحول الى أمر ماثل . .

ان هذا التصور لا يدفعنا الى التشنج والتصرف غير المسؤول ، ، ولهذا نمارس اقصى حالة ممكنة لضبط النفس ، ، ونبذل الجهد الخارق ليكون صبرنا كبيرا .

لماذا ؟

ان القتال يظل اكره حالة اضطرار ، ، وان لهيب الحرب ، ، يأكل الناس والثروات ، ، ويجعل صوت الالام قويا في الاسماع بدلا من أن تتفرغ لصوت الامال .

وفي ظل عدوان صفحاته متعددة ومفتوحة ، ، يكون الامل الوحيد ، ، هو صد المعتدى ومنعه من تحقيق غايته السياسية ، ، وهو هدف مقدس ، ، لا يملك اي حاكم شريف خيارا غيره ، ، لان اي موقف آخر ، ، يعني تمكين العدو لقهر الارادة الوطنية واستباحة الوطن . .

انني بقدر ما اكره في الحرب حالة الدم والدمار ، ، لا اجد ابشع من حالة العبودية والاستعباد ، ، ولست خائفا على موقع او متعلقا بحياة ، ، عندما اتعلق بخيط الامل الرفيع وابذل جهودا ، ، أشك انها تثمر ، ، لكي اكسر عاصفة الحقد القادمة من ايران ولأجعلها تمر بدون ان تحمل شرارة الحرب ، ، لان الشرارة في هذا الجو العاصف والنوايا المشحونة بالغيض والاطماع ، ، لن تكون غير شرارة الحريق الخطير .

ان كل الاستنتاجات والمعلومات ، ، تجمع على ان الجانب الايراني ، ، عازم على اشعال لهيب الحرب ، ، وهو يحاول استدراجنا الى احدى حالتين .

اما ان نقع في التقدير الخاطئ لتطور سلسلة الاعتداءات التي يقوم بها علينا ، ، او ان نركع لمشيئته . .

والتقدير الخاطئ هو ان نتلقى منه الضربة الاولى التي تنتقل بأعتداءاته الى نوع من العدوان المسلح ، ، يكون بداية لحرب شاملة واسعة ، ، يهدف النظام الايراني من خلاله غزو العراق .

ان الضربة الاولى ستكون على مدننا الحدودية ، ، وعلى مصالحنا الحيوية ، ، واننا رغم وضوح ذلك ، ، لن نتعامل مع الاحداث الراهنة ، ، بما يصعد الامور ويدفعها الى ذلك ، ، لاننا نريد ان نبعد حكام ايران عن هذا الطريق ، ، ولكننا في

اللحظة التي ينطفئ بها البصيص الشحيح من الامل الذي ما زلنا نتعلق به ونتعرض بعدها الى ما نتوقعه ، ، يكون لنا حساب آخر ورد آخر . .

ان الجانب الايراني يعد لضربة عدوان كبيرة علينا ، ، وهي ضربة يريد ان يعقبها بخطة لغزو العراق ، ، وهو يلجأ للضربة الاولى لحسابات سياسية ودولية .

ان جهودنا تنصب على تحذيره وتنبيهه الى المخاطر المترتبة على ذلك ، ، وحثه على الانصياع للحكمة ونبذ استخدام القوات المسلحة والابتعاد عن الحرب ، ، وسوف نواصل هذا المسعى الى الحد الذي تنتظر منه الضربة الاولى ، ، لكي يكون ردنا عليه واعيا وقويا بما يفشل خطة الغزو التي ينوى تنفيذها ضد بلدنا ، ، لان اي رد لا يرتفع الى مستوى المسؤولية التاريخية ، ، يكون مشجعا للنظام الايراني ومساعدا له في تنفيذ اغراضه ، ، وعند ذلك لا نجد الحديد يكبل أيدينا ولا سكين المحتل تحز رقابنا ، ، نجد قبلهما اننا نقيد ارادتنا بالخوف ، ، ونعطل فعلنا الحاسم بالتردد ، ، وهذا غير مقبول وغير معروف عنا . .

انني في جانب الخوف ، ، ابتعد عن الجانب الشخصي . . لان رفاقي والعراقيين يعرفون الذي يعرفونه عني في هذا الجانب ، ، ولكني اريد ان اقول شيئا مطلوبا وله صلة بما اتحدث عنه وهو ، ، ان البسالة ليست هي الحماقة والشجاعة ليست هي التهور ، ، وعدا الحماقة والتهور فأنني اعرف خوفا واحداً في حياتي هو الخوف من الله . .

انتقل بعد ذلك الى القرار المناسب ، ، فأنا لا انكر اهمية الحساب الدقيق ، ، ولكنني ازاء حالة تستوجب القرار ، ، اضع معادلة التصرف على اساس التساؤل الا تي : ما هي النتيجة لو لم اتخذ مثل هذا القرار او عندما الغيه او اعطله ! ؟

وعندما تستوجب الحالة اتخاذ القرار مع قدر من المجازفة ، ، اقدم على القرار مع احتمالات وتحوطات عدة ، ، كي لا افاجأ بأي مجهول او اية حالة مستعصية .

وقد يسأل من يريد ، ، هل بالامكان ابعاد الجانب الايراني عن الطريق السائر فيه ! ؟

اتمنى ذلك ، ، وادعو الله في سبيله ، ، ولكن المسألة ابعد من التمني والدعاء ، ، لان واقع الحال يشير الى ، ، ان النظام الايراني لا يكتفي بالتهديد وانما

يمارس اعمال التحرش والاعتداء ، ، وردنا حتى اليوم اريده ان يكون هادفا وهادئا ، ، ولكن هل اراهن على النجاح بما يجعل هذا النظام مدركا لخطأ منهجة ومخاطرة ! ؟

مرة اخرى اتمنى ذلك وادعو الله في سبيله .

واننا لذلك سنصبر وننتظر ، ، للحدود التي لا يكون لنا بعدها من خيار غير ممارسة حقنا المشروع في الدفاع عن وطننا وشعبنا ، ، لان بعدها يكون اي موقف هو الذلة والهوان ، ، ونحن لا نقبل ذلك للعراق ولا لانفسنا .

انني رغم كل الحقائق التي امامي والمعطيات التي امتلكها عن نوايا النظام الايراني ، ، سأصبر واصبر واصبر ، ، واواصل العمل بالليل مع النهار ، ، كي لا يمضي الى طريق الحرب الماضي اليه .

والسبب . . .

انا اسمي الحرب بالخراب ، ، واكثر ما يؤلمني فيها ، ، دم اي عراقي يهدر ، ، لانني اريد له الحياة السعيدة الهانئة المرفهة ، ، ولهذا فأن كل الاعتداءات الايرانية مقرونة بالنوايا المعلنة للحاكم الايراني ، ، تجعلني اتخذ القرار المناسب لتأديب هؤلاء ومع ذلك الجأ الى الصبر واتسلح به على امل ان يكفوا عن هذا المنهج العدواني الخطير . .

ان صبرنا له حدود ، ، وان اي تطور في الاوضاع نحو المحذور ، ، الذي هو غزو اراضينا يجعلنا امام سؤال كبير هو : كيف يتصرف الحاكم في مثل ذلك ! ؟

ان المناوشات الحدودية ، ، حالة ممكنة ، ، وهي مسألة متعارف عليها ، ، وان الحشود العسكرية التي تجريها البلدان قرب الحدود ، ، قد تكون نوعا من المناورات لاستعراض القوة ، ، وان ما تقوم به ايران من مظاهر تعكس ذلك ، ، لا يمكن وضعه في هذا الاطار ، ، لان المناوشات ، ، اصبحت عمليات عدوانية تستخدم السلاح الثقيل ومن صنوف متقدمة ، ، والحشود تتعاظم ، ، ومقرونة بخطط عسكرية واضحة المعالم والاهداف والمقاصد ، ، ومع كل ذلك نتحلى بالصبر على امل ان يعوا في اللحظة الاخيرة ، ، انهم ماضون في طريق الدمار والخراب . .

والحقيقة ، ، ان اصرار حكام ايران على هذا الطريق يضعنا امام خيارين اما ان

نجعل القوات الايرانية تتوغل في الارض العراقية ويكون القتال عليها ، ، او ان نتخذ قرار الدفاع .

ويقيني ان قرار الدفاع عن الوطن هو قرار مشروع وعادل ، ، وهو عندي له تصور ومستلزمات تسدد الضربات للحسابات الايرانية واغراضها السياسية والعسكرية ، ، وسوف نتخذ بعد ان ينفذ صبرنا ، ، القرار المناسب والمطلوب .

وايضا اتمنى وادعو الله ان يهديهم سواء السبيل ويبتعدوا عن هذا الطريق المدمر ، ، طريق الحرب على العراق .

ان الحرب كريهة وفضيعة ، ، ولا نطمح بغير حالة تنزع اسباب الأنفجار ، ، وتركز علاقاتنا وفق مبادئ الجيرة والمصالح المشتركة .

من اجل ذلك لنتريث في كتابة الافتتاحية ولنواصل جهودنا الدبلوماسية ، ، عن طريق المذكرات الرسمية علها تفيد ، ، وتقرب الجانب الايراني الى لغة العقل ومنطق الاصول»

وبعد نهاية الحديث . . .

كانت الساعات الطويلة ، ، اقرب ان تكون دقائق قليلة ، ، لانها كانت بالقرب من القائد الحبيب ، ، ولانها ايضا كانت تشهد حديث المسؤولية والحكمة والامانة والاقتدار .

وغادرت غرفة القائد الكبير . .

وفي اعماقي دعاء يتردد :

اللهم اطفئ الشرارة قبل ان تشعل اللهيب المرعب . . . . . ! ! ! ! !

لكن . .

المحذور قد وقع . . . ! ! ! ! !

(٥) الوصول الى المحذور

لم تقف محاولات القائد صـــدام حســـين على ما تقدم لايقاف الهوس الايراني المحموم ، ، الذي لم يرد في الافق غير نيران يريد اشعالها ، ، تصورا منه بأن اللهيب يمكن ان يحرق ارادة العراق وطموحاته ، ، ويحيلها الى رماد تسهل بعده السيطرة على العراق وجعله ولاية تابعة للقابعين في طهران . .

كانت تقديرات القائد حكيمة وهي تنظر منذ البدايات ، ، ان التغيير الجديد في ايران ، ، الذي اعقب سقوط الشاه ، ، يراد منه بالاساس فتح العداء من جديد على العراق ، ، وتجديد صيغ هذا العداء . .

وهو مع هذه الحقيقة التي رصدتها عيناه المفتوحتان ، ، كان يفتح عقله الى كل وسيلة من شأنها ان لا تفجر العلاقة بين البلدين ، ، وان ينثني حكام طهران الجدد عن لغة الوعيد وممارسات التهديد . .

وكل فرصة يمكن ان تفيد في التوصل الى تطبيع مقبول للعلاقات الثنائية ، ، كان القائد لا يضيعها ، ، مهما تبدو ضئيلة ، ، وانما يحرص على ان يتعامل معها ، ، كمحاولة ربما تنتهي الى الخير وارساء العلاقة العراقية الايرانية على قواعد حسن الجوار والتعايش السلمي والمصالح المشتركة .

ورغم ان القائد وهو يسعى بجد الى ذلك ، ، يدرك بأن عقلية الطغمة الخمينية ليس من ورائها غير فتح الجبهة الساخنة في العلاقات بين البلدين ، ، ولم يكن هذا الادراك الا تلمسا للنوايا الحقيقية الكامنة وراء شعار «تصدير الثورة الاسلامية» كونه شعارا يراد منه تكييف صيغ العداء للعراق والتحرش به ، ، بعد ان ارست اتفاقية ٦ – آذار ١٩٧٥ قواعد متفق عليها لسد ابواب العداء عند حدودها وغلق المنافذ التي تنتهي الى واقع متأزم ومتفجر .

ولم تكن هذه الحقائق مخفية عند القائد ، ، وانما كان يعبر عنها ، ، ويوضحها ، ، بما في ذلك الى المسؤولين الايرانيين .

في عام ١٩٧٩ ، ، والقائد في مقر اقامته في هافانا ، ، خلال زيارته الى كوبا لحضور اجتماعات قمة دول عدم الانحياز .
كان مقر الاقامة خلية عمل متواصل ، ، وكانت ديناميكية القائد وحيويته ، ، موضع الحديث في العاصمة الكوبية ، ، وفي مقرات الوفود المشاركة في مؤتمر القمة السادس .
كانت طلبات عديدة تسجلها تشريفات الرئاسة ، ، تحمل رغبات رؤساء الوفود في لقاء القائد ، ، وكان من بين الطلبات ، ، طلب ايراني تقدم به رئيس الوفد الايراني الى المؤتمر الدكتور ابراهيم يزدي وزير الخارجية الايرانية وقتها .
كانت هبات الهواء تحرك الاشجار ، ، وكان العشب الاخضر يكسو المنطقة بأجمعها ، ، وكان البصر يتركز الى ذلك ومنه الى حكمة الله التي جعلت من الماء كل شيئ حي . . .
في تلك اللحظات ، ، كانت سيارة تتقدم من مقر اقامة القائد ، ، ثم تدخل باحته الرئيسية ، ، وعلى جانبها علم ايران .
وكان النازل منها ، ، هو الدكتور ابراهيم يزدي ، ، وكان بعد ذلك اللقاء والحوار . . .
في غرفة الاستقبال الملحقة في مقر اقامة القائد ، ، كان الحديث . . .
كان المتكلم ابراهيم يزدي ، ، وكانت بدايته . .
نحن نريد علاقة طبيعية مع العراق . .
وكان رد القائد : ونحن ايضا نريد علاقات طبيعية مع ايران ، ، ولكن المسألة ليست كلاما ، ، انها مواقف وتصرفات ، ، وانتم في كل ما تقومون به قد اسأتم الينا بدون وجه حق وبلا مبرر ، ، بدأتم تشتموننا ، ، وتحرضون علينا ، ، وتتوهمون انه بأمكانكم ، ، ان تنالوا من العراق .
لقد بدأ بعض الاقزام يحركونكم ، ، ويوهمونكم ، ، ومع الاسف بعضهم يحمل الجنسية العربية ، ، اذن انتم تصرفتم تصرفات سيئة ضدنا ، ، وهذا يجب ان تتركوه .
لم يقف القائد عند ذلك ، ، وانما تطرق الى اتفاق ١٩٧٥ ، ، الذي جرى في ظروف خاصة ، ، اخذت فيها ايران بلا حق جزءا من شط العرب ، ، وفي نفس

الوقت بدأ الوضع الجديد يتحدث عنه وكأنه صفقة مشبوهة ! ! !

كان يزدي يستمع . . .

وكان لا يدري ، ، ان رسم المسارات الاساسية لا يقوى هو عليها او غيره ، ، وان الخميني وحده هو الذي يمسك بها ويرسم خط سيرها كما يريد . .

وكانت رغبة الخميني وما يريده ، ، هو السيطرة على العراق ، ، وهذه الرغبة ، ، كانت عقدة الاساس في تأزيم الموقف سياسيا بين البلدين وتطويره الى مستوى الانفجار العسكري بعد ذلك .

كانت التصرفات الايرانية المنطلقة من هذه العقدة ، ، تتصاعد وتعبر عن حالتها الاستفزازية ، ، بمحاولات لاستخدام القوة في المناطق الحدودية .

وكان القائد يقظا لذلك ، ، وكان عزمه كما سبق ، ، مكرسا من اجل ان لا تنفجر الحالة عسكريا ويندلع منها اللهيب ، ، مثلما كان عزمه واثقا من مقدرة العراق على افشال ذلك وضرب المخطط العدواني في صميم قوته . .

كانت هذه الامور تستحوذ على بال القائد وتسيطر على تفكيره ، ، وكانت مع التقارير التي ترفع اليه من اجهزة الدولة المعنية ، ، سببا في جولته الحدودية في ١٩٨٠/٥/٢٢ .

كانت الجولة لتفقد ابناء الشعب في هذه المناطق البعيدة ، ، مثلما هي نظرة للحقائق في ميادينها . .

كان القائد وسط الجماهير التي احاطت بسيارته المكشوفة في خانقين ، ، كانت حفاوة الاستقبال والترحيب بالقائد ، ، دليلا آخر يضاف الى الادلة الثابتة في ضميره وهي : ان العراقيين هم سور الوطن الحصين . .

وكان خلال تفقده المواطنين ، ، يلتقي مع ابناء القوات المسلحة المتواجدين هناك ، ، وكانت في كلماته اليهم ، ، ما يكفي من الثقة والاطمئنان ، ، وهو يقول :

«ان كل ابناء الشعب العراقي معكم ، ، في قلوبهم وفي ضمائرهم ، ، لانكم تحرسون الحدود وتحمون سيادة البلد والامة العربية في عزتها وكرامتها .

اننا واثقون من ان حدودنا هي في ايد امينة ، ، ومستعدة دائما للتضحية في سبيل المبادئ والكرامة ، ، وان الزمن الذي كانت فيه هذه الدولة ، ، او تلك تتحرش

بعراقنا قد مضى ، ، وجاء الوقت الذي نستطيع فيه قطع اليد التي تحاول ان تمتد الينا بسوء » .

كان القائد وهو ينتهي من حديثه ويواصل تفقده ، ، يرى قبل كل شيئ حب العراقيين للوطن ، ، وكان ذلك يزيد في يقينه الامل بالعراقيين ، ، ويكبر العزم في اعماقه ، ، من ان قدرات العراق تستطيع تأديب كل المعتدين والطامعين . .

وكانت رغم هذه الثقة الملموسة ، ، رغبته في ان لا يتعكر جو العلاقة بين العراق وايران ، ، وأن لا تتفجر الحالة وتحول الحياة الطبيعية الى حياة للجحيم ، ، تأكل الامن والسلام قبل كل شيئ .

لم يكن في باله غير ان تسير الحياة على منوالها الطبيعي ، ، وان تواصل سيرها على طريق التطور والارتقاء بمستوى الانسان وتوفير مستلزمات سعادته وراحته ، ، ولهذا كانت اوامره بعد هذه الزيارة ، ، بناء مجمعات سكنية لاهالي القرى الحدودية وتشييد مجمع فيها للمعلمين والمدرسين ، ، وبناء مدارس ومستوصفات وايصال القوة الكهربائية والماء لها .

ان امر القائد هذا يكشف مع اهتمامه بحياة المواطنين ، ، حقيقة اخرى وهي انه رجل ظل السلام معه يعيش ، ، على الرغم من التهديدات الايرانية ، ، وانه لو لم يكن السلام وكره الحرب ، ، الحالة التي تستقر في اعماقه لما اتخذ مثل هذا القرار ، ، لان مثل هذه المنشآت تكون طعما لنار الحرب ومسرحا لخرابها وتدميرها .

كانت مشاعر العراقيين في القرى الحدودية ، ، تزيد من وضوح الصورة الحقيقية للشعب ، ، وكان تدفق هذه المشاعر ، ، وهي تتفجر بالحب ، ، تزيد من هموم القائد ، ، ليس الهم بمفهوم تقليدي ، ، الذي يتحدد بالغم والالم ، ، وانما من نوع هموم الشعور بالمسؤولية ، ، هموم الوفاء لهذا الدفق الكبير من مشاعر الحب والولاء . .

كانت هذه المشاعر تزيد من قناعته ، ، وهو يحتضن برؤيته كل حبة رمل من تراب الوطن في حدوده الشرقية ، ، بأن التحدي المستقر في النوايا الشريرة لا يحقق اغراضه . .

وكانت انظاره وهي تمتد الى السماء تحكي معنى كبيرا وهو يقول :

(هيهات ان تغطي السحب السوداء شمس العراق)

لكن هذه الحقائق والامور لم تجعل القائد غافلاً عن صورة العقل الايراني الاسود وما يمكن ان يدفعه اليه الحقد والطمع والرغبة في السيطرة والتوسع .

كان القائد يتلمس ذلك ، ، ويدرك ان حالة النهضة الشاملة في العراق ، ، تفتح عليه حقدا وتآمرا ، ، وليس بعيدا ان تكون الحرب هي صيغة التآمر الجديد المطلوب بعد ان فشلت الصيغ السابقة وانتهت تحمل معها الخيبة والخذلان لاصحابها .

والواقع ان نجاح القائد في تطوير العراق وتحديثه وتحرير ثرواته النفطية وتوظيف موارده المالية لصالح التنمية وتعزيز قدراته الدفاعية ، ، اقلق الاعداء مرتين ، ، الاولى من حالة النهضة الجديدة كونها ، ، نهضة غير مرغوبة تكسر طوق التخلف المطلوب ، ، والثانية من حالة القدرة العراقية المتمكنة من صرع محاولاتهم لنهب خيرات العراق والسيطرة على بحيرة النفط الممتدة في عمق اراضيه من زاخو الى الفاو . .

ولم تكن جهود الاعداء ، ، بعيدة عن رؤية القائد ، ، مثلما لم تقلقه على الاطلاق ، ، وكان الامر الواثق منه ، ، ان فشل الافعال التآمرية ، ، سواء تلك التي جرت بالاشكال التقليدية او بالصيغ الفنية ، ، لا بد ان يدفع بالجهد المضاد الى التحرش بالعراق عن طريق الغزو الخارجي .

ولهذا كان القائد خلال زيارته الى كتيبة ١٤ رمضان في الاول من تشرين الاول عام ١٩٧٩ ، ، يخاطب جماهير الشعب والقوات المسلحة ، ، من خلال حديثه مع منتسبي هذه الكتيبة ، ، ويضعها امام مسؤولياتها ، ، وهو يقول :

«ان مسؤولياتكم ليست في حراسة السلاح ، ، لانها مهمة صغيرة لا نرضاها للعراقيين ، ، بل مسؤوليتكم بأستخدام السلاح دفاعا عن الوطن وكرامة الامة العربية ومبادئها وسياستها» .

هذه الحقيقة تبين معنى الاستعداد لحماية الوطن ، ، وهي ايضا تشير الى ان السلاح القدير الذي يريده صـــدام حســين ، ، هو ليس سلاحا معتديا وانما لرد العدوان . .

والقائد صـــدام حســـين لم يحدد فقط وظيفة السلاح ومهماته ، ، وانما يحدد مع ذلك شروط الاعداد الصائب لظفر الشعب ، ، ومستلزمات القوة المطلوبة لدحر الأعداء والحاق الهزيمة بهم ، ، لان القائد يحدد فوهة البندقية عندما تكون لغة الرصاص هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الاعداء . . .

كانت ايران بعيدة عن ادراك كل هذه الحقائق وكان هذا الجهل يدفعها الى الحرب ، ، وكان القائد حريصا على ايقافها عند الحدود البعيدة عن التورط بالحرب ، ، وهو حتى لحظة الشروع بالعدوان الايراني في ٤ أيلول ١٩٨٠ ، ، كان لا يغلق بصيص الامل من افكاره ، ، عن امكانيات قد تفيق النظام الايراني من احلامه ، ، وتضعه امام الحقائق ويكف عن العدوان . .

ولهذا فطيلة المدة من يوم ٤ – ٢٢/ ايلول ١٩٨٠ ، ، كان القائد يكتب بيده ثلاث مذكرات ، ، ويرسلها الى وزارة الخارجية لتتولى توجيه مذكرات من الحكومة العراقية الى الحكومة الايرانية ، ، تؤكد جميعها على خطورة المسلك العدواني الذي تسير عليه ايران ، ، وتدعوها الى التعقل والنظر الى الاوضاع بعين المسؤولية .

لم يكن الجانب الايراني وهو يتلقى هذه المذكرات مكترثا لها ، ، وكانت تصرفاته لا تنم عن عدم الاستجابة لها فقط وانما توضح الاصرار على اعتماد طريق الحرب والسير فيه .

لم يجد القائد من سبيل امام ذلك غير مقابلة العدوان بقوة والرد عليه بمنطق غير مألوف في سياقات الدفاع التقليدية ، ، لان الحكمة كانت تقتضي حينما لا يكون هناك امل في تجنب الحرب وثني الجانب الايراني عنها ، ، ان تدور رحاها على الارض الايرانية وليس على الارض العراقية ، ، لان الدفاع عن الارض الحيوية لا يكون عليها وانما من امامها .

وقد كان القائد امام مسؤولياته التاريخية التي اضطرته الحالة اليها ، ، وهو يتخذ قراره بتسديد الضربة الرادعة في ٢٢ ايلول ١٩٨٠ . .

هذه الحقيقة يلخصها القائد في مؤتمره الصحفي الذي عقده في احتفالات تموز ١٩٨٠ بقوله :

«نحن ليس من النوع الذي يدق طبول الحرب باستخفاف ، ، ولكن من النوع

الذي اذا حاول احد ان يضرب على سياجنا الخارجي طلقة من بعيد ، ، نضرب على بابه الداخلي الف طلقة» .

والقائد وهو يتخذ مثل هذا القرار ، ، كان من قبله يتصرف بكل ما في الصبر من تأن من اجل ان لا تقوم الحرب ، ، وهو منذ اندلاعها عمل بكل طاقاته من اجل ان تتوقف وتخفق راية السلام . .

فهل اكتفى القائد عن بذل الجهود من اجل السلام ، ، بعدما اندلعت الحرب بين البلدين ؟

(٦) استعداد للسلام

في قاعة حمورابي ، ، كان أعضاء المجلس الوطني يصفقون للقائد ، ، في زيارته المفاجئة في ١٩٨٠/١١/٤ . .

كانت عقارب الساعة لحظة دخوله ، ، تشير الى العاشرة والدقيقة الخامسة والخمسين صباحاً ، ، وكان النقاش ساعتها يجري حول بعض القوانين .

لم ينقطع النقاش الا مع عاصفة التصفيق المدوية ، ، ترحب بالقائد وزيارته .

كان القائد يستمع لمجرى النقاش . .

وحين طلب الحديث طغى على الجلسة سكون وأنتباه مركز . .

وكان حديث القائد شاملاً ، ، ولم تكن حالة الحرب بعيدة عنه ، ، كان في تناوله لها يسلط الحقائق والأضواء ، ، وكانت من بينها فقرة ظلت مدوية عالية على كل تلك الحقائق ، ، وكانت مدعاة لأن يلاحقها الذهن الى البعيد من معانيها . .

ما قاله القائد في هذه الفقرة ، ، يوضح الكثير عن جهوده التي بذلها ، ، كي لا يندلع القتال ، ، ولا يكون حوار القنابل هو البديل للغة الحوار المتداولة في الخلافات السياسية ، ، ما قاله صـــدام حســـين وقتها كان :

«يشهد الله أننا لم نرد الحرب ، ، يشهد الأخوان العسكريون على ذلك ، ، فعندما كانوا يأتون الي ، ، حاملين صورة الموقف عن التدخلات الأيرانية والأستفزازات العسكرية ، ، ويقدمون المقترحات ، ، لا أجيب عليها ، ، على أمل أن يصل الطرف الأيراني ، ، الى أدنى من الصلة بالعقل ويمتنعوا عن اللعب بالنار ومحاولة أحراق العراق» .

كانت هذه الحقيقة تغور الى الدوافع التي من أجلها بذل القائد مثل هذه الجهود ، ، لأنه كان يعرف أن نيران الحرب عندما تشتعل ، ، فأن وقودها يكون الناس والأقتصاد والأمن والمصالح وكل الآمال ، ، وأنها حينما تندلع فأنها لن تخلف غير الويلات والدمار . .

وكان لذلك كله لم يرد الحرب . .

وعندما أضطرته الظروف لأتخاذ قرار يردع به المعتدين ، ، فأنه لم يغلق فكره في ذات اللحظة على فكرة السلام عندما يدرك الجانب الأيراني ، ، أن طريق الحرب الذي أعتمده ، ، هو طريق الندم والمآسي والخراب . .

ومع قرار الردع ، ، كان التقدم العراقي ، ، كافياً لكي يفهم حكام أيران ، ، أن العراق ليس لقمة سائغة سهلة الأبتلاع ، ، وأنما هو شوكة تدمي الأفواه الطامعة به ، ، والألسن الطويلة المتطاولة عليه . .

وكان مع نصر تقدم القوات العراقية ومطاردتها للحشود الأيرانية في داخل العمق الأيراني ، ، كان مع النصر والنجاح في أنزال ضربة الظفر الكبير ، ، شعور عال للمسؤولية القيادية يتبلور في ذهن القائد ، ، يدفعه الى السلام ويبعده عن الغرور ، ، الذي يسهل الخطوات على طريق مواصلة القتال وصد الأبواب أمام نداء السلام المستقر في ضميره .

ولهذا كانت أوامر القائد أن لا يدخل الجيش الى المدن الأيرانية ، ، عدا المدن التي أقتضت أمنية القوات المسلحة الدخول اليها ، ، وأن يبتعد عن تدمير المنشآت البترولية الأيرانية ، ، التي لم تكن بعيدة عن خطوط التماس ، ، مثلما لم يكن الوصول اليها صعباً في تلك الظروف .

فلماذا لم يحدد القائد مثل هذه المهمة ! ؟

لا أريد أن أجتهد في هذا المجال ، ، ما دام هناك نص واضح للقائد فيه ، ، وجريا على القاعدة التي تقول لا أجتهاد في موضع النص ، ، أستعير ما يقوله القائد :

«لم نرد أن ننسف كل الجسور ، ، وأن نقطع الصلة مع أفق المستقبل ، ، ولم نرد أن نقطع الصلة أيضاً مع أفق المبادئ ، ، ولهذا كان قرارنا حيال ذلك ، ، أن يكون التصرف بقدر الضرورة» .

كان القائد في هذا التصور يريد أن تظل بعض الجسور ، ، كي يكون الطريق من فوقها سالكاً نحو السلام ، ، ونحو أفق المستقبل بين البلدين ، ، وهو الأفق الذي لابد وأن يشهد العلاقة الطبيعية بينهما .

في خطاب القائد في ١٩٨٠/٧/١٧ تظهر ملامح هذا الأفق الذي يريده وهو

يقول :

«أنني أتمنى لأيران ، ، للشعوب الأيرانية كلها الخير ، ، نتمنى لها الأستقلال الكامل والتماسك والتقدم ، ، كما نأمل أن تتوفر الظروف المناسبة في أيران لكي تقوم بيننا وبينها ، ، علاقات حسن الجوار والتعاون المثمر» .

هذه الحقيقة تقطع بالأدلة ، ، على أن العراق لم يتوخى في رده الشامل غير أبعاد التهديد عنه والقضاء على الخطر الذي يستهدفه ، ، وهو أمر يعني أنه لم يكن طامعاً في أجزاء من الأراضي الأيرانية أو راغباً في السيطرة على بعض الثروات الأيرانية أو متطلعاً لأذلال الشعوب الأيرانية ومؤسستها العسكرية . .

وكان يريد الوصول الى ذلك بأمتناع الجانب الأيراني عن العدوان ، ، لكنه لم ينجح .

وكان القائد وهو يتابع تقدم القوات المسلحة العراقية ، ، وأنجازها الأهداف الموكلة اليها ، ، يريد أن يكون الدرس كافياً لأن يقلع حكام أيران عن منطق العدوان ، ، وأن يعودوا الى منطق العقل والسلام .

وكانت خطوات القائد أمينة على هذا الطريق ، ، وهو يدعو الى أيقاف القتال وأحلال السلام بين البلدين . .

وكانت أولاها في غرفة العمليات العسكرية في ١٩٨٠/٩/٢٥ ، ، كان القائد يحدد الصورة السياسية لأعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة ، ، وأبرزها كان الأفصاح عن رغبة العراق السلمية .

وكانت وجهة نظر القائد ، ، أن يكون اعلان العراق عن رغبته السلمية وأيقاف القتال سباقاً لقرار مجلس الأمن في هذا المجال .

ولم تكن رغبة القائد هذه الا تجسيداً للنية العراقية الحقيقية في السلام ، وكون رغبته السليمة قبل كل شيءً ، ، تعبيراً عن أرادته الحقه ، ، قبل أن تكون أنصياعاً الى قرار دولي .

ولم يكن وراء هذا التفكير عدم الأهتمام أو الأكتراث للقرار الدولي الذي يتخذه مجلس الأمن ، ، ولكن كانت خلفه رؤية موفقة من القائد أراد بها أن يكتب التأريخ ، ، أن العراق بلد لا يريد الحرب مع أيران وهو يرغب بالسلام بمحض

أرادته الحرة المستقلة الواعية .

ولهذا كان القائد يعلن بشكل رسمي في ١٩٨٠/٩/٢٨ أستعداد العراق لوقف أطلاق النار وأحلال السلام مع أيران ، ، قبل أن يصدر مجلس الأمن الدولي قراره بهذا الصدد .

وبعد أن أصدر مجلس الأمن قراره بوقف القتال وأنهاء العمليات الحربية ، ، لم يتخلف العراق عن أحترام أرادة المجتمع الدولي .

كان القائد في تعامله مع هذه الدعوة ، ، ينطلق من تقدير للدوافع النبيلة التي جاء بها قرار مجلس الأمن الدولي ، ، وكان لهذا السبب يوجه رسالة خطية الى كورت فالد هايم الأمين العام للأمم المتحدة ، ، بتأريخ ١٩٨٠/٩/٢٩ يعلن فيها قبول العراق لقرار مجلس الأمن الدولي وأستعداده لأيقاف القتال والشروع في مفاوضات سلمية تؤمن حلاً مشرفاً وعادلاً للنزاع .

كان أندلاع القتال ، ، حدثاً مؤسفاً لبعض الأوساط الدولية ، ، التي حاولت العمل من أجل تطويقه وكانت على هذا الطريق مبادرتان ، ، أحداهما من الرئيس الكوبي فيديل كاسترو ، ، بأعتباره رئيساً لمجموعة عدم الأنحياز ، ، وكانت الأخرى من الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق بصفته رئيساً للمؤتمر الأسلامي . .

وقد كانت المبادرتان تهدفان الى أيقاف القتال ، ، وطلب السادة الذين أتصلوا بالقائد ، ، أن يقوم العراق بأعتباره الطرف المقتدر ، ، بمبادرات تحفظ ماء الوجه للطرف الأخر ، ، أوكما سماها الرئيس الباكستاني ، ، بمبادرة عطف ، ، من أجل خلق ظروف مناسبة للطرف الأخر للأستجابة الى نداءات وقف أطلاق النار .

كان القائد صـــدام حســين أمام هذه الطلبات ، ، وفي حسابه أمران ، ، الأول أن السلام هو مطلب دائم للعراق ، ، وهو يتفق مع منهجه الذي حرص فيه على أن لا يندلع القتال .

والثاني ، ، تقديره لكل الجهود التي تريد أن تضع حلاً ينهي القتال فوراً بين البلدين المسلمين . .

كان طلب هذه المجموعات الدولية ، ، نقطة جوهرية لأجتماع مشترك يدعو به القائد صـــدام حســين ، ، القيادتين القومية والقطرية ومجلس قيادة الثورة الى

أجتماع عاجل لتدارس المقترحات التي حملتها هذه الجهات ، ، وبالأخص مقترحات الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق بأيقاف أطلاق النار من جانب العراق لوحده .

أن حقيقة لا يحتار المراقب في المسك بها ، ، وهي أن القائد صدام حسين لا يمتاز بدقة النظر والرؤية البعيدة ، ، بل هو أيضاً لديه أمكانية خارقة في أن يسوق الأدلة والمبررات التي تقنع الآخرين بتقبل وجهه نظره التي تتوافق دائماً مع الوجهة التأريخية في حدسها وتقديراتها والنتائج التي تتمخض عنها .

ولهذا كان في هذا الأجتماع المشترك يحصل على الموافقة على أن يقوم العراق بوقف أطلاق النار من جانب واحد ، ، ولفترة زمنية محددة ، ، وضمن شروط عملية معينة .

وكان على أثر هذا الأجتماع ، ، أن خوَّل القائد صـــدام حســـين ، ، الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق ، ، وثيقة أعلان ذلك في مؤتمر وزراء خارجية الدول الأسلامية المنعقد في نيويورك .

فمع حلول اليوم الثاني من تشرين الاول ١٩٨٠ ، ، كان الرئيس الباكستاني يعلن بموجب هذه الوثيقة ، ، أستعداد العراق لأيقاف أطلاق النار من جانب واحد ، ، أعتباراً من الضياء الأول ليوم الخامس من تشرين الاول عام ١٩٨٠ .

لم يكن صـــدام حســـين في هذه الوثيقة التي بلورها قاصراً عن النظرة المطلوبة حيال مسألة مهمة لم تغفل عنها حسابات القائد ، ، وأنما كانت توازن بين التجارب مع هذه المساعي السلمية وبين حق مشروع للعراق ، ، يعتبر به وقف أطلاق النار منتهياً من جانبه على الفور ، ، ويضطر الى مواصلة العمليات العسكرية ، ، في حالة حدوث أي من الحالات التالية :

١ أي نشاط عسكري يقوم به الجانب الأيراني ، ، في البر والبحر والجو ضد القوات المسلحة ، ، ومهما كان حجم هذا النشاط ، ، وفي أي موقع من مواقع القتال أو ضد الأراضي العراقية ويشمل ذلك أي نشاط أستطلاعي ، ، تقوم به القوات الجوية الأيرانية ، ، على قواتنا المسلحة في مسرح العمليات أو في الأراضي العراقية .

٢ الأستمرار في أطلاق التصريحات العدوانية الرافضة لوقف أطلاق النار .

٣ القيام بتحشدات عسكرية أضافية على خط التماس بين القوات المسلحة للطرفين أو على الحدود العراقية .

٤ . أنتهاء المدة المقررة في الأعلان ، ، من دون اعلان رسمي صريح من أعلى سلطة مسؤولة في أيران ، ، بالموافقة على وقف أطلاق النار من جانبها والأستعداد للدخول فوراً في المفاوضات من أجل أحترام حقوق العراق والأمة العربية وأقرارها قانونياً وفعلياً .

كان القائد حريصاً على التزاماته ، ، ولم يتخل عنها وهو يتابع ردود الفعل الأيرانية ، ، التي جاءت متشنجة على لسان خميني الذي سارع الى رفض ذلك وعدم القبول بوقف أطلاق النار . .

ومع ذلك كانت أوامر القائد صـــدام حســين الى القوات المسلحة بأيقاف عملياتها ، ، مع التقيد بما هو محدد وفق الشروط المذكورة . .

ولم تقف جهود القائد عند هذه الحدود ، ، بل شملت التجاوب مع كل دعوة فيها نداء للسلام ، ، ومع كل مسعى خير يريد أيقاف القتال بين البلدين .

وكانت هذه الجهود بحق وقفات مسؤولة .

كيف ! ؟ . .



(٧) وقفات مسؤولة

- في موضوع النزاع المتفجر بين العراق وايران ، ، كان صـــدام حســين هو رجل المسؤولية ، ، بكل ما تعنيه الكلمة من معان ومواقف . .

هذه الحقيقة ليس مردها ، ، لان القائد حاول بكل الطرق للحيلولة دون وقوع الحرب بين البلدين حسب ، ، بل لانه كان دائما مع كل جهد دولي يريد اطفاء النيران المشتعلة وانهاء الحرب القائمة .

ومع الايام الاولى للحرب ، ، كان النشاط الدولي ، ، تظهر ملامحه المبكرة في اروقة المبنى الشاهق لمقر المنظمة الدولية ، ، مع نداء الدكتور كورت فالدهايم الامين العام للامم المتحدة الموجه الى حكومتي العراق وايران لضبط النفس والاقلاع عن استخدام القوة والدعوة الى حل المشاكل بينهما بالطرق السلمية . .

كان نداء فالدهايم ، ، المبلغ الى ممثلي العراق وايران في الامم المتحدة ، ، يأخذ طريقه السالك الى بغداد ، ، ليكون امام القائد وهو يتابعه ، ، في حين كان النداء ، ، صوتا غير مسموع في طهران ، ، ظلت معانيه غارقة في المحيط الاطلسي ، ، تحملها امواجه الهائجة الى المجهول . . . ! !

كان صوت النداء في بغداد ، ، يتعامل معه القائد صـــدام حســين بذات المسؤولية التي قابل بها قرار مجلس الامن الدولي في ٢٨ / ايلول /١٩٨٠ ومن قبله رسالة الامين العام المؤرخة في ١٩٨٠/٩/٢٤ . .

ولهذا كان رد القائد صـــدام حســين برسالته المؤرخة في ١٩٨٠/٩/٢٩ الموجهة الى الدكتور كورت فالدهايم ، ، يعكس الوقفة المسؤولة ، ، وهو يقول برسالته :

«استلمت رسالتكم المؤرخة في ١٩٨٠/٩/٢٤ واود بهذه المناسبة ان أوكد لكم ، ، بأننا وقبل ان يعقد مجلس الامن جلسته في ١٩٨٠/٩/٢٨ ، ، بوقت قليل اعلنا بخطاب رسمي من شبكات الاذاعة والتلفزيون العراقية ، ، استعداد العراق

لوقف القتال بينه وبين ايران فورا اذا التزم الجانب الاخر بذلك واللجوء الى المفاوضات المباشرة او عن طريق ثالث او اية جهة او منظمة دولية نحترمها ونثق بها للوصول الى حل عادل ومشرف يضمن حقوقنا وسيادتنا .

ان قرارنا هذا يا سيادة الامين العام ينسجم تماما مع روح القرار الذي اتخذه فيما بعد مجلس الامن الدولي رقم ٤٧٩ في الاجتماع ٢٢٤٨ بتاريخ ١٩٨٠/٩/٢٨ ،، لذلك فأن من الطبيعي ، ، ان نقبل القرار المذكور لمجلس الامن ونعلن استعدادنا للالتزام به ، ، اذا التزم به الجانب الايراني ، ، واننا نأمل ان يتخذ مجلس الامن الاجراءات اللازمة لحث الجانب الايراني على الالتزام بهذا القرار .

وبهذه المناسبة ، ، فأن حكومة الجمهورية العراقية تود ان تعبر عن تقديرها للجهود التي بذلتموها شخصيا ومجلس الامن من اجل الحفاظ على الامن والاستقرار في منطقتنا بما يخدم اهداف الانسانية في السلام العادل» .

ومن هذه البداية كان القائد صـــدام حســين يتعامل مع هذا الجهد الدولي بمسؤولية ، ، في حين كان الايرانيون يقابلون هذه الجهود بلا مسؤولية .

وهكذا ظل موقف العراق المتجاوب . . . .

مثلما بقي موقف ايران المتعنت . . . .

ومع اول جولة للمبعوث الدولي اولف بالمه ، ، الى كل من طهران وبغداد ، ، في ١٨ و ١٩٨٠/١١/١٩ ، ، كان هناك مزيد من الادلة على حديث بغداد المسؤول واحاديث طهران المسعورة ! ! !

وخلال جولته الثانية ، ، قابل القائد صـــدام حســين المبعوث الدولي اولف بالمه في ١٩٨١/١/١٤ .

وفي اللقاء ، ، كان المبعوث الدولي يقف على الحكمة والمسؤولية في كل تصور وموقف يطرحه القائد صـــدام حســين ، ، حول ايمانه بضرورة الوصول الى تسوية سلمية عادلة ومشرفة للنزاع واستعداد العراق للتعاون مع المبحوث الدولي .

وكان هذا الموقف الواعي والمسؤول والبناء الذي تلمسه المبعوث الدولي ، ، هو الذي حدى به لان يصرح في اعقاب لقائه مع الرئيس صـــدام حســين بالقول :

«انه لشرف عظيم ان التقي بالسيد الرئيس صـــدام حســـين حيث اكد سيادته ، ، استعداد العراق للتعاون مع المساعي التي تبذل من اجل ايقاف القتال وحل النزاع بين العراق وايران بالطرق السلمية» .

ولكن ما هو الموقف المقابل ؟

لا شيئ على الاطلاق ، ، غير صراخ بالتهديد والوعيد . . . ، ! !

او لا جديد كما يقال في لهجة طهران الرافضة للسلام . . ! !

لكن ذلك لم يمنع المبعوث الدولي من جولاته بين البلدين ، ، وهكذا قدم مشروعا اليهما يتضمن النقاط التالية :

١ — عدم التدخل في الشؤون الداخلية .

٢ — عدم احتلال الاراضي بالقوة .

٣ — حرية الملاحة في الخليج .

٤ — وقف الاعمال الحربية وسحب القوات .

٥ — حل القضايا الاخرى مثل رسم الحدود والسيادة في شط العرب . . .

وهكذا فمع استقبال القائد الى لاولف بالمه في ١٩٨١/٦/٢٣ ، ، كان يؤكد من جديد ، ، موقف العراق في التعامل الايجابي مع مساعي الهيئة الدولية ، ، وهو الموقف الذي ظل وما يزال بنفس الروحية والاتجاه بتعاون مع كل جهد ينصب على انهاء حالة الحرب بين البلدين .

لم يقف جهد القائد صـــدام حســـين عند هذه الوقفات المسؤولة ، ، بل ظل يتجاوب مع كل الانشطة الدولية الاخرى ، ، ومنها تجاوبه مع لجنة النوايا الحسنة لدول عدم الانحياز .

وقد كان تجاوب القائد مع هذه اللجنة منذ البدايات . .

كيف . . . . ؟

في ٢٠ / تشرين الاول /١٩٨٠ ، ، كانت احدى قاعات الامم المتحدة ، تشهد اجتماعا عقده مكتب التنسيق التابع لدول عدم الانحياز .

في هذا الاجتماع كانت الحرب العراقية الايرانية محورا رئيسيا فيه ، ، وكان سير النقاش فيها ينصب على ضرورة انهاء القتال ، ، وان تأخذ حركة عدم الانحياز دورها

في هذا المجال ، ، ولهذا تمخض ذلك الاجتماع ، ، عن تشكيل لجنة وزارية لتقصي الحقائق وايجاد سبل الحل ، ، لانهاء النزاع بين العراق وايران ، ، ولهذا دعيت هذه اللجنة «بلجنة النوايا الحسنة» . .

وحينما انفض الاجتماع المذكور ، ، كانت اللجنة تضع اولى خطواتها للعمل على هذا الصعيد ، ، بالاتفاق على موعد لها تجتمع فيه بالقريب .

وكان الموعد الاول لاجتماع اللجنة ، ، والطائرة التي تحمل رئيسها ايسيدو ماليركا وزير خارجية كوبا ، ، وبقية اعضائها ، ، تهبط في العاصمة اليوغسلافية .

كان اجتماع اللجنة الاول في بلغراد في ٢ تشرين الثاني /١٩٨٠ ، ، يتبلور عن قرار لها بزيارة العراق وايران . .

وكالعادة . . . .

كانت بغداد ترحب . . . .

وكانت طهران تعربد . . . .

واكثر من ذلك كان القائد صـــدام حســـين ، ، قبل ان يستقبل العراق هذه اللجنة يعلن تسهيلا لمهمتها ، ، استعداد العراق لسحب قواته فورا من الاراضي الايرانية مقابل الاعتراف بحقوقه . .

واستمرت اللجنة بأتصالاتها ، ، وفي كل مرة تجد الوقفة المسؤولة من قائد العراق ، ، وحصادا مرا من المسؤولين الايرانيين ، ، ولهذا اصدرت في ١٩٨١/٥/١٣ بعد اجتماعها مع القائد بياناً اعربت فيه عن ارتياحها لمواقفه واستعداده الدائم للتعاون معها . .

وفي ١٩٨١/٨/٨ التقى القائد مرة اخرى مع اللجنة خلال زيارتها الى بغداد ، ، واكد لها بقاء العراق على نفس مواقفه واستعداده لاستقبالها ، ، لاستئناف مهمتها ، ، بصرف النظر عن موقف الجانب الايراني .

لم تقطع لجنة النوايا الحسنة الامل ، ، ففي اوائل نيسان ١٩٨٢ ، ، وعلى اثر الاجتماع الاستثنائي لمكتب تنسيق دول عدم الانحياز المنعقد في الكويت ، ، ذهبت اللجنة بعد انتهاء الاجتماع الى طهران ، ، تحمل معها مقترحات لانهاء النزاع بين العراق وايران ، ، حددته بالنقاط التالية :

١ – انسحاب عراقي غير مشروط .
٢ – تحقيق دولي لتقرير الجهة المسؤولة عن الحرب .
٣ – تعويض عن الاضرار الناجمة عنها .

لكن ايران كما هو مألوف منها ، ، وكما هي النوايا العدوانية المستقرة في عقول مسؤوليها ، ، لم تستجب للجنة وانما حاولت ان تسوف جهودها ، ، وبالمقابل فأن القائد صـــــدام حســـــين اكد وقفاته المسؤولة وهو يعلن ، ، ان العراق يوافق على سحب قواته فورا اذا ما اعلنت ايران انهاء الاعمال العدوانية واحترامها لحقوق العراق المشروعة . .

ولم تكن وقفات القائد المسؤولة فقط على هذا الصعيد ، ، وانما كانت ايضا مع لجنة المساعي الاسلامية الحميدة .

(٨) مع لجنة المساعي الحميدة

لم يتوقف جهد القائد صـــدام حســـين لايقاف القتال نتيجة للدعوات غير المسؤولة الصادرة عن مركز القرار الايراني الرافض للسلام .

ولم يقابل التشنج والانفعال الايرانيين ، ، برد معاكس يتخلى بموجبه عن المساعي المبذولة من الاطراف الدولية لانهاء حالة القتال الدائرة بين العراق وايران .

وكان هذا الموقف المسؤول يظهر منذ البدايات والصخب الايراني ما يزال راكبا حماقاته ، ، معتقدا ان التهور حيال هذا الموضوع ، ، يمكن ان يحقق له بعض الحسابات والنتائج .

ولهذا كان القائد يتجاوب مع كل المساعي الدولية التي تريد انهاء حالة الحرب ، ، ويلتقي بها ، ، ومنها تجاوبه مع لجنة المساعي الاسلامية-الحميدة في جهودها التي ابتدأت في ١٩٨٠/٩/٢٨ ، ، وظل هذا التجاوب مستمرا مع كل مساعيها اللاحقة . .

في بداية شهر آذار من عام ١٩٨١ ، ، وصلت الى بغداد في ساعة متأخرة لجنة المساعي الاسلامية الحميدة . .

كانت اللجنة بكامل اعضائها وبرئاسة الرئيس الغيني السابق المرحوم احمد سيكوتوري .

كان الوقت ساعتها يشير الى تمام الساعة الثانية عشرة والنصف ليلا ، ، ووفد لجنة المساعي الحميدة ، ، والجانب العراقي يتحلقون حول مائدة مستديرة . .

وكان القائد قبل وصول اللجنة ، ، قد اطلع في الصباح في بريده الصحفي على خطاب خميني ، ، الذي كان يرفض السلام ويصر على منطق الحرب والتهديد فيه .

وكانت اوامر القائد ، ، ان يطبع نص الخطاب ويترجم الى اللغات الانكليزية والفرنسية ، ، مع اعداد تسجيل صوتي للخطاب .

كانت اللجنة في اجتماعها ، ، مع الوفد العراقي امام وثيقة ناطقة وحديث نصه

معروض عليها . .

وكانت رغبة القائد قبل الدخول في المحادثات ان تطلع البعثة على حديث خميني ، ، وان تقف عند معانيه . .

لم يكن القائد في هذا الطلب ، ، الذي لم يأخذ من الوقت اكثر من ثلث ساعة ، ، يريد التراجع عن قراره بقبول السلام ، ، وما اوضحه سابقا في جلسات ماضية عن الالتزام بنهج السلام والعمل على ايقاف الحرب بين البلدين .

كان القائد وهو يطلب ذلك ، ، يضع اللجنة على المزيد من الحقائق ، ، لكي تتفهم الكثير عن عقلية النظام الايراني ومنطقه وتعامله مع الامور .

وحين ابتدأت المحادثات . . .

كانت اللجنة في زيارتها تريد من العراق مقترحات وتدابير عملية ، ، تدفع بخطوات السلام الى امام ، ، او تجعلها في طريق يمضي بها الى ما هو مطلوب .

وكان القائد وهو يستمع الى طلب اللجنة ، ، صريحا في رده وهو يقول :

«هناك نقطتان ، ، الاولى هي ان ايران لحد الان ، ، لم تقل رأيها في ما يتعلق بوقف اطلاق النار ، ، في حين اننا قد قلنا رأينا واضحا .

وفي الحالة التي تقبل فيها ايران وقف اطلاق النار ، ، بامكاننا ان نتناقش في التدابير العملية اللاحقة .

والنقطة الثانية : يبدو لنا من الناحية العملية والمنطقية ، ، ان تقول لنا ايران ، ، اين هي خارطتها لكي تحرج المعتدي كما تصوره . .

عليها ان تقول اين هي حدودها ، ، وماذا تعترف للعراق من حقوق مقرة بموجب المعاهدات الدولية» .

كان رئيس اللجنة واعضاؤها يستمعون الى القائد ، ، ولم يكن الوقت المتأخر يثقل عليهم ، ، لان كلمات القائد وحديثه ومنطقه ، ، يجعل الاذهان متيقظة في سهرها حتى ساعات الليل الاخيرة . .

ولم يكن رد اللجنة اكثر من نقل كلام ايجابي عن رئيس الجمهورية وقتها الرئيس ابو الحسن بني صدر .

كان القائد يصغي الى ما حملته اللجنة من كلام ، ، وبعد ان انهى الرئيس

سيكوتوري حديثه الذي ضمنه ذلك الكلام الايجابي الصادر من رئيس الجمهورية الايرانية وقتها ، ، كان تعقيب القائد صـــدام حســين عليه ، ، دقيقا وعميقا في تاشيره للحقائق او توضيحه لواقع الحالة الايرانية وهو يقول :

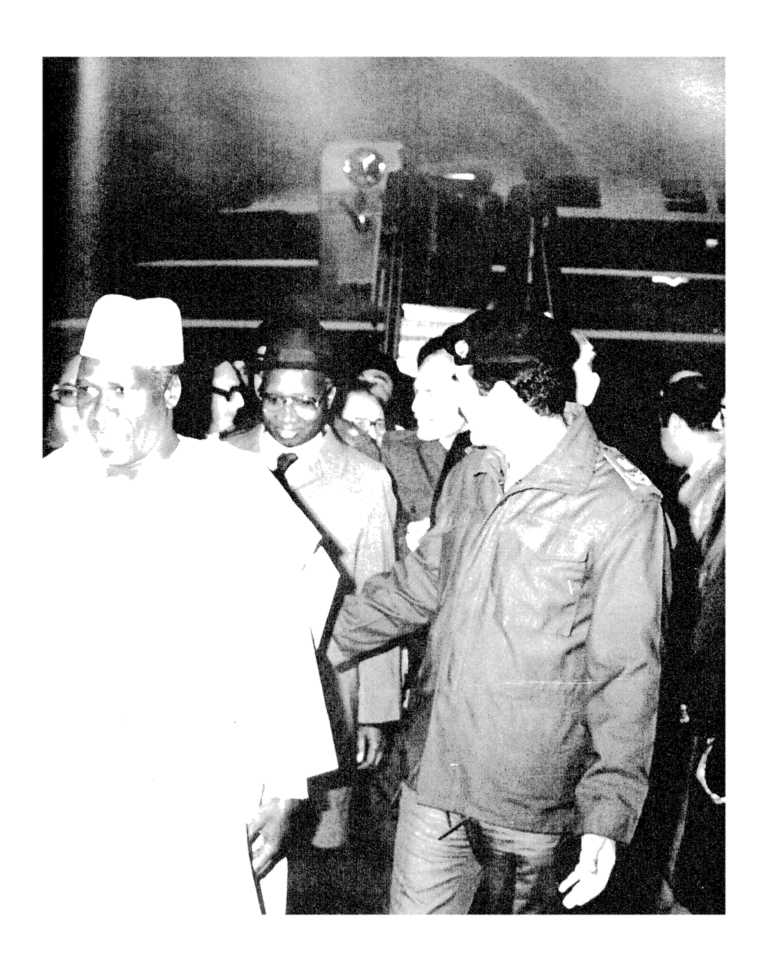
«إننا لا اريد ان اناقشكم عن رأي السادة المسؤولين في ايران معكم ، ، وكلامهم الايجابي في هذا الموضوع كما تفضلتم . .

ولكن اريد ان اشير الى حقيقة موضوعية وهي ، ، ان كلام السيد الخميني ، ، ليس كلام رجل دين وانما كلام دستوري ، ، اي كلام رجل دين مسؤول بموجب الدستور ، ، وهناك مواد في الدستور الايراني ، ، تحدد ماهية صلاحيات الخميني ، ، واذن فالكلام الذي امامنا للسيد الخميني ، ، والذي هو نص لما ورد من اذاعة الجمهورية الاسلامية الايرانية ، ، هو ليس كلام رجل دين مثل رجال الدين الذين عندنا ، ، عندنا رجال دين محترمون ، ، يقولون رأيهم في شؤون الفقه وفي الاجتهادات ، ، ويمثلون مختلف الطوائف والاديان ويقولون رأيهم ، ، وقد يقولون رأيهم بالسياسة من موقع المواطن المخلص في بلده. قد يقبلون وقد يرفضون ، ، ولكن من موقعهم كرجال دين . . السيد الخميني ليس رجل دين من مثل هذا الموقع ، ، لكي تقول ان كلام الاخرين هو الرسمي ، ، وكلامه معدل ضمنا من الموقع الادنى ، ، لو كان الموقع الذي التقيتم به هو الاعلى لكان كلامه يعتبر معدلا لموقع الكلام الادنى ضمنا او صراحة ، ، ولكن عندما يكون الكلام الرسمي كما تعبرون صادراً من موقع أدنى في الدستور الايراني ، ، يكون كلام الموقع الاعلى هو الاساس» .

كان الاهتمام باديا على الجميع ، ، وكانت الكلمات الحكيمة تضع امامهم الصورة ، ، كاملة من غير رتوش او اصباغ . .

وكان القائد وهو ينتهي من هذا التوضيح يجيب عى تساؤل اللجنة حول ايقاف القتال بقوله :

«نحن نقبل ايقاف القتال فورا ، ، وخلال ست ساعات بامكاننا ان نوصل التبليغ الى كافة قطعاتنا ، ، بما فيها وحداتنا في الحافات الامامية ، ، ونترك للايرانيين مثل هذه الفرصة ، ، وبالوقت الذي يحددونه» .



كانت هذه الحقيقة التي يضعها القائد امام اللجنة فرصة للتشاور والعودة من جديد ، ، ولهذا وصلت في اليوم التالي الى بغداد في الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين ، ، وعقدت في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والخمسين ، ، مباحثات جديدة ، ، اكد فيها القائد التزام العراق ، ، بجوهر قرارات المؤتمر الاسلامي ، ، والى ضرورة تفهم اسباب الحرب ومنع الجانب الايراني من غطرسته وسياسته العدوانية التوسعية .

وكانت كل هذه الامور ، ، مع توضيح القائد للعلاقة التي يجب ان تقوم مع ايران ، ، تكسبه مزيدا من الاحترام لحكمته وتصوراته الواقعية للامور ، ، لان القائد في كل جلسة يحدد نظرة العراق للعلاقة المطلوبة ، ، في النقاط التالية :

١ — ان لا ترتب القوة حقوقا غير مشروعة لاي من الطرفين.

٢ — ان يحترم كل بلد سيادة البلد الاخر ، ، على اراضيه ومياهه .

٣ — ان يختار كل بلد الطريق الذي يؤمن به بدون مداخلات من البلد الاخر.

٤ — ان لا يتدخل اي بلد في الشؤون الداخلية للبلد الاخر.

ولم تتوقف مساعي لجنة المساعي الحميدة ، ، ولهذا كانت في ١٩٨١/٣/٣١ تزور العراق ، ، وتعقد اجتماعها مع القائد . .

في هذا الاجتماع تحدث القائد ، ، وكان ابرز ما في الحديث ، ، قوله :

«ان العراقي في الجبهة غدا جزءا من الارض التي يقف عليها والتي يتخندق بها ، ، واذا كان احد بامكانه ان يتصور انه قادر على ان يزيح العراقي بالسلاح فهو مخطئ .

فالعراقي الجديد لن يزاح بالسلاح ، ، والحالة الوحيدة التي تزيحه من مكانه ، ، عندما يقتضي الامر ان يتزحزح من مكانه ، ، هو قرار السياسة واحترام حقوقه» .

ولم يقف القائد عند هذه الامور ، ، التي تريد من ايران ، ، ان تنصاع لمنطق الحقائق ، ، وانما كان القائد يذهب الى ابعد من ذلك ويسحب البساط من تحت الدعوات الايرانية ، ، التي ظلت تكثر الحديث عن تشكيل لجنة لتقصي الحقائق عمن ابتدأ الحرب .

وهكذا كان القائد صـــــدام حســـين في ١٩٨١/٤/٢٢ يوجه رسالة الى الرئيس أحمد سيكوتوري يقترح فيها على لجنة المساعي الحميدة تشكيل لجنة تتولى

لتقصي الحقائق عن الجهة التي بدأت بالعدوان والحرب ، ، ويرجو فيها ان تعرض اللجنة هذا المقترح على الحكومة الايرانية .

وكالعادة فأن الجانب الايراني لم يتجاوب مع هذا المقترح ، ، الذي كان في السابق يطالب به .

ولم يكن رفض ايران لذلك الا تأكيدا للحقيقة التي كانت ايران هي المتورطة فيها بأشعال لهيب الحرب ، ، مثلما يوضح الرفض المزيد من الادلة على ان النوايا الايرانية هي نوايا للعدوان والتوسع .

وكان العراق رغبة منه في السلام وانهاء حالة الحرب هو السباق كالعادة للتجاوب مع كل الجهود المنصبة على ذلك ، ، ولهذا كان القائد حريصا على التجاوب مع النداء الذي وجهته لجنة السلام الاسلامية في ١٩٨٢/٦/٩ لانهاء الحرب ، ، وكان القرار على هذا الصعيد هو :

١ - استعداد العراق الفوري لوقف اطلاق النار وانهاء كل اشكال الاعمال المسلحة ، ، وذلك فور موافقة ايران على وقف اطلاق النار .

٢ - استعداد العراق الفوري للمباشرة بسحب كافة قواته العسكرية من كل الاراضي الايرانية والمدن الايرانية ، ، التي تواجدت فيها لتأمين الدفاع عن ارض العراق ومدنه . ومن ذلك مدن قصر شيرين ومهران وسومار وخسروي والعودة الى الحدود الدولية ، ، على ان يكمل انسحاب القوات في مدة اقصاها اسبوعين .

٣ - في حالة عدم الاتفاق بصورة مباشرة مع ايران حول القضايا الخاصة بموضوع النزاع عن طريق الهيئات التي تتولى الوساطة بين العراق وايران ، ، فان العراق مستعد لقبول قرار تحكيم ملزم يصدر عن المؤتمر الاسلامي في جلسة طارئة تعقد لهذا الغرض ، ، وفي حالة رفض ايران تحكيم المؤتمر الاسلامي ، ، فان العراق يقبل باي قرار تحكيم ملزم ، ، يصدر عن حركة عدم الانحياز او عن مجلس الامن التابع للامم المتحدة .

ان كل هذه الامور تؤكد ان صدام حسين هو رجل المسؤولية والسلام ، ، ولهذا فهو مع قرب حلول شهر رمضان في عام ١٩٨٢ ، ، كان

يستقبل وفدا للجنة المساعي الحميدة ، ، حمل رسالة الى السيد الرئيس صـــدام حســـين من الرئيس احمد سيكوتوري فيها رغبة اللجنة لانهاء القتال قبل حلول شهر رمضان المبارك .

كما تتضمن الرسالة دعوة الرئيس صـــدام حســـين ، ، للذهاب الى مكة المكرمة ، ، ودعوة مماثلة للرئيس الايراني من اجل البحث مع اللجنة في الوصول الى تسوية عادلة ومشرفة للنزاع قد ابلغ وفد اللجنة بصورة رسمية استعداد السيد الرئيس صـــدام حســـين للذهاب الى مكة في الموعد المحدد ، ، وكذلك استعداد العراق لارسال وفد مخول في حالة عدم تلبية الرئيس الايراني للدعوة وذهاب وفد ايراني على مستوى ادنى .

وكالعادة ، ، كانت ايران ترفض ، ، وكان الذي يدفعها الى ذلك اطماعها التوسعية ، ، وتزيين الطريق امامها من قبل وجوه عربية كان لها وقفة غريبة في دفع ايران الى الحرب وتشجيعها على الاستمرار بها وتقديم المساعدات لها . . ! !

(٩) وقفة غريبة

كانت التقارير الأولى ، ، وقبيل بدء العدوان الأيراني ، ، تشير الى تورط أنظمة عربية معينة ، ، في تسعير الحقد الخميني على العراق .

وكان التواطؤ في جوهره ، ، أبعد من أن يتخذ شكل علاقات متطورة ، ، يصطف من خلالها النظامان السوري والليبي مع النظام الأيراني ، ، بل كان يمتد الى تهيئة العقل المتوتر والحقود في أيران ، ، لتفجير الحالة مع العراق ودفعها الى مستوى الحرب بين البلدين . . ! !

وحين كانت التقارير الصحفية في البدايات ، ، تحمل في طياتها مظاهر للتنسيق المشبوه والعلاقات غير الشريفة ، ، كان القائد يقابل ذلك بألم ، ، ليس لأن قوة مضادة تضاف الى قوة معادية ، ، أو أن فعلاً معاكساً يلتقي بأخر ليشكلا في الأخير ، ، مركزاً أوسع للتحرك المعادي للعراق ، ، وأنما مصدر ألم القائد من ذلك كان ، ، أن يقدم النظامان السوري والليبي من جراء هذا التواطؤ ، ، خيطاً شاذاً في الكيان العربي يحفر فيه أثاراً غريبة وخطيرة ومدمرة .

وكانت أولى كلمات القائد التي سجلتها في ذهني وهو يتابع هذه الحالة المريرة هي :

«اللهم أجعل هذه التقارير كاذبة أو واهمة ، ، فما يقلقني شيئ في حياتي ، ، بقدر ما أشاهد حالة يصطف فيها عربي الى جانب أجنبي ضد شقيقه العربي . .» .

كان هم القائد وتفكيره حيال هذه القضية ، ، يتعدى أثارها المناهضة للعراق الى قيمتها الأخلاقية ونتائجها على العمل القومي العربي ، ، وخوفه من أن يسهم هذا التدني الخطير ، ، في خط بداية مهما يكن ضعيفاً أو باهتاً ، ، هو في مقاييسه الأخلاقية والقومية مرعباً ، ، حينما يحرض العربي على أخيه العربي ، ، ولا يكتفي بالتحريض وأنما يصطف الى جانب الأجنبي ، ، في تهديداته ضد العربي ، ، وتصريحاته التي لا تكف عن الحديث للسيطرة على أراض عربية . .

أن صـــدام حســـين في هذه الرؤية ، ، لم ينطلق من نظرة قومية ترصد ،

حالة من التنكر القومي الصارخ ، وأنما كان يخشى من أن يجد هذا المنزلق ما يقود الى أستسهال الحالة وأشاعتها ، ، وتقديم السابقة الخطيرة في تصديع الولاء القومي وضرب أقدس مقدساته وأيذاء الوجود والمستقبل العربي .

ومصدر القلق في ذلك يكمن في أن القائد صدام حسين ، ، في تفكيره وتصرفاته ، ، يريد أن يشيع تقليداً في الحياة العربية ، ، يستجيب لما يعزز قيمتها الدولية ، ، وهو عندما يصطرع عربي مع أجنبي ، ، يكون العربي الى جانب أخيه العربي في هذا الصراع .

والسبب عنده في ذلك ، ، هو أن صراع أي قطر عربي مع أية قوة أجنبية خارجية ، ، هو ليس صراعاً بين الحاكم وتلك القوة ، ، وأنما هو يستهدف في حالة أنتصار الأجنبي ، ، الى تهديد الأرض العربية والشعب العربي الساكن عليها .

هذه الحقيقة لم تعد سراً في عقلية القائد ، ، وأنما هي ملموسة في تفكيره وفي تصرفاته ، ، وأذكر ما يؤكد ذلك ، ، أنه في مرحلة تأزم العلاقة بين العراق والسعودية ، ، كانت للعراق في تلك المرحلة نفس علاقاته المتطورة مع الأتحاد السوفيتي الصديق ، ، وقتها كان هناك مؤتمر صحفي للقائد التقى به مع مجموعة كبيرة من مراسلي الصحف ووكالات الأنباء الأجنبية ، ، وكان أحد الأسئلة الموجهة اليه ، ، هو عن ما هي تصرفات العراق حيال أية محاولة أجنبية مناوئة لأي قطر عربي أخر . .

وقتها كان جواب القائد :

«لو أن أصدقاءنا السوفيت ، ، أصطدموا مع السعودية ، ، فأن الأشقاء سيجدون جيشنا يحارب جيش الأتحاد السوفيتي الصديق قبل محاربة الجيش السعودي له» .

هذه الحقيقة تكفي لأن تعبر عن رؤية القائد لهذه المسألة ، ، وهو في اعلانها لم يتحرج ولم يضع في حسبانه غير المصلحة القومية ، ، كان أميناً وصادقاً مع نفسه ومع مبادئه ، ، وهو بذلك يتفق مع نظرته التي يعقب فيها على الحالات المزرية في الواقع العربي وهو يقول :

«أن الدم العربي لا يمكن أن يكون ماء» .

بضوء هذه الخلفية والرؤية المرتبطة بالمعاني التي يريدها ، ، يمكن أن نفهم حالة المرارة التي كان يحس بها وهو يتابع التقارير الصحفية وغيرها ، ، عن تواطؤ النظامين السوري والليبي مع الطغمة الخمينية .

كانت حالة التواطؤ تزداد خيوطها وضوحاً مع بداية الحرب ، ، وصارت معلومات موثوقة ، ، تحملها أجهزة المخابرات والأستخبارات العسكرية من مصادرها بكل دقة وبتفاصيلها الكاملة .

وكانت هذه التقارير وهي ترفع الى القائد من جهاتها يحتفظ دون أن يوعز بفضحها أو نشرها ، ، لأنه لم يرد أن يعرض الضمير العربي الى هزة يسببها هذا الفعل الشنيع ، ، وكان ينتظر ويتريث ، ، لعل الوقت يوقظ أصحابها على سوء فعلتهم ، ، ولكن المتورطين من حملة الجنسية العربية بدلاً من ذلك أصبحوا يتمادون في جريمتهم ، ، وصار التنسيق كبيراً ، ، بحيث أن التقارير المتجمعة ، ، كانت توحي أن السكوت غير مجد ، ، ولهذا السبب أعلن الفريق أول الركن عدنان خيرالله نائب القائد العام وزير الدفاع في أول مؤتمر صحفي يعقده بعد الحرب ، ، خبر هذا التواطؤ وكشف حقائقه . .

كانت حسابات المراهنة ، ، من وراء هذا التورط ، ، هي تمكين النظام الأيراني من القضاء على صـــدام حســين وثورته في العراق ، ، وحينما أكتشفوا أن الرهان خاسر وأن جذور الثورة في العراق راسخة ، وأن صدام حسين محروس في ضمير العراقيين ، ، راحوا يمارسون تشويهاتهم الأعلامية ، ، في أذاعاتهم وأجهزتهم ، ، وكان من أغرب هذه التشويهات برقية تلقاها القائد من العقيد معمر القذافي في ١٩٨٠/١٠/١٥ يقول فيها :

«أن هذه الأرواح التي تزهق والسلاح الذي يدمر ، ، من كلا الجانبين ، ، يمكن توفيره لتحرير القدس قبلة المسلمين وعاصمة فلسطين .

وأن الذين سقطوا في هذه المعارك بين الأشقاء ، ، لن يكون بينهم شهيد ، ، فالقاتل والمقتول في النار» .

كانت البرقية وهي تقدم الى القائد ، ، تحمل قبل سطور الحقد والتعامي عن الحقائق ، ، كيف يحاول العقيد القذافي فيها أن يساوي بين الشقيق والغريب ، ،

وبين من يدافع عن الأرض العربية ومن يريد الأعتداء عليها من خلال عدوانه على العراق ، ، كانت تحمل من الأستفزاز للمشاعر القومية الكثير ، ، مما جعل القائد يسمي أصحابها بعرب الجنسية تفريقاً لهم عن العرب ألاصلاء ، ، لأنهم لم يكن يجمعهم الى العروبة شيئ عدا اللسان العربي ، ، ولهذا كان القائد يرد ببرقية جوابيه ، ، فيها ما يكفي من دلالات ، ، وكان نصها :

«عطفاً على رسالتكم ، ، ومن موقع المسؤولية العربية دماً ولحماً وعطاءً وضميراً ومن موقع الأقتدار في منازلة العدو ، ، أن شاء الله ، ، أقول لكم شهداؤنا في الجنة وأصدقاؤك ومن ينتصر لهم في النار ، ، أن روح الله في العرب والعزة للعرب والرفعة لقيم السماء .

وقد جاء توقيع القائد على هذه البرقية تحت : أخوكم في الجنسية صـــدام حســين» .

أن هؤلاء الذين يتنكرون للعراق ، ، لا يتنكرون لصـــدام حســين ، ، لأن قضية الحرب على العراق أبعد من ذلك على الرغم من أن الحقد الأيراني يعبر عن عدوانية من خلال العداء للقائد ، ، أنهم يتنكرون بوقفتهم الغريبة ، ، للعروبة وللمسؤولية القومية ، ، بكل مفاهيمها وقيمها .

أن القائد يرى ، ، أن الأرض العربية ، ، فوق المنازعات ، ، وهي أعمق من أن ينظر اليها ، ، من زاوية الخلافات ، ، وهذه النظرة هي التي جعلت القائد يتصرف بضوئها في حرب تشرين عام ١٩٧٣ ، ، بالصورة التي تصرف بها ، ، حيث تم أرسال الجيش العراقي الى جبهات القتال مع العدو الصهيوني وصان دمشق من خطر السقوط تحت أحتلاله البغيض .

في حرب تشرين ، ، كان نائب رئيس الوزراء السوري محمد حيدر يزور بغداد ، ، كان وقع خطواته ثقيلاً وحالته النفسية ، ، تعكس صورة القلق الواضح .

كان خلال مقابلته مع القائد صـــدام حســين ، ، تحكي نظراته الزائغة قبل لسانه ، ، حالة الأوضاع في الجبهة السورية .

وأبتدأ المسؤول السوري كلماته الغائرة ، ، وهو يقول :

«أن الجيش الأسرائيلي قد سحق جميع دباباتنا وتقدم بأتجاه دمشق ، ، ولم يبق

أي نوع من الأسلحة لديه الا بعض أنواع الأسلحة المضادة للدروع» .

لم تكن مسؤولية القائد القومية وفروسيته ، ، تجعلانه في موقف يتشمت فيه بالنتيجة التي وصلها النظام السوري ، ، كان الحزن بادياً على القائد ، ، ولم يكن في الحزن لحظتها غير الحرص القومي والشعور بنداء الواجب القومي ، ولذلك لم يعتب ولم يفتح ملف الخلافات أو يضع الشروط أو أن يستغل الفرصة ، ، كان عند مسؤولياته القومية ، ، قبل الحالة التي قام بنقلها محمد حيدر ، ، وهو يدعو القيادة القومية والقطرية ومجلس قيادة الثورة الى أجتماع مشترك ، ، ليقرر مشاركة العراق بالحرب وبفعل قوي وبدور مقتدر .

وقتها كان جواب القائد الى نائب رئيس الوزراء السوري مقتضباً لكنه عميقاً في معناه القومي وهو يقول :

«الدبابات العراقية بأتجاهها اليكم والطائرات قد وصلت الى دمشق» .

أن القائد صدام حسين لم يتخذ هذا الموقف الا تجسيداً لنظرته القومية ، ، على الرغم من أن تقديرات القائد الستراتيجية ، كانت تلامس المقاصد التكتيكية لحرب تشرين ، ، كونها حرباً للتحريك وليس للتحرير . .

كان قراره بالمشاركة منصب على أن يصون دمشق والأرض السورية من مخاطر الأجتياح الصهيوني ، ، لأن هذه الأرض ليست أرض الحاكم ، ، وأن الشعب السوري هو شعب شقيق والتهديد الصهيوني تهديد للوجود العربي .

أن هذه الواقعة أذ تفضح عقلية عرب الجنسية ، ، في تورطهم المخزي ضد أرض العراق العربية ، ، تكشف مدى خستهم وهم يصرون على السير في هذا الطريق ، ، لأن التواطؤ السوري والليبي لم يتوقف عند ذلك بل أمتد ليشمل تقديم السلاح ، ، ووضع الخطط وتقديم المعلومات وأكثر من ذلك أن الجانب السوري كلما يتوصل الجانب الأيراني الى قناعة من عدم جدوى حربه ضد العراق يسارع بتقديم «النصيحة» له بضرورة الأستمرار بالحرب لأن «أنهيار» العراق على الأبواب . . ! ! !

وأستمرار على هذا الطريق ، ، منع النظام السوري النفط العراقي من المرور عبر أراضيه ، ، في محاولة منه للتأثير على العائدات المالية للعراق من العملات الصعبة .

أن تورط عرب الجنسية لم يقف عند هذا المستوى ، ، بل أنهم عملوا متواطئين مع النظام الأيراني لأثارة البلبلة في صفوف الشعب العراقي ، ، وهم لم يكتفوا بحملات الكذب والأفتراء والتحريض ، ، بل تعدوها الى أعمال دنيئة ومريبة يندى لها الجبين ، ، ويقشعر منها .

ففي أوائل تموز تمز عام ١٩٨٠ كانت الجهات الأمنية ، ، تكتشف محاولة دنيئة تخطط من خلالها الجهات الأيرانية بمشورة أولئك الذين ماتت ضمائرهم من عرب الجنسية ، ، لأن تسمم مياه الشرب في كربلاء والنجف لكي تنسب ذلك الى الحكومة العراقية ، ، لأثارة الضغائن الطائفية بين أبناء الشعب الواحد .

كان التقرير المرفوع الى القائد ، ، يحوي على هذه الدسيسة ، ، وكان أمر القائد حيالها الذي أصدره الى الأجهزة الأمنية :

«أفتحوا عيونكم وتابعوا الموضوع . .» .

وكان القائد في امره هذا ، ، واثقاً قبل أي شيء ، ، أن مثل هذه المحاولات لا تهز شعبنا على الأطلاق ، ، وأنها سرعان ما ترتد الى نحور الأعداء سهاماً قاتلة .

أن عرب الجنسية في تورطهم بهذا التواطؤ الذي أعتقدوا فيه ، ، أنه الكفيل بالقضاء على العراق وقائده ، ، قد توهموا مثلما توهم أولئك الذين أستهدفوا مثل هذه الغاية وقاموا بدفع الخميني الى حكم أيران ، ، لكي يجددوا صيغ العداء على العراق بطريقة فنية وخبيثة .

هذه الحقيقة قد كشفها القائد مبكراً ، ، وهو في ١٩٨٠/٨/١٩ ، ، خلال زيارته معسكر القادسية للعمل الشعبي يسلط الأضواء عليها بقوله :

«أن الذين خططوا لمجيء الخميني بهذه الكيفية ، ، يبنون آمالاً ، ، كانوا يتصورون أن أول جهة سوف يصرعها هو العراق ، ، ولكنهم كانوا واهمين ، ، ولم يفهموا شعب العراق» .

والحقيقة أن من يركب الوهم ، ، لن يوصله ذلك إلا الى السراب . . . ! ! !

الفصل السادس

القائد
والمسألة الكردية

(١) الفكرة الصعبة

كانت البداية غاية في الصعوبة ، ، او كادت تكون في عداد المستحيل . .

كانت خطواتها محفوفة بالمخاطر ، ، والمجهول فيها يبدو مخيفا ، ، كونها بدت مجازفة غير مأمونة العواقب ، ، والنتائج تكاد تكون فيها شيئا لعواصف قد لا تبقي ولا تذر .

وكان الخيار السهل في مثل هذه الحالة ، ، هو الوقوف في البعيد ، ، من غير مراهنة ، ، فرص النجاح فيها ضئيلة او هي في المنظور الاعتيادي ، ، محكوم عليها بالفشل والاخفاق . .

وكان هذا الخيار يرضي كثيرين ، ، ممن يتحسبون فوق العادة ، ، ويكون حسابهم الدائم عدم الدخول الى العوالم غير المأمونة . .

كانت القضية الكردية مشكلة المعضلات المستعصية وكانت المسألة مخططا لها ، ، ان تكون «حصان طروادة» الذي يختفي فيه اعداء الثورة والعراق .

وكانت الحالة عقب انتصار الثورة ، ، معقدة في تشابكاتها ، ، تراكمات للماضي تفعل ، وسلبيات العلاقة بين حزب البعث العربي الاشتراكي والتيارات السياسية تعصف ، وكانت وجوه قيادية كثيرة في القوات المسلحة ، ، التي ما تزال قبضة الحزب عليها رخية في جوانب ليست قليلة ، ، تريد بقاء المسألة الكردية من غير حل لامور وحسابات .

وكان مما يزيد الامر تعقيدا ، ، وجود فئات في الشعب العراقي وفي صفوف حزب البعث بالذات لا ترتضي حلا للقضية الكردية يقترب من الحكم الذاتي للاكراد او يتجه اليه ، ، معتقدين ان هذا السبيل طريق ينتهي الى الانفصال ، ، او هو لن يكون غير محطة لقطار الدعاوى الانفصالية التي لا تتوقف الا عند جزء معزول عن العراق . . !

تلك هي الحالة السائدة آنذاك ، ، كانت صورتها في الاقل تعني ، ، ان التفكير

بالحكم الذاتي لكردستان ، ، تفكير لم يحن وقته بعد او هو خطورة لم يحن ميعادها ، ، وكان كثيرون يتهيبون من الخطوات على مثل هذا الطريق ، ، ويعتبرون ذلك مجازفة او هي فرصة ليست في صالح العراق ولا في صالح الثورة الفتية فيه .

وكان صـــدام حســين وسط كل هذه الهواجس والقلق ، ، يتلمس الحقيقة ويلتقط جوهر القضية في بعدها المبدئي من غير ظنون او اوهام .

وجوهر القضية عند القائد كان :

«ان هناك شعبا عراقيا ، ، مكوناً من قوميتين رئيستين ، ، العربية والكردية ، ، ومن اقليات متآخية اخرى ، ، والجوهر المبدئي للاقرار بهذه الحقيقة ، ، هو الاعتراف المبدئي والنفسي والقانوني والدستوري بهذه الحقيقة والتصرف بها» .

ان القائد صـــدام حســين وهو يلتقط جوهر القضية ، ، كان يدرك ان طريق تثبيتها في الواقع والاقرار بها كحقوق ليس بالطريق السهل ، ، كانت التعقيدات تجعله طريقا صعبا يكاد يكون طريق المستحيل .

لكن القائد الذي يعرف ادارة الواقع الصعب واستخراج قوانين العمل في الظروف الصعبة والشائكة ، ، لم يستسلم للصعاب ، ، ولم يجعل لليأس طريقا يدخل الى عزيمته المصممة على حل هذه القضية وفق المنظور الذي التقط من خلاله جوهرها المبدئي والموضوعي .

وابتدأ القائد بعد ذلك نضاله الشاق على هذا الطريق . .

ابتدأ بالخطوات الصعبة ، ، لكنها الخطوات الواثقة . .

ابتدأ بالمفتاح الاساس المطلوب بعد ان امسك بجوهر القضية ، ، وكان ذلك غاية العبقرية والحكمة ، ، وهو يحدده قبل عام ١٩٧٠ بقوله :

«اذا ما عولجت القضية الكردية بتصور عسكري صرف نكون خاسرين ، ، حتى اذا ما اندحر آخر خندق من خنادق القوى المضادة في اعالي الجبل . .

اما اذا عولجت المسألة ، ، معالجة مبدئية وسياسية ، ، وفي اطارها الصحيح ، ، فسوف نربح المعركة ، ، حتى ولو كان العدد المضاد كبيرا» .

وكانت البداية

وقبل بيان ١١ آذار ١٩٧٠ .

كان دارا توفيق يقطع خطواته صوب غرفة القائد صـــدام حســين في المجلس الوطني . .

كان الرجل مرسلا من الملا مصطفى البرزاني للقاء بالقائد صـــدام حســين .

وكان الحوار الاول ، ، فيه للتاريخ بداية وبداية . .

بداية من القائد ، ، يريدها بقلب مفتوح وعقل رصين ، ، لكي يضع الحل للمسألة الكردية ، ، ويسد الفرصة على من يريد ، ، ان تكون لعبة بيد اعداء العراق .

وبداية من الاخرين ، ، بقلب لعوب وعقل خبيث ، ، يريدون من اللقاء فرصة للانتقال ، ، الى حالة اخرى وصورة ابعد . .

وكان الطلب المحمول على شكل سؤال مقصود حمله دارا توفيق هو : الا ننتهي من الحالة الشاذة في كردستان ! ؟

لم يكن القائد وهو يستمع الى ذلك ، ، بعيدا عن كل ما يحمله المستقبل من توقعات ، ، ولم يغلق افكاره عن النقاط السوداء ، ، لكنه لم يقابل ذلك بالشك الذي يقبر اية فرصة يمكن ان تقود الى وضع الحل للمسألة الكردية .

ولهذا لم يرفض صـــدام حســين الطلب ، ، مثلما لم يعط الموافقة من غير رؤية تريد ان تعرف ما هو المطلوب ، ، وكان استفساره عن المقصود الذي ينهي الحالة الشاذة في كردستان .

وكان الجواب :

«نريد فك الحصار الاقتصادي ، ، وعودة الموظفين والعمال المفصولين الى دوائرهم واموراً لم تتعد هذه الطلبات البسيطة» .

لم يكن الجواب مقنعا ولم يكن صدام حسين بالرجل السهل او البسيط الذي تنطلي عليه مثل هذه الامور أو ان يمرر عليه احد ما يريده بهذه السذاجة السياسية المفضوحة ، ، لان الحالة المطروحة ليست لها صلة بالواقع ، ، وهو حيال القضايا المهمة ، ، والكبيرة منها على وجه الخصوص ، ، يغور الى الاعماق ويتعامل معها بكل الدقة المطلوبة .

ولهذه لم تنطل عليه الدعوة المحمولة ، ، ولم يركبه الخيال ، ، لكي يجد حلا

سهلا للقضية الكردية من غير نتائج جذرية .

وكان رد القائد على ذلك بليغا ، ، في منتهى العمق ، ، وعميقا في غاية الذكاء ، ، وهو يقول :

«اريد ان اتساءل أولا ،^ ، هل نحن نريد الحل ام نريد ان نلعب ، ، فأذا كنا عازمين على ان نحل شؤوننا كعراقيين فأنني اتناقش معك حول الحل ، ، واذا كان القصد ، ، هو ان نلعب على بعضنا ، ، فأنا لا أجيد اللعب في قضايا الوطن ، ، واكثر ان اللعب في مثل هذه القضايا ينفرني وهو لعب اذا كان يشرف احدا فهو لا يشرفني .

لهذا اقول كعراقيين ، ، بأن الاكراد لم يحملوا السلاح بدون شيء ، ، والامر المنطقي والواقعي ان هناك امورا يتوخونها ، ، ونقاطا تستقر في عقولهم ويسعون اليها ، ، والحصار الاقتصادي وعودة الموظفين هي نتيجة لحالة .

هكذا انا افهم الامور ، ، وتحقيق مثل هذه النتيجة لا يحل جوهر الحالة التي نريدها ، ، وتأمين الحل الراسخ لها . .

ولهذا اريد ان تعود الى الملا مصطفى البرزاني وتقول له هذا الرأي ، ، وتحمل لنا ما يدور في عقله بعيدا عن اللعب ، ، لاننا اصلا لا نحب اللعب مع العدو فكيف مع شعبنا» .

بهذه الروحية كانت معالجة القائد التي يريدها لهذه المسألة ، ، وهي روحية ليست معزولة عن سياق معروف عنه وهو حب الشعب العراقي كله ومن بينه شعبنا الكردي ، ، الذي يشعر بمعاناته من بقاء هذه المسألة من غير حل ، ، ويدرك بأنه لا بد وان يستريح من وطأة الحالة الشاذة التي سببتها حالة حمل السلاح في المنطقة ، ، وكان من نتائجها تحمل الكثير من المصائب والمشاكل وبقاء المنطقة مهملة ومتخلفة .

لقد كانت رؤية صـــدام حســين عميقة ، ، تمتد الى الجذور التي لا بد ان يصل الحل اليها ، ، حيث الحقوق القومية التي لا يمكن ان يتم الحل بالقفز من فوقها او بالتجاوز عليها . .

وكانت عزيمته هي ان يؤشر الاساس المبدئي ويطرح الحل المطلوب ، ، بضوء اساسيات القضية .

وقد كان . . . . .

حين عاد دارا توفيق ، ، كان في الاجتماع الثاني يحوم حول الموضوع ، ، وكلماته تلفها العموميات ، ، وكان سبب ذلك هو انه يخشى من ردود الفعل حينما يطرح الحكم الذاتي ، ، ولهذا لم يتطرق اليه . .

لم تغب الحقيقة عن القائد ، ، والكلمات العامة لم تجعل الكلمات النائمة في مداخل النفوس بعيدة عن رؤيته للامور ، ، ولهذا قال :

«دعني اقدم عرضا وفكرة ، ، في البداية اقول انها عرض مني وفكرة لا تحسبوها على غيري ، ، وهي فكرة الحكم الذاتي لكردستان . .

ان هذه الفكرة وانا اقدمها اعرضها في اجتماع القيادة ، ، فاذا لم توافق عليها ، ، فأننا سنستمر نتحارب ، ، واذا وافقت عليها ، ، فسنجلس لنرتب شؤوننا»

لم تكن الفكرة كلمة موجزة سهلة وتمر ، ، ولم يكن العرض بسيطا ، ، لا يحتاج الى مبررات وآراء تقنع القيادة ، ، بما اقترحه القائد . .

كانت الفكرة صعبة . . .

وكان تحويلها الى قرار أصعب . . . . . !

(٢) وكان البيان التاريخي

لم يكن الحصول على قرار الحكم الذاتي عملية روتينية ، ، يتحقق بمجرد تثبيته في جدول أجتماع القيادة .

وليس سراً فقد كانت له في القيادة معارضة من البعض ، ، فلقد كانت لهذا البعض وجهة نظر حول الموضوع .

وكان آخر غير محبذ للفكرة . .

وهناك من كان غير متحمس لها . .

وبسبب هذا الواقع وتعدد الآراء ، ، كان هناك جدل عنيف في اجتماع القيادة ، ، لم يستقر أو يرسو الى نتيجة في أجتماع واحد ، ، وأنما عقدت عدة جلسات ، ، كانت جميعها تشهد نقاشاً مطولاً ، ، حول مسألة الحكم الذاتي لكردستان .

لكن هذه الحقيقة ، ، لم تنعزل عن حقيقة أخرى ، ، كان فيها القائد صدام حسين ، ، من موقعه المميز في القيادة ، ، رجلاً يدفع بالقناعات المخالفة ، ، عبر نقاشاته وتحليلاته وأستباقه للأحداث وتطوراتها ، ، صوب الفكرة التي قدمها ، ، وهي فكرة الحكم الذاتي .

وكانت حكمته ورؤيته ، ، وشمولية الصور التي يقدمها ، ، تجعل الحجج التي تسوقها الأطراف غير المؤيدة الى الفكرة ، ، تتهاوى واحدة بعد الأخرى . .

ولم يكن هناك بعد ذلك من بد غير قبول فكرة صـــدام حســـين .

وكان أن صدر القرار بالموافقة على الفكرة ، ، قرار بالموافقة من حيث المبدأ ، ، يتطلب أن يتحول الى قرار للمبادئ في الواقع . .

وكما هي العادة ، ، في القضايا الكبيرة الصعبة الحاسمة ، ، يكون صـــدام حســـين هو رجل القرارات الموفقة ، ، وكان عزمه الذي يريد به أكمال الصيغة المطلوبة ، ، يتجه الى زيارة كردستان واللقاء مع الملا في المناطق التي يسيطر عليها .

لم يرد الى ذهنه وهو يتخذ هذا القرار أي أثر فيه شيئ من المخاطر الشخصية التي يمكن أن يتعرض لها ، ، فلم يكن في حساباته غير شيئ واحد فقط ، ، هو أن يبرأ الوطن من هذا الجرح وأن ينتصر الحل الذي يريده لأنهاء المسألة الكردية على أساس أن يربح في هذا الحل كل العراق . .

وكان وهو يسعى الى ذلك ، ، قد عقد العزم على أن يهئ كل مستلزمات النجاح ، ، للفكرة غير السهلة والقرار الصعب الذي أنتزعه .

ولهذا كان رأي القائد صــــدام حســــين ، ، في آخر أجتماع للقيادة يتمخض فيه قرارها بالموافقة على فكرة الحكم الذاتي ، ، أنه لا يريد أن يذهب بنقاط محددة ، ، وأنما يذهب بأتجاه عام ، ، مع تخويل له بحرية التصرف طالما أن الموافقة قد حصلت على الأتجاه الرئيس .

أن صــــدام حســــين قائد لا يصنع قراراً مثل هذا القرار بالنقاط المحدودة ، ، وأنما ، ، وكما هو معروف عنه يصل الى القرارات الكبرى بوضع الخط المبدئي والستراتيجي ، ، كجوهر لحركته ومن ثم التعامل الحي والتعاطي الدقيق مع القضايا والمؤثرات الموضوعية عليها بمسؤولية قيادية ، ، وعقل مفتوح على هامش الأجتهاد وحرية التصرف المرتبطة بالجوهر الستراتيجي للحالة ، ، دون أن يقيد نفسه بنقاط محددة ، ، تضيق عليه مرونة الفعل ، ، أو بآلية تقتل روح التصرف المطلوب وتقضي على العقل القيادي المبدع وتجاوبه مع شروط الحالة الموضوعية .

وكان تقديره الذي أستقر عليه الرأي ، ، أن المسألة في جانبيها المبدئي والعملي ، ، تفرض الا يكون الحل رخواً أو تتخلله الثغرات التي تعاود المسألة من خلالها ، ، حالة التفجر أو يمكن أن توجد مبررات لمن يريد الطعون أو الظنون ، ، ولكي يكون الأمر قاطعاً بأن من يحاول تهديد الأستقرار ما هو في الواقع الا مشبوه ينهض بمهمات لا تمت الى الحقوق القومية للأكراد بأي شيئ . .

ولهذا كان القائد يريد حلا مبدئياً وعملياً فيه اقرار ثابت للحقوق الكردية المشروعة مثلما فيه صيانة للعراق . ولهذا رفض أن يكون هذا الحل ، ، صيغة متطورة عن بيان ٢٩ حزيران الصادر عن حكومة البزاز ، ، عندما كان رئيساً للوزراء في العهد التشريني .

والقائد في هذا الموقف لم يكن أميناً مع رؤيته التأريخية فقط ، بل أراد أن يستبق التأريخ ببيان تأريخي يكشف فيه الا مبرر آخر لأي أحد في معاودة الحالة الشاذة ، ، غير الأرتماء في أحضان أعداء العراقيين من العرب والأكراد على السواء ، ، وأن كل أدعاء يحاول أن يندفع بأتجاه ذلك هو تعبير عن النوايا المعادية الكامنة في دهاليز النفوس غير الأمينة .

بهذه الروح كان صـــدام حســين يريد الحل ، ، وبهذه الصورة أراده حلاً سلمياً في أرضيته المبدئية والعملية .

وكانت كل هذه الحقائق التي توخاها القائد تتجسد في ١١/أذار/١٩٧٠ حين أعلن البيان المحدد والمعروف .

وكان غرض القائد من ذلك ، ، أضافة الى ما تقدم ، ، هو تحقيق الأستحالة المادية والروحية التي تمنع الأنفصال ، ، وتحقق مطامح الأكراد القومية ، ، وهو أمر أكده القائد خلال زيارته الى كردستان بين الخامس والثامن من تموز ١٩٧٦ .

كانت زيارة القائد الى كردستان ، ، وأندفاع الاكراد الى قائدهم صدام حسين ، ، تعيد الى الذهن تلك الحقيقة الكبيرة ، ، التي تؤكد بأن ليس هناك رجل أكثر حرصاً على مستقبل العراقيين جميعاً كصـــدام حســين ، ، وهذا الحرص يستقر في أعماقه للحدود التي يقول فيها :

«في الوقت الذي نعتقد أن هناك كردياً واحداً يعتبر نفسه مسؤولاً عن الأكراد ، ، أو هناك واحداً من الأقليات يعتبر نفسه مسؤولاً عن الأقلية ، ، أكثر منا ويؤمن بالحدود المشروعة لبناء المجتمع العراقي الموحد أكثر منا ، ، فأننا نعتبر أنفسنا غير صالحين لقيادة هذا المجتمع ، ، وغير صالحين أيضاً لأن نبقى على دست المسؤولية في الحكم» .

كانت هذه الخواطر تراود الذهن ، ، وحب الأكراد لصـــدام حســين ، ، حب يتوازى مع نفس الحب المحمول في ضمائر العراقيين جميعاً ، ، وهذا الحب هو الأساس في الأستحالة المادية والروحية لنجاح الأعداء في مشاريعهم ومراهناتهم على أن تظل المسألة الكردية هي الورقة المرفوعة بوجه الثورة ! !

أن القائد في زيارته الى كردستان ، ، وحديثه في تموز ١٩٧٦ الى أعضاء المجلس

التشريعي لمنطقة الحكم الذاتي ، ، يحدد بالدقة المعروفة عنه هذه الحقيقة بقوله :
«عندما تكون هناك أستحالتان . .

أستحالة مادية وأستحالة مبدئية وروحية أستحالة مادية تمنع الأنفصال ، ، وأستحالة مبدئية روحية في الوجدان والعقل وفي الأيمان من قبل الغالبية العظمى من ابناء شعبنا الكردي ومن قبل كل العراقيين ، ، عندها لا يمكن أن يحصل ما يسيء الى وحدة شعبنا وأرضنا ، الا أن عدم ضبط الموازنة ، ، وحصول ميل لحساب أي من العاملين اللذين أشرنا اليهما على حساب العامل الآخر ، ، بأي ظرف وبأي عمل ، ، سيلحق بمسيرتنا أضراراً فادحة .

وعلى هذا الأساس ، ، أذا ما تصور ، ، أي منا ، ، أنه أذا عمل على خلق الأستحالة المادية وحدها ، ، متصوراً أنه سيخلق وحدة المصير داخل الشعب العراقي ، ، فأن حكمه سيكون خاسراً بالتأكيد ، ، لأن هذا ليس هو الركن الوحيد ، ، الذي يستند عليه عملنا وسياساتنا ، ، وعندما ننظر الى المسألة نظرة غير عملية وغير موضوعية وغير سياسية ، ، ونتصور أن المسألة تحل ضمن الحكم المبدئي والعقلي المجرد ، ، دون أن نعمل على خلق الركائز المادية والموضوعية لجعل الأنفصال عملية مستحيلة ، ، نكون بذلك قد أعطينا الفرصة الواسعة للأستعمار ، ، لأن يعبث بوحدة شعبنا» .

بهذه الحكمة والروحية يتصرف القائد صــــدام حســـين ، ، ومنها تكون الرؤية والروية عنده هي الضمان الكبير ، ، لكل القضايا الكبيرة ، ، لأن القائد يتصرف مع هذه الأمور بدقة وعمق وصبر ، ، بحيث تأتي خطواته موفقة وأمينة ، ، تفصح على أنها ضربة معلم قدير . .

(٣) ضربة معلم

لم تكن تقديرات القائد صـــدام حســـين ، ، حول المسألة الكردية ، ، تقف عند الساعة ٨/١٥ مساء من يوم ١٩٧٠/٣/١١ بأعتبار ان الجهود انتهت الى بيان واضح وصريح في انهاء هذه المسألة .

كانت تقديرياته تمضي الى حيث ردود الفعل المتوقعة ، ، والى الاتجاهات المضادة ، ، التي وجدت في البيان ، ، مفاجأة ستراتيجية تناهض حسابها وتسدد ضربة غير محسوبة لمخططاتها .

وكان الافق الاستراتيجي في افكار صـــدام حســـين منصبا ، ، على حقيقة جوهرية وهي :

«ان مشروع الحكم الذاتي ، ، وان جاء في اطار التعبير القانوني له ، ، بصيغة حقوق لشعبنا الكردي ، ، الا انه في مداه التاريخي المبدئي ، ، للعراقيين عموما من عرب واكراد واقليات اخرى» .

وكان هذا الافق بمقدار ما يعبر عن احكام المبادئ الستراتيجية في افكار القائد صـــدام حســـين كان يثير اغراضا مناهضة تستهدف تسديد الضربة اليه والى الثورة في العراق ، ، عن طريق تحويل القضية الكردية في المحور المركزي الى قضية عراقية ، ، لكي تكون بارجة الردة في جميع الساحة العراقية او في الاقل الى قضية انعزالية تقتلع الاكراد من جذورهم العراقية الراسخة لتقذف بهم في غياهب المصالح الدولية .

ولقد كان القائد صـــدام حســـين في افقه التاريخي والمبدئي والعملي ، ، يكشف مزيدا من عبقريته القيادية التي من سماتها ، ، سبق النظر للحالة ، ، ورصد تطوراتها في الاستنتاج الدقيق والتوقع الاكيد ، ، بحيث لا تفاجأ بالاحداث ، ، وتقف بعد المفأجاة لا تقوى على شيئ ولا تستطيع ان تفعل المطلوب ، ، وسط ارباكات الحدث المتفجرة او المدفوع الى الساحة بغير توقع . .

كانت رؤية صـــدام حســـين البعيدة هذه ، ، ترتبط بأوضاع لم تخف عنه ، ، وهو يلاحظ الطرف المقابل يتصرف بحذر غير مسوغ ، ، ونوايا مخططة لا تريد ان تحل الثقة بدل الشكوك ، ، وانما كانت تفسح المجال واسعا للتشكيك ، ، ولم يكن الهدف من ذلك ، ، غير التحين بالفرص وانتظار الوقت.

وهكذا . . . .. ،

كان مقابل نظرة القائد الستراتيجية لحل المسألة الكردية ، ، نظرة تكتيكية مقابلة لم تختف مقاصدها الحقيقية ، ، عن ذهنيته اليقظة الواعية المدركة . .

وكان القائد يقابل ذلك بطول الاناة واحترام الوعد المحدد بالسنوات الاربع ، ، ربما يغسل الزمن فيها ادران النفوس ويقربها نحو الصفاء الوطني.

ولم تكن تصرفات القائد هذه الا تعبيرا لمنهجيته المبدئية والاخلاقية ، ، ولم يكن وراء حكمته وصبره على كل المحاولات الجارية لجعل بيان آذار محطة عابرة ، ، تنتهي به الى صورة غير التي تضمنها.

كانت تلك المحاولات بعيدة عن الحرص على العراق الواحد وعلى الاكراد كجزء من شعبه الموحد ، ، وكان يدرك خطورة هذه المحاولات ، ، لان التعامل مع قضايا الوطن حينما تكون هذه القضايا ، ، كمحطات للسفر ، ، يسهل التنقل منها وعدم الاكتراث بها ، ، تجد الخطوات نفسها مجرورة بقصد او بغيره الى حدود ليست هي حدود الوطن.

وصـــدام حســـين ابدا لا يريد على الاطلاق ، ، ان تكون قضايا الوطن محطات سفر ، ، يهجرها المسافر الى غيرها ، ، وانما هي قضايا مصير واماني شعب ، ، لا يبارحها احد مهما تكن الظروف والاحوال.

ولهذا كان صـــدام حســـين يريد من قطار الثورة ، ، ان يمر على كل قضايا الشعب ، ، وهو لهذا السبب ، ، لم يقابل اللعبة التكتيكية والنوازع الدفينة التي توخت من خلالها ، ، ان يكون بيان آذار جسرا رخوا في العبور من حقول الوطن المزدهرة الى حقول الالغام.

كانت هذه الحقائق واضحة امامه . . . .

وكانت الايام وهي تتوالى منذ عام ١٩٧٠ الى عام ١٩٧٤ ، ، تزيد وضوح

الصورة بالنسبة اليه ، ، ومع ذلك ظل حريصا على ان يمضي في المشوار الى النهاية .

وكان وراء هذا الحرص ، ، صبر مفهوم في عقل القائد ، ، ورؤية ستراتيجية لا تغلق النوافذ على الصفحات المتعددة في التفكير ، ، وحساب آخر مقصود وهو ، ، ان اللاعبين بقضايا المصير مطلوب ان يزيحوا بأنفسهم القناع عن وجوههم ، ، وايضا ان يفك تشابك الخنادق وتزول الكثبان التي تفصل بين الرامي والهدف .

وكان الهدف الحقيقي هو ، ، ان بيان آذار ، ، رسم الاساس المبدئي والعملي لحل القضية الكردية ، ، وان طريق تطويره يتم في قبول حقائقه ، ، واحترام الشرعية الدستورية ، ، واي طريق آخر لن يكون تطويرا وانما ذريعة ، ، والذرائع في مثل هذه الحالة وراءها ما وراءها من امور مريبة .

ولهذا انصب جهد القائد طيلة السنوات الاربع التي اعقبت صدور البيان ، ، على مواجهة رأيين متعاكسين .

الاول : يدعو الى التملص من البيان وعدم جدواه ، ، ازاء التصرفات المقابلة المعادية .

والثاني : يريد التخلص منه والانتقال الى صيغة مشبوهة يراها ضرورية لتطوير بنوده ، ، وهو في الواقع يتوخى من ذلك فتح الطريق بعيدا عن مصالح الوطن الى حيث الانفصال .

كانت هذه الاوضاع ، ، مدعاة لاجتماعات مطولة عقدها القائد ، ، وكان في جلسة جرت في ١٩٧٤/١/١٦ امينا على المبادئ ومصلحة العراق ، ولم تقده تلك التصرفات الى مواقف تغاير رؤيته الواضحة في هذا المجال .

كان القائد في تلك الفترات امينا في احاديثه ومواقفه . .

وكان الطرف المقابل لعوبا في اقواله وتصرفاته وحيال هذا الواقع ، ، انقطع الحوار في ١٩٧٤/٣/٢ ثم جرى بعد ذلك لقاء بين القائد وادريس البرزاني في ١٩٧٤/٣/٧ .

كان اليوم وقتها يوم جمعة ، ، والزمن ايامها يقترب في حركته نحو التاريخ المحدد ، ، والايام الاربعة المتبقية اعتقد الطرف الآخر ، انها كافية في تسويف موعد الاعلان والتريث فيه ، ، وكان قصده ادخال التشكيك الى ابناء شعبنا الكردي من





ان الثورة غير جادة وغير امينة على مواعيدها .

لم تنطل اللعبة على ذهن القائد اليقظ ، ، ولم تمض الخدعة على العقل المتبصر ، ، وكان لذلك يصر على تطبيق بيان آذار في الوقت المحدد ، ، ولم يكن اصراره شكليا وانما هو اصرار مبدئي وعملي يسحب البساط فيه من تحت الاقدام اللعوبة .

في اللقاء الاخير ، ، اراد ادريس البرزاني ، ، ان يكسب الوقت وظل يناور بالكلمات وصولا الى ذلك .

وكانت اجابة القائد على هذه المناورات قاطعة ، ، تعني قبل كل شيئ ، ، انها ضربة معلم لا تغيب عنه الامور والنوايا وهو يقول :

«لقد سمعنا مثل هذا الكلام ، ، ومع ذلك فالثقة تتدهور ، ، ولم يحصل لقاء في الاراء ، ، ولم ينضج مشروع مشترك ، ، لكي نخرج فيه على شعبنا العراقي وشعبنا الكردي ، ، ولذلك نأمل أن تكون امامنا اراء ايجابية مقدمة قبل ان يأتي يوم ١١/ آذار/ ١٩٧٤ .

كان القائد في هذا اللقاء حازما وصريحا وهو يحدد الوقت ، ، وصراحته لم تقف عند هذا الحد بل تعدتها الى اشمل منه وهو يجيب على تساؤل ادريس : هل بالامكان ان نؤجل اعلان الحكم الذاتي ! ؟

وكان جواب القائد :

«ادريس تريدون ان تؤجلوا الحكم الذاتي ، ، لكي تخبروا الاكراد ، ، بأن الحكومة هي التي اجلته .

اننا سنعلن الحكم الذاتي في موعده ، ، لأنني اريد ثقة الشعب بما نعلنه ونحدده وستحارب ، ، لانكم بالاساس محشدون اموركم على ذلك ، ، ولكنكم ستخسرون . .

وسأخبرك بأحد اسباب انتصارنا . .

انكم في هذا الموقف ، ، تريدون استجاع القوى ، ، ورهانكم قائم على دعم الشاه ، ، واننا لم تغب عنا هذه الصورة مثلما نفهم واقع السياسة الدولية ولعبها ، ، وان اعتمادكم على الخلاف بيننا وبين ايران لا يضمن لكم النصر.

لماذا ؟

اننا نعرف ماذا يريد الشاه ، ، والى اي مدى سيمضي في دعمكم ، ، ونعرف الطريقة التي ترفع يده عن ذلك ، ، لان المطلب الايراني المعلن ، ، بغض النظر عن كل النوايا الدولية ، ، هو امرار خط الحدود في شط العرب من نقطة التالوك.

ان نهر شط العرب عزيز علينا ، ، والارض التي تحته عزيزة علينا ، ، وهو جزء من العراق والسيادة الوطنية ، ، ولكن الذي اعز من ذلك هو الانسان العراقي ، ، وعلى هذه المياه لا يسكن بشر ، ، وعندما نخير بين ذلك وبين ان نعطي شعبنا وارضنا في كردستان لكي تكون مسرحا للعمالة ، ، فسنضطر الى قبول الخيار الاول ، ، وعندها ستختل الموازنة امامكم وستضطرون الى الاستسلام ، ، ويسجل عليكم التاريخ ، ، بأنكم سبب هذا الاجراء» .

كان القائد وهو يتحدث عن ذلك ، ، وعن السياسة الدولية وتحالفاتها ، ، يرسم له صورة الانهيار الاكيد ، ، وان مركب الوهم السارح في السراب الايراني ، ، لا يصل الى نتيجة فيها مصلحة للعراق او للاكراد .

وكان آخر ما قاله القائد :

«ستقول ان صـدام حسـين يحاول التأثير عليّ نفسيا ، ، قل ما تقول ، ، ولكن المهم ان نرضي ضمائرنا ،،، بأن نشرح لك كيف ستتصرف ، ، لكي نكون مرتاحين ، ، وحتى لا يعتبر تصرفنا من وجهة نظر البعض ، ، في اطار النظرة السرية الاستراتيجية»

بعد ذلك كان الافتراق . . . .

كان مشرفا للقائد وهو يحدد الامور بمبدئية وصراحة وحرص . .

وكان مخزيا لاولئك الذين اختاروا بحار الاعداء لكي يكونوا فيها بارجة الردة .

وكانت الهزيمة الساحقة ، ، ومعها لعنة ابدية ، ، لمن لا يتفهم حرمة الوطن ويرتضي ان يكون عبدا للغير .

وكان القائد بعد ذلك ، يضع النقاط على الحروف . .

(٤) نقاط على الحروف

كانت أبعاد الصورة ، ، تتضح أكثر ، ، ومع ذلك كان الأنتظار ! !

والأنتظار لم يكن رهاناً على الزمن ، ، يعيد النفوس للواقع بعد أن أستقر في أعماقها الأصرار على حمل السلاح ، ، تعلقاً بالقشة الأيرانية ، ، كونها فرصة العمر ونافذة الأمان . .

كان الأنتظار ، ، أمانة مع النفس على حرمة المدة المقررة . .

وكانت فكرة التأجيل التي أرادوها قفزة على الوقت المحدد ، ، قد حولها القائد صدام حسين الى قفزة من الجبل الى الوادي ، ، حيث النهاية المعروفة ، ، كونها قفزة الى الهاوية السحيقة .

كان صـــدام حســين حتى النهاية أميناً على الوعد والموعد . .

وفي مساء العاشر من آذار/١٩٧٤ ، ، كان القائد في مكتبه ، ، واثقاً كل الثقة بأن الزمرة البرزانية قد أبحرت في المركب المضاد الى خلجان التمرد ، ، ومع ذلك أرسل لهم برقية تقول :

«حتى الأن مقترحاتكم ليس فيها تغيير ، ، عن جوهر وجهة نظركم التي وضحت في أجتماعات متعددة سابقة ، ، نأمل أن تصلنا مقترحات جديدة وأيجابية ، ، قبل الساعة ١٢ من يوم غد» .

وكان الجواب في برقية ارسلوها الى مكتب القائد في المجلس الوطني يوم كان نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة .

لم يكن الجواب بعيداً عن التوقعات ولا عن الأفتراضات ، ، كان معروفاً في سطوره المقروءة ، ، ومفهوماً في حوادثه اللاحقة .

وكان صـــدام حســين واعياً بالمقابل للتصرفات المطلوبة ، ، ولهذا كان ينهي النقاش داخل أجتماعات القيادة ، ، الذي ذهب البعض فيه ، ، الى قبول فكرة التأجيل وأقنع أعضاء القيادة بمخاطر ذلك ، المبدئية والسياسية والتربوية .

وكانت الحالة المتأزمة ، ، تفجر في النفوس أموراً تدفع بالبعض الى أستعجال الضربة .

لكن أخلاقيات القائد صـــــدام حســـــين لم تقبل بذلك وكانت وراء أصراره على أحترام الوقت المحدد ، ، مثلما كانت وراء تصرفه الذي تندر ممارسته في عالم اليوم ، ، بحيث يفهم البعض السياسة ، ، خداعاً وغدراً وتوجيه المطرقة قبل المبرر المطلوب .

كان أعضاء القيادة خلال تلك الفترة في نقاشهم والجهات الأمنية في تقاريرها يشيرون ، ، الى أن كوادر التمرد في طريقها الى العصيان ، ، وكان سؤالهم الى القائد : لماذا تجعل كل كوادرهم تلتحق بالعصاة ويحملون البندقية فدعنا نجهز عليهم قبل ذلك ! ؟

وكانت أجابة القائد :

«هذا لا يجوز ، ، وحتى الوزراء منهم ، ، يصلون بسياراتهم الرسمية الى المكان الذي يريدونه ، ، وتعود سياراتهم بعد ذلك الى دوائرها» .

والحقيقة قد يكون لموقف القائد هذا بعض الخسارة ، ، لأن فيه تقوية لمواقع العصاة ، ، ولكنه رغم ذلك كان مستعداً لتقبل مثل هذه الخسارة التكتيكية مقابل الربح الأستراتيجي والأخلاقي الذي أستهدفه بتصرفه الواثق . .

وكانت هذه الروحية في الواقع ، ، هي المطرقة التي هوت على التمرد كروح وانهته كعصيان مسلح . .

كانت هي الروحية التي سحقت رأس الأفعى وقضت على سمومها المنفوثة . .

وكانت مع هذه الروحية رؤية عميقة أنزلت الهزيمة الساحقة ، ، بالأحلام المغشوشة لقادة التمرد حين تصورت التطابق بين قواها وشعبنا الكردي ، ، لتفيق على الحقيقة المرة وهي أن قواهم ليست هي الشعب الكردي الملتف حول قائده صـــــدام حســـــين .

وكان لذلك أن تم اعلان قانون الحكم الذاتي في موعده المقرر .

وكان أيضاً أن جرى بعده ، ، التشكيل المطلوب لمؤسساته الدستورية والقانونية ، ، وخرج الى الوجود المجلس التشريعي والمجلس التنفيذي لمنطقة الحكم

الذاتي .

وكان مقابل ذلك أن أندفع المتمردون الى نواياهم المبيتة في أعلان العصيان وحمل السلاح .

وكان صـــدام حســـين مستعداً ، ، ومنتبها الى ما هو مطلوب لأفشال ذلك وهو يقول :

«أن العمل الحاسم في أزاحة خندق الردة لا يقرره السلاح ، ، وأنما تقرره السياسة ، وبقدر ما تكون هذه السياسة متجاوبة مع مصلحة الجمهور عرباً وأكراداً ، ، فأنها مستطيعة دفع جيب الردة حتى أخر موقع يستسلم فيه» .

وقد كان . .

وحين أنتهى التمرد كروحية وعقلية في ذهنية الأكراد ، ، لم يجد المعادون غير نشر الشكوك ، ، ومحاولة التقليل من الأنجاز التأريخي الذي تحقق في العراق بأقرار الحكم الذاتي في كردستان وقيام مؤسساته الدستورية .

وأبتدأت حملة التشكيك التي أستهدف أصحابها وأسيادهم من خلالها ، ، تسديد الضربة للحكم الذاتي ، ، لكي يخلق المجال الرحب للحديث بعد ذلك باللسان الطويل عن حقوق الأكراد . .

وكانت بداية الحملة ، ، تتخذ منوالاً مفضوحاً من خلال أقوالها ، ، أن قانون الحكم الذاتي ناقص ، ، وأن مؤسساته الدستورية لا تمتلك الصلاحيات كما يجب . . ! !

كان القائد يستمع الى هذه الأقاويل ، ، ويتابع مصادرها ، ، فما هي ردود فعله تجاهها وكيف كانت وجهة نظره حيال ما كان يسمعه ؟

أن من بين أعظم الصفات التي يتحلى بها صـــدام حســـين هي ، ، أنه لا يستحي من قول الحقائق وتسليط الضوء على الواقع بهدف الأبقاء عليه أذا كان الحكم الموضوعي يفترض ذلك أو ينتقل به الى حالة أكثر تقدماً بخلق الظروف المناسبة لمثل هذا الأنتقال .

فما هي رؤيته الى ذلك الذي يقال . . . ! ؟

في عام ١٩٨٢ وبالذات في أمسية رمضانية ، ، في الحادي عشر من تموز ، ،

وبعد مأدبة للأفطار أقامها القائد لرجال الدين في منطقة الحكم الذاتي ، ، كان القائد يتحدث عن هذه الأقاويل ويضع النقاط على الحروف وهو يقول :

«أنا صـــدام حســين أقول أن الحكم الذاتي ناقص في جانب أساسي من روحه ، ، لأن الصيغة القانونية والدستورية ، ، ليست كافية لوحدها ، ، وأنما الشيء الكافي هو الروح من داخل الصيغة ، ، في داخل القانون ، ، روح الأخوة التي يكون الحكم الذاتي قائماً عليها . .

أن الحكم الذاتي هو صيغة قانونية ، ، أتخذت أطاراً خاصاً ، ، لكي تعبر عن خصوصية جزء من شعبنا الذي هو شعبنا الكردي . . الخصوصية التي تجعل الفكرة القومية الكردية المحلية تتفاعل مع النهج العراقي العام ، ، لكي تعطيه قوة أكبر ، ، كشعب واحد ، ، وليس صيغة من صيغ الفعل القومي الذي يعزل جزءاً من شعبنا العراقي .

أن الخصوم يقولون أن مؤسسات الحكم الذاتي لا تملك الصلاحيات كما يجب .

في معرض أجابتي ، ، سأعطيكم مثلاً على نفسي . .

أنا كنت نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة حتى عام ١٩٧٩ ، ، والدستور ماذا ينص ؟

ينص على أن مجلس قيادة الثورة يتكون من رئيس مجلس قيادة الثورة وهو حكماً رئيس للجمهورية العراقية ، ، وله صلاحيات محددة بالدستور .

نائب رئيس مجلس قيادة الثورة يشغل منصب الرئيس في حالة غياب الرئيس .

أذن ما دام الرئيس موجوداً ، ، نائب الرئيس ليست له صلاحيات محددة بالدستور ، ، وأنما هو عضو في مجلس قيادة الثورة ، ، متميز في المرتبة البروتوكولية ، ، يعني متقدماً على الأعضاء ، ، ولكن هل كان صـــدام حســين هكذا قبل ١٩٧٩ .

لم يكن هكذا . . . لماذا ؟

أن العمل ينساب الى القدرة التي تستطيع أن تتفاعل معه بصورة جيدة ، ، والقادر على الفعل الجيد ينتزع فرصته أنتزاعاً ، ، أما أذا كان هناك من لا يشتغل ويريد أن يأخذ صلاحيات ، ، فأنه سيقع ويقع معه النظام .

بعض الأخوان في المجلسين التشريعي والتنفيذي وبعض المحافظين ، ، لم يمارسوا صلاحياتهم كما ينبغي» .

هذه الحقيقة التي يشير اليها القائد ، ، يكشف قبلها عزيمته في أيجاد أرضية نفسية تؤدي الى النهوض بالحكم الذاتي وتطويره ، ، لأن صـــدام حســـين لا يرى بأية صيغة ومنها صيغة الحكم الذاتي غير قابلة للتطور ، ، لأن الصيغة الجامدة تتعارض مع الحياة وعقليته النازعة الى التقدم والحركة الى أمام ، ، ولكن ما هو التطور المطلوب ! ؟

أن التطور المشروع الذي يرقى الى أمام ، ، هو التطور الدستوري وعداه لن يكون غير دعاوى مشبوهة تتاجر بالورقة الكردية .

وتجار الورقة الكردية ، ، قد يملكون صكوكاً ولكنها بلا رصيد . . !

(٥) لقاء مع ابناء السليمانية والمعاني الكبيرة

كانت الاكف التي تصفق ، ، والزغاريد التي تدوي في القاعة الكبرى في القصر الجمهوري ، ، تحكي للقائد صـــدام حســـين ، ، قبل كلمات ابناء شعب السليمانية القادمين بالوفاء ، ، أن ولاء الاكراد يظل الحقيقة الازلية الخالدة . .

وكانت الدبكة الكردية الفرحة بأنتصار جيش العراق في قاطع بنجوين ، ، تحكي : أن مزامير الغير ، ، التي ينفخ فيها اعداء العراق ، ، بضاعة الحقد واحلام الخيبة ، ، لن تجد في قلوب الكرد أخاديد او مراسي تقترب منها .

وكانت الوجوه الكردية الحبيبة ، ، القادمة بشموخ الجبال العالية ، ، تقطع الدليل على أن ربيع نوروز لن تقتل زهوره البرية ، ، حيات الليل التي تريد أن يعم الظلام كردستان الغالية .

وحين تعطي السليمانية ، ، ومن قبلها مدن كردستان الاخرى ، ، هذا الحب المتدفق وتشكل بعطائها المستمر ، ، شلال النبع الدائم للاخوة الخالدة ، ، يكون فحيح الافاعي صوتا مسموما بين الشقوق المهجورة ، ، ويكون جلدها قشرة تخلعها لمن يدفع الاكثر أو يغري بالمزيد . .

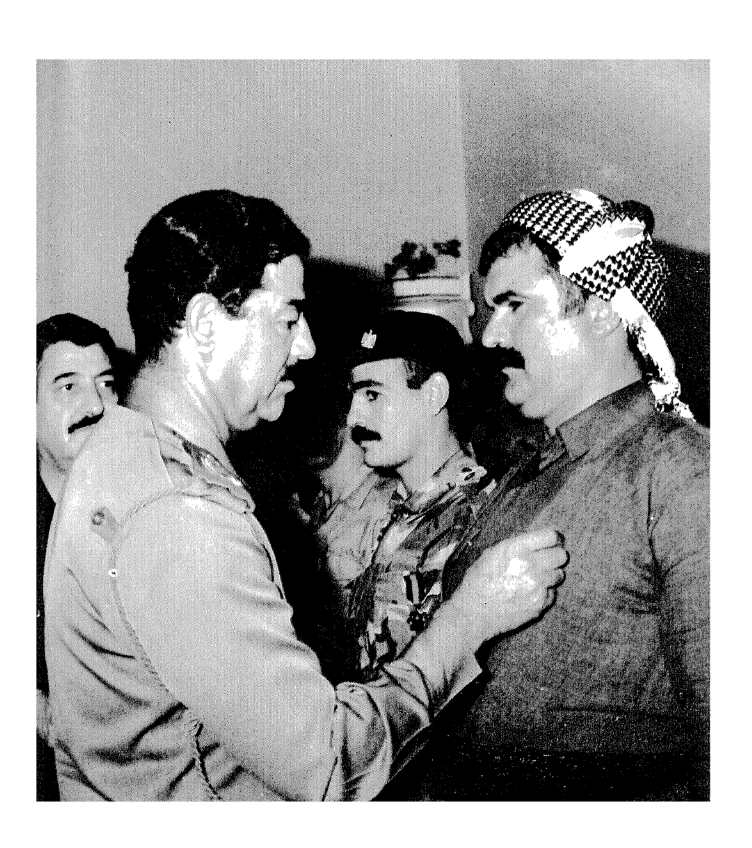
ان ضجيج المتاجرين بالاماني الكردية ، ، خارج خيمة ثورة السابع عشر من تموز ، ، لم يعد قادرا على اخفاء مقاصده ، ، كونه صياحا مشبوها يريد ان يجعل من القضية الكردية ، ، ورقة في لعبة السياسة الدولية . . او ان تكون مسألة التقاطع الحاد مع ثورة العراقيين . .

والاكراد دائما لن يقبلوا حقيقة أخرى خارج الخيمة العراقية .

وهم لا يرتضون أن يكونوا النصل الحاد الموجه لمنهج الثورة . .

ولهذا كانت مشاعر الاكراد ، ، تحتضن العراق في الصدور وتضم القائد في





القلوب . .

وكانت السليمانية ، ، ككل مدن العراق ، ، قيثارة للثورة التي تضرب اوتارها الحان الوحدة الوطنية ، ، والزهرة الحنون التي يعبق شذاها اريجا بأن العراق الموحد ، ، هو القضية والمستقبل والامان ولا غيره على الاطلاق وطن للحرية والدفء والاطمئنان .

وقصر الرئاسة المفتوح دائما للشعب ، ، كان يجد في مواكب الوفاء ، ، ان اعراس الوطن لن تتحول الى مآتم ، وان نهار العراق لا يغتاله تجار الظلام ولصوص الليالي السود .

والقادمون من كل صوب يؤكدون ، ، انهم حراس البلد الاوفياء ، ، ويتأكدون ان ليث العرين يقظ القلب والضمير والعينين .

وابناء شعب السليمانية كانوا يعبرون عن ذلك ويؤكدون ان مدينة الحماس لن تورق غير شقائق النعمان ، ، ولن تكون مكانا للشوك او لهمهات الغرباء .

انها مدينة الكبرياء التي تجد صعودها مع شموخ العراق الشاهق الى الذرى الشماء ، ، وتأبى ان يكون فيها عش للغربان او البوم ، ، لانها تدري ان نعيق الغراب صوت الالسنة الطامعة ، ، وان البوم شؤوم خراب ، ، ولانها لا ترضع غير الحليب الطاهر من ثدي امها العراق ولا تقترب من الثدي الذي يقطر سما ، ، لهذا فشعبها الذي يمنح الوفاء للوطن ، ، يؤكد وفاء العراقيين الواحد لصدام حسين ، ، الذي وجدوا فيه كبرياء الشعب ونقاءه الناصع .

كانت دبكات أبناء السليمانية ، ، رقصة العراق الاكبر ، ، وكانت اغنياتهم ، ، انشودة العراقي الغالي . .

وكانت الدبكة والاغنيات ، ، تطعن اولئك الذين يريدون أن يبحر العراق في بحر المشاكل والظلام والدماء ، ، ويحلمون بأن تظل المسألة القومية الكردية بارجة للردة والتآمر ، ، وحصان طروادة الذي يركبه الطامعون والاعداء من كل لون وهوية ، ، لكن القادمين بالوفاء والمحبة من كردستان يحملون مع كل نبضة قلب وفي ، ، سهاما للوطن بوجه اعدائه ، ، وفي كل ترتيلة محبة رماحا لا تنكسر ، ، يمزق بها العراقيون صدور الغي والشر والرذيلة ، ، التي لا تريد الضحكة للعراق ولا تطيق ان تسمع فيه

غير العويل والنحيب . .

انهم يريدون الوطن ان يتحول الى صحارى ، ، تلسع الرمال فيها الحفاة ، ، وتهرئ الجلود العارية ، ، ويختفي فيها حتى سراب واحة واحدة ، ، ولكنهم ينسون ان العراق وميض العيون وابتسامة الشفاه ، ، وخفقة القلوب . .

انه العراق المصان بذلك كله ، ، وهو الوطن المحروس بالسيف العربي والخنجر الكردي ، ، ومن يتوهم او يضل السبيل ، ، لن يجد غير الطعان القاتلة من سواعد العراقيين القوية ، ، لان العراق في عهد صـــدام حســـين ، ، عراق الجميع ، ، والذين يضربون على اوتار التفرقة ، ، يضربون الريح العاتية بأوراق قديمة صفراء متهرئة . . ! !

ان عراق الثورة ، ، هو عراق المساواة ، ، ومن يعتقد ان فيه البعض ذو حظ والاخر منسي ، ، أما انه ضائع في سراب الوهم الخادع او ان الخبث والحقد يستقران في اعماقه ، ، او هو جاهل يعطي لتصوراته حقا لا وجود له او يسلب من تصوراته حقوقا له لا يصح ان يسلبها ، ، فالحقيقة الابدية ، ، ان شعب العراق ليست فيه افضلية لاحد على الاخر ، ، بسبب القومية او الدين او المذهب او الانتماء السياسي ، ، ولهذا لا وجود لمواطنين من الدرجة الاولى وآخرين من الدرجة الثانية ، ، ان الجميع متساوون امام شيئ واحد هو القانون العراقي . .

لهذا فالوطنية العراقية ليست صفة لاحد على حساب آخر ، ، ولا هي ميزة مرتبطة بمجموعة دون سواها ، ، هي صفة لكل العراقيين الذين يعملون ويدافعون عن العراق الموحد ، ، لان هناك حقيقة يجب ان تكون ماثلة للعيان يؤكدها قائد الشعب الرئيس صـــدام حســـين بقوله :

«علينا ان نفهم ، ، ان هذا البلد ، ، وجد لكي يكون كما هو (العراق الى الابد) كما هي حدوده الجغرافية ، ، وان تغيير صورته السياسية انما يرتبط بالنضال الوحدوي والاهداف الوحدوية ، ، وان نفهم ايضا ان المسألة القومية تعامل بصيغة الحكم الذاتي الذي أوجده العقل الهادئ المؤمن بشعبه ، ، وليس بحكم الحالة الاستثنائية التي مرت علينا» .

واذن اخلص من ذلك الى حقيقتين مترابطتين هما :

الوحدة الوطنية لا تفريط فيها
الحكم الذاتي لكردستان لا تجاوز عليه
وبعد ذلك اريد ان اسجل آراء لاحقة واقول :
ليست هناك وحدة وطنية حقيقية بدون حكم ذاتي لكردستان العراق متطور مع المطامح الكردية المشروعة .
وليست هناك امكانية لتطوير الحكم الذاتي لكردستان من غير تطور العراق ونهوضه وتعميق بنيانه الدستوري .
ولكي نفهم معنى ذلك ومغزاه اريد الاشارة الى :
ان الكثيرين من العرب العراقيين ، ، كانوا يعتبرون الحكم الذاتي تصديعا لوحدة العراق الموحد على مر العصور والتاريخ .
واضيف اكثر ، ، ان هناك من كان يدفعه التعصب القومي البغيض ، ، الى افضلية له على حساب غيره ، ، يمنح نفسه حق الاعتزاز بقوميته ويحرم الاخرين من حق مشابه مشروع ، ، هو يعتقد ان انتسابه القومي يعطيه الحقوق ولغيره الواجبات فقط . . . ! ! !
الذي قلب ذلك وغير هذه المفاهيم هو قائد الشعب صـــدام حســـين . . .
– خلص الايمان القومي من الهوس والتزمت والاستعلاء .
– اوجد الموازنة العملية بين القضية القومية والمسألة الوطنية واقام الجسور السليمة والممرات المشروعة بينهما ، ، فليست هناك قومية على حساب الوطنية ، ، ولا وطنية على حساب القومية وانما هناك نظرة مبدئية واقعية موضوعية ، ، كما ليست هناك قومية سيدة واخرى مسودة ، ، او قومية ظالمة وغيرها مظلومة ، ، وليست الدعوة الوطنية دعوة اقليمية تنحر الاهداف القومية وتقتلها في محراب الانعزال .
– صارت القومية ايمانا وانتماء وهي حق للعربي والكردي على السواء .
– واصبحت الوطنية خيمة للعراقيين جميعا لا تلغي خصوصيتها دور العراق ورسالته . .
وقائد الشعب صـــدام حســـين هو المبادر بطرح الصيغة النظرية والسياسية لذلك كله «وبمبادرة منه صار بيان ١١ آذار ١٩٧٠ ممكنا ، ، وهذا البيان شكل

الاساس المبدئي والسياسي للحل الوطني للمسألة الكردية» .

فلقد كان صـــدام حســين المدافع الاول عن حقوق الاكراد ، ، لانه المدافع الاول عن حقوق العراقيين ولولاه لكانت المطامح القومية للاكراد ، ، طلبات شكلية تدور في نطاق المطالبة بحقوق ثقافية عابرة . .

والقائد لم يكن في ذلك كله رجل سياسة حكما تضطره الظروف وانما كان رجل مبادئ ادرك الجوهر التاريخي للطموح الكردي المشروع .

لماذا . . . ؟

أقول : —

افهموا الحقائق المرئية في جوهر الاعماق ، ، عندها ينكشف الطريق الواضح للقيم الكبيرة التي يمثلها صـــدام حســين ، ، والحقيقة الكبرى في هذا المضمار هي :

صـــدام حســين في اعماقه قلب كبير لقائد كبير ، ، الوطن في ضميره هو المسؤولية الكبرى ، ، والشعب في عنقه هو الامانة الكبيرة ، ، والمواطن لذلك هو ابن تلك المسؤولية والامانة ، ، لهذا فهو قيمة عليا ، ، ولذلك تكون كل الممارسات محكومة بهذا الطريق والتصور ، ، هو اذن رجل المبادئ والتصرف بها في كل الاحوال . .

اذن مبادئ صـــدام حســين هي التي اوجدت الحكم الذاتي لكردستان وهي الكفيلة بتطويره ، ، وهي التي الحقت الهزيمة بالمتمردين الذين حلقوا على اجنحة عرش الطاووس المكسورة في تمرد الملا مصطفى البرزاني . .

ولنستمع الى ما يقوله القائد صـــدام حســين بهذا الصدد :

«ان الذي دحر الملا البرزاني وجيبه العميل هي المبادئ ، ، التي جوهرها ان يكون تعاملنا مع قضايا شعبنا في كردستان ، ، كتعاملنا مع قضايا شعبنا في البصرة ، ، وكتعاملنا مع انفسنا ، ، واذا ما اختلت هذه الصورة ، ، نرى المائة معارض يصبحون الفا ، ، ونرى الالف يصبحون خمسة الاف ، ، ويصير الخمسة الاف عشرة الاف ، ، بل وتكونون انتم خاسرين ومندحرين حتى ولو لم يكن هناك اي مسلح مضاد على الاطلاق» .

— هذا كلام القائد صـــدام حســين . .

– وهذه مبادئ صـــدام حســين . .
– أن كان هناك اخلال اقول :
– لمن يشرف على التنفيذ حذار ! ! !
– ولمن يندفع بالضد الويل من غضب الله والشعب والتاريخ .
– للمشرفين عليهم ان يتمثلوا مبادئ القائد ويحرصوا عليها ، ، لانها هي السلاح الاقوى وهي الضمانة الدائمة ، ، الامن الدائم والوحدة الوطنية الصلبة ، ، والخطأ او الخلل في التطبيق لا يعني تجاوزا على مبادئ مركزية لا يصح التجاوز عليها فقط ، ، بل يعني فرصة ممنوحة للاعداء لكي يستثمروها ويستغلوها في توجهاتهم المعادية . .
– وللمخدوعين من المندفعين بالضد اقول ان الخطأ المحسوب كنوايا مقصودة ، ، هو خطأ التصور المبدئي او التعامل الاستراتيجي والا فالاخطاء الفردية عندما تجسم وتحول من مصادرها الشخصية الى المركز الستراتيجي ، ، يراد بذلك الخديعة التي تجر الاخرين لكي يكونوا العوبة السياسات الرخيصة . .

هل ادعي ان لا وجود في كردستان للاخطاء . . ! ؟

سأختار نصاً من حديث للقائد صـــدام حســين يقول فيه :

«ولكن بعض اجهزتنا اصيبت بالغرور بعد ٦ آذار ١٩٧٥ ، ، وتصرفت تصرفا مخالفا للتوجيهات .

لقد كنا نقول دائما ان عليكم الا تتصرفوا تصرف المنتصر مع عدو خارجي ، ، لاننا لم ننتصر في معركة عسكرية مع دولة اجنبية ، ، فكل الشعب هو منتصر ، ، وحتى الذين كانوا في الخندق المقابل من شعبنا المغرر بهم هم المنتصرون ، ، هذه هي الروحية التي يجب ان تتعاملوا بها مع شعبنا ، ، ولكن هل طبقت هذه الروحية فعليا كما اتحدث عنها الان ، ، وكما تحدثنا عنها ، ، واعطينا التوجيهات للعمل بها بعد آذار ١٩٧٥ ؟

الجواب : لا ، ، فقد تملك البعض الغرور ، ، وحدثت تجاوزات وتصرفات خاطئة . .»

هل يحتاج قول القائد هذا الى توضيح ، ، وهل ان معانيه صعبة او معقدة ، ، وتحتاج الى من يفك الغازها . . ! ؟

ابدا . . . .

– انها واضحة كل الوضوح . .

– صريحة كل الصراحة . .

– سهلة وليس فيها أمر عصي او صعب . .

وبعدها . . . .

– لا شيئ يكسب المعية والرعية غير المبادئ والتعامل الصحيح .

– ولا شيئ يفسد الامور غير التكبر والغرور والتعامل من فوق المبادئ والتوجيهات .

– ورغم ما اقول او يقوله الاخرون ، ، فأن الحقيقة الاكيدة هي ، ، ان مدينة السليمانية وشعبها المجيد ، ، وكل شعبنا الكردي ، ، لا يرضى ان تكون صخور الجبال في كردستان وكرا لاي خائن ، ، وان احلام القابعين خلف الحدود ، ، بأن مدينة السليمانية ستفتح اذرعا للفاتحين ، ، لن تكون الا الكوابيس المخيفة ، ، تماما مثلما كانت احلام دخول البصرة وميسان !

يقول القائد خلال لقائه مع ابناء السليمانية مؤكدا ذلك :

«بعض الاسرى الذين وقعوا في الاسر قالوا بأنه قيل لهم غدا سيكونون في مدينة السليمانية ، ، ليخسأ الجبناء فالسليمانية لها شعب يدافع عنها ولها جيش عظيم قادر على الدفاع عنها ، ، ونحن على ثقة كاملة بأن شعب السليمانية العظيم سيقدم كل العون لجيشه الباسل من اجل تأدية مهماته الوطنية في الدفاع عن ارض العراق وارض السليمانية ، ، ونحن على ثقة كاملة كذلك من ان شباب السليمانية ورجال السليمانية عموما سيحملون السلاح بعزم لا يلين في الدفاع عن السليمانية وارض العراق ونحن واثقون من النصر بعون الله» .

وحين ينتهي اللقاء . .

وتطغى على الوجوه ، ، ابتسامة عراقية ترتدي الوان كردستان الزاهية ، ، تدرك ان رايات العراق لا تهوي ، ، وان بيع الورقة الكردية في اسواق المزاد السياسي ، ، يطرح صكوكا بلا رصيد ، ، يفضح المتاجرين ويكشف افلاسهم الاكيد . . ! !

فكيف تدمغ الحقائق تجار الورقة الكردية ؟

(٦) الحقائق وتجار الورقة الكردية

هو رجل الصورة المشرقة . .

وهو القائد الذي تتجسد فيه كل عبقرية العراق . .

هو للعراق كل شيئ . .

هكذا أجد أحكام نفسي ، ، وهي تتابع نهر الحب الجاري بأستمرار ، ، عبر لقاءات القائد صـــدام حســين مع العراقيين ، ومنها لقاءاته مع أبناء كردستان .

لم أرد العودة للحديث ، ، عن معاني وقيم هذه اللقاءات . . ! ؟

ولماذا أريد لقلمي أن يختار رقصته هذه المرة من خلال الدبكة الكردية . . ! ؟

هل هي الصدفة ، ، أم أن فيض المشاعر الكردية وراء ذلك . . ؟

وأذن لكي أجيب ، ، أبتدئ

أسجل قبل كل شيئ الأعتزاز بكل صيحة كردية تعطي الولاء للعراق من خلال الولاء لصـــدام حســين . .

أشد على الأيدي الكردية التي تزرع القمح في كردستان وتحصد السنابل للوطن ، ، وتطارد تجار الورقة الزائفة الذين يحاولون الأستحواذ على مشاعر الأكراد ، ، بالأدعاء أنهم أصحاب القضية الكردية والمدافعون عن الحقوق القومية . .

والسبب في ما ذكرته . .

- ليس لأنني أشك في الولاء العراقي للأكراد ، ، حاشى لله ، فأبناء كردستان عراقيون بررة ، ومن تركبه الهواجس في ذلك ، ، عليه أن يبحث عن دواعي القلق في كل مكان ، ، الا في الضمير العراقي للأكراد ، ، لأنه ضمير وطني دائماً وأبداً . .
- لأن ذلك يغيظ الأعداء ، ، خارج الحدود ، ، يحمل اليهم ضربات المطارق القوية ، ، وهي تقرع الرؤوس المليئة بالشر ، ، من أن المراهنة على الأكراد فاشلة

وواهمة .

مراهنة فاشلة لأنها تتساقط كأنها أوراق الشجر اليابس .

ومراهنة واهمة ، ، لأن أوراق الخريف المتساقطة تكنسها الريح وتحملها للبعيد المجهول .

أنهم يضربون حركة التأريخ ويراهنون على دوران الزمن بالمقلوب ، ، والمشكلة هنا ، ، أن حركة التأريخ لا يقوى على ضربها أحد ، ، وأن الزمن لا يرجع الى الوراء . .

هل تكفي المراهنة على حركة التأريخ ؟

أظن أن حركة التأريخ من غير فعل يدرك مغزاها ، ، وكنه ما فيها ، ، والشروط الصحيحة لمسارها وتقدمها ، ، تكون أستسلاماً للصدفة ، ، وفي القضايا الكبيرة والمعقدة ، ، يكون مثل هذا الأستسلام وقوعاً في أسر المجهول ، ، وليس خضوعاً للمقادير . .

وشراك المجهول ، ، عالم مظلم محفوف بالمخاطر الكثيرة . .

لكن المقادير ، ، أستجابة للمشيئة التأريخية القائمة على فعل جدل المجتمع ، ، وقوانين حركته ، ، والتقاط جوهر الأمور وحده الذي يجعل القدر التأريخي متطابقاً مع الأرادة وشروط السيطرة على الأوضاع . .

كيف يكون التصرف ؟

المطلوب . .

- فضح تجار الورقة الكردية ، ، وما أعنيه ليس بتعرية الوجوه المعادية حسب ، ، بل بجعل الكردي يشم رائحة الخديعة أولاً ويشعر بالضيق منها ثانياً .
- هذا الذي أقوله هو مفتاح الحقيقة ، ، لأن وطنية الأكراد ، ، هي فوق كل الشبهات وفوق كل الأعتبارات .
- لكن المسألة الكردية ، ، بظروفها وملابساتها ، ، والموروث التأريخي لجملة المشاكل المعقدة ، ، تفترض فعلاً واعياً وذكياً وحكيماً ودقيقاً ، ، لا يتهيب من الحقائق ، ، حتى عندما تكون في بعض جوانبها مرة ولا يخشى الشروط الصائبة ، ، مهما أشرت من أمور وقضايا .

ما العمل . . ؟

- الحقيقة المطلقة للوطنية العراقية ليست فيها أفضلية لبقعة عراقية على أخرى ، ، ولا مداراة الأماكن على حساب ثانية ، ، لأن أرض العراق بكل ذرات رمالها وصخور جبالها وقطرات مياهها غالية وعزيزة ، ، ومتساوية القيمة والثمن . وكردستان العراق هي شأن أية بقعة عراقية في الوسط أو في الجنوب .
- لكن النظرة الموضوعية تفصح عن حقيقة أكيدة هي ، ، أن كردستان كانت مسرحاً لأوضاع طارئة وقتال طويل .
- وأن في كردستان شعباً عراقياً له خصوصية قومية ، ، لا ينكر ذلك الا الجاهل الذي تفاجئه الحقيقة يوماً ، ، وهي تطرق مخدع نومه بكابوس ثقيل . . ! !
- أن سلاح العنصرية لا ينفع أحدا أياً كان ، ، لأنه لا يهدئ النفوس ، ، بل يزيد التوتر والتربص والحذر ، ، بما يجعل في الأقل لتجار الورقة الكردية ، ، سوقاً يجوبونها ويطرحون فيها بضاعة مغشوشة ، ، قد تخدع البعض بأن ما تحمله هو المطلوب للقضية ، ، أو أنه سلاح يعطي الف مبرر لضرب حتى المشروع من الحقوق القائمة أو يعطل فرص النهوض والتطور المرسومة لها مع مسار العراق المتقدم الى أمام .

من ذلك أدخل الى نقاط مهمة . .

- أن خصوصية كردستان هي لون مميز في الخيمة العراقية ، ، يجب أن يكون دائماً لوناً لتجميل هذه الخيمة بما يتناسب ولونها العراقي الأصيل ، ، والا يقبل اللون الكردي الغريب أو النشاز ، ، ويحرم عندما يكون صبغة أجنبية بفرشاة كردية يراد منها تشويه الخيمة العراقية .
- العنصرية مرفوضة ، ، عربية كانت أم كردية ، ، لأنها تخلق حالة تنافر قومي وتشاحن بغيض ، ، لأن العنصرية ، ، أن كانت عربية تريد أبتلاع الهوية الكردية ، ، وأن كانت كردية تحاول الأفلات من الوطنية العراقية بالهروب بعيداً الى ما هو غير مقبول وغير مبرر . .

العنصرية مرفوضة ومدانة . لكن القومية الأنسانية مشروعة ومحببة لأنها دعوة أنسانية ، ، وهي حق مشاع للجميع ليس فيه تعسف وأستعلاء مثلما يخلو من

الأنعزال والأنكفاء والأنفصال ..

هل في العراق شواهد على ذلك ؟

- في السابق كانت في بعض النفوس ، ، أمراض تستقر فيها وتصدر عنها أحكام وقناعات بعيدة عن مصلحة العراق ، ، لا تخلو من التعالي القومي والتسلط تقابلها دعاوى للأنفصال . .
- بعد الثورة ، ، وعلى وجه التحديد ، ، منذ بيان الحادي عشر من آذار ولحد الآن ، ، وضع الأطار المبدئي والسياسي الذي يراعي الحقيقة الموضوعية لواقع العراق ، ، وجرت في ضوء ذلك أقامة المؤسسات التنفيذية والتشريعية .

هل بلغت هذه الأمور مستوى الكمال وهل شكلت نهاية المطاف ؟

وهل أنعدمت الأخطاء والتجاوزات ؟

- من يقول نعم ، ، أما أنه يتحايل على الحقيقة ، ، أو هو يعتقد أن انكارها هو الذي يرضي أو يريح .

ما هو الطريق الذي نتجاوز فيه الثغرات ونقضي من خلاله على الأخطاء . . ؟

أمور ثلاثة ليس أكثر . .

* الحرص على العراق . . .
* الولاء للقائد الرمز . . .
* التمسك بالمبادئ . . .

لماذا أركز على هذه الأمور ، ، لأنها قانون الحياة للعراقيين ، ، وهي ركيزة تطورهم وأمانيهم ، ، وهي ممكنة وليست مستحيلة . .

- الحرص على العراق ، ، لأنه دار العرب والأكراد بيت كل العراقيين .
- الولاء للقائد الرمز ، ، سأستشهد بنص قصير من حديث له ، ، يبين نظرته الى أبناء شعبه من الأكراد ، ، وحده يكفي لأن يبين أن صدام حسين ليس حصة للعرب وحدهم أو حتى للأكراد وحدهم ، ، هو للجميع . . يقول القائد :

«أن الأكراد شعبنا ونحن نبحث عن مستقبلهم .. بحرص أكثر من حرص الكثيرين أو البعض ممن يقولون عن أنفسهم . . أنهم ينتمون الى القومية الكردية . . أن المسألة لم تعد في حسابات بناء المجتمع الجديد ، مسألة أنتماء قومي فقط ، المسألة

الجوهرية هي مقدار الأيمان بمسيرة البناء التقدمي الذي ننشده وأقامة الأشتراكية في هذا القطر» .

– أما التمسك بالمبادئ ، ، فأن قيمته الكبيرة لا تحتاج الى التطويل . . هي التي توجد الضمانات العقائدية والقناعات الوطنية الموحدة ، وهي التي تخلق الوحدة الوطنية الراسخة على وحدة المنهج والتفكير.

لهذا تشكل قيمة كبرى في هذا المضمار ، وتمثل سياسات تصريفها في الواقع ، المحك والمعيار والدليل .

والحقيقة الأكيدة . .

– أن مبادئ قائد الثورة في منطلقاتها العامة ، هي مبادئ العراقيين جميعاً .

– وأن سياساتها في التطبيق ، ، هي . . سياسات صحيحة في تصميمها المركزي ، ومتجاوبة مع أماني كل الجماهير . .

هذه الأمور لا خوف عليها ولا قلق حولها ، أنها مأمونة بالقائد والثورة ، ، القائد يقظ بأستمرار والثورة مفتوحة العينين على الدوام .

ما أعنيه السياسات التفصيلية أي نقل السياسات المركزية الى مواقعها المطلوبة والموضوعية ، ، وما أقصده أيضاً سبل التعامل مع الجماهير في الأماكن التي يتطلب من المسؤولين ، عن العمل الرسمي والجماهيري ، التعامل فيها .

هنا بيت القصيد . . وقبل ما أريده على هذا الصعيد . . أود أن أشير الى أن الصحيح في ذلك هو المطلوب ، ، لأنه . .

– هو في كل مكان ، ، المعيار الذي يحكم المقاييس

– وهو في كل زمان ، ، نور يكشف الضلال ، ، أو يسلط الأضواء في الزوايا المهجورة أو التي ترحل الى الظلام .

– هو في كردستان له كل ذلك ، ، وله قيمة أستثنائية ، ، بحكم الحالات الأستثنائية التي مرت بها أو عليها .

– تزداد قيمة ذلك لان الأعداء يريدون هذه المرة المراهنة على كردستان على أساس أنها مراهنة «الأمل الأكبر» وهي في الحقيقة وفي منطوق التأريخ وحركته مراهنة خاسرة تعكس «الضيق الأكبر» من صلابة الثورة التي لم تصدعها السلسلة الطويلة

من المحاولات المعادية . . هي مراهنة على خيوط بيت العنكبوت لكي يغزلوا منها الأحلام . .

والمطلوب لذلك :

- تمثل تصرفات القائد في روحها وجهرها .
- اليقظة الدائمة لكل خطأ أو تجاوز ومعالجته وتصحيحه .
- التواضع مع الناس لأن التكبر قلعة غرور يحرسها غلاظ القلوب وهي لذلك قلعة مهجورة ينفر منها الناس ويبتعدون .
- هذا يلطم الأعداء ويوجه المزيد من الضربات للمراهنين على كردستان لأن الحقيقة «أن المعتدي سيلقى حتفه النهائي على ذرى جبال كردستان» وسيكتشف المعتدون أن المراهنة على كردستان خاسرة ، ، مثلما كانت مراهناتهم الأخرى . . كيف . . ؟

لقد حملت القافلة الأيرانية بضاعة السموم الى العراق ، وحاول حاديها في البداية ، ، عن طريق الدعاوى الطائفية ، ، أن يغازل العواطف المذهبية للشيعة . . ! !

وكانت ردود العراقيين جميعاً . أن الدار العراقية للجميع وأن الحيلة الخمينية لا تخدع أحداً وأن الساعد العراقي الواحدة ، ، تضرب الأعداء بقوة المبادئ الوطنية والقومية ، ، وقوة الولاء للقائد الرمز صـــدام حســين . .

وحين تأكد سراق مصائر الشعوب أن الوتر الطائفي لم يهتز أحد طرباً على أنغامه ، ، أتجهت أذهانهم الى بضاعة جديدة قديمة ، لكي تحمل القافلة الخمينية الدعاوى الكردية وتعزف الحان ذلك في كردستان بعد أن حملت هذه البضاعة القافلة الشاهنشاهية من قبل ، ، والغرض في الحالتين واحد لم يتغير التصدي للعراق والحلم بالسيطرة عليه . .

واليقين ، ، أن الأكراد سيقدمون ذات الدليل ، فلا صوت مسموعا عندهم غير صوت العراق ، وأن أية أغنية مهما كانت كلماتها أذا لم تتغن بالوطنية العراقية لا يمكن أن تخدع احدا . . والأكيد كما يرى القائد «أن الجبل يقاتل مع أهله وليس مكاناً للخنوع لخميني ولدجاليه» .

ولهذا . .

أن الأطمئنان للحصانة الوطنية في كردستان يظل عنصر الأمان بوجه الأطماع الأيرانية التوسعية والسد المنيع بوجه طوفان الحقد القادم من طهران .

هل تعني هذه الحقيقة من القول :

أن الدقة والحكمة في السياسات التفصيلية ، ، والتعامل بالمبادئ مع الجماهير ، والتحوط من كل ثغرة أو خطأ يقوي الحصانة الوطنية في كردستان ، ويغلق أية نافذة يمكن للرياح السامة أن تدخل منها . .

فالحقيقة الأكيدة ، أن السارق لا يتسلل الا في حالات الغفوة أو التساهل الذي لا يفطن الى صغائر الأمور لأن الغفلة مهما كانت صغيرة تتح للصوص الأختفاء والتستر .

والتساهل مهما كان فرصة يركبها القراصنة ويستغلونها في مآربهم .

والذين يركبون القافلة الأيرانية ، أو يشكلون أدلة الخيانة لها ، يستثمرون كل شئ لتجارتهم التي يحلمون من خلالها الحصول على «المكاسب» أو التي يمنون الأكراد بها ! ! !

والأغبياء وحدهم ، هم الذين يعتقدون أن القافلة الأجنبية تحمل ظعونهم الى ما يريدون . . ! !

وركاب القافلة الأيرانية منهم يصدم واقع الحال في كردستان أيران خيانتهم ، حيث الحقوق الكردية تداس تحت وطأة التعسف العنصري الفارسي البغيض وحيث الدماء الكردية مسفوحة بأيدي الخمينيين القتلة . . ! !

أن الحلم الكردي يظل حلماً مشروعاً ما دام في نطاق الحلم العراقي ، ولهذا فالحديث عن ثغرات في الحكم الذاتي ليست له أية شرعية أذا ما كان لغة أجنبية منطوقة بلسان كردي . . ! !

أن لقاء الأراء المقبول هو الذي يكون في أطار المصلحة الوطنية العراقية ، وأي رأي خارج ذلك لن يكون مقبولاً لأنه غير منطقي أضافة الى خدمته للأجنبي ، ، ولهذا فالأدعاء أن الحكم الذاتي لكردستان ، هو حكم ذاتي ناقص ، يفضحه الأرتماء في الحضن الأيراني الذي ينكر على الكرد قوميتهم ، ويعتبر الحكم الذاتي لهم

في أيران بدعة. وخروجاً على الأسلام . . ! !

أن التصور بوجود ثغرات في الحكم الذاتي لا يبيح على الأطلاق أستكمال النواقص بحمل البلطة الأجنبية . فكيف الحال بحملة البلطة الأيرانية في وقت يخوض فيه العراق ، ، معركة السيادة الوطنية بوجه الأطماع الأيرانية ؟ !

والأكراد ، ، لا يمكن أن تنطلي عليهم الأكاذيب واللعبة الدولية ، وهم يظلون حملة للخنجر الكردي لطعن خاصرة الأعداء . وأن من يخدعه الآخرون ويريدون منه طعن خاصرة العراق ، ، هو كمن ينتحر بيديه ولا يدري . .

أن الأرتماء في الأحضان الأيرانية لا يثمر غير الأشواك التي تدمي أصحابه وليس من ورائه من نتائج غير وصمة العار والخيانة ، وهو طريق لا ينتهي بأي شيئ لصالح الكرد وأنما العكس ، لأنه دائماً يجعل من هؤلاء مطية يركبها الطامعون ويتخلون عنهم عندما تقرر مصالحهم ذلك . .

- أن الخميني لا يتورع عن ترك حلفاء اليوم عندما يجد أن حساباته السياسية تستدعي مثل هذه الخطوة .
- والخاسر الوحيد من هذه اللعب القذرة ، هم أولئك الذين يضحون بكردستان والعراق على السواء .
- أن الشيئ المطلوب أولاً هو الأنتماء للثورة ، ومن ثم تأشير ما يتراءى للعيون من أخطاء أو ثغرات ، ففي واقع الأنتماء الواضح للثورة يكون لوجهات النظر المختلفة والأجتهادات المتباينة معناها الوطني ومغزاها المخلص الذي عن طريقه يطمح بالمزيد لخدمة العراق ومنه كردستان .

وعكس ذلك يكون الحديث مهما أعتمد من منطق وتحت أي شعار يختفي ، حديثاً غير مقبول ومرفوضا .

- غير مقبول عراقياً لأنه يعتمد منطق المعارض للعراق .
- ومرفوضا كردياً لأنه يطرح القضية الكردية كبضاعة في أسواق السياسات الخارجية .

والحقيقة الناطقة ، ليس هناك من له حق تمثيل الأكراد غير ثورة تموز ومن يبح لنفسه ذلك خارج خيمتها ، فهو كمفلس ليس له من رصيد ، ، غير العيش على

السراب ، ومن يزعم لنفسه حق الوصاية على الأكراد بعيداً عن خيمة الثورة يفترض توهماً أنه قد بلغ سن الرشد وغيره من الأكراد مازال قاصراً عن فهم مصالحه . . ! !

وصوت الأكراد العالي لا قائد نريد غير القائد صـــدام حســـين . .

الأول . . . يغرق في بحار الوهم المريرة . .

الثاني . . . يستعيض عن جبال كردستان الشامخة بجبال من الثلج في وقت فيه شمس تموز مشرقة على الدوام ، ، وفيه قائد لكل العراقيين . .

وعراق يقوده صـــدام حســـين ، ، لن يكون غير وطن الجميع ، ، وشمسه لا تغيب . .





الفصل السابع

مفكر
مبدع وخلاق

(ا) جذور بعيدة

لا اريد ان اكتفي بالقول ، ، ان صدام حسين هو رجل نظرية العمل الثورية ، ، ذلك على اهميته وحيويته ، ، يكشف جانبا رئيسا من معادلة العطاء الايديولوجي التي قدمها للنظرية العربية الثورية .

ان العطاء الفكري الثر ، ، الذي قدمه القائد بعد تسلم الحزب للدولة ، ، اجاب على مسائل عديدة وحدد ارضيتها الفكرية وقدم لها منهاج عمل في الميدان .

ان نجاح القائد في هذا المجال ، وأعني نقل المنطلقات الفكرية الى الميدان ، ، اي تحويل المبادئ من شعارات مرفوعة الى واقع التطبيق قد حل معضلة خطيرة كانت تجابه عملية الثورة ، ، وتستدعي منها منهاجا للتحويل الثوري في المجتمع يرتكز على قاعدة ايديولوجية . .

ان الرؤية العميقة في هذا المجال تستطيع ان تتلمس الاهمية القصوى لهذا النشاط الفكري الكبير للقائد صـــدام حســين ، ، وتمسك بالنتائج الايديولوجية التي بلورها ولولاه لكانت النزعة التجريبية والاجتهادات المجردة من الجذور العقائدية هي السائدة ، ، وبسببها تبقى خطوات العمل تترنح حتى يبدو التطبيق بعدها مهتزا وضائعا او غارقا في ضبابية اليسارية الطفولية او متجمدا في حدود العقلية اليمينية المحافظة .

صـــدام حســين بهذه الحقائق رجل نظرية العمل الثوري ، ، ومفكر مبدع خلاق ، ، اضاف الى نظرية الحزب الايديولوجية في منطلقاتها الفكرية وتفصيلاتها اغناء يندر لها ان تفتحت عليه قبل ذلك .

فكيف كانت البدايات ؟

الذين يعتقدون ان العطاء الفكري للقائد قد أبتدأ مع نشاطه المكثف على هذا الصعيد ، بعد ان انتهى من مرحلة تثبيت النظام الثوري ، ، وتأمين استقراره يمسكون بالحقيقة في جانب مركزي واحد ، ، هو الاجوبة الفكرية التي قدمها على

معضلات التطبيق للمبادئ ومشاكل البناء للدولة وتحديد منهجيتها الفكرية ، ، ولكن هذه الحقيقة المهمة لم تكن بنت التأمل وليد اللحظة التي افرغت مثل هذه المهمة وقدمت العطاء الفكري المطلوب لها ، ، وانما كانت حصيلة معاناة فكرية عميقة في بعدها وابعادها ، كانت انعكاسا للحصيلة التاريخية التي تشكلت فيها وتطورت معها لكي تأخذ السياق الذي عبرت عنه بصيغة نظرية العمل الثورية .

لقد كانت اليقظة الفكرية المتبلورة بطروح نظرية ناضجة تمتد الى تجربة القائد مع ثورة رمضان وامتداد رؤيته الفكرية الى الواقع الذي عايشته ، ، كانت محاكمته الفكرية ترى ان هذه التجربة لم تغرق في توصيف الحالة السياسية وشروط قيادتها حسب ، ، بل انها كانت حائرة الخطى والمسار امام الواقع الذي تريده . .

وكانت هذه الحالة تكشف مع الكثير من العوامل التي تكمن وراءها معضلة ايديولوجية لم تستطع الشعارات العريضة والمفاهيم العقائدية العامة من ان تجد لها حلا .

وكان القائد يحمل هذا الهاجس وذهنه يتوقد الى البعيد ، ، لكنه حيال ذلك لم يغرق في الخيال بحيث تضطرب عنده المفاهيم او تضيع في رحى ذلك الواقع المتخلخل ، ولهذا كانت رؤيته الفكرية لبعض المحاولات النظرية التي ارتدت لبوس التطوير الفكري كونها في جانب ، ، ارادت ان تغطي بالمسوح الايديولوجية روحا للتكتل مثلما عبرت عن كونها بنت الحاجة التكتيكية ، ولم تكن بنت الضرورة المبدئية والستراتيجية .

وكانت اليقظة الفكرية الواعية عند القائد صـــدام حســين تتبلور حول تقديراته ، بأن أخطر محاولات التكتل ، ، هي التي ترتدي ثيابا فكرية ، لانها تثير زوبعة فكرية هي الاكثر تأثيرا على خلق العواصف السياسية والتنظيمية فيما بعد . .

كان القائد يحمل هذه الصورة ويعرف منها ان طريق التسلل الى الافكار لمحاولة الغامها يعني ان التفجير وشيك وهو لا يحتاج سوى ايصال السلك وقت الحاجة او عند الضرورة .

لم تكن محاولة القفزة بالافكار دليلا على الاغناء الايديولوجي ، وانما كانت مؤشرا على افتقار الوسائل والتصورات التي انتهت الى ذلك من النظرة الموضوعية ، التي تعي

شروط التطور الواقعي للافكار ومستلزمات الاغناء الناجح للافكار .

وهكذا فأن محاولات نظرية كهذه ، لم تأت ضمن السياق الواقعي للتطور الفكري ، وانما جاءت وليدة تقديرات تبتعد عن ذلك .

والواقع ان خلفيات هذه الحقيقة ، كانت تتصل بحالة فكرية شهدها الحزب خلال تجربة الانفصال حاولت تحت ستار الحاجة الى التطوير العقائدي الى ان تمارس حملة تتعدى النقد البناء الى التشكيك المريب .

فلقد كان الحديث وقتها يجري على ان عقيدة الحزب هي مجرد شعارات عريضة ، وان عمومية الافكار التي تطرحها لم تعد قادرة على مواجهة مشكلات الواقع العربي ! ! !

وقد يكون لهذه المقولات جانب من الحقيقة ولكن الوجاهة المنطقية سرعان ما تصطدم بالنوايا غير الموفقة في لمس الوقائع الموضوعية والمؤشرات التاريخية التي تتيح للنشاط الفكري ، ، الارضية المبدئية الراسخة الكفيلة بتطويره واغنائه . .

وكانت هذه المحاولات ، ، بدلا من ان تمسك بهذه الحقائق وتسير على هديها ، ، كانت في دعواتها وما تردده من ان الشعارات العريضة للحزب تعكس قصورا نظريا تقف عاجزة عن الصور الحية اللازمة للتطوير النظري والارتقاء بالافكار العامة الى محتويات واضحة المعالم ومحددة التفاصيل .

وكان هذا العجز يظهر امام سؤال عميق في معناه وهو : كيف يكون التطوير الذي يسد النقص النظري المؤشر؟

كان ذلك هو السؤال الصعب . . . .

وكان السؤال المحير . . . .

وكان النقطة الاولى الذي رسم اطار الحلقة المفرغة في الحديث عن الفقر الايديولوجي ، ، وكان بداية اتخذها البعض ذريعة لان يقفز بالفكرة القومية الاشتراكية الى افكار لا صلة لها بالواقع ولا تمتد اليه بجسور صحيحة . .

كانت اضافة الى ذلك هناك محاولة لدى اخرين لكي يمازجوا الفكر القومي بالفكر الماركسي وان يستعيروا قوانينه ومنطقه ليقحموهما على الفكر القومي في عملية الصاق ساذجة وربط مصطنع ومشوه تجد فيه خليطا غريبا في منطلقاته ومنطوقه .

لم تكن هذه الحالات غائبة عن المناضل صـــدام حســـين وكان يقينه ان البحث النظري في التطوير الفكري ، ، يجب ان يتجاوز المنطلق السلبي وان ينطلق من موقف ايجابي ، ، واول شروط ذلك ، ان لا تكون الهوية الايديولوجية عرضة للتغيير او التلون الغريب ، ، او ان يكون النقد الموجه اليها ذا دوافع تدميرية تقتلع الجذور وتنسف الاصول . . !

ان المناضل صـــدام حســـين وهو يتلمس المخاطر الفكرية الناجمة عن الانحراف عن خط الحزب العقائدي ، كان يدرك ان التطوير الفكري هو ابن الهوية الايديولوجية التي فيها خصوصية الواقع معبر عنها بالافكار الخاصة المنطلقة منها ، وعداه لا يكون غير محاولة لزرع البلبلة الفكرية والتشتت في الافكار اذا لم يكن انحرافا خطيرا . . ومثل هذا الطريق لا يطور الافكار وانما يفضي الى التصارع الفكري ومن بعده التصارع على التنظيم .

وعندما حصلت ردة الثامن عشر من تشرين ، ، كانت الحالة السياسية والنفسية التي خلفتها تضغط على سبل الخلاص والبحث عن مخرج ملائم .

وكان اقصر الطرق التي تصورها البعض سبيلا الى ذلك ، ، هو القفز الى الحلول السهلة بالتلاعب باللفظة الايديولوجية ، ، واستعارة المقولات الفكرية الطنانة ، وسلخ المفاهيم من حضن العقيدة القومية الاشتراكية ، ، والانجار الى الافكار الصبيانية المتطرفة او الى المفاهيم الماركسية والمزايدة عليها بحيث تكون الاحزاب الشيوعية الى الخلف منها . . ! !

كان القائد صـــدام حســـين وهو يعايش هذه الحالات ، ، ويسعى الى اعادة التنظيم ، ، منتبها لذلك وما يمكن ان ينتهي اليه مثل هذا الضياع الفكري ، ، في ظل واقع واضح للاحباط النفسي . .

وكان جهده المكثف في البداية هو ، ، ان يحول بين الاحباط النفسي وما يلعبه من اثار على المفاهيم والوصول بها الى الاحباط الفكري بحيث يشكل ذلك ارتدادا على العقيدة القومية الاشتراكية ويسحق النظرية العربية الثورية في صميم منطلقاتها المركزية .

وكان نضاله على هذا الصعيد شاقا وسط اوضاع كانت تحمل من الضغوط الكثير

ومن حالة كانت تشكو من الازمة وتبحث منها عن بصيص من امل ، ، وعن خيط ابيض وسط تلك العتمة السوداء .

كانت رؤيته المستقبلية متفائلة من ان هذا الضجيج لا يلبث ان يزول وان احكام الواقع سرعان ما تطغى وتحفر الحقائق بقوة ، وترسم الحدود الصائبة بعيدا عن التشويه والتهويش .

وكان القائد وهو يتعامل مع هذا الواقع وافرازاته الفكرية وما يشهده من ملابسات واراء يكتنز في ذهنه بذخيرة افكار ، ، هي مصدر قوته الفكرية في مجابهة ضياع تلك المرحلة وتخبطها ، ، وهي ايضا سلاح المستقبل في التطوير الصائب للافكار والاغناء السليم لها .

وكان القائد وهو يرى عطاء الواقع والتجربة وما فيه من ادلة تاريخية لتطوير الافكار ، ، يعتقد جازما ان التطوير الحقيقي الذي يغني الاساسيات النظرية ، ، يكون حين يتمكن الحزب من الاستيلاء على الحكم لان تنفيذ مهمات الثورة ساعتها يتطلب ان تكون الافكار في خدمة التغيير ، وان تستخدم كمنطلقات اليه ، ، مثلما تتعامل مع الواقع لتغتني منه .

وهكذا هي الافكار التي تصنع التاريخ . .

وهكذا كانت افكار القائد صـــدام حســـين . . وكانت مفتاح المشكلة . . . .

(٢) مفتاح المشكلة

كانت رؤية القائد صافية وبعيدة في رصدها للحقيقة الفكرية الساطعة وسط خضم الافكار المضطرب ، ، والتذبذب الايديولوجي اللذين كانا في الساحة عقب الانتكاسات التي تعرض لها الحزب ومجمل الحركة الثورية وامتداد التخريب المضاد الى محاولات تشويه الممارسات والافكار الثورية معا .

وكان مصدر هذه الرؤية عنده ، هو صفاء الايمان الذي التقط وضوح الافكار والمفاهيم المستقرة ، وكذلك حصانته المبدئية العالية التي أطلت على الافق الفكري الصحيح وتلمس الطريق الصائب في النظر اليه وعدم الضياع في دوامة الحالة المريرة السائدة وقتها .

ولهذا لم تضطرب الحقيقة الفكرية في مفاهيمها ومنطلقاتها ، ولم تغرق في المثالية الموهومة او التجريدية التي لا رصيد لها في الواقع ، ولم تزين له الحالة القائمة آنذاك افقا آخر يبتعد في خطوطه عن النظرية العربية الثورية كمنهج عقائدي اصيل في تغيير الواقع العربي .

كانت النظرية العربية الثورية بمنطلقاتها المبدئية بالنسبة له ، ، هي مفتاح المشكلة للحياة العربية ، ، وهي الاطار الثوري والنظري والنضالي للاهداف القومية المصيرية .

وكان مصدر الاطمئنان عند القائد لذلك ، ، هو ان ثقته بالهوية الفكرية التي تحددها هذه النظرية لا حدود لها كونها افكارا صائبة في وصف الواقع العربي وتقديم قوانين الحل المبدئي لتناقضاته ومشكلاته .

ولهذا السبب ، ، فأن تقديراته الفكرية ، ، لم تتزعزع في حومة ذلك الواقع وما فيه من تصارع للافكار وما تذهب اليه من آراء ، ولهذا فقد ظلت في مفاهيمه الحقيقية المطلقة ، ، وهي ان النظرية العربية الثورية هي الاساس في تحديد خط التحويل التاريخي للاوضاع العربية وان المطلوب هو تعميق وتجذير هذا الخط بدمج

افكاره بحياة البشر وحركة الواقع والتاريخ .

وهكذا فأن صـــدام حســـين بتمسكه بالحقيقة المبدئية المطلقة لم يجنح الى جمود عقائدي يتوقف بنظراته الفكرية عند حدوده ، ، بل كانت رؤيته تمتد الى تصورات تتطور بالافكار وتفتح حلقاتها الى المستقبل ، ، من غير ترد في الانتهازية الفكرية او الانحراف الايديولوجي الذي يشذ عن خصائص الواقع ويبتعد عن الاصول .

وكان القائد صـــدام حســـين بهذا الموقف الفكري لا يعبر عن اصالة فكرية حسب ، ، بل عن عبقرية تدرك ضرورة ومستلزمات الاغناء الايديولوجي وتحدد معادلته الفكرية الرصينة على اساس :

ان النظرية الثورية لا تستورد ولا تصطنع ، ، وهي ايضا ليست مومياء تتحنط فيها المفاهيم من غير حياة ولا حركة .

وكان القائد لذلك يرى ان الجمود المذهبي ، ، هو مقبرة للافكار توارى فيها المفاهيم المطلوبة للتطوير وتموت داخل القوالب الجامدة ، ، التي تنكسر مع الزمن والاحداث ، ، او ان الواقع بحركته يجعلها بعيدة عنه او مفترقه عن قنواته الحية المتحركة .

كانت هذه هي رؤية القائد الفكرية ، وكان يبشر بها في اجتماعاته الحزبية وفي المؤتمرات الحزبية ، ، واستطاع بها ان يحول دون ان تتعرض النظرية الثورية الى مقولات ، تنساب اليها الانحرافات الفكرية او تتحول الى شبح فكري شاحب اقرب الي هيكلية مهلهلة منه الى بناء نظري يفتح ابوابه للتطور والاغناء الفكريين .

ان نشاط القائد صـــدام حســـين هذا وسط صخب الشعارات الرنانة والنغمات اللفظية المزايدة التي لا جذور مبدئية لها ، ، قد جنب الحزب المخاطر الفكرية وصان نقاءه الفكري مثلما فتح حلقاته الى تطور صميم واصيل . .

وكانت وراء هذا الجهد الكبير للقائد قناعة اكيدة وهي ان تحويل الاحزاب الى حركات انتهازية يبدأ دائما بأنتهازية الافكار ، ، التي تنتهي بالنتيجة الى انتهازية المواقف على كافة الاصعدة السياسية والعملية والتنظيمية .

وهكذا فأن اصول النشاط النظري للقائد لا تبدأ مع نجاحاته في تحديد نظرية

العمل الثورية ، انما جذورها تمتد الى تلك البدايات التي حمت البعث ، ، من الانتهازية الفكرية والتذبذب الايديولوجي .

وكان من جراء هذا النشاط النظري ان صان القائد الحزب من الخلط الايديولوجي ، وبهذا سدد الضربة الفكرية لمحاولات تعويم النظرية الثورية واغراقها بالوافد من الافكار بشكل يجرف الطوفان فيه ، اصولها وخواصها .

وكانت هذه الحقيقة ، ، هي البداية التي حطمت المزاعم الانتهازية الفكرية وصانت الحزب من العبث الايديولوجي .

والواقع ان القائد صـــدام حســين ، ، خلال المراحل الحاسمة في تاريخ الحزب لم يكرس جهده لصيانة الوحدة التنظيمية وفضح المحاولات الانشقاقية معتمدا على اشاعة روح الانضباط التنظيمي واحترام قواعد الشرعية فقط . بل كان هذا الجهد يمضي الى تسفيه تلك المحاولات في طروحاتها النظرية التي كانت تسوق منها مبرراتها الانشقاقية وراء الدعاوى الفكرية المزايدة ، ، والاتهامات التي تحاول بها الحاق النعوت اليمينية بأفكار الحزب بالادعاء انها عازمة على تجديد الافكار البعثية وتطويرها بما ينهي حالة القصور الفكري الموروث ، ، وتشذيب النظرية من المفاهيم اليمينية المتخلفة . . . ! ! !

وهكذا فأن ما شهدته المؤتمرات الحزبية من آراء ومناقشات وجدل ابان الاحتدام مع الزمرة المنشقة ، يؤكد ان صـــدام حســين كان قائدا تنظيميا بارعا في ذات الوقت الذي كان فيه صاحب نشاط نظري مبدع يسقط فيه حجج المنشقين الفكرية ويسقط ذرائعهم الايديولوجية ، ، ويكشف حقيقتهم كتيار سياسي مرتد يسوق الافكار وصولاً الى ذلك .

وبفضل هذا النشاط والنشاط التنظيمي القدير . سدد صـــدام حســين لتجار الدعاوى الفكرية المزايدة سهام الحقيقة المميتة كون دعاواهم بدعة لا تمت الى النظرية العربية الثورية بصلة ، وانها تزييف يخفي في طياته الانحراف الفكري والاخلاقي والسياسي .

وكان هذا النشاط من العوامل المهمة ، ، في الانهيار الفكري الذي لحق بتلك الدعوات التي كاد بريقها يغري كثيرين ، ويزين لهم طريقا فكريا غير طريق الافكار

الاصيلة للعقيدة القومية الاشتراكية .

وكان هذا النشاط والحجج الفكرية لصـــدام حســـين ، مصدر قلق لتلك الاوساط . وكانت وهي تسقط قلاع المرتدين الفكرية تجعلهم في الاخير مجردين في الساحة من كل قناع .

وكان اساس قدرة القائد في هذا المجال هو انه استطاع ان يفوت الفرصة على من اختاروا ركوب الموجة الفكرية لكي تكون نقطة التقرب في الوصول الى الحسابات المقصودة التي ارادت التخلص من احكام العقيدة القومية الاشتراكية ونسف اساسها النظري والقضاء على مبررها المبدئي . لان هذه الحسابات كانت تعتقد ان الطريق سالكة الى ما تريد ان هي نجحت في هذا المسعى الخطير .

وكانت معرفة القائد للنوايا وللاغراض الكامنة وراء هذه الطروحات المزايدة عاملاً افسد على بارجة الافكار المشبوهة والمشوهة من ان تلقي سمومها في محيط الافكار السليمة للحزب ، وهذه المعرفة والنشاط الفكري المبذول ، ، هي التي الحقت الهزيمة بالقوى والافكار المناهضة ، وهي كانت لان عقل القائد وعينيه وضميره ، مفتوحة دائما لما هو مطلوب . .

يؤكد ذلك القائد بقوله :

«يجب ان تكون عقولنا وعيوننا مفتوحة جيدا وبشكل دائم لكي نحافظ على المبادئ وصولا الى مواقعها بشكل حاسم وبلا تردد . ولكن يجب ان نضع في حسابنا دائما توفير مستلزمات تطبيق المبادئ»

بهذه الرؤية ، ، وبهذه الحقائق ، ، كان النشاط النظري المبدع والخلاق للقائد صـــــدام حســـين ، وبكل ما قدمه على هذا الصعيد نصيب الواقع والحقائق حين نصفه بالمفكر الملهم . .

(٣) مفكر ملهم

كان فهمه عميقاً ودقيقاً لقيمة النظرية الثورية ، وكان القائد في هذا الفهم ، لا يحلق في عالم الخيال الخادع ، يتصور فيه افكاراً محمولة على اجنحة الوهم ، لكي توحي اليه صورة التغيير او وسيلة التطبيق لتحويل المجتمع .

ولهذا كان فهمه لهذه الامور ينطلق من «ان النظرية تصاغ على ضوء الواقع وتتطور على ضوء معطياته» وهو بهذا كان يضع الافكار الثورية على محك الواقع ويدفعها الى حيث الغايات المطلوبة للتغيير ويستفيد من عطاء الميدان لتطويرها والارتقاء بها صعوداً نحو الآفاق الرحبة للاغناء الفكري .

كان صــــدام حســـين عميقاً في هذا التشخيص الدقيق وهو يحدد من خلاله سبيلين لبناء الدولة . هما نظرية ناضجة ومتطورة ، ونظرية عمل تحدد للجزئيات تفصيلاتها المطلوبة لصيانة التطبيقات من التخبط وعمليات التنفيذ من الارباك .

وبهذا كان القائد امام مهمات كبيرة في هذا المضمار كان امام مهمة تطوير المجال الفكري وتوسيع مدى الرؤية لنظريته .

والآخر ايجاد نظرية العمل وتقديمها كدليل تطبيقي يلاحق التفاصيل ويحل اشكالاتها برؤية تستجيب لاحكام الواقع ، وشروط التنفيذ بتخطيط المبادئ ورسم سياساتها في الميادين العملية .

هذه الحقائق كانت تلازم القائد ويعايش دلالاتها وهو ما كاد ينتهي من مستلزمات حماية الثورة وتدعيم امنيتها حتى تفرغ لهذه المهمات وكان نشاطه النظري بمحورين . . محور يتوخى اغناء الافكار النظرية والمحور الثاني يرسم من خلال نظرية العمل التي اوجدها للتطبيقات منطلقاتها النظرية .

وكانت معاناته من اجل ذلك كبيرة ووراء نجاحه المبدع والخلاق ، فكان يخضع الافكار للميدان مثلما يجعل من ارضيته مجالاً تخصب فيه الافكار وتتطور .

ان صــــــدام حســــين وهو يعرف ان ثورته جذرية وشاملة يدرك ان لها في كل لحظة اختياراً حاسماً وقرار مصيري في جميع جوانب الحياة الامر الذي يستدعي ان يكون للنشاط السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري والثقافي قاعدته الفكرية ومنطلقه المبدئي مما يتطلب الحال فيه ان تؤطر جميع هذه الانشطة بالاطر النظرية .

وكان لمعاناة القائد اثر مهم في تحديد هذه المهمة الايديولوجية والانطلاق بها الى عالم الابداع الفكري ، وعدم التحجر في الواقعية المجردة التي يتلاشى فيها الخيال النظري المطلوب لتصور الحالات الابعد .

هذه المسألة يوضحها القائد بقوله :

«لابد من ان نفرق بين الخيال المشروع وبين التعجل الراكض الى الخيال الواهم . . بين الخيال الانساني الذي هو ليس نقيضاً للواقعية الثورية وبين الواقعية المجردة عن الخيال الانساني والمعاني الانسانية .

فنحن لم نقرأ ولم نشاهد ولم نلاحظ ان بأمكان اي انسان واية امة ان تصنع شيئاً كبيراً لها وللانسانية بدون ان تكون ذات خيال مرتبط بالواقع ويستمد روحه مما هو ابعد من هذا ويتجه الى ماهو ابعد منه» .

بهذا الخيال المشروع تتميز العبقرية المبدعة لافكار القائد صدام حسين ، انها تلاحق المدى الذي تصبو اليه الافكار وهي في هذه الملاحقة تحافظ في ذات الوقت على تجذير هذه الافكار وتطويرها بما يلبي المستجدات ويتلاءم مع حيز الافق الفكري المفتوح بأستمرار .

وبهذا فأن هذه التصورات ليست هي احلام الغفوة ، وانما هي احلام الارتقاء بالواقع الى امام . وفيها تأكيد على الصيغة الخاصة التي يرضي فيها الخيال نوازع الابداع ويلتقط منها جوهر الامور في حركتها المستمرة مع حركة الزمن والواقع .

ويتضح من ذلك . ان صـــــدام حســــين في نظرته المبدئية الى الفكر ، ونظرية العمل المستلة منه يتميز في منهجيته الخاصة والاصيلة ورفضه للاقتباس مثلما لا يغلق رؤيته امام التفاعل الفكري والاستفادة من النشاط النظري الانساني .

فالقائد يرى في الاقتباس النظري ظاهرة خطيرة ليس لانه تعبير عن الكسل العقلي وخمود الرؤية النظرية . بل لان ذلك يشكل موقفاً متخلفاً وهو في سياق التطور

الفكري يشكل عقبة كأداء امامه ولهذا يقول :

«ان كل نظرية مقتبسة هي رجعية . لان كل ما يعطل الدور القيادي المبدع للانسان هو رجعي .

والنظريات الانسانية لم تكن في يوم ما خالية من النوافذ التي تطل بها على فناءات التجارب الانسانية الاخرى ونظرياتها عبر العصور .

ان النقل يقتل روحنا ، والرفض يقتل وسائلنا في الاقتدار المطلوب وهو الفهم والتفاعل والتكيف ومن ثم الابداع» .

والحقيقة ان صدام حسين قد اكد بأنه يمتلك من رحابة الخيال وابداعات التصور الخلاق للافكار الجديدة ما اعطى للنظرية الثورية مزيداً من التفتح والحصانة والتفاعل المقتدر مع افكار التجارب الاخرى مثلما تمكن من طرح نظرية العمل المتجاوبة مع كل التفصيلات النظرية للصيغة العملية المطلوبة .

ان صدام حسين بهذا ، هو بحق رجل الابتكار وقائد الافكار المبدعة الخلاقة التي لا تشعر بالاستلاب الفكري حيال غيرها من الافكار وليس فيها مركب للنقص النظري ازاء غيرها من النظريات .

ولهذا يقول القائد :

«ان الناس العاجزين عن الافكار هم الناس الذين يقلدون الآخرين ويستنسخون عنهم وفي مجتمعنا نوعان من المقلدين . .

نوع مستنسخ عن القديم وهم اليمينيون والرجعيون . ونوع مستنسخ عن الجديد ومنهم بعض الحركات السياسية التي تستعير معالجات وتجارب الشعوب الاخرى . .
اما نحن فلدينا القدرة على الابداع والمعالجات الخلاقة والمتطورة وان الحياة تستلزم التعامل بصيغ ووسائل وافكار متطورة» .

ان القائد بهذا الموقف الذي يطرحه يتطابق في مفاهيمه مع سنة الحياة وخصائص المجتمعات المختلفة . وبحكم هذا التباين يكون التقليد ضاراً وماسخاً للشخصية الانسانية في مواقعها القومية مثلما يكون التقليد قيداً على تطوير الواقع في بنيانه المادي والروحي على السواء . لان وجود نظرية شاملة تصلح لجميع الشعوب هو ضرب من انواع الخرافة الفكرية ، مثلما هي استحالة عملية يلاحقها الانهيار عندما تكره

الشعوب على تقبلها وتطبيقها في مجتمعاتها المختلفة .

هذه الحقيقة يشير اليها القائد بكل وضوح وهو يقول :

«لا توجد نظرية للحياة تصلح لكل الأمم وانما نظريات كل الامم في الحياة تصلح لان تكون نظرية الحياة الاممية لكل العالم . اي ان حاصل الجمع المتفاعل الذي هو بمثابة الحصيلة النهائية لتفاعل نظريات كل الامم هو النظرية الصالحة والقانون الذي يصلح لكل الامم في اساسياته العامة» .

بهذا يسقط صدام حسين الفهم الخاطئ الذي يعمم على كل امم العالم نظرية واحدة ، مثلما يبتعد عن مخاطر الانعزال الفكري الذي مرده التعصب الايديولوجي والانغلاق الذي يوصد نوافذ الاطلال على العطاء الفكري الانساني .

وبهذه المعادلة الايديولوجية يصون القائد الفكر الاشتراكي من ان يقع فريسة سهلة للمنطق الايديولوجي الذي يدعي بأنه يمتلك الحقيقة الكاملة في التطبيق والذي يصلح لكل التجارب بغض النظر عن واقعها الاجتماعي وخصائصها القومية .

ان الحقيقة المطلقة الكاملة لا تمتلكها ايديولوجية واحدة واية حركة سياسية تنساق الى هذا الوهم الفكري تحكم على نفسها بالاخفاق السياسي والعملي لانها بالاصل تنطلق من فكرة فاشلة ، وتبحر في سراب ايديولوجي خادع لا رصيد له من الصواب في الواقع ، الامر الذي يعني انها ستقع في خطأ التقدير .

ان هذه الحقيقة يشير اليها القائد وهو يقول :

«ان اية حركة اذا ما انعزلت عن مكونات ذلك الواقع اثناء تغيره الى امام ستقع بخطأ التقدير ولا تخرج بالنتائج التي تستهدفها في عملها الذي تريد القيام به» .

ولهذا تكون الاستقلالية الايديولوجية هي موقف فكري اصيل لكل توجه يريد بناء المجتمع وفق جدل تجربته الخاصة ومميزات الواقع وشروطه الموضوعية والذاتية .

ان الاستقلالية الايديولوجية لا تلغي مبدأ الانفتاح على الافكار الانسانية لان الانفتاح الايديولوجي الذي يقوم على مبدأ الاخذ والعطاء يغني الافكار ويخصب النشاط النظري ويزيد من حيويته .

ولهذا لم يضع المفكر القائد صدام حسين افكار التجربة الثورية التي يقودها في محجر يمنع عنها عدوى الاصابة بالافكار الاخرى او يخاف عليها من خطر

ايديولوجي وافد ، وانما هو قد وضعها في اطار الخصوصية القومية وحصنها بكل القوة المبدئية وفتح لها جسور الامتداد والانفتاح على العطاء الفكري الانساني .

والقائد بهذا الفهم السليم . يفتح ابواب النظرية العربية الثورية للتأثر وللتأثير مع غيرها من الافكار العالمية . وهو بهذا السبيل لا يفتح الابواب الفكرية بالمنطق المحايد الذي يضع من خلاله السياق النظري لتجربته في مواقع حيادية مع غيرها من النظريات ، وانما هو يتحاور معها بمنطق نقدي يكتشف منه الجوانب السلبية ويتلمس الامور الايجابية ويوازن الحالة المفيدة مع خصائص الواقع العربي بصيغة الاستفادة النظرية وليس الاستعارة الفكرية الآلية .

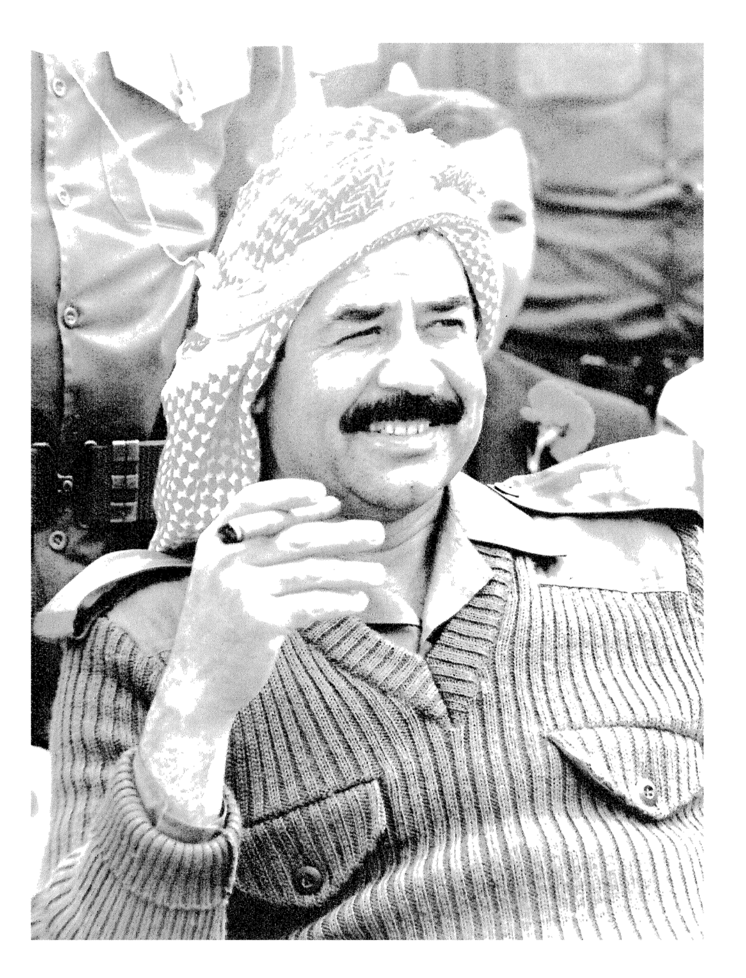
ان هذه الحقيقة التي يحرص عليها القائد هي التي تجعل من افكاره متميزة وخصبة وذات افق مستقبلي ، لان معاناته قائمة على تأمين مثل هذه الحالة الفكرية ولهذا يقول :

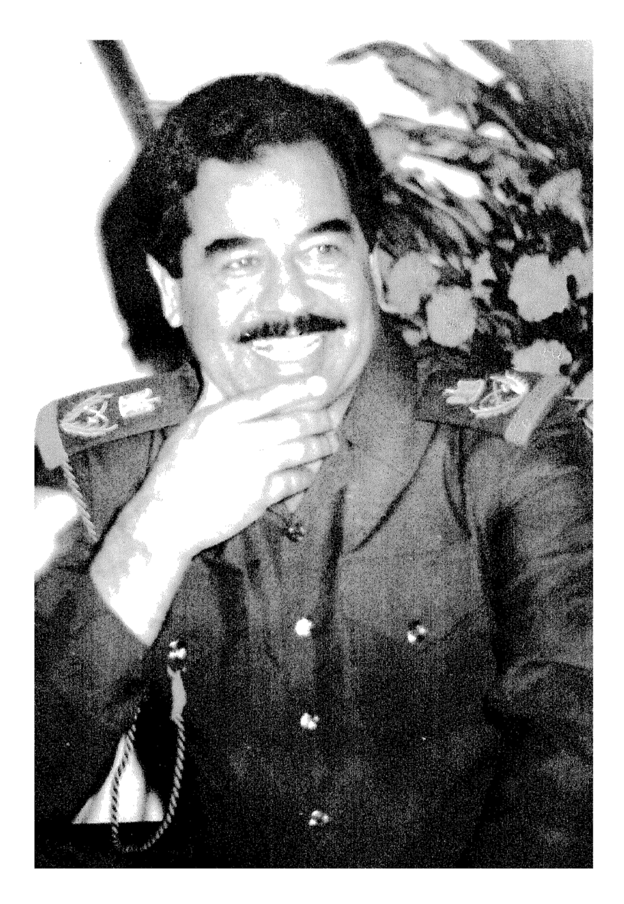
«الفكر اساساً ينضح من المعاناة ولا يمكن للمعاناة ان تنفصل عن التجربة الحية للواقع اليومي الذي يعيشه الانسان ، وفي الوقت نفسه فأن الفكر يمتد الى المستقبل ليسبق الواقع ويكون المرتكز الاساس لتغييره ، لذلك فأن الفكر يكون منفصلاً ومتصلاً بالواقع في وقت واحد ، منفصلاً بمعنى انه يسبق الواقع في التحليل وتصور المعالجات ، ومتصلاً بمعنى ان عينات الواقع المرئية هي مصدر الالهام الرئيس وهي الدليل الاساس لان ينضح الفكر من موقعه الى امام» .

والواقع ان صـــدام حســين هو القائد المفكر الملهم على هذا الصعيد . .

ان النظرية بفعل نشاطه الفكري لم تتوقف عند اطار ايديولوجي محدود يتمثل بالخطوط العريضة للافكار ، وانما صار لها محتوى يجيب على تساؤلات الواقع مثلما غدت بوجوده نظرية العمل واضحة الامور في التطبيق . وهي من الاهمية القصوى لتجربة تغذ السير الى امام . لا نريد الحديث عن قيمتها لاننا سبق وتحدثنا عنها في كتابنا «صدام حسين . . الرجل والقائد» .

والواقع ان صـــدام حســين قد حول النظرية الثورية الى قوة مادية وفكرية هائلة وهو بكل ما حققه قد جعل الاعداء يقابلون تجربته الرائدة بالعمل التآمري الذي تمثل الحرب الايرانية على العراق مثالاً سافراً له . . ولهذا يقول القائد في مجلس الوزراء





خلال اجتماعه المكرس لمناقشة المنهاج الاستثماري والميزانية العامة لسنة ١٩٨١ ما يؤكد ذلك وهو يقول :

«عندما لا تكون النظرية في الراديو وانما في التطبيق ، تكون الحرب كاحتمال قوي . لان العراق لا ينهض ولا يكون له دور وطني وقومي وانساني متميز ، الا بالبناء المتميز . وقد صار واضحاً ان ما يشهده العراق الجديد هو بناء متميز ، فأذن . . تفكير الاعداء لابد وان يقوم على اساس ايقاف عملية البناء» .

هذه الحقيقة وحدها تكفي لان تبين قيمة افكار صـــدام حســين ومعنى العطاء الايديولوجي لها ، واهمية نظرية العمل الثورية التي بلورتها .

ويكفي منها ومن كل ما تقدم ان اقول . . .

ان عطاء صـــدام حســين الفكري قد تخطى ذلك الى عطاء آخر هو العطاء الفكري العسكري والذي كان القائد فيه مبدعاً وذا افكار كبيرة في مجال الفكر السوقي .

(٤) والمبدع في الفكر العسكري

وهكذا تنطق الحقائق والتجربة ، ، بأن صــــدام حســــين هو المفكر الملهم والمبدع الكبير في الميدان النظري ، ، سواء كان ذلك من خلال طروحاته الفكرية الجديدة أو في نظرية العمل التي بلورها للتطبيق .

ولم يقف نشاط القائد النظري عند هذا الحد ، ، بل أنطلق به صوب الفكر العسكري ليسد نقصا خطيرا على هذا الصعيد لم تفطن اليه النظرية الثورية ولم تبلور من قبله الافكار السوقية المطلوبة لها .

ولقد كان لنجاح القائد صــــدام حســــين في هذا المضمار ، ، أثر كبير في توفير الأرضية الراسخة للفكر العسكري الثوري العربي ، ، وشق الطريق الخاص لعقيدته القتالية ، ، الذي يفترق عن عقيدتي القتال الغربية والشرقية . .

لهذا لم يكن العطاء الفكري العسكري للقائد حصيلة طرح ثقافي يلم بالشؤون العسكرية كثقافة عامة يستخرجها من بطون الكتب والكراريس العسكرية ، ، وانما كان أساس هذا العطاء الاول ، ، هو المعاناة والتجربة والافق الشمولي الممتد مع جميع قضايا المجتمع ومنها قضاياه العسكرية .

وهكذا نجد ان تراكم الخبرة في الحياة ، ، وامتلاك الرؤية الاستراتيجية الشاملة هي التي جعلت كتاب الحياة الذي يجيد قراءته صــــدام حســــين ، ، متنوعا في فصوله الرئيسية امام ناظريه ، ، والتي لامست بدقة واقع الحاجة الى الفكر العسكري .

هذه الحقيقة يمكن الاستدلال عليها من خلال مايقوله القائد .

«عندما تروني أناقش . تتصورون أنني قرأت بتوسيع عن فنون القتال . في الواقع أنني لم أقرأ ما ينبغي ، ، ومعلوماتي النظرية الفنية في المجال العسكري قبل الحرب بصورة خاصة لاتساوي معلومات ضابط صغير في الجيش العراقي ، وأنا تكلمت مع الأخوان في القيادة العامة عن ذلك الا ان الحالة الوجدانية وتراكم الخبرة في الحياة في

ميدان السياسة كانت هي الأساس في استقرار الصواب ، ، وبعد أن أناقش الأخوان يقولون لي بأن السياقات التي أناقش بموجبها موجودة في الكتب العسكرية . ويبدو أن قوانين السياسة في جوانب اساسية منها ، ، تشترك اشتراكا عميقا مع القوانين العسكرية ، ، وهكذا ولد السوق العسكري من رحم الستراتيجية العامة او السوق العام ، ، وولد جانب مهم من صيغ التعبئة في رحم التكتيك السياسي . اي ان القوانين العسكرية قد ولدت في رحم السياسة ، ، وكانت على طول الخط في خدمة التفكير السياسي» .

واذا كان القائد صـــدام حســـين ، ، بهذه الصورة التي يطرحها، يكشف المنطلق الاول لافكاره العسكرية ، ، فان تطويرها لاحقا ، ، قد اعتمد على محصلة حية لما ينضج فيه عقله وهو يتعامل مع المسؤولية وعوامل الطبيعة والمجتمع وحاجات الدفاع الوطني وشروط ذلك ، ، السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، وبهذا فان تقديرات القائد لمنهج سوقي اصيل يتجاوب مع تلك الحاجات ، ، كانت القاعدة الرئيسة لاهتمامه بالفكر السوقي ، ، وطرحه الافكار العسكرية المعبرة عن خصوصية الفكرة المبدئية .

وكنتيجة لهذا النشاط الفكري اصبح الامر محسوما في سد النقص الفكري العسكري للنظرية العربية الثورية بوجود الفكر المبدع والذي تضيف منه الى عموم الفكر العسكري .

هذه الحقيقة يؤكدها القائد بقوله :

«ينبغي أن تكون لديكم ثقة وأرادة في أن يكون لديكم من الفكر المبدع ماتضيفونه الى الفكر العسكري ، ، وينبغي أن يكون واضحا وحاضرا وعلى طول الخط ، ، بأن لدينا من الامكانات مايجعلنا قادرين على ان نبدع في تطبيق الفكر العسكري ميدانيا وبما يجعل هذا الابداع محل دراسة في الجيوش الاخرى» .

أن قيمة الأفكار السوقية للرئيس القائد صـــدام حســـين لاينظر اليها من خلال قيمتها الكبرى في ميدان تعزيز الفكر السوقي حسب ، ، بل أنها حددت الخط الصائب للمعادلة السوقية المطلوبة التي تلبي للقوة العسكرية بعدها الفكري الخاص وتربط منه المجال السوقي بمصالح الامة القومية ، وفق معايير مبدعة ، ، لاتغفل عن

المفاهيم التقليدية للعسكرية ولكنها لاتتجمد عند حدودها فقط ، بل تمتد الى مفاهيم مبتكرة ووسائل مستخرجة بطريق غير مطروق .

والقائد صـــدام حســـين في هذا المنهج الفكري السوقي ، قد ارسى العلاقة بين الاهداف العليا ومركز الثقل السوقي على القاعدة الراسخة وهي جماهير الشعب والأمة بحيث يكون الجيش هو شعب اختصاصه السلاح والشعب جيش اختصاصه البناء .

ولهذا لم يستعر القائد افكارا سوقية من الغير ، ، ليجعل منها مرتكزات ومسلمات للفكر السوقي الخاص الذي يبلوره . لان مفاهيمه على هذا الطريق هي وليدة الواقع والحاجة الموضوعية . ولهذا يكون حضنها الفكري في الطريق الخاص ، على الرغم من ان هذه المفاهيم لاتوصد ابواب التفاعل مع الفكر السوقي للشعوب والامم الاخرى .

ان الفكر السوقي ليس صفقة سلاح يجري التعاقد على تجهيزها أو استيرادها من هذه الجهة او ذلك المنشأ ، ، لانه يرسم القاعدة الفكرية العسكرية في استخدام القوة الوطنية لتلبية مستلزمات الدفاع عن الوطن وسيادته .

ولهذا ينظر الى الابداع في الفكر السوقي للرئيس القائد ، ، في كونه ارتقاء فكرياً جديداً يحقق التطابق مع المنظور الايديولوجي العام ، ، ويؤشر مستلزمات وابعاد الدفاع المطلوب في محيط غير مأمون في حركته وأتجاهاته العامة بما فيها حركته واتجاهاته العسكرية .

أن العبقرية العسكرية للقائد صـــدام حســـين ، ، لاتتحدد بكونه مخططا ستراتيجيا وسوقيا كبيرا حسب ، بل بكونه مفكرا سوقيا لافكاره قيمة كبيرة في تعزيز الفكر السوقي وخلق منهج خاص له لعمل القوات المسلحة العراقية .

ولقد تجلت هذه العبقرية والموهبة للقائد بشكل واضح خلال الحرب وادارته الناجحة لها .

وقبل أن نقف على الاهمية الفكرية لهذا العطاء ، ، لاننا لانريد ان نسلط الاضواء على دور القائد في المعركة والانتصارات فيها ، ، لسبب واضح هو اننا قد تناولنا ذلك بشكل واسع في كتابنا ، ، صـــدام حســـين ، الرجل والقائد يتصاعد الى الأذهان سؤال هو : كيف أمكن لمدني تقديم مثل هذا العطاء الفكري

العسكري ! ؟

لا أريد في الجواب أن أتوسع ، ولهذا أعود الى التأريخ العربي ، ، وبالذات الى القادة العرب الذين برعوا في فنون القتال ، ، وأستشهد بخالد بن الوليد وماقدمه من أفكار في فنون الحرب . . وفي التاريخ المعاصر ، ، تبرز أسماء معروفة لمدنيين كان لهم أسهام فاعل على صعيد الفكر السوقي ، وهم لينين وتشرشل وغيرهم .

وهكذا فأن صـــدام حســـين وهو يضيف للفكر السوقي ، ، يؤكد في العطاء الذي قدمه في هذا المجال على خواص شخصية تلتقي مع الخصائص الأنسانية لمفكري السوق الناجحين التي تجمع المصادر عليها وهي ، الذكاء ، النشاط الفكري ، الفطنة التحليلية ، المثابرة ، البلاغة ، القدرة على الرؤية والتصور ، البصيرة . . ونصيب الحقيقة والواقع . . اذا قلنا ان جميع هذه الصفات تتجسد في شخصية القائد وهي التي كانت وراء عبقريته وموهبته .

وهكذا فأن صـــدام حســـين قد أكد على موهبة سوقية في الحرب ،.، في التوقي منها او بردها ، ، اوفي استخدام القوة للهدف المحدد وبكل دقة . موهبة ليست فيها أفكار تجنح الى تحميل العمليات بأكثر ماتتطلب او تتهيب من المجابهات بأقل ماتتطلب . .

وكانت نتيجة ذلك ، أن أفقا فسيحا صار يلوح للقادة الميدانيين ، ، يعطيهم كل المجال المطلوب للابداع في عملهم ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال قول القائد صـــدام حســـين :

«أن القائد الجيد ليس الذي يتبع السياقات الصحيحة التي تعلمها فحسب ، ، وأنما هو الذي تكون له سياقات جديدة تضاف الى السياقات الأخرى ايضا ، اذا لم تكن تلك السياقات مناقضة بمنهجها العام لروح السياقات العامة التي تعلمها ، ، ولكنها لاتفترض التطابق التفصيلي دائما وابدا . . . الا انها ينبغي أن تكون دائما مستجيبة بروحها وحلولها للواقع الحي المتحرك مادمنا امام واقع حي ومتحرك» .

بهذا الفهم الحي يحدد القائد صـــدام حســـين سبيل النجاح امام القادة الميدانيين ويجعل الطريق أمامهم سالكا الى النصر وهو الفهم الذي يستكمله بخاصية مهمة اخرى يراها ضرورية لظفر القادة الميدانيين بقوله :

«أن القائد الناجح ليس هو القائد الذي يجيد استخدام سلاحه الشخصي في أصابة الهدف بصورة صحيحة وشجاعة ، أو الذي يستخدم أحدى وحدات فرقته أو تشكيلاتها استخداما مباشرا بصورة صحيحة ، وأنما هو الذي يجعل كل البنادق والعقول والسواعد ، وكل الوحدات والتشكيلات تعمل في التفاعل بصورة صحيحة وبأتجاه هدف واحد من اجل النصر» .

أن صـــدام حســـين بهذه الرؤية ، ، لايملك خيالا خصبا يتصور فيه الحالات المطلوبة في تحقيق الفوز فقط ، وانما هو مبدع في أفكاره المطروحة لذلك ، ومصدر كبير للتنظير العسكري ، ، وملهم في استقراء النتائج بالفكر المتحفز .

ولهذا كانت ارض المعركة بالنسبة الى صـــدام حســـين ، ، مع كونها ميدان شرف وواجب ومسؤولية يحرص على التواجد فوقها ، ، كانت الارضية التي عمقت رؤيته الفكرية العسكرية والممارسات السوقية . .

وكان في الواقع جوهر ذلك كله هو الغاية التي حققها وهي : النصر . . . . . .

أن النصر هو مرتكز الفكر السوقي للرئيس القائد صـــدام حســـين ، ، لان من غيره لاتعني الخسارة الا معنى واحدا هو فقدان الوطن وخسران السيادة . . !

ولهذا ارتكزت أفكاره على الاعتماد على النفس كقوة فعل اولى واخيرة . . وتخطت العمق السوقي الذي تتيحه الجغرافية للعدو بالعمق الروحي الذي يمتد الى التأريخ .

وكان فيها تحويل الدفاع الساكن ، الى دفاع فعال ومتحرك . . ومنها لم تكن المفاهيم ، للوقاية من العدوان جامدة ، بل كانت حية ومتحركة اساسها قائم على ان السهم المصوب الى النحور يتطلب كسر القوس المستعد . . !

وكان لأفكار القائد السوقية ، ، أثر مهم في الأستراتيجية والتكتيك العسكريين في الحرب ، لان بموجبها جرى أستخدام بارع للاشتباكات وتوظيفها لصالح العراق في الحرب ، مثلما كان لها دور مهم في استخدام القوات المسلحة في الاشتباكات الدائرة على مسرح العمليات .

أن صـــدام حســـين بكل ذلك قدم سوقا ناجحا للمعركة ، وأهمية ذلك معروفة في العلم العسكري اوفي الفكر السوقي او على الصعيد العملياتي ، لان السوق

الخاطىء يأكل من مهارة القادة ويؤثر على شجاعة المقاتلين . ولهذا كانت أفكار القائد على هذا الصعيد مرتكزا مهما لتحويل كل العوامل لصالح الهدف المحدد من هذه الحرب ، ووفرت مستلزمات النصر وظروفه ، وهكذا جعلت أفكار صــــدام حســـين حالة المجابهة المصيرية ، حالة شاملة تلتحم فيها مستلزمات النصر في الحرب بكل العوامل الاخرى ، السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والثقافية والاعلامية والنفسية .

وبهذا الواقع نستطيع جازمين أن نقول ، أن الفكر السوقي للقائد صـــــدام حســـين ، ، هو فكر مبدع وغزير . .

الفصل الثامن

الحوار
الحلم ..!!

اللقاء مع القائد الكبير

عنـــــدما . . .

عزمت على أصدار كتابي الثاني عن القائد الكبير الرئيس صـــــدام حســـــين ، ، كنت أستكمل أمنية أبتدأتها بأصدار الكتاب الأول عنه – صـــــدام حســـــين الرجل والقائد –

والحقيقة . . .

أن لذة الأماني المتحققة لا يعرف معانيها جيداً الا الذين ينتظرونها بالصبر والترقب والشوق . .

ويوم . .

تحول العزم الى حروف وسطور ، ، الى أبواب وفصول ، ، كانت الرغبة الصحفية بكل ما فيها من طموح ، ، تستثيرني في أن الحق بالكتاب الجديد ، ، مقابلة صحفية مع القائد الكبير ، ، ليس لأن ذلك أمر يعطي للكتاب قيمة مضافة حسب ، ، بل لأنه يحقق حلماً صحفياً يظل احلى أحلام العمر وأجملها على الأطلاق . .

وكتبت الى القائد . .

وأستعير من نص المذكرة التي رفعتها اليه هذه الفقرة :

أرجو موافقتكم في الأجابة على أسئلة تكونت عندي ، ، والاسئلة لا تدور حول تصوراتكم الفكرية والسياسية ، ، لأنني لا اشكو نقصاً في تناولها ، ، ولكنها تدور حول قضايا ذات خصوصية وأخرى خاصة .

وعندما التقيت بالقائد . .

كانت الأسئلة موضع أعجابه وتقديره ، ، ووصفها بكلمات تظل معي فخراً يلازمني الحياة بأسرها . .

كان اللقاء في مكتبه بالقصر الجمهوري .

قبله كانت أبتسامة الرضا يشيعها القائد في الأجواء ، ، ثم تجولت عيناي في مكتبه لتستقرا على آية من كتاب الله العزيز كانت موضوعة أمام مكتبه تقول «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فأذا هو زاهق» .

وقبل أن أبدأ المقابلة . .

كان بصري الذي أستقر على الأية الكريمة ، ، همزة الوصول الى أعماقي التي كانت تردد دعاء صامتاً :

ليحفظك الله وليحرسك القرآن لنصرة الحق ودحر الباطل . .

وأبتدأت الحوار الحلم ، ، وكان السؤال الأول فيه :

سـؤال :

في أطار التغييرات ، ، تكون للحاكم الجديد علاقة أيجابية مع الجماهير ، ، تشبه المد الواسع في البدايات ، ، ولكنها لا تظل عند هذه الحالة ، فسرعان ما تنتهي الى جزر ، أو هي لا تحافظ على مستواها في الأقل .

هذه ملاحظة ، ، يقابلها العكس في ظاهرة صـدام حسـين ، ، فهي لم تبدأ بمد ولكنها وصلت اليه وأكثر فهي تضيف له مع الزمن المتوالي الكثير .

أين هو السر في ذلك في شخصية القائد ونظرته للعلاقة مع الشعب ، ، هل المرجع يعود الى فهم خاص للقيادة ، ، أم الى نظرة متميزة الى الشعب ، ، وأين النزوع الفردي الذي يحفز القائد صوب ذلك ، ، وأية صورة للبطل تستقر في أذهانكم لتنير في أعماقكم حالة التطلع المشروع الى ذلك ، ومن هو الرمز الذي يستحوذ على أفكاركم ولماذا ؟

السيد الرئيس

في أطار الأجابة على هذا التساؤل ، ، أو لأقل هذه التساؤلات ، أريد أن أبتدئ بالشطر الأول المتعلق بعلاقة الحاكم الجديد مع الجماهير التي تشبه المد في البداية ثم تنحسر في النهاية .

في يقيني أنك قد أخذت ذلك من مراقبتك الى ما يجري في بلدان العالم الثالث ، ، وحتى في وطننا العربي من ضمن بلدان العالم الثالث ، ولا أستثني حالة قطرنا قبل الثورة أيضاً .

أن هذه الحالة صحيحة على أي أنسان يكون مجرد حاكم ، ولكن هل أرتضي لنفسي أن أكون مجرد حاكم ؟

بصراحة أنا لا أرتضي ذلك لنفسي ، ، ولم يكن ذلك في بالي على الأطلاق ، حتى عندما وصلت الى الصفة الرسمية المشتركة مع الحاكم ، ، أي الشخص الأول في الدولة .

وأذا ما تلاحظ هذا الموضوع ، موضوع التعبير عن الحالة التي أؤمن بها ، لا تجدها في ما يتعلق بي فقط من تصرف متصل بمسؤوليتي المباشرة ، ، ولكن تجدها في مواطن أخرى من تصرف الشخص المسؤول الذي هو صـــدام حســـين .

فأنا في كل حياتي السياسية ، ، ومن خلال الدولة التي مضى على تسلمنا لمسؤوليتها (١٨) عاماً ، ، لم أستعمل كلمة الحكومة العراقية رغم أن هذا هو التعبير الرسمي للسلطة التنفيذية في الدولة ، ، ولكنني لا أتذكر أني قد أستعملتها لأنني لا أحبها .

والسبب في ذلك يعود الى أن هذا التعبير غالباً ما أخذ ، ، الحالة الفنية المعزولة عن الشعب ، ، في الكثير من الحالات ، ، في بلدان العالم الثالث وفي وطننا العربي ، ، فالتركيز على الحكومة من وجهة نظري يبعدنا عن روح الصلة بينها وبين خلفياتها التأريخية ، ، في المهمة وفي الولادة ، ، بينما عندما نقول ،، القيادة أو مجلس قيادة الثورة ، ، فكأنما نستحضر الخلفية التأريخية للمهام المناطة بهذه المراكز ، ، وكذلك نستحضر حالة الولادة الجديدة ، ، أي كيف ولد صاحب الفعل الأساس في هذه الولادة ، ، وبذلك تبرز لنا المبادئ بحالة غير منسية الى حد التفاصيل ويبرز دور الشعب .

لذلك انا لا احب صفة الحاكم ، ولا اتعامل بها بصيغة فنية ، وأنما اتعامل بالصفة والصلاحيات التي يتمتع بها رئيس دولة العراق في اطارها التأريخي والمبدئي كما اجتهدت واجتهادي كأمر طبيعي هو ليس اجتهاداً فردياً وأنما حالة متصلة في ضمير الشعب ، تعبر عنها صلاتي بالمواطنين وتحسسي لقضاياهم ، واجهادي النفسي للتعرف التفصيلي على مشاكلهم ، وصلتي برفاقي في الحزب ، في القيادة وفي مستويات اخرى ، ولكي اوضح مقصدي بذلك أقول : أنني أنطلق في رؤيتي

للموقع الاول ، من زاوية المبادئ والقيم التي تربينا عليها .

وهذا يعني أن القائد بقدر ما يتحمل من عبء المسؤولية وتضحياتها ، ، عليه مهات أداء الدور بكل همة وأقتدار ونكران الذات .

وتصوري هنا ينصب على تفهم القيمة المبدئية والضرورة المبدئية ، ، بمعنى أن تكون المبادئ ماثلة في التصورات مثلما تكون مستلزماتها الضرورية حاضرة في التصرفات .

وهكذا تكون المسؤولية القيادية ليس فعلاً للحاكم الفرد ولا هي ممارسة أختصاص لحكم الرجل الواحد ، ، لأنني أرى أن المؤسسة الجماعية هي عماد هذه القيادة ، ، ولكن دون أن يأخذني ذلك الى الأعتقاد التجريدي أو التبسيطي لهذه المسألة ، ، أو أن أغفل الشروط المطلوبة تأريخياً وثورياً لتحقيق النهضة في المجتمع والأنتقال الثوري المطلوب ، ، لأن أية نقلة جذرية ونوعية وتأريخية لا يمكنها أن تتم من دون القائد ، ، المتمكن بالرؤية والروية ، ، بالقول وبالفعل ، ، بالتفكير وبالتخطيط ، ، من قيادة الواقع بما يلبي الأهداف التأريخية .

وهذا الذي أطرحه ، ، تؤكده أمامنا تجارب التأريخ والشعوب ، ، ذلك أن الفعل التأريخي يحتاج الى القائد التأريخي ، ، وأن هذه الحقيقة بمقدار ما تؤكد الحاجة الى القائد التأريخي تؤكد أنه بالضرورة أبن المؤسسة الجماعية للقيادة ، ، ومن غير أدراك ضرورات ذلك وفهم الشروط الموضوعية والمبدئية لهذا الترابط ، ، نكون عملياً قد الحقنا الضرر الكبير بقضية الثورة والنهضة ، ، ووضعنا المسيرة والبناء الثوري أمام مخاطر التبعثر والضياع .

أما كيف هي نظرتي الى هذه المسألة المهمة ! ؟

أن في تأريخنا وتراثنا ما يغني ويفيد ، ، وفي قيمنا وتجاربنا كأمة عريقة ما يوضح الصورة أمامنا بكل دقة .

من هنا ، ، ومن هذه الحالة ، ، أنا أؤمن بأن القيادة تنطبق عليها المفاهيم الواردة في الأية الكريمة «وشاورهم بالامر فاذا عزمت فتوكل على الله» .

ولذلك طلبت أن تكمل الآية الموضوعة في قاعة أجتماعات القيادة الى الآية بكاملها ، ، بعد أن كانت فقط «وشاورهم بالامر» .

وقد شرحت ذلك في أجتماعات القيادة ومجلس قيادة الثورة ، ، وأخبرت رفاقي بأني أؤمن بهذا المضمون ، ، وليس بالحالة المقطوعة يعني بالحالة غير المكتملة من الآية التي يتضمنها الشطر الأول فحسب ، ، وأنا أؤمن بالأية كما وردت مكتملة بمفاهيم القيادة ، ، وفي العلاقة بيني وبينكم .

أذن موضوع المفهوم الذي أوردته بسؤالك ، ، أحياناً بعض الحكام يثبون الى مركز الحكم ، ، وتعني بذلك الحكام في الموقع الأول ، ، أمر طبيعي يثبون لمركز الحكم على موجة من العواطف والآمال الجاهيرية ، ، والقسم الكبير منهم تنعقد عليه الآمال ، ، كونه المنتظر ، ، وهذه الحالة غالباً ما تحصل في بلدان العالم الثالث ، ، لماذا ؟

لأنها بلدان غير مستقرة في مقاييسها وغير مستقرة في مراحل التطور ، ، وتعاني في كل الميادين ، فعندما يعاني بلد ما في كل الميادين ويحصل فيه تغيير سياسي ، ، وغالباً ما يحصل بطريقة دراماتيكية ، ، تكون النتيجة أن الشعب يعلق الأمل الذي في نفسه وفي عقله على القادم الجديد ، ، قبل أن يتبين خواصه ، ، ومقدرته وفيما أذا كان قادراً على أن يحقق هذه الأمال أم لا .

فحالة الرفض للحاكم القديم زائداً الآمال المتكونة داخل النفس ، ، داخل عقول الجمهور وتطلعاتها ، ، كل هذه الأمور تجعل بعض الحكام يقابلون بموجة عالية من طوفان التأييد والآمال الكبيرة ، ، بصيغة المد ، ، ولكن بعد هذه المرحلة ، ، تبدأ مرحلة جديدة ، ، هي مرحلة أين الحاكم الجديد من كل هذا ، ، وما هو دوره في تحقيق الآمال التي وضعت عليه ، ، لأن مرحلة الحاكم القديم قد أنتهت ؟

هنا يكون المفترق بين حالة وحالة ، ، فعندما يعجز الحاكم عن تحقيق تلك الآمال ، ، يبدأ الأنحسار .

أذن هذا الواقع لم يفارقني لحظة واحدة ونحن ننتقل من حالة نضالية الى حالة أخرى ، ، أي أن النجاح بالثورة وتسلم مقاليد الأمور لم يأخذ مني المعنى السلبي الذي يشير اليه ذلك الواقع ، ، ولهذا لم يضيع عليّ المدى المطلوب للرؤية والعمل لكي أصحح هذا الواقع بأتجاه العلاقة السليمة بين القائد والشعب وليس الحالة القائمة بين الحاكم والشعب .

ولهذا أستبعدت ومنذ بداية الثورة ، ، كسب عواطف الجماهير القائم على الوعود المغرية ، ، دون أن أسقط الأثر العلمي لعاطفة الجماهير ، ، ولكني ركزت على عقولها وما يعتمل في ضميرها ، ، وتوخيت الثبات والمدى البعيد وليس الكسب الآني والمؤقت .

وهكذا لم يكن في منهجي أن أحشد العواطف لكي أصل الى «التعبئة العاطفية» وأنما كان جهدي مكرساً لكي أضمن حشد العقول والضمائر وصولاً الى «التعبئة الوجدانية» .

وربما يكون هذا النهج هو ما وراء ما تشاهد من مظاهر أيجابية في هذا المجال ، ، وقد أضيف اليه ، ، أن الشعب في العراق ظل يبحث عن حالة القائد الذي يحقق أمجاده وعن حالة القائد الرمز ، ، وعن الرأس الذي يقود البلاد وهو ممتلئ بالثقة والآمال ، ، لأن شعبنا — وهو محق — كان يعتقد بأن ذلك شرط لتحقيق أهدافه وأماله .

ولكن مشكلة الشعب في هذا المضمار ، ، لم تتح له الاندفاع بل وتصديق رجالات اي تغيير جديد ، ، لان تجربته مع «عهود التغيير» لم تكن مشجعة اذا لم أقل كانت منفرة ومفجعة أحيانا وكانت تدفع الشعب —وهو على حق ايضا— الى الحذر والشك والريبة .

ولاأكتم سرا بالقول : أن الشعب العراقي قابلنا في بداية الثورة بنظرة لاتخلو من هذا ، ، كان متخوفا في أن يكون عهد الثورة ورجاله كغيره من العهود السابقة التي جربها وكانت نتيجة أختباراته لها ، ، فاشلة ومريرة ، ، فهل يمكن أن تتصور علاقة (معنا) في مثل «بداياتنا» غير علاقة المد المتقطع والجزر والتوجس في أحيان كثيرة ! !

انا في كل حياتي رجل واقعي ولاتزعجني الحقائق ولاأستطيع أن أنكرها ولايأخذني الغرور بأية حالة الى تصور نقيض لما هو واقعي ، ، ولكني لاأستسلم للواقع عندما لايعبر عن الحقائق الغائرة في اعماقه او المطموسة بحكم تجارب طمرتها سلبيات مرحلتها .

وكان السؤال الذي يعيش معي هو : كيف السبيل الى اعادة الثقة بين الشعب والعهد الذي نقوده ! ؟





ولم تكن دوافع السؤال شخصية نحلم من خلالها بعلاقة ايجابية مع الشعب حسب ، وانما كانت بواعثها مبدئية تريد التوضيح للشعب ، ، ان عهد الثورة هو ليس كعهد الانظمة السابقة .

كان اول المطلوب هو اعادة جسور الثقة ، ، وان يكون المحفز لذلك والشاهد فيه هو الفعل قبل القول لاقناع الشعب ان العهد الجديد مختلف وان رجاله متميزون .

وبهذا أفلحنا في كسر القيود النفسية وتحطيم حواجز الموروث ، ، وكان تصميمنا أن نسعى الى ماتتيحه الظروف بأقصى ماتستطيع من آمال الشعب ، ، دون الوقوع بخطأ المزايدة او مخاطر الانزلاق الى الوعود المعسولة والبراقة التي لاتجد لها رصيدا على الواقع .

وكان تحركنا على هذا الصعيد يتم بوعي وبأناة وصبر ، ، وكانت نتائجه الملموسة من قبل الشعب تزيح من النفوس نوازع القلق والهواجس .

وكان الامر الآخر الذي حرصنا على تأكيده ، ، أن السياسة أخلاق والكلمة التزام والموقف فعل ، ، ثم أدخلنا في الأذهان ، ، ان التبشير بالمبادىء والوعي النظري هما نضوج فكري وتصور واقعي ، ، وليس هما إبحارا في السراب أو تحليقا في الخيال ، ، وانما معيارهما النضالي أن تكونا بجذور تشدهما الى ارضية الواقع والميدان .

وهكذا انحسر الجزر مقابل حركة المد التي صارت تغطي المساحات الواسعة داخل النفوس والعقول والضمائر والى الحد الذي اكتسحت كل المظاهر الاولى ، ، وبات شعاعها يضيء خارج الحدود ، ، وبالطبع انا لاأسقط عامل الزمن كونه كاشفا للحقائق اضافة الى كونه وقتا مطلوبا للاقتحام والنضج الذي يحقق المزيد من المنجزات .

ولعلكم تذكرون ندوة ساحة الكشافة ، ، عندما خاطبت الجمهور ، ، وأظن أن ذلك كان في عام ١٩٦٩ ، ، قلت لهم : اياكم ان تمنحونا الثقة بلا شروط ، ، وعليكم بعد الان ، ، ان تقولوا ان هذه الخطوة جيدة وتلك غير جيدة ، ، ولا تقولوا ان هذا النظام جيد .

وكنت في هذا اقصد تنبيه الشعب الى حقوقه وتنبيه الشعب الى ضرورة ان يستفيد من الماضي ، ، بحيث لايمنح الثقة لنظامنا على اساس المقارنة النسبية بين

القديم والجديد ، ، ولاعلى اساس القديم المرفوض فحسب ، ، وانما يحسب الولاء في اطار المقارنة ، ، بين الآمال وبين الخطوات ، بين التطلع وبين الملموس ، ولابأس عند ذلك ان يحضر الماضي كخلفية تاريخية ولكن ضمن هذا الاطار ، ، وليس كحالة معزولة عنه .

وفي نفس الوقت اردت ان أضع كل الناس في مواقع السلطة وفي مواقع القيادة أمام مسؤولياتهم المباشرة ، ، أعني أمام هذه النوعية من العلاقة مع الجمهور .

وفي احد الايام ، ، كان هناك ضجر من عدم صبر الشعب العراقي في أجتماع القيادة القطرية كما أذكر وقلت تعقيبا على تلك الحالة ، ، أن هذا الذي تتحدثون عنه ، ، أنا أنظر اليه كعنصر ايجابي ، ، فعندما طلب مني أن أبين كيف . . . قلت : بأن العراق يجب أن يكون هكذا ، ، أي أن لايكون حالة سهلة وانما يكون حالة صعبة ، ، فمن يرد أن يقود العراق يجب ان يكون قادرا على قيادة الحالة الصعبة والا فالمطلوب ان يتنحى ، ، ولقد شبهت الحالة وقتها هكذا : أن القيادة يجب أن تركض امام الشعب ، ، ومن ليست له القدرة ، ، في أن يركض بفاصلة قيادة بينه وبين الشعب ، ، فأن الشعب سيسحق على أذيال ثيابه ويوقعه ارضا ثم يمشي على ظهره ويمضي ليفتش عمن يسبقه في الركض الى آماله .

طبعا هذه الحالة كانت في ١٩٦٩/١٩٧٠ وليس في وقت متأخر .

أذن شعبنا منح النظام ومنح القيادة في النظام ، ، الثقة على أساس الخطوة خطوة ولكن هذه الخطوات تجمعت ، ، وهذا التصرف كان له حصيلة دخلت في أطار الحكم التأريخي على المسيرة ، ، وذلك عندما وجد الشعب ، ، ان الصفات قد وصلت الى هذا المستوى ، ، وللحدود التي استطاع ان يحكم من خلالها بأن هذه المسيرة جيدة ، ، فأنه قد أعطى قراره بالولاء وقمة قرارات الشعب في هذا ، ، هو الولاء الذي تكوّن مع نضح الدماء في معركة القادسية .

فبأمكانك اذن ، ، ان توجد تفسيراً للحالة التي تبحث عنها في سؤالك ، ، ضمن هذه المفردات البسيطة والمستعجلة في هذا المجال .

اين السر في هذه الامور وكيف نتلمس بداياتها وماهي دوافع نظرتي اليها ؟ دعني أقل لك أيها الرفيق صباح ، ، ان اول حب ناضج في حياتي كان حب

الشعب ،، وقد كان مبكرا وكان له الفضل الاول في تكويني الشخصي.

وهذا الحب هو الاساس الذي احس من خلاله ،، في كل ما وصلته ،، انني ابن الشعب ،، وان الشعب هو صاحب الفضل الاكبر في ما بلغته من مستويات ومسؤوليات ،، انه معلمي وهو ملهمي ،، وانا لم احس بحالة من «الصغر» امام أي جبروت وفي أي ظرف او حال ،، ولكني أؤمن أن الله والشعب هما أكبر مني ،، وأني سعيد بهذا الايمان ومايرتبط به مثلما ادرك انه مطلوب لكل حاكم لكي يتوازن في موقعه.

ولهذا أثق أن موقع القيادة ليس أمتيازا وانما هو تضحية ،، وهو ليس ترفا وانما هو تعب ،، وهو ليس كرسيا للحكم وانما هو مركز للمسؤولية استمع فيه الى نداء الشعب وأصغي اليه ،، وهو الامر الذي يجعلني استشعر بطعم المبادىء الحلو ولذة العمل في سبيلها.

أما من هو الرمز الذي اضعه امامي ،، للاستعانة به والاقتداء به والاهتداء به ،، فالواقع ان هناك رموزاً امامي ،، مستوحاة من تاريخنا العربي الاسلامي ،، ولكن بأمكاني أن أقول بالاضافة الى ذكري لهذه الرموز في ميادينها ،، بأمكاني أن أقول بأن الرمز الأجمالي الذي هو أمامي ،، مجموعة قيم وخواص مازلت أناضل لان أعبر عن أي جانب مهم منها ، إن كان في ميدان الصراحة والصدق ،، اوفي التصور المبدئي والتصريف العملي ،، اوفي ميدان الاخلاق العامة والنظرة الى المجتمع والانسان ،، اوفي ميدان واجبات الشخص الأول المسؤول ،، فعندما تأخذ العمالقة الرموز الكبيرة في تاريخنا ،، نأخذ الأمام علي بن أبي طالب ،، فأنه في كل التصرفات العميقة بل وفي كل تصرف منها ،، يصلح لان يكون دليل عمل للانسان المبدئي.

لنأخذ احداها ،، فعندما قتل عثمان ،، وجاء المسلمون الى مبايعة الأمام علي ،، اقدم على مبايعته محمد بن ابي بكر مع عدد من الشبيبة ابناء الصحابة ،، فقال لهم الأمام : من انتم حتى تبايعوني ؟ ليس أنتم الذي يبايعني ،، احضروا أهل بدر ،، أحضروا البدريين لكي نتعرف على رأيهم.

أن هذا الكلام ،، وما ينطوي عليه من معانٍ ،، يعتبر صفعة لمجموعة من ابناء

الصحابة الممتلئين حماسا وايمانا بضرورة ان يبايعوا الامام ، ، ومع ذلك يقول لهم ماقاله ويأمرهم بأن يتنحوا جانبا في هذه المسألة مقابل حضور البدريين ليقولوا مايرونه مناسبا ! !

لان ذلك عنده هو الاساس ، أقول ان هذا الكلام يعكس قيماً كبيرة . ولهذا فهذه الحكاية ماتزال تروى بعد مرور ١٤٠٠ سنة ، ومنها ومن غيرها نعرف اية قيمة تأريخية للموقف المبدئي .

أن الموقف المبدئي في بعض بلدان العالم الثالث ، حالة تقابلها تضحيات بعض منها ، ، دم وسهر وتعب وقلق مشروع . . الخ

واذا مانظر الانسان للامور ، نظرة الحاكم فسوف لن يتمسك بالمبادىء ، ، ولكن اذا مانظر اليها بنظرة مسؤولة لاتقتصر حدودها عند الحاضر المرتبط بعمره في الحكم وانما بثقلها الاساس الذي ينبغي ان يرتبط بالتاريخ القادم ، ، فعند ذلك لابد وان يتمسك بالمبادىء .

ولو اطلعت على مسلك اجدادنا لوجدته بالكامل يقع في هذا الاطار .

لو أنتقلنا الى عمر بن الخطاب والى نظرته العادلة للامور ، ، بما في ذلك التعامل مع عائلته في قصصه المعروفة ، ، عندما اقام الحد على احد ابنائه الى حد الموت وطبق عليه الاحكام المقررة بالنص القرآني ، ، فأنه حتما يستثير بنا الهمة والتطلع للأقتدار بالسيرة في روحها وقيمها المبدئية . وعندما نأخذ الظروف الصعبة والمعقدة التي مر بها عثمان بكل ماتنطوي عليه من دروس عميقة بما في ذلك مقتل عثمان . . اسبابه وظروفه . .

عندما نأخذ الحالات الثلاث بنظرة كل واحدة منها تشرف على الاخرى نجد ان هذه بذاتها تصلح دليل عمل يجنب الشخص الاول والآخرين في المستويات التي تليه الانحراف .

وكل رموزنا الاخرى تشكل لنا حالة في الافق ، ، فعندما نأتي على ميدان القتال يبرز خالد بن الوليد وغيره من القادة الذين برعوا في فنون الحرب والقتال .

وفي الحكمة يبرز فلان وفلان وفلان . . . الخ .

لو تأخذ تعاملي مع أقربائي ، ، فأنا لا أبعد عن موقع المسؤولية ، شخصاً مؤهلاً

في أطار المسيرة ، مسيرة العمل السري للحزب ، ولكن في نفس الوقت أراقب تصرفهم بدقة وأحسم التصرف الخاطئ بشكل قاطع وبقوة وبدون تردد .

وأمامي كل معطيات مسيرة العرب المسلمين في هذا ، ، سواء المنتقد منها أو الذي هو رمز ومثل للتطلع والفعل الجيد .

أنا لا أذكر أنه طلبت يوماً في أخطر الأمور ، ، بما فيها المؤامرات التي جرت ضد الحكم ، ، من أناس في الأجهزة الخاصة أن يضربوا أحداً بالسوط ، ، ولكن تجد الكثير من الشباب من بين أقربائي ، ، منهم أولاد أخوتي وأخوتي وأبني ، ، قد طلبت أن يضربوا بالسوط وأن يقام عليهم الحد بالخيزران على تصرفات أعتقدت أنها غير جيدة .

من أين أخذت ذلك ؟

الواقع في العصر الحديث ليس أمامنا نماذج من هذا النوع ، ، ولكن توغلنا في أعماق تأريخنا المشرق ، ، هو الذي يجعلنا نسعى لأن نتشبه بأي تصرف من تصرفات العظماء الذين مازالوا قمماً عالية حتى يومنا هذا .

وما أريد أن يعرف ، ، هو أن كل عراقي تطوع الى الجبهة وكان عمره دون الثامنة عشرة من العمر ، ، قد رفضت تطوعه ولكن العراقيين الوحيدين اللذين أرسلتهما الى الجبهة دون الثامنة عشرة من العمر كانا ولديَّ عدي وقصي وثالثهما بطل مجاهد من أهل الكوت تشبث بي وحاولت وأبى الا أن أجد له مكاناً في الجبهة .

أن هذا جميعه ، ، يقع ضمن الأطار المتصور لفهم المسؤولية بالنسبة لي ، ، أهي مسؤولية حاكم أم مسؤولية بأطار آخر ؟

هل الحكم بالنسبة لي هو ذمة أم تصريف فني لشؤون البلد ؟

أمر طبيعي بالنسبة لي هو ذمة ، ، ذمة أخلاقية وتأريخية .

ولذلك فأن أي شيء مفرح في الحاضر ، ، بالنسبة لي لا يفرحني الا بقدر أمتداده كقيمة أو كفعل ملموس الى المستقبل الذي هو أكبر منه وأبعد . وأي فعل لا أنظر له بتميز خاص الا عندما أفحص كيف سيكون هذا الفعل بعد مائتي عام في أطار الناقدين وأطار مسيرة الشعب ككل .

أذن من كل ما تقدم تستطيع أن تجد الجواب لسؤالك ، ، الذي هو في الواقع

ينطوي على عدة أسئلة وليس سؤالاً واحداً .

ســــؤال :

مسؤولية الحكم ، ليست سهلة لمن يعرف واجباته تجاه الشعب ، ، وقطعاً أن الحاكم يحمل هموم المسؤولية ومشاغلها .

وعبء الحكم يقلق أحياناً ، وقد ينعكس ذلك في الليل بشكل أكثر حدة . . أريد أن أعرف ماذا يعني الليل بالنسبة الى صدام حسين ، ، هل تضغط هموم المسؤولية فيه وتأخذ من نوم القائد ، ، وهل تشكل في ظلمته ووحدته هواجس للقلق ، ، وهل مرت ليال صعبة عليكم وأن كانت فمتى ، وما هي الليلة الثقيلة من بين تلك الليالي الطويلة ؟

السيد الرئيس :

أريد أن أقول لك شيئاً رفيق صباح ، ، أنني منذ أن عرفت من العراقيين كما ينبغي وعرفت العراقيين كما يجب ، ، لم أحس بأي وقت بأنني وحيد ، ، حتى عندما أكون من حيث النظرة المكانية المادية في غرفة لوحدي ، ، وأنما دائماً أنا أتصور نفسي جزءاً ضمن الحالة الكلية ، ، التي هي الشعب والحزب .

ومنذ هذا التأريخ أي معرفتي للشعب كما يجب أو معرفة الشعب لي كما ينبغي لم أستشعر ولا ليوم ، ، وفي العن الظروف ، ، بأن بالأفق الذي أمامي ، ، ما يستوجب القلق أو فيه عتمة تؤثر على المسير أو صفاء الذهن وراحة الضمير الممتدة اليه .

أنا أرجع هذا الأطمئنان الى الثقة بالشعب والى راحة الضمير ، ، أعني أن وفاء الشعب عنصر الآمان الحقيقي للقائد ، وهو الضمانة الكبرى في أستحالة حصول «المفاجأة» التي قد تتعرض لها بعض الأنظمة .

أنا على هذا الصعيد لا يراودني شك أو قلق أو هاجس ، ، ليس لأن الخوف ليس من طباعي ولكن لأن رهاني على الشعب رهان صحيح في منظوره المادي والمبدئي وفي قيمته التأريخية والمستقبلية .

والواقع أن القائد أنسان أولاً وقبل كل شيئ ، ، وفي اللحظة التي تهتز نظرته الى هذه المسألة ويتجرد بها من آدميته وما تشترطه وتعنيه ، ، يتخلى عن أهم الخواص

القيادية .

وحينما تكون النظرة صحيحة بهذا الأتجاه ، ، يشعر القائد بهدوء البال والرضا على النفس ، ، لأن مصدر هذه الحالة يكون الحب الذي يجمع القائد والشعب .

وكما هو معروف ، ، فأنني لم أتصدر القيادة لغاية شخصية وأنما لمبادئ وهبت عمري لها وتعرضت للموت أكثر من مرة في سبيلها ، ، وحينما أجد هذا الحب من الشعب يعني ذلك تزكية بأن طريقنا صائب والمبادئ محروسة ، ، وليس عندي فخر أكثر من ذلك أو سعادة تفوق هذه السعودة .

هل أضيف الى ذلك من سجل حياتي . . ؟ لم تعد حياتي سراً ، ، فهي ليست حياة خالية من المصاعب أو التحديات .

وقد يكون لتجربتي وتربيتي وظروفي أثر في ذلك لأن أقسى الظروف لم ترهبني ، ، كما لم تحملني (عواصف) الحياة الى الأرتباك أو الضياع ، ، بل أن العكس هو الصحيح . . لقد زرعت في أعماقي الثقة وكرست فيها الصلابة وشدتني الى القيم الكبيرة والأطمئنان والتسلح بالتفاؤل وقتل روح التشاؤم .

وهكذا فان كل هذه العوامل الموضوعية منها والذاتية تجتمع في أعماقي لكي تمنحني العزم والثقة والآمان والأطمئنان بالحاضر والمستقبل .

ولذلك عندما أذهب الى النوم ، ، فأنني أنام الساعات المقررة ، ، ونادراً ما كلفت أحداً أن يوقظني أو أستعملت الهاتف لأيقاظي ، ، يعني أنني أنام بالوقت المقرر ، ، بمجرد أن أضع رأسي على الوسادة مثلما أستيقظ بالوقت المقرر .

هذا هو الشيء العام ولكن يمكن أن يرد الأستثناء ، ، على هذه الحالة ، ، ولكن الحالة الوحيدة التي لا أستطيع أن أنام بها ، ، حتى عندما يكون هناك وقت كافي للنوم ، ، هي الحالة التي نهجم بها نحن على العدو او التي يهجم بها العدو علينا ، ، حتى أذا لم تكن أرادتي مطلوبة في التصريف العملي الميداني ، ، لا أستطيع أن أنام الى أن تتضح النتيجة ، ، ليس خوفاً منها ولكن لأنني أحس بثقل مسؤولية ذمة دماء الرجال ، ، ما عدا ذلك أنام نوماً عميقاً للمدة المقررة لي ، ، وأنامها للحظة المطلوبة وأستيقظ في الوقت المقرر .

فأنا في النوم لا أستعين بالمهدئات التي يستعملها بعض الحكام ، ، فأنا لا

أستعملها ولا أستعين بها .

ســـــؤال :

طرحتم نظرتكم الى الملكية الخاصة وتعايشها مع الملكية العامة ، ، بحيث أصبح ذلك يحدد المعادلة للملكية في المجتمع الأشتراكي ، ، ولكن هذه الحقيقة لا تخلو من أمور تجعل من هذه المعادلة ، ، معادلة صعبة وموازنتها غاية في الدقة .

والسبب في ذلك يعود : الى أن الملكية ، ، موقف أجتماعي ، ، وحدودها لا تتوقف والتراكم فيها يقود الى المزيد .

ما هي أبرز الضوابط التي تضمن أستقرار هذه المعادلة ، ، وهل جرى تأشير الخلل في هذا المضمار ، ، وكيف تجري الحلول ، ، والى أي مدى يتم تحصين العقلية من مخاطر الرغبة بأتجاه التوسع في الملكية ؟

وما دام الأستفهام حول الملكية ، ، فأنه يقود الى سؤال آخر ، ، يبدأ من مقولة لكم تقول : أن القائد في الوقت الذي يملك فيه كل شيئ ، ، عليه أن لا يملك أي شيئ .

هل هذا تأكيد على الحرص على الملكية العامة ، ، وهل أن القائد يعترض على تملكه الشخصي ، ، وهل يخشى من ذلك ، ، بأعتبار أن للملكية رؤية أجتماعية ، ، ولها مصالح ربما تصطدم مع نظرته المبدئية أو تؤثر عليها ، وما هو مفهوم القائد للعفة المطلقة الذي أورده في المؤتمر القطري التاسع للحزب ؟

السيد الرئيس

طبعاً أن الأساس في تحديد نظرتنا هو مفاهيم الحزب ، ، لأن ذلك هو الأساس في بناء قوانيننا ، ، ولكن نحن دائماً نتعقب كيفية ولادة مفاهيم الحزب .

أن حزبنا يعبر عن الأمة في حالتين ، ، هما الأمة كتأريخ والأمة كتطلع ، ، فكيف يعبر عن الأمة كتأريخ . . ؟

حزبنا ولد من خلال دراسة تأريخ الأمة ، ، وأسمه أصلاً هو بعث للأمة ، ، فبالأساس هو بعث لقيمها ، ، بعث لأصالتها .

وعنده للقيم وللأصالة مفردات ، ، وفي نفس الوقت أن يحمل أعباء مسؤولية تطلعها في أطار تأريخي ، ، فلذلك عندما يكون الحزب في موقع مسؤولية الدولة ، ،

كما هو الحال في الظرف الراهن ، ، فلابد أن يعبر عن مبادئه بمفردات ترتبط بكل شؤون الحياة ، ، وأن لا يكون هذا التعبير مجتزأ عن حالة التطلع مثلما ينبغي الا يكون مجتزأً عن خلفيات الصلة التأريخية لتأريخ الأمة وعمق فكرها .

وعلى هذا الأساس ، ، ولو نأخذ مسيرة أجدادنا في صدر الرسالة الأسلامية ، ، هل كان الخلفاء الراشدون يملكون ؟

الجواب نعم كانوا يملكون ، ، ولكن ملكيتهم لها وظيفة أجتماعية رغم أن البعض منها كان مسجلاً بأسمائهم .

ونجد أن الخلفاء الراشدين قد وضعوا عملياً هذه الملكية في خدمة الرسالة .

هل كان الصحابة يملكون . . !

الجواب نعم كانوا يملكون ، ، ولكن ملكيتهم وضعت في أطار النظرة للمبادئ وعلى أساس ما يقتضي من تحسب لكي لا تتحول الملكية وما ينضح عنها ، ، الى عبء في مسيرة المبادئ .

لذلك في سؤالك هذا لابد من الأجابة على نقطتين ، ، الملكية للشعب والملكية للقادة وللمسؤولين .

ملكية الشعب تحدثنا عنها ، ، الملكية لها وظيفتان بالأساس وظيفة أجتماعية وفي نفس الوقت تلبية الحاجات الطبيعية والمشروعة للأنسان .

فنحن لا نستطيع أن نقول بأن أساس ملكية الأفراد هو لتلبية حاجة أجتماعية ، ، وأنما أساس ملكيتهم يقوم على تلبية حاجتهم ولكن السؤال هنا هو ، ، كيف نجعل هذه الملكية لا تتعارض مع الواجب الأجتماعي لعموم نشاط المجتمع ؟

بتصوري أن هناك قياسين ، ، القياس الأول ، ، هو أن أي تحديد ينبغي الا يقود الى قتل الأبداع والعمل .

والأعتبار الثاني أن لا تكون للملكية مكانة أجتماعية على حساب مسيرة الشعب المقررة بقوانين الدولة وفي مقدمتها الدستور .

وأهم ما في هذا المفهوم هو أن لا تتحول الملكية الفردية الى سوط يلهب ظهور الشعب ، ، أي أن لا تتحول الى موطن للظلم الأجتماعي ، ، وأن لا تكون لها أمتدادات سياسية الى داخل الدولة بما يحرف الدولة عن واجباتها السياسية المعروفة في

مفاهيم الحزب .

وأهم تعبير يوازن مسيرة النشاط للمواطنين هو الضرائب وغير ذلك من التدابير الكثيرة نحن نعترف بأن مفاهيمنا هذه في التطبيق ليست سهلة ولكننا نعترف بأن طريقنا هو الآخر ليس طريقاً مطروقاً .

ونعترف أن عملية الخلق ليست هي حالة سهلة . . وأن التقليد هو أضعف حالة في مسيرة الأنسان ، ، أي التقليد غير المبدع ، ، وأقصد به حالة النقل الآلي لتجارب الشعوب ، ، فحزبنا يعتبر الأمة يجب أن تلد ولادة جديدة ، ، تلد عن القديم وتحتفظ بأصالة الصلة بينها وبينه ولكن في نفس الوقت ينبغي أن يكون المولود حالة جديدة معاصرة منطلقة الى أمام ، ، وليس حالة معاصرة عبارة عن حالة ظل لتجارب الآخرين في العصر الحديث .

أن هذه النظرة للملكية تؤكد على طريقنا الخاص في بناء الأشتراكية ، ، وهو طريق لا يتميز في تطبيقاته فحسب ، وأنما في منطلقاته أيضاً .

أي أن الفكر النظري الذي نستنبطه ونظرية العمل التي نصوغها ، ، لا تأخذان منظورهما من تجارب الغير ، ، وأنما تتفهمان حركة الواقع والخصائص القومية والروحية والنفسية فيه .

وهذا ما يتفق وطبيعة حركتنا كونها حركة أصيلة ومعاصرة ، ، أصالتها بجعلها قيم التراث المشرقة ذخيرة لها ، ، ومعاصرتها في أستجابتها لظروف العصر وشروطه بالأضافة الى أحتفاظها بخصوصيتها ، ، فهي متحفزة على الدوام ومتوثبة الى أمام .

وأمر طبيعي أن مثل هذه الحالة تتطلب الحركة في وسائل التعبير عنها ، ، أي عدم الجمود .

وهذا يستدعي أن لا نقول أن القانون الفلاني يضمن لنا الحالة الى مالا نهاية ، ، وأنما علينا دائماً أن نكون ، ، أمام قوانين متجددة ولكن كلها كما أرى ، ، ينبغي الا تخرج عن الأطار الذي أشرت اليه في المفاهيم ، ، أي الا تتحول الملكية الفردية الى عبئ على حساب العدالة ومستقبل المسيرة والمفاهيم السياسية والأجتماعية العامة كما وردت في فكر الحزب ، ، وفي نفس الوقت الا تتحول المفاهيم الى عبئ على المسيرة بمعنى أن يقتل فيها الأبداع لأنه عندما تحدد ملكية الأنسان الى الحد الذي يعتقد فيه

أنه لم يعد هناك موجب للنشاط والعمل والأبداع ، ، عند ذلك تصبح العملية ضارة . .

وكل مرحلة تنضح قوانينها في الوقت الذي ترسم فيه القوانين أطار المرحلة ، ، ولذلك فهذه قوانيننا ضمن هذه المرحلة والآخرون سيضعون ضمن مرحلتهم ولكن المهم أن يكون الأطار قد وضع بمستوى النظرة التأريخية التي تتخطى الحقب الزمنية القصيرة الى زمن أبعد قادم .

أعود الى النقطة الأخرى المتعلقة بصدد ملكية المسؤولين ، ، مع يقيني أن الملكية موقف أجتماعي وأنها من غير الموازنة المبدئية تتحول الى نظرة وممارسة تخالفان التوجه الأشتراكي الا أنني أفهم أن التعسف في هذا المجال خطر لا يقل عن ذلك الأنحراف لأنه يقوم على حرمان غير مبرر مثلما يقوم الأول على طمع غير مشروع . . ولهذا لا أعتراض عندي على تملك المسؤولين بل أنني أرى أن من حق المسؤول أن يملك الملكية المشروعة المحددة لصورة المجتمع الذي نتمناه ، ، أي بمعنى الملكية المرتبطة بحاجة مشروعة وليس أكثر من ذلك ، ، حتى عندما تتوفر لديه الأمكانيات المشروعة لأن يملك أكثر من ذلك .

أنا أعترض على ملكية المسؤول الذي تقوده الى نسيان مبدئيته أو أن تصل به الى الجشع ، ، لأنه في تلك الحالة تتحول الملكية عنده الى غاية وتكون المبادئ وسيلة لها في حين أن الملكية حتى مع حق تملكها يجب ألا تكون غاية لذاتها مجردة عن أفق المبادئ ، ، لأنها أذا ما أصبحت غاية وأغفلت أفق المبادئ تكون ملكية مستغلة ولها أثر أجتماعي ضار ورؤية منحرفة ، ، تكون نوعاً من الترف غير المقبول والفساد المرفوض .

أن الضوابط التي تصون المجتمع الأشتراكي هي ضوابط مبدئية وهي قواعد قانونية مثلما هي متابعة رقابية صارمة تصون المجتمع ومنهجيته الأساسية القائمة على العدل ومحاربة الفساد والأستغلال .

أما بصدد مقولتي : أن القائد في الوقت الذي يملك فيه كل شيئ عليه أن لا يملك أي شيئ ، ، فأن الغرض منها تأكيد الأحترام للملكية العامة والنظر الى ملكية الشعب وكأنها ملكية خاصة ليست بصيغة الأستمتاع بها وأنما بصيغة الحرص عليها . . ولفت

الأنتباه الى أن القائد لابد أن يتميز في سلوكه بما في ذلك سلوكه تجاه الملكية .

وبضوء ما تقدم يمكنني أن أدخل الى التساؤل الذي ورد حول مفهوم العفة المطلقة . أن ما أعنيه بالعفة المطلقة هو الحالة النموذجية للأنسان العراقي الذي نسعى له ضمن المرحلة والمراحل اللاحقة في ميدان الملكية والتصرف العام والتطلع المشروع والتعامل الأنساني مع الشعب ، ، أي أن عضو القيادة ينبغي أن يقيس نفسه على حالة الأنسان النموذج الذي نناضل من أجله وليس على أية حالة في المجتمع ضمن هذه المرحلة حتى لو كانت حالة خيرة وأن لا يحشر خواصه بالمقارنة مع خواص الأكثرية وأنما يقارنها بالخواص التي يتطلع اليها الشعب للقائد .

وبهذا فأنني أقصد بالعفة المطلقة أو شبه العفة المطلقة هو الأمتناع عن كل ما يزيد عن حاجة الحياة المتوازنة ومتطلبات المستقبل المشروعة لحياة المناضل وعائلته .

ســــؤال :

بين القوة والقانون صلة ، ، تلتقي مرة وتفترق في أخرى . . جسر الوصل بينهما دقيق وحساس ، ، ونقطة الضعف أو الأخلال تكون ، ، حين تستسهل القوة النتائج بمعزل عن القانون بحيث يصح معها القول (أن القانون في أجازة) . . ما هي مخاطر ذلك تشريعياً وأجتماعياً وتربوياً ؟ وما هي نظرة القائد لمفاهيم الشرعية الثورية والشرعية الدستورية ، ، وبعدها أيهما التي يعول عليها وكيف ؟ وما هو المعيار في تحديد واجبات المواطنة ، ، أهو الذي ينطلق من مبدأ القانون النافذ أم من فكرة الواجب ، ، ومن يحدد الحلال والحرام ، . الفرض أم المستحب ، ، أعني أهو حكم القانون أم فكرة الواجب ، ، وأذا كان للأخير بعض الظروف المطلوبة ، ، فمن يتحكم بتحديد ذلك ، ، القرار المركزي أم الأجتهادات التي تليه والى أي مدى يمكن أن تذهب فيه الى شرعية مقرورة ؟

السيد الرئيس :

قبل الاجابة على السؤال بصيغته المباشرة ، ، لا بد من وضع خلفية لبعض المفاهيم .

فنقول هل ان الواقع معزول عن القانون ام ان الواقع مرتبط في تكونه بالقانون ؟ وضمن هذا التساؤل اي منهما يخلق الآخر ، نحن كبعثيين نؤمن بأن هناك تفاعلاً

بين القانون والواقع ، بين التطلع والممكن ، وكل منهما يتصل بالآخر اتصالاً حياً ، ، اتصال خلق وتفاعل ، ، وليس اتصال عبث او اتصالاً فنياً .

ففي الوقت الذي تتطلع فيه الى تغيير الواقع عن طريق تشريع القوانين . . عليك ان ترتكز الى فهم الواقع وانت تشرع القوانين ، ، فالقوانين تلد من الواقع ولكنها ليست نسخة معبرة عنه كما هو ، ، وانما هي حالة مولودة عنه ، ، ولكنها لا بد أن تكون حالة قائدة فيه كما يفهم ويتصرف الثوريون .

هذه هي الخلفية الفكرية لبعض مفردات الاجابة على هذا السؤال ، ، ولذلك نحن عندما ندقق في التعبيرات عن مفاهيم الحزب في ظل ثورة تموز لا ترى مكانا واسعا لكلمة القوة ، ، وانما ستجد حينما يتطلب الامر اظهار جانب منها ، ، ان الكلام يركز على الاقتدار او المقدرة .

ولو استبدلنا كلمة القوة بالاقتدار لاصبحت العلاقة حميمة بين القانون والاقتدار بل ان القانون القائد ، اي القانون الذي يلعب دوراً عميقاً في تغيير المجتمع لا يمكن ان يلد الا عندما يرتكز على خلفية من الاقتدار لمركز التشريع .

عندما نتحدث في هذه المفاهيم عن الانسان العربي وعن الانسان العراقي ، ، اي لا بد أن نستذكر الظروف التي يشرع بها القانون ويجري بها تطبيقه ، ، واهم ما أعنيه ألا يقودنا الامر الى مقارنة بين حالنا وحال البلدان الاوربية ، ، لاننا نمثل حالة من التطور قطعتها بعض البلدان الاوربية قبل اكثر من مئة سنة . . فلكي نقترب بقدر من المشروعية أثناء المقارنة ، ، علينا ان نقارن مثلا في هذا الجانب بيننا وبين فرنسا قبل مائة عام وليس الان ، ، طبعا مع استذكار الخصائص الأخرى الانسانية والتأريخية لمراحل التطور . . وان لا ننسى صلة كل فرد من مفرداته مع المفردات الأخرى من الحياة وحتى تباين أو اختلاف الطبيعة والطقس .

لذلك بأستطاعتنا ان نقول ، ، أن واقع الامة العربية يلعب دورا غير اعتيادي في ولادة القوانين الصادرة عن السلطة المركزية اكثر مما يلعبه واقع الدول الاوربية أو اميركا في ولادة القوانين ، ، وفي نفس الوقت تلعب القوانين المركزية ، ، عندما تصبح حالة واقعة دورا قياديا في تحويل المجتمع من حال الى حال . . اكثر بكثير من الدور الذي تلعبه القوانين في هذا الجانب لتلك الدول التي تحدثنا عنها .

وعليه فأن القوانين في بلدنا تنطوي على هامش من الاستقرار النسبي أضيق زمنا من القوانين التي تصدر في بلدان سبقتنا في مراحل التطور ذلك لأن الكثير من مفردات وحياة ومقاييس تلك الدول قد أخذت طابع الاستقرار النسبي ذي الزمن الطويل نسبيا ، وان هذا ضروري واذا ما حصل خلل في مقدار الهامش النسبي زمنيا لما هو مطلوب للقوانين في بلادنا ، ، ان كان في سرعة التغيير او في نسيان التغيير ، ، فأن هذا يؤثر تأثيرا سلبيا على مسيرة بلدنا وكل مسيرة الامة العربية .

وهذه من اهم مشكلات السلطة السياسية في بلدان العالم الثالث ، ، ومنها الامة العربية ، ، بعضها يستخف بالقوانين الى الحد الذي يتعامل معها في اطار اقل ما ينبغي من الاهتمام والدقة . . وبعضها يقدسها الى الحد الذي لا يغيرها في الوقت الذي يجب فيه تغييرها . . لذلك نحن نرى ان الصلة قائمة بين القانون والاقتدار لاغراض استقرار القانون او لاغراض تغيير القانون . . ولكننا في كل الاحوال ، ، وخاصة بعد ان قطعنا (١٨) عاما عن بداية الثورة ، ، يجب الا نعمل الا وفقا لقانون .

ان القوانين ضرورة مبدئية وعلمية وهي مطلوبة لتحقيق الاستقرار النفسي للمجتمع قبل الاستقرار السياسي ، ، لان قناعة المجتمع ان القانون هو سيد الحالة ، ، هي قناعة تتيح رسوخ البنيان النفسي للفرد والمجتمع على السواء ، ، وهو امر مطلوب للقيمة الروحية قبل الشرعية الدستورية والقانونية .

وهكذا فأن ايجاد النظام القانوني الذي يعبر عن قانون الثورة العام واحترام نظرتها لمبدأ سيادة القانون ، ، لا يعني وجود القواعد القانونية التي تحدد العقوبات الجزائية حسب ، ، بل تعني اطمئنان المواطن الى ان القانون هو سيد الامور والحكم الفصل فيها .

أن التشريعات ضرورية لحفظ أمن الدولة ومسيرتها ليس من زاوية اجراءاتها الرادعة فقط ، بل من بياناتها التي توضح للجماهير ما هو الحلال وما هو الحرام ، ، ما هو الممنوع وما هو المسموح بعيدا عن المزاج والاجتهادات .

وقد تقتضي المرحلة او الظرف اجراء تعديل او تغيير قانوني ، ، علينا ان لا نتخلف في ولوجه ولكن علينا أن لا نقبل العمل الا وفقا لقانون .

فاذا كان هذا القانون او ذاك غير قادر على استيعاب مفاهيمنا ، ، فعلينا أن نأتي بقوانين جديدة . . لا ان نتصرف بلا قانون ، ، لان التصرف بلا قانون لا يخلق تقاليد ومفاهيم مستقرة ، ، واستقرار القانون استقرار مطلق يقيد حركة المجتمع الى امام ، ، فأمر طبيعي ان نقول عنه بأنه يعجز من أن يلعب اي دور قيادي . . وكلاهما عمل ضار ، ، لذلك فواجبات المواطنة في حدها الادنى هي التي تقاس على اساس القانون النافذ وما يحدده من واجبات ، ، في حدها الادنى . . اما من يرتقي بالتصرف الى مستوى اعلى مما مطلوب منه من واجبات ضمن القانون النافذ ، ، فهو الطليعة في المجتمع . وفي كل الاحوال ، ، فأن المبادئ هي التي تحدد القوانين في حركتها وفي تطلعها .

أما الاجابة على ما ورد بصدد المفاهيم الواردة عن الشرعية الثورية والشرعية الدستورية فالحقيقة التي لا يمكن ان نتجاهلها ، ، ان الحكم يجب ان يقاد بالشرعية المبدئية ، ، ذلك أن تصور شرعية ثورية بمعزل عن المنطلقات المبدئية هو خطأ وكذلك الحال بالنسبة الى الشرعية الدستورية التي لا يمكن تصورها من غير احكام المبادئ التي هي الاهداف العليا للشعب .

ان الدستور هو تعبير عن مبادئ الشعب في وثيقة دستورية ، ، ولهذا تكون شرعيته من الشرعية المبدئية العامة للشعب .

والشرعية الثورية تعبير عن الالتزام بمصدر هذه الشرعية الذي هو الحزب ومؤتمراته وقواعد عمله المقررة ، ، وهي بالتالي مرهونة بمبادئ الشعب التي يناضل الحزب في سبيلها ، ، عليه فأننا بقدر احترامنا لذلك نؤكد ابتداء ايماننا بالشرعية المبدئية .

ســـــؤال

يهاجم الاعلام المعادي العراق ، ، ويركز على شخصكم ، ، وبأتهامات لا أول لها ولا آخر فما هي آثار ذلك النفسية عليكم . . ولماذا تأمرون احيانا بنشر بعضه في العراق ، ، هل مرجع ذلك الثقة بالنفس ام الاطمئنان الى وعي العراقيين وحصانتهم ، ، أم أن ذلك الاعلام من السذاجة ما يفسد على الاعداء نواياهم

يشكل نشرة أبلغ رد عليهم ، ، وهل صادف وأن تركت حملة نفسية مضادة أثرا عليكم ، ، وكيف تقابلون مصطلح الرجل القوى الذي كان يردده الاعلام منذ بدايات الثورة ؟

السيد الرئيس

أن أقول أن الاعلام ليس له تأثير على نفسيتي ، ، اكون غير دقيق ولكن اقول بجزم ، ، بأن الاعلام لا يصل الى التأثير الذي يريده المخططون ، ، أنا اطلع على الاعلام المعادي ، ، واقرأه واستوعبه واتفحص دوافعه ، ، أتأثر منه احيانا ولكن لا أتأثر به ، ، عندما يكون مجافيا للحقائق التي أؤمن بها .

وأهم حالة تأثر صادفتني في هذا الجانب هو في بداية الثورة عندما كان الاعلام الصهيوني والايراني في زمن الشاه كما هو الان وبعض الدوائر الغربية يركز بمصطلحات منها مصطلح الرجل القوى ، ، وكنت اتمنى أن لا يقرأ ذلك بعض رفاقي هذه الكتابات ، ، خشية أن يتأثر منها ، ، وخاصة وانا كنت في الموقع الثاني من الناحية الرسمية .

ولكن الحمد لله مرت تلك الظروف والآن الذي يهمني هو الرأي العام العراقي اولا والرأي العام العربي ، ، ولذلك بالنسبة لي أن العراقيين اذا كانوا راضين لا يهمني اذا لم ترض كل الدنيا ، ، ليس بمعنى أن لا أعالج ذلك وانما بمعنى أن لا يؤثر ذلك على نفسيتي بصورة سلبية .

لذلك فمقياسي في الخطأ وفي الصواب ، يكمن في ضميري وفي ما أؤمن ، ، والاختيار هو في ردود فعل العراقيين ، ، وأمر طبيعي أن البعثيين هم ضمن الشعب ، ، وان كانوا الشريحة المتقدمة في الوعي وفي الخواص الاخرى .

لانني أؤمن ليست هناك جهة في العالم لديها ذات الحقائق التي تستطيع ان تعطي الحكم الصحيح كما هو الحال مع العراقيين .

أما لماذا أوعز بنشره ، ، فلكي أبين للعراقيين كيف يفكر الاعداء وما يتمنونه للعراق وأي نهج كاذب يعتمدون ، مثلما أوضح للاعداء ان دعاياتهم وادعاءاتهم اوهى من أن تخدع العراقيين .





ســــؤال

هناك مفهوم أهل الثقة وأهل الخبرة ، ، يبرز مع ظروف بناء الدولة واهل الثقة هم انصار المنهج السياسي القائم ، ، واهل الخبرة يراد به اصحاب الاختصاص .

أين صدام حسين من هذين المفهومين وفي حالة تعارضهما ، ، كيف يكون الخيار وما هي مبررات الانحياز ؟

السيد الرئيس

على ما تذكر ، ، وحتما تذكر بأنني قلت رأيي في هذا الموضوع في اكثر من مناسبة ، ، في بداية الثورة لا بد ان يكون الاعتماد على اهل الثقة ، ، في الوقت الذي لا نستبعد اهل الخبرة كأستشاريين ، ، خاصة في الحقول الفنية وليس في الحقول السياسية ، ، ولكن في كل الاحوال ينبغي الا يقود اهل الخبرة اهل الثقة الا عندما تتطابق الصفات في شخصية واحدة ، ، اي الخبرة والثقة ، ، ولكن الان وبعد مضي (١٨) عاما على الثورة فقد اعطيت لاهل الثقة الفرصة الكافية لكي تتكون لهم الخبرة ، ، ولذلك لا يجوز بعد الان ، ، أن نقول هل يتقدم اهل الثقة على اهل الخبرة أم يتأخرون ؟

انما الشيء المطلوب هو أن تتوفر الخبرة مع الثقة في موقع واحد ، ، وعندما تتخلف الخبرة في موقع الثقة ، ، ينبغي ان تأتي بمن هم بنفس المستوى من الثقة مع مستوى اعلى من الخبرة ، ، والا اصيبت المسيرة بأنتكاسة ، ، والمسيرة تصاب بأنتكاسة في حالتين ، ، في حالة الاعتماد على اهل الثقة بدون صفة الخبرة ، ، وفي حالة الاعتماد على اهل الخبرة بدون اشتراط صفة الثقة .

ســــؤال

في الدولة التي تخضع الى حكم الحزب القائد او الحزب الواحد ، ، تبرز حاجة الدولة اكثر الى اجهزة الامن القومي ، ، وموضوعيا يزداد التوسع فيها ويكون لها حضور اكثر ، ، بحكم تزايد احتمالات التآمر وتوسع الهجمة المضادة وتنوع اساليبها ، ، هذه حقيقة تقابلها حقيقة مقابلة ، ، وهي ان هذه الاجهزة قد تتحول

الى مراكز للقوة بدلا من ان تكون قوة للمركز.

ما هي نظرة القائد الى ذلك وكيف امكنه تجنب مثل هذه المخاطر ، وما الذي يعنيه عنده مفهوم دولة المخابرات وما يريده من مخابرات الدولة وعموم اجهزتها الامنية ؟

السيد الرئيس

ابتداء مراكز القوى لا تتكون كأحتمال داخل الاجهزة الخاصة فقط ، ، وانما ممكن ان توجد في عموم اجهزة الدولة ، ، ولكي لا توجد ينبغي ان يكون الوضوح كافياً امام الشعب وأن تكون أجهزة الدولة عموما والاجهزة الخاصة منها شفافة أمام مركز القيادة بما فيه الكفاية ، ، وأن تكون الواجبات والصلاحيات محددة .

وبالنسبة الى الاجهزة الخاصة ، في الوقت الذي تتطلب طبيعة واجباتها اطاراً اكثر مرونة في استخدام الصلاحيات ، فالواجب يقتضي ان تكون الصلاحيات واضحة الى حد التفاصيل.

والمدخل الاساسي لمنع الانحراف ، هو بالاضافة الى ما ذكرنا هو مبدئية العاملين والرقابة المستمرة عليهم والتوعية المستمرة لهم .

وفي كل الاحوال ، في الوقت الذي تنغلق فيه منافذ الاجهزة الخاصة عن مستويات معينة في الدولة ، ، يجب ان تكون مفتوحة هذه النوافذ امام القيادة بلا غموض ، ، وعند ذلك ستكون وسيلة قوة بيد القيادة بدلا من ان تكون وسيلة قوة عليها ، ، وتكون مركزاً من مراكز المناضلين في اختصاصهم ، ، الى جانب مراكز المناضلين الآخرين ، ليس الا . .

أن الخطر يكون حين تتحول هذه الاجهزة الى مركز للقوة خارج سلطة القرار المركزي والمبادئ ، ، وعند ذلك تكون جيبا خطيرا وتتحول قوتها ، ، من قوة للمبادئ الى قوة للقمع .

اذن نحن بقدر وعينا لهذه الحقيقة ، ، وادراكنا لما اسلفنا بالحديث عنه ، ، نمنع تحول الاجهزة الخاصة الى اجهزة قمعية لاننا نظام ثوري تمرد مناضلوه على الارهاب وفجروا الثورة نقيضا له .

وهكذا فنحن نريد هذه الاجهزة لحماية أمن الثورة ووقاية المسيرة من قوى الردة والتخريب .

ولهذا ارى ان مفهوم دولة المخابرات الذي نجده متداولا وشائعا في تجارب كثيرة من تجارب العالم الثالث ، ، يتنحى عندنا لصالح دولة الشعب التي يقودها الحزب معتمدا على مؤسساته المتعددة ومنها مؤسسة المخابرات وعموم الاجهزة الخاصة .
وعليه يكون التركيز على هذه الاجهزة قدر تعلق الامر بأختصاصاتها مثل ما هو ذلك شأننا في التركيز على بقية اجهزة الدولة لتمكينها من تأدية واجباتها بصورة جيدة .
وهكذا نسقط من عملنا ميلين خاطئين الاول يركز استثناء على الاجهزة الخاصنة للخدود التي يجعل منها «بعبعا» يخيف الجماهير او ان يخلق منها جدارا بين الدولة والشعب . والثاني ان يغرق في نوع من الرومانسية الثورية التي تتحسس من وجود هذه الاجهزة للحد الذي تطالب فيه بألغائها .
ويقيني ان كلا الميلين خاطئ ومدمر ، ، وهو امر نتجنبه ، ، لاننا نريد ان نبني دولة المبادئ ولا يمكن تصورها مع «دولة المخابرات» مثلما لا يمكن حمايتها ، ، كما يجب من دون اجهزة المخابرات التي هي مؤسسة ثورية ضمن مؤسسات الحزب وأن منتسبوها مناضلون من ابناء الحزب .

ســـــؤال

صـــــدام حســــين هو في الاول والاخير انسان ، ، بغض النظر عن موقعه في الدولة .
والانسان له عقل ومشاعر ، وهو يحب ويكره ، هل أثرت عواطفه في التصرف بواقع الدولة ؟ ثم ان الانسان يمر بحالات للتوتر وهو يغضب من امور ، ، فكيف تتصرفون في حالات الضيق والانزعاج ؟

السيد الرئيس
كنت دائما اسأل نفسي . . هل يسبق العقل الضمير أم الضمير يسبق العقل . . ؟
وتوصلت الى اجابة واضحة ، ، انه بالنسبة لي على الاقل ، ، أنا ارجح الضمير على

العقل . . ودليلي في هذا ، ، أن العقل قد يستخدم للخبث ، عندما يكون غير مرتكز على ضمير حي ، واساس القيادة ليس القدرة الفعلية فحسب ، ، وانما القدرة العقلية المتصلة بهديها ، ، وان هاديها هو الضمير الحي ، ، فالذي يكشف الطريق للعقل هو الضمير ، ، والذي يوازن الفعل الانساني المتصل بعاطفة مشروعة ، هو الحكمة الصادرة عن العقل ، ، وامام هذا المفهوم لا يمكن ان يكون اي فعل من افعالي في الدولة الا وينطلق من هذه المفاهيم . ولذلك فأي تصرف لا بد ان يكون تصرفاً انسانياً لذلك ليس بأمكاني ان اقول ان عواطفي كأنسان ، ، لا تتأثر او تؤثر من خلال موقعي الرسمي ، ، ولكن في نفس الوقت لا أرى أن عواطفي كأنسان تنقل بكاملها الى اي فعل من افعال الدولة وتصرفاتها ، ، اي ان نظرتي الانسانية العاطفية الى اي تصرف في الدولة ، ، ليست نظرة شخصية ، ، وانما نظرة مسؤولة ، ، ورغم ان هذا أمر طبيعي ولكن اعني بذلك ان المسؤولية تحضر امامي عندما اكون في أية حالة عاطفية .

وعندما أغضب كما ورد في سؤالكم ، ، فأني أؤجل الفعل المطلوب الى يوم أو ساعات أخرى ، ، وهذا معروف عند رفاقي في القيادة ، ، لكي افحص رد الفعل المطلوب كما يجب .

وينتهي اللقاء

مع النهاية تكون خاتمة الكتاب ، ، لكن كلمة الحق تقتضي الاشارة الى من كانوا اصحاب الفضل في هذا المجال

وكلمة الحق أمانة مع النفس ومع الاخرين

الفصل التاسع

لماذا الكتاب
ولمن الفصل !؟

كلمة لا بد منها

قبل هذا الكتاب عن القائد . .

كان كتاب سبق وأصدرته في عام ١٩٨٣ ، ، كان بعنوان – صــــدام حســـين . . الرجل والقائد –

والأشارة . .

مطلوبة وضرورية ، ، لأن كلا منهما يكمل الآخر ويضيف اليه عن حياة ونضال ومواقف القائد صدام حسين .

والكتاب الأول كان بـ ٤٢٠ صفحة تناول ، ، حياة القائد ومسيرته في تسعة فصول كانت على التوالي .

السيرة والهوية ، ، قيادة صـــدام حســـين الخواص والضرورة ، ، نظرية العمل الثوري ، ، القائد والجيش ، ، القائد والمعركة ، ، الزيارات الميدانية ، ، الرؤية القومية ، ، النظرة الدولية ، ، مواقف ومواقف . . .

واعتـــرف

أن حق البطل الرائد في الكتاب المذكور ، ، كان يضغط عليّ لأصدار كتاب آخر أستكمل فيه الرؤية المطلوبة عن حياته الزاخرة بالكثير .

ومن لحظتها . . .

راودتني الفكرة في أن أواصل السير على طريق الكتابة عن القائد ، ، لكن ذلك الطريق كان بحاجة الى من يدفعني اليه ويشجعني للدخول الى عالمه المطلوب . .

وللأنصاف . . .

كان التشجيع من أصحاب النفوس الكبيرة ، ، وهي نفوس تجد أصواتها في أعماقي أصداء تفوق غيرها ، ، وتستقر في وجداني أكثر من سواها . . ! !

وكان صاحب الفضل الأول . .

القائد المؤسس الرفيق الكبير أمين عام الحزب الأستاذ ميشيل عفلق ، ، لأنه كان أول من أتصل بي هاتفياً بعد أهدائي له الكتاب ، ، مثمناً أياه ومباركاً جهودي فيه ، ، بكلمات كانت عندي وساماً أعتز به وأفتخر فيه . .

وقتها . .

لم أمتلك مشاعري ، ، وهو أمر دفعني الى الكتابة له في «يوميات جريدة الثورة» بتأريخ ١٩٨٣/٧/٢٣ أرفق أدناه نصف ما كتبت[١] .

وكان صاحب الفضل الآخر . .

المفكر العربي المعروف الرفيق الدكتور الياس فرح ، ، الذي رد على أهدائي الكتاب اليه برسالة يحق لمن يتلق مثلها التباهي ، ، ليس لانها صادرة من رفيق عزيز أحب فحسب ، ، بل لكونها شهادة من رجل ، ، قدير ومنصف وكبير . .

ومثل هذه الشهادة . .

يكون من حقي ضمها الى هذا الكتاب ، ، وأدناه نصها الكامل مع صورتها بالزنكراف[٢] .

آمل بعد ذلك . . أن أكون قد وفقت في كتابي – قائد وتأريخ – كما كان ذلك بالنسبة الى كتابي الأول – الرجل والقائد – من خلال تثمين شهادة أصحاب النفوس الكبيرة .

ويقيني الآخر . . نفاد كتابي الأول بعد أصداره بأيام ، ، وهو دليل أعتز فيه ويدعوني الى أن أوجه الشكر الى القراء الأعزاء . وبعون الله يكون لي . .

بعد الجهود التي أثمرت – الرجل والقائد – و – قائد وتأريخ – غيرها من الجهود على طريق الكتابة عن القائد العظيم .

ومن الله التـــــوفيق . .

(١) أدناه نص ما كتبته بجريدة الثورة في ١٩٨٣/٧/٢٣ بعد أتصال القائد المؤسس الرفيق ميشيل عفلق مثمناً كتاب «صدام حسين الرجل والقائد»

يوميات الثورة

الى الأستاذ ميشيل عفلق

يكتبها : صباح سلمان

بين الأوائل الذين أهديت لهم كتابي الجديد «صـــدام حســـين ، ، الرجل والقائد» كان الأستاذ الكبير القائد المؤسس الرفيق ميشيل عفلق . .

وكنت وأنا أرفع لمقامه الكبير، أصداري الجديد ، ، أخط عبارات الأهداء ، ومشاعر من الحب والخوف تلازم الكلمات والحروف ، فالكتابة الى الأستاذ الكبير، تظل فرحاً مثلما تظل قلقا . . فرحا لانها تخاطب نقاء الرجولة وصفاء الافكار . . وقلقاً أن لا ترق الكلمات الى حقيقة الرجل الكبير ، وتأريخه الكبير ، ومعانيه الكبيرة . .

وكانت عبارات الأهداء ، ، من القلب أنتزعتها كلمة كلمة ، ، ومن الجوارح أخرجتها حرفاً حرفاً . . وفيها للرجل الكبير ما يستحق ، ، وأمنيات ودعوات بالصحة الدائمة والعمر الطويل ، ، وكان شفيعي في ما كتبته ، ، أن كلمات القلب مقبولة على الدوام .

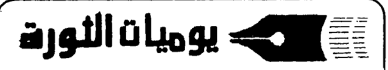
أعرف أن الرجال العظماء ، ليسوا كباراً بالأفكار التي يصوغون فقط وأنما هم كذلك بالسلوك الذي يقدمون ، ، والأستاذ ميشيل عفلق أفكاره كبيرة وممارساته كبيرة ، ، ولذلك كان على الهاتف يتصل بي ، ، ويتحدث الرجل ، ، مقدراً الكتاب الجديد ومثمناً ومتابعاً لما أكتب ، ، مع كلمات تظل معي حتى آخر العمر ، ، موضع ثقة وأعتزاز ، ، وشهادة فخر غالية . .

أيها القلم ، ، أعرف أنك تخشى أن يخونك التعبير بما هو مطلوب بحق الرجل الحق ، ، وأدري أنك ترجف من كلمات تخطها خوفاً الا تصوغها كما ينبغي ، ، لكني أعرف أن الكلمات الصادقة النابعة من الأعماق ، ، هي أكثر ما يحبها الأستاذ الكبير ، ، وأن صدر القائد المؤسس رحب كبير يستوعب الذي تكتبه ، ، لأن البحر يظل رغم سعته لا يتضايق من روافد الأنهار مهما كانت شحيحة ، ، ومن قطرات المطر مهما كانت ضئيلة . .

أيها الكبير ، ، فضلك الأكبر ، ، أنك هديت جيلاً بأكمله يوم فتحت العيون ، ، وعلمتنا «القدر المحبب» وزرعت في أفكارنا «الحب والرسالة» وكان «في سبيل البعث» الحليب الأول الذي رضعناه و «معركة المصير الواحد» ذخيرتنا في ساحات النضال ، وكنت لنا وما تزال نعم المربي الفاضل الكبير.

أيها المعلم الكبير ، ، موقعك في القلوب والأفكار والعواطف ، وأراؤك في الضمائر والوجدان ، ، ، وأسمك في حياتنا علم خفاق ومصدر دائم للثقة والتفاؤل والأشراق ودليل على خصب هذه الأمة وشبابها الذي لا يشيخ . .

أسلم أيها الحبيب الكبير.



الى الاستاذ ميشيل عفلق

يكتبها : صباح سلمان

بين الاوائل الذين اهديت لهم كتابي الجديد ، صدام حسين ،، الرجل والقائد ، كان الاستاذ الكبير القائد المؤسس الرفيق ميشيل عفلق ..

وكنت وانا ارفع لمقامه الكبير ،، اصداري الجديد ،، اخط عبارات الاهداء ،، ومشاعر من الحب والخوف تلازم الكلمات والحروف ،، فالكتابة الى الاستاذ الكبير ،، تظل فرحا مثلما تظل قلقا ،، فرحا لانها تخاطب نقاء الرجولة وصفاء الافكار ،، وقلقا الا ترقى الكلمات الى حقيقة الرجل الكبير ، وتاريخه الكبير ، ومعانيه الكبيرة ..

وكانت عبارات الاهداء ،، من القلب انتزعتها كلمة كلمة ،، ومن الجوارح اخرجتها حرفا حرفا ،، وفيها للرجل الكبير مايستحق ،، وامنيات ودعوات بالصحة الدائمة والعمر الطويل ،، وكان شفيعي في ماكتبته ،، ان كلمات القلب مقبولة على الدوام ..

اعرف ان الرجال العظماء ، ليسوا كبارا بالافكار التي يصوغون فقط وانما هم كذلك بالسلوك الذي يقدمون ،، والاستاذ ميشيل عفلق افكاره كبيرة وممارساته كبيرة ،، ولذلك كان على الهاتف يتصل بي ،، ويتحدث الرجل ،، مقدرا الكتاب الجديد ومثمنا ومتابعا لما اكتب ،، مع كلمات تظل معي حتى اخر العمر ،، موضع ثقة واعتزاز ،، وشهادة فخر غالية ..

ايها القلم ،، اعرف انك تخشى ان يخونك التعبير بما هو مطلوب بحق الرجل الحق ،، وادري انك ترجف من كلمات تخطها خوفا الا تصوغها كما ينبغي ،، لكني اعرف ان الكلمات الصادقة النابعة من الاعماق ،، هي اكثر مايحبها الاستاذ الكبير ،، وان صدر القائد المؤسس رحب كبير يستوعب الذي تكتبه ،، لان البحر يظل رغم سعته لايتضايق من روافد الانهار مهما كانت شحيحة ، ومن قطرات المطر مهما كانت ضئيلة ..

ايها الكبير ،، فضلك الاكبر ،، انك هديت جيلا باكمله يوم فتحت العيون ،، وعلمتنا ، القدر المحبب ، وزرعت في افكارنا ، الحب والرسالة ، وكان ، في سبيل البعث ، الحليب الاول الذي رضعناه و ، معركة المصير الواحد ، ذخيرتنا في ساحات النضال ،، وكنت لنا ومانزال نعم المربي الفاضل الكبير ..

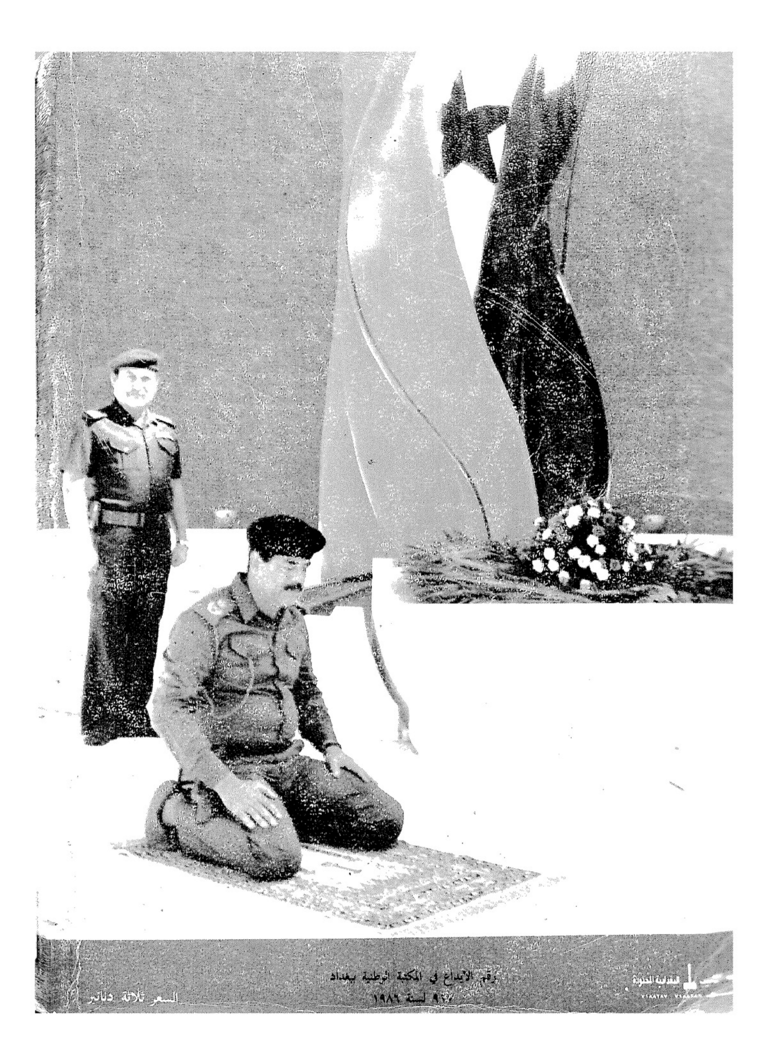
ايها المعلم الكبير ،، موقعك في القلوب والافكار والعواطف ،، وأراؤك في الضمائر والوجدان ،، واسمك في حياتنا علم خفاق ومصدر دائم للثقة والتفاؤل والاشراق ودليل على خصب هذه الامة وشبابها الذي لايشيخ ..

اسلم ايها الحبيب الكبير ..

الفهرست

للمؤلف

١ – العمل النضالي والواقعية الثورية
٢ – في السلوك الثوري
٣ – الثورة والديمقراطية
٤ – في الأشتراكية
٥ – الثورة والمؤامرة
٦ – من قضايا الأستراتيجية والتكتيك
٧ – أضواء على الحرب العراقية الأيرانية
٨ – كيف السبيل الى الديمقراطية
٩ – قادسية صدام ، أدلة ومؤشرات
١٠ – صدام حسين الرجل والقائد



رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٢٧ لسنة ١٩٨٦

السعر ثلاثة دنانير